

الجمهورية العربية السورية

في عصور العرب في الزاهرة

الجزء الثالث

العصر العباسي الأول

ويليه ذيل الجمهورية

تأليف

أحمد زكي صفوت

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقا

المكتبة العلمية

ببغداد - لبنان



تصدير

الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمدك اللهم وقتنتي إلى إمام ما بدأت ، فلك الشكر والمنة في البدء والنهاية ،
وأصلى وأسلم على خاتم رسلك ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وبعد : فهذا ثالث الأجزاء من « جمهرة خطب الغرب » في خطب العصر العباسي
الأول ، وهو على نسق سابقه ضبطاً وتحريراً ، وشرحا وتعليقا ، ويليه ذيل الجمهرة ،
في خمسة أبواب من الخطب :

الباب الأول : في خطب الأندلسيين والمغاربة .

» الثاني : في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها .

» الثالث : في نثر الأعراب .

» الرابع : في خطب النكاح .

» الخامس : في خطب من أرتج عليهم ، ونوادير طريفة لبعض الخطباء .

وبذا تم ما قصدت إلى جمعه في هذا المؤلف ، وإني أتهدى إلى المولى القدير أن يحقق
مارجوته من استفادة قارئيه به ، وأن يسد خطانا جميعا إلى سبيل الرشاد ،
إنه الكبير المتعال ؟

أحمد زكي صفوت

حرر بالقاهرة في { مارس سنة ١٩٣٤ م
في القعدة سنة ١٣٥٢ هـ

فهرس

مآخذ الخطب في هذا الجزء

- الأمالى : لأبى على القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
- الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : « التاسع
- صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : « الأول - التاسع
- سهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : « السادس
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
- الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول
- المقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
- زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرى : « الأول - الثانى - الثالث
- البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
- شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد : المجلد الأول - الثانى
- أمالى السيد المرتضى : « الأول - الرابع
- مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى : « الأول
- تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى : « التاسع - العاشر
- تاريخ الكامل : لابن الأثير : « السادس
- سروج الذهب : للمسعودى : « الثانى
- وفيات الأعيان : لابن خلكان : « الأول - الثانى

مواسم الأدب: للسيد جعفر البيهقي العلوي : الجزء الثاني

الصناعتين : لأبي هلال العسكري

مقدمة ابن خلدون

المنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى



الباب الرابع

الخطبة والبوصايا

في

العصر العباسي الأول

١ - خطبة أبي العباس السفاح وقد بويع بالخلافة

(توفي سنة ١٣٦ هـ)

صعد أبو العباس^(١) السفاح المنبر حين بويع له بالخلافة ، فقام في أعلاه ، وصعد
عنه داود بن عليّ فقام دونه ، وتسكلم أبو العباس ، قال :

« الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تَكْرِمَةً ، وَشَرَفَهُ وَعَظَّمَهُ ، واختاره لنا
وأيدته بنا ، وجعلنا أهله وَكَهْفَهُ^(٢) وَحِصْنَهُ ، وَالْقَوَامَ بِهِ ، وَالذَّابِّينَ عَنْهُ ، وَالنَّاصِرِينَ لَهُ ،
وَالزَّمَنَا كَلِمَةَ التَّقْوَى ، وَجَعَلْنَا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَخَصَّنَا بِرَحْمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

(١) هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أول الخلفاء العباسيين ، بويع

(٢) السكھف : الوزر والملجأ .

عليه وسلم وقرابته، وأنشأنا من آباءه، وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبتته^(١)،
جملة من أنفسنا عزيزاً عليه ما عتدنا^(٢)، حريصاً علينا، بالمؤمنين رءوفاً رحيماً،
ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى
عليهم، فقال عزّ من قائل فيما أنزل من مُحْكَمِ الْقُرْآنِ: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنكُمُ الرِّجْسَ^(٣) أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» وقال: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا إِلَّا الْوَدْعَةَ فِي الْقُرْبَى»، وقال «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» وقال: «مَا آفَاءَ^(٤)
اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى»، وقال:
«وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى» فأعلمهم
جل ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من النية^(٥) والغنيمة نصيبنا،
تكرمة لنا، وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم.

وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا^(٦) أحقُّ بالرياسة والخلافة منا، فشاهت^(٧)
وجوههم! ييم ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالهم، وبصرهم بعد
جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، وأدخض بنا الباطل، وأصلح بنا
منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخبيسة، وأتم بنا النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس
بعد العداوة أهلَ تعاطف وبرٍّ، ومواساة في دينهم وديناهم، وإخواناً على سُرُرٍ متقابلين
في آخرتهم، فتح الله ذلك مِنةً وَمِنحةً لمحمد صلى الله عليه وسلم، فلما قبضه الله إليه قام
بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فحوروا مواريث الأمم، فعدلوا فيها،

(١) النبع في الأصل: شجر للنسي والسهام.

(٢) العنت بالتحريك: دخول المشقة على الإنسان.

(٣) القدر، وكل ما استقدر من العمل.

(٤) ما أعاده عليه أى صيره له.

(٥) الغنيمة.

(٦) يريد العلويين.

(٧) شاه وجهه شوها بالفتح: قبح.

وَوَضَعُوا مَوَاضِعَهَا ، وَأَعْطَوْهَا أَهْلَهَا ، وَخَرَجُوا خِصَاصًا^(١) مِنْهَا ، ثُمَّ وَثَبَ بَنُو حَرْبٍ وَمَرْوَانَ فَايْتَزُّوْهَا وَتَدَاوَلُوهَا بَيْنَهُمْ ، فَجَارُوا فِيهَا ، وَاسْتَأْثَرُوا بِهَا ، وَظَلَمُوا أَهْلَهَا ، فَأَمَلَى^(٢) اللَّهُ لَهُمْ حِينًا حَتَّى آسَفُوهُ^(٣) ، فَلَمَّا آسَفُوهُ انْتَقَمَ مِنْهُمْ بِأَيْدِينَا ، وَرَدَّ عَلَيْنَا حَقَّنَا ، وَتَدَارَكَ بَنَاءَ أُمَّتِنَا ، وَوَلَّى نَصْرَنَا وَالْقِيَامَ بِأَمْرِنَا ، لِيُؤْمِنَ بِنَا عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ ، وَخَتَمَ بِنَا كَمَا افْتَتَحَ بِنَا ، وَإِنِّي لِأَرْجُو إِلَّا يَأْتِيَكُمُ الْجُورُ مِنْ حَيْثُ أَتَاكُمْ الْخَيْرُ ، وَلَا الْفَسَادُ مِنْ حَيْثُ جَاءَكُمْ الصَّلَاحُ ، وَمَا تَوْفِيقُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ إِلَّا بِاللَّهِ .

يَأْهَلِ الْكُوفَةَ ، أَنْتُمْ مَحَلٌّ مَحَبَّتِنَا ، وَمَنْزِلٌ مَوْدَّتِنَا ، أَنْتُمْ الَّذِينَ لَمْ تَتَغَيَّرُوا عَنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَتَّيَسَّرْ لَكُمْ عَنْ ذَلِكَ تَحَامُلُ أَهْلِ الْجُورِ عَلَيْكُمْ ، حَتَّى أَدْرَكْتُمْ زَمَانَنَا ، وَأَتَاكُمْ اللَّهُ بِدَوْلَتِنَا ، فَأَنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِنَا ، وَأَكْرَمَهُمْ عَلَيْنَا ، وَقَدْ زِدْتُمْ فِي أُعْطِيَاتِكُمْ مِائَةَ دَرَاهِمٍ ، فَاسْتَعْمَدُوا ، فَأَنَا السَّفَاحُ الْمُبِيحُ ، وَالتَّائِثُ الْمُبِيرُ^(٤) .

وَكَانَ مَوْعُوكَا فَاشْتَدَّ بِهِ الْوَعْكَ^(٥) ، فَجَلَسَ عَلَى الْمَنْبَرِ ، وَصَعِدَ دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ ، فَقَامَ دُونَهُ عَلَى مَرَاقِي^(٦) الْمَنْبَرِ ، فَقَالَ :

(تاريخ الطبري ٩ : ١٢٥ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٣)

٢ - خطبة داود بن عليّ

« الحمد لله ، شُكْرًا شُكْرًا شُكْرًا ، الَّذِي أَهْلَكَ عَدُونَنَا ، وَأَصَارَ إِلَيْنَا مِيرَاثَنَا مِنْ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَيُّهَا النَّاسُ : الْآنَ أَقْشَعَتْ^(٧) حَنَادِسُ الدُّنْيَا ، وَانْكَشَفَ

(١) جباعا جمع خبيص من خص البطن مثله الميم أي خلا ، والمخيسة : الجماعة ، وهو خصان بالضم ، وخبيص الحشا : ضامر البطن . (٢) أمهاتهم . (٣) أغضبوه . (٤) أباره : أهلكه . (٥) الوعك : أذى الحمى ووجعها ، وأنم من شدة التعب . (٦) جمع مرقاة بفتح الميم وكسرهما . (٧) قشعت الريح السحاب : كشفته كأقشعته فأقشع وانقشع وقشع ، والحنادس جمع حندس بكسر الحاء والدال وهو الظلمة .

غَطَاوْهَا ، وَأَشْرَقَتْ أَرْضَهَا وَسَمَاوْهَا ، وَطَلَمَتْ الشَّمْسُ مِنْ مَطْلَمِهَا وَبَزَغَ الْقَمَرُ مِنْ مَبْزَغِهِ ، وَأَخَذَ الْقَوْسَ بَارِيهَا ، وَعَادَ السَّهْمَ إِلَى النَّزْعَةِ^(١) . وَرَجَعَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ^(٢) ، فِي أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ ، أَهْلِ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ بِكُمْ وَالْمُطَفِّ عَلَيْكُمْ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا وَاللَّهِ مَا خَرَجْنَا فِي طَلَبِ هَذَا الْأَمْرِ لِنُسَكِّرَ لُجَيْنًا ، وَلَا عَقِيَانًا^(٣) ، وَلَا نَحْفِرَ نَهْرًا ، وَلَا نَبْنِي قَصْرًا ، وَإِنَّمَا أَخْرَجْنَا الْأَنْفُةَ مِنْ ابْتِزَامِ حَقِّهَا ، وَالغَضَبُ لِبَنِي عَمْنَا ، وَمَا كَرَّثْنَا^(٤) مِنْ أُمُورِكُمْ ، وَبِهَظَّنَا مِنْ شَتُونِكُمْ ، وَلَقَدْ كَانَتْ أُمُورُكُمْ تُرْمِضُنَا^(٥) وَنَحْنُ عَلَى فُرْشِنَا ، وَنِشْتَدُّ عَلَيْهَا سُوءَ سِيرَةِ بَنِي أُمِيَّةَ فِيكُمْ ، وَخَرَقْتَهُمْ بِكُمْ ، وَاسْتَدْلَاهُمْ لَكُمْ ، وَاسْتَنَارَهُمْ بِفَيْثِكُمْ وَصِدْقَاتِكُمْ وَمَعَانِيكُمْ عَلَيْكُمْ ، لَكُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَذِمَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذِمَّةُ الْعَبَّاسِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ نَحْكُمَ فِيكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَنَعْمَلُ فِيكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَنَسِيرَ فِي الْعَامَّةِ مِنْكُمْ وَالْخَاصَّةِ بِسِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، تَبًّا تَبًّا لِبَنِي حَرْبِ بْنِ أُمِيَّةَ وَبَنِي مَرْوَانَ ، آثَرُوا فِي مَدِينَتِهِمْ وَعَصَرَهُمُ الْعَاجِلَةَ عَلَى الْآجِلَةِ ، وَالِدَارَ الْفَانِيَةَ عَلَى الدَّارِ الْبَاقِيَةِ ، فَرَكِبُوا الْأَنْثَامَ ، وَظَلَمُوا الْأَنْثَامَ ، وَانْتَهَكُوا الْحَرَامَ ، وَغَشَّوْا الْجُرَائِمَ ، وَجَارَوْا فِي سِيرَتِهِمْ فِي الْعِبَادِ ، وَسَتَّتَهُمْ فِي الْبِلَادِ ، الَّتِي بِهَا اسْتَلْدُوا تَسْرُؤَ بِلِ الْأَوْزَارِ ، وَتَجَلَّبَبَ الْأَصَارِ^(٦) ، وَمَرَّحَوْا فِي أَعْيُنِ الْعَاصِي ، وَرَكَضُوا فِي مِيَادِينِ الْغَيِّ ، جَهْلًا بِاسْتِدْرَاجِ اللَّهِ ، وَأُمْنًا لِمَكْرِ اللَّهِ ، فَأَتَاهُمْ بِأَسْرِ اللَّهِ بَيِّنَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ، فَأَصْبَحُوا أَحَادِيثَ ، وَمُنْزَقُوا كُلُّ مُنْزَقٍ ، فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَأَدَانَا^(٧) اللَّهُ مِنْ مَرْوَانَ ، وَقَدْ غَرَّهَ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ، أُرْسِلَ لِعَدُوِّ اللَّهِ فِي عَيْنَانِهِ ، حَتَّى عَثَرَ فِي فَضْلِ خِطَامِهِ ، فَظَنَّ عَدُوُّ اللَّهِ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنَادَى حَزْبَهُ ، وَجَمَعَ مَكَايِدَهُ ، وَرَمَى بِكِتَابَتَيْهِ ، فَوَجَدَ أَمَامَهُ وَوَرَاءَهُ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، مِنْ مَكْرِ اللَّهِ وَبِأَسِهِ

(١) جمع نازع: وهو الرامي يشد الوتر إليه ليضع فيه السهم، وصار الأمر إلى النزعة أي قام بإصلاحه أهل الأناة، وعاد السهم إلى النزعة: رجع الحق إلى أهله. (٢) أصله. (٣) ذهباً. (٤) كثره القوم كضرب ونصر: اشتد عليه كأكثره. (٥) أرمضه: أوجهه وأحرقه، وأرمض الحر القوم: اشتد عليهم فأذاهم. (٦) جمع إصر كحمل وهو الذنب. (٧) نصرنا عليه.

ونِقْمَتِه ، ما أمات باطله ، وَتَحَقَّ ضلاله ، وجعل دائرة السوء به ، وأحيا شرفنا وعزنا ، وردَّ إلينا حقنا وإزتنا .

أيها الناس ، إن أمير المؤمنين - نصره الله نصراً عزيزاً - إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة ، أنه كره^(١) أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعهُ عن استتمام الكلام بعد أن أسخَّنفر^(٢) فيه شدة الوغك ، وادعوا الله لأمر المؤمنين بالعاية ، فقد أبدلكم الله بمروانٍ عدوِّ الرحمن ، وخليفة الشيطان ، المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، بإبدال الدين ، وانتهاك حريم المسامين ، الشاب^(٣) المتكهل المتهمل ، المقتدى بسفاه الأبرار الأخيار ، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بعالم الهدى ، ومناهج التقوى « - فعمجَّ الناس له بللداء - ثم قال :

« يا أهل الكوفة : إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج^(٤) بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه تتشوقون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبَيْض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام ، ومَنَّ عليكم بإمام متحهُ المدالَّة ، وأعطاه حسن الإيالة^(٥) ، فخذوا ما آتاكم الله بشكر ، والزمو طاعتنا ، ولا تتحدَّعوا عن أنفسكم ، فإن الأمر أمركم ، فإن لكل أهل بيت مصراً ، وإنكم مصرنا ، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد - وأشار بيده إلى أبي العباس - فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا ، حتى نسلمهُ إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه ، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا . »

(تاريخ الطاهري ٩ : ١٢٦ ، وشرح ابن أبي الهيثم ٢ : ص ٢١٢)

(١) أي لأنه كره . (٢) اسخَّنفر الخطيب : اتسع في كلامه . (٣) كانت سنة

حين ولي الخلافة ٢٨ سنة إذ ولد سنة ١٠٤ هـ . (٤) نصر . (٥) آل الملك وعيته إيالا :

ساسهم ، وآل علي القوم إيالا وإيالة : ولي .

٣ - خطبة داود بن علي - وقد أرتج على السفاح

وروى أنه لما قام أبو العباس في أول خلافته على المنبر، قام بوجه كورقة المصحف فاستحيا فلم يتكلم، فمهص داود بن علي حتى صعد المنبر، فقال المنصور: فقلت في نفسي: شيخنا وكبيرنا ويدعو إلى نفسه، فلا يختلف عليه اثنان، فانتضيت سيفي، وغطيته بثوبي^(١)، وقلت: إن فعل ناجزته، فلما رقي عتبا استقبال الناس بوجه دون أبي العباس، ثم قال: «أيها الناس، إن أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قوله فعله، ولأثر الفاعل أجدي عليكم من تشقيق^(٢) المقال، وحسبكم بكتاب الله ممتثلاً^(٣) فيكم، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم خليفة عليكم، والله - كما برأ لا أريد به إلا الله - ما قام هذا المقام أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق به من علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين هذا، فليظن ظانكم، وليهمس هامسكم» قال أبو جعفر: ثم نزل، وشمتم^(٤) سيفي.

(عيون الأخبار ٢ م : ٢ ص ٢٥٢، وشرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٣، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

٤ - خطبة أخرى له

وروى السيد المرتضى في أماليه قال :

أراد أبو العباس السفاح يوماً أن يتكلم بأمر من الأمور بعد ما أفضت الخلافة إليه - وكان فيه حياة مفترط - فأرتج عليه، فقال داود بن علي بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

«أيها الناس، إن أمير المؤمنين الذي قلده الله سياسة رعيته، عُقل من لسانه،

(١) في عيون الأخبار : « وغطيت ثوبي » وهو تحريف . (٢) شقق الكلام : أخرجه أحسن

خرج . (٣) امتثل طريقته : تبعها فلم يعدها . (٤) شام سيفه يشيمه : غنمه (واستله أيضاً : ضد) .

عند ما يُعْهَدُ مِنْ بَيَّانِهِ ، وَلِكُلِّ مَرْتَقٍ مُبْهَرٍ^(١) ، حَتَّى تَنْفَسَهُ الْعَادَاتُ ، فَأُبَشِّرُوا
بِنِعْمَةِ اللَّهِ فِي صَلَاحِ دِينِكُمْ ، وَرَعْدُ عَيْشِكُمْ . (الملك السعيد المرتضى : ٤ : ١٩)

٥ - خُطْبَةٌ أُخْرَى لِلسِّفَاحِ بِالْكُوفَةِ

وخطب السفاح في الجمعة الثانية بالكوفة ، فقال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » وَاللَّهُ لَا أَعِدُّكُمْ شَيْئًا إِلَّا وَفَيْتَ بِالْوَعْدِ ،
وَالْوَعِيدِ ، وَلَا تُعْمَلَنَّ اللَّيْنُ حَتَّى لَا تَنْفَعُ إِلَّا الشَّدَّةَ ، وَلَا تُغْنِدَنَّ السِّيفُ إِلَّا فِي إِقَامَةِ حَدِّ ،
أَوْ بُلُوغِ حَقِّ ، وَلَا تُعْطِيَنَّكُمْ حَتَّى أَرَى الْعَطِيَّةَ ضَيَاعًا ، إِنْ أَهْلَ بَيْتِ الْعِنَةِ وَالشَّجَرَةِ^(٢)
لِلْمَلْعُونَةِ فِي الْقُرْآنِ ، كَانُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ، لَا يَرْجِعُونَ مَعَكُمْ مِنْ حَالَةٍ إِلَّا إِلَى مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهَا ،
وَلَا يَبْلِي عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ وَالٍ إِلَّا تَمَنِّيَةً مَنْ كَانَ قَبْلَهُ ، وَإِنْ كَانَ لِأَخِيرٍ فِي جَمِيعِهِمْ ، مَنَعُوكُمْ
الصَّلَاةَ فِي أَوْقَاتِهَا ، وَطَالَبُوكُمْ بِأَدَائِهَا فِي غَيْرِ وَقْتِهَا ، وَأَخَذُوا الْمُقْبِلَ بِالْمُدْبِرِ^(٣) ، وَالجَارَ
بِالْجَارِ ، وَسَلَطُوا شِرَارَكُمْ عَلَى خِيَارِكُمْ ، فَقَدْ حَقَّ اللَّهُ جَوْرُهُمْ ، وَأَزْهَقَ بَاطِلُهُمْ ، بِأَهْلِ
بَيْتِ نَبِيِّكُمْ ، فَسَا تُؤَخَّرُ لَكُمْ عَطَاءٌ ، وَلَا نَضِيعٌ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ حَقًّا ، وَلَا تُجْمَرُكُمْ فِي بَيْتِ ،
وَلَا تُخَاطَرُ بِكُمْ فِي قِتَالِ ، وَلَا تُبَدَّلُكُمْ دُونَ أَنْفُسِنَا ، وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ بِالْوَفَاءِ
وَالْإِجْتِهَادِ ، وَعَلَيْكُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ » ثُمَّ نَزَلَ . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٢)

٦ - خُطْبَةُ السِّفَاحِ بِالشَّامِ حِينَ قَتَلَ مَرْوَانَ

وَمَا قُتِلَ مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ - آخِرَ خُلَفَاءِ بَنِي أُمِيَّةٍ - خُطِبَ السِّفَاحُ ، فَقَالَ :
« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ، جَهَنَّمَ

(١) البهر : انقطاع النفس من الإعياء . (٢) هي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم ،
جعلها الله فتنة للمشركين إذ قالوا : إن النار تحرق الشجر فكيف تنبت .

(٣) انظر قول زياد بن أبيه في خطبته البراء الجزء الثاني ص ٢٧٢ .

يَضَلُّنَهَا وَيَبْسُ الْقَرَارُ» نَكَمَ بِكُمْ يَا هَل الشَّامَ آلُ حَرْبٍ وَآلُ مَرْوَانَ، يَتَسَكَّمُونَ^(١) بِكُمْ الظُّلْمَ، وَيَتَهَوَّرُونَ بِكُمْ مَدَاحِضَ^(٢) الزَّلَقِ، يَطَّوُّونَ بِكُمْ حَرَمَ اللَّهِ^(٣) وَحَرَمَ رَسُولِهِ^(٤)، مَاذَا يَقُولُ زَعْمَاؤُكُمْ غَدًا؟ يَقُولُونَ: «رَبِّنَا هُوَ لَا» أَضَلُّونَا فَأَتَيْهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ» إِذْنٌ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ» أَمَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ اتَّخَفَ^(٥) بِكُمْ التَّوْبَةَ، وَاعْتَفَرَ لَكُمْ الزَّلَّةَ، وَبَسَطَ لَكُمْ الْإِقَالَةَ^(٦)، وَعَادَ بِفَضْلِهِ عَلَى تَقْصِمِكُمْ، وَجَلَّهَ عَلَى جِهَالِكُمْ، فَلْيُفْرِخْ رُوعَكُمْ^(٧)، وَلْتَطْمِئِنَّ بِهِ دَارِكُمْ، وَلْيَقْطَعْ مَضَارِعُ أُوْائِلِكُمْ، «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا». (العقد الفريد ٢ : ١٤٥)

٧ - خطبة عيسى بن علي حين قتل مروان

وخطب عيسى بن علي - عم السفاح - لما قتل مروان ، فقال :

« الحمد لله الذي لا يفوته من طلب ، ولا يعجزه من هرب ، خَدَعَتْ وَاللَّهِ الْأَشْتَرُ نَفْسَهُ ، إِذْ ظَنَّ أَنَّ اللَّهَ مُمَهِّلُهُ ، وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، فَحَقَّ مَقِي ، وَإِلَى مَقِي ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كَرِهْتَهُمُ الْعَمِيدَانِ^(٨) الَّتِي افْتَرَعُوهَا ، وَأَمَسَّتِ السَّمَاءُ دَرَهَا^(٩) ، وَالْأَرْضُ رَيْبَهَا^(١٠) ، وَقَحَلَّ الضَّرْعُ^(١١) ، وَجَفَزَ الْفَنِيْقُ^(١٢) ، وَأَسْمَلُ^(١٣)

(١) تسكع : مشى مشياً متصفاً . (٢) جمع مدحضة : وهي المنزلة . (٣) يعبر إليه ما كان

عن مقاتلة الحجلاج عبد الله بن الزبير بركة ، ورويه السكبة بالمنجنيق في عهد عبد الملك بن مروان

(٤) يشير إلى وقعة الحرة وما أحدثه جيش مسلم بن عقبة المري بالمدينة على عهد يزيد بن معاوية .

(٥) استأنف وابتداً . (٦) أقال مثرته : دفعه من سقوطه . (٧) الروح : بالقلم القلب ،

أو موضع الفزع منه والروح بالفتح : الفزع ، وأفرخت البيضة : خرج الفرج منها ، أي لهخرج الروح عن روحكم ولتهدموا وتطمئنوا .

(٨) أي أعواد المنابر ، وافترعوها : أي علوها . (٩) مطرها . (١٠) الريح : الغمام

والزهاة . (١١) قحل : يبس جلده على عظمه . (١٢) الفنيق : الفحل المكرم لا يؤذي لسكراته

على أهله ولا يركب ، والجفز : كشمس السرعة في المشي ، ولم تذكر كتب اللغة ضبط فعله ، وجاء في اللسان :

« الجفز : سرعة المشي بمانية » ، حكاهما ابن دزيد ، قال : ولا أدرى ما صحتها ، وفي رواية مواسم الأدب :

« وجفل فنيق الشرك » . (١٣) أسمل القوب وعمل ، كدغل وكرم : أخلق .

جلبابُ الدين ، وأبطلت الجلود ، وأهدرت السماء ، وكان ربك بالمرصاد ، فقدمتم^(١) عليهم ربهم بذنبيهم فسواها ، ولا يخاف عقابها ، وملكتنا الله أمرم عبادة الله ، لينظر كيف تعملون ، فالشكر الشكر ، فإنه من دواعي الزيد ، أعاذنا الله وإياكم من مضلات الأهواء ، وبغفات الفتن ، فإنما نحن به وله .

(شرح ابن أبي الحديد ٢ : ص ٢١٢ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٥)

٨ - خطبة داود بن علي بمكة^(٢)

وخطب داود بن علي الناس بمكة في أول موسم ملكه بنو العباس ، فقال :
« شكراً شكراً ، إنا والله ما خرجنا لتخفير فيكم نهراً ، ولا لتبني فيكم قصرأ ،
أظنّ عدو الله أن لن نقدر عليه ، أن رُوخِي^(٣) له من خطامه ، حتى عثر في فضل زمامه ؟
فالآن حيث أخذ القوس باريها ، وعادت النبل إلى التزعة ، ورجع الملك في نصابه
من أهل بيت النبوة والرحمة - والله لقد كنا نتوجّع لكم ونحن في فرشنا - أمن
الأسود والأحمر^(٤) ، لكم ذمة الله ، لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
لكم ذمة العباس ، لا ورب هذه البنية - وأوما بيده إلى الكعبة - لا نهيج
منكم أحداً . »

(تهذيب الكامل ١ : ١٨ ، والعتد الفريد ٢ : ١٤٧ ، والبيان والتبيين

١ : ٦٨٠ ، وابن أبي الحديد ٢ : ٢١٢ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

-
- (١) قدم للقوم ، ودمدم عليهم : طعمهم فأهلكهم ، فسواها : أي التدمية ، أي مهمم بها فلم يفلت منهم أحد . (٢) ولاة أبو العباس السكوفة وسوادها ، ثم ولاة المدينة ومكة واليمن والعمالة سنة ١٣٢ وولاية إمارة الحاج في هذه السنة ، ومات بالمدينة في ربيع الأول سنة ١٣٣ هـ (الطبري ج ٩ ص ١٤٧) (٣) أي لأن رُوخِي له ، ظن أن لن نقدر عليه . (٤) الحمراء : العجم لأن الغراب على ألوانهم البيضاء والحمررة .

٩ - خطبته بالمدينة

قال : « أيها الناس : حَتَّامَ يَهْتِفُ بِكُمْ صَرِيحُكُمْ ^(١) ؟ أَمَا أَنْ لِرَأْفِدِكُمْ أَنْ يَهْبَ مِنْ نَوْمِهِ ؟ كَلَّا بَلْ رَانَ ^(٢) عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، أَعْرَكُمُ الْإِهْمَالُ حَتَّى حَسِبْتُمُوهُ الْإِهْمَالُ ؟ هِيَئَاتِ مِنْكُمْ وَكَيْفَ بِكُمْ ، وَالسُّوْطُ كُنْفِي ، وَالسَّيْفُ مُشَهَّرٌ ^(٣) ! حَتَّى يُبَيِّنَ قَبِيلَةَ قَبِيلَةٍ وَيَعْصَى كُلُّ مُثَقَّفٍ بِالْهَامِ ^(٤) وَيُقَيِّنَ رَبَّاتِ الْخُدُورِ حَوَاسِرًا يَمَسُخُنَ عُرُضَ فَوَائِبِ الْإِيْتَامِ ^(٥) »
(العقد القريني ٢ : ١٤٦)

١٠ - خطبة أخرى له ^(٦)

وخطب فقال : « أحرز لسان رأسه ، اتعظ امرؤ بغيره ، اعتد عاقل قبل أن يعتد به ، فأمسك الفضل من قوله ، وقدم الفضل من عمله » ثم أخذ بقائم سيفه ، فقال : « إن بكم داء هذا دواؤه ، وأنا زعيم لكم بشفائه ، وما بعد الوعيد إلا الإيقاع . »
(ديوان الأخبار م ٢ : ص ٢٥٢ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

(١) الصريح : المستفح (والمغيث أيضا) (٢) غلب . (٣) شهر سيفه كنع ، وشهره بالتشديد : انتصاه فرقه على الناس . (٤) فلقب الرماح : تسويها . (٥) قوله ويقن : أي الرماح ، والصير يمود هل (كل مثقف) . حواسر : جمع حاسر وهي كل مكتوفة الرأس والذراعين (٦) هذه الخطبة أوردها ابن قتيبة ، ومزاها إلى داود بن حل ، ونسبها صاحب المقد إلى المنصور ، وأنه قالها لما قتل الأمويين (راجع العقد ج ٧ : ص ١٤٥) .

ونصها كما أوردها : « أحرز لسان رأسه ، انتبه امرؤ لحظته ، نظر امرؤ في يومه لغده ، فشى القصد ، وقال الفضل ، وجانب الهجر » ، ثم أخذ بقائم سيفه ، فقال :

« أيها الناس : إن بكم داء هذا دواؤه ، وأنا زعيم لكم بشفائه ، فليعتد عبد قبل أن يعتد به ، فإنما بعد الوعيد الانقطاع ، و « إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ »
والهجر : القبيح من الكلام .

١١ - خطبته وقد بلغه أن قوماً أظهروا شكاة بني العباس

وبلغته أن قوماً أظهروا شكاة بني العباس ، فافترع المنبر ، وحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَغْدَرًا يَا أَهْلَ الْخَلْتِ^(١) وَالتَّبْدِيلِ؟ أَلَمْ يَرُدَّعْكُمْ الْفَتْحُ الْمَبِينُ^(٢) ، عَنْ الْخَوْضِ فِي ذَمِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ كَلَّا وَاللَّهِ حَتَّى تَحْمِلُوا أَوْزَالَكُمْ وَأَوْزَارَ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ ، كَيْفَ قَامَتْ شِفَاهَكُمْ بِالشُّكْوَى لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ بَعْدَ أَنْ حَانَتْ آجَالُكُمْ فَأَرْجَاهَا ، وَابْتَعْتِ دِمَاؤَكُمْ حَقَّقَهَا ، الْآنَ يَا مَنَابِتَ الدَّمَنِ ، مَشَيْتُمُ الضَّرَاءَ^(٣) ، وَدَبَّيْتُمُ الْخَمْرَ^(٤) ، أَمَا وَمُحَمَّدٍ وَالْعَبَّاسِ إِنْ عُدْتُمْ لِمِثْلِ مَا بَدَأْتُمْ ، لِأَخْصُدَنَّكُمْ بِطَبَّاتِ السُّيُوفِ ، ثُمَّ يُغْنِي رَبُّنَا عَنْكُمْ ، وَتُسْتَبَدَّلُ بِغَيْرِكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ .

مهلاً ياروايا^(٥) الإرجاف ، وأبناء النفاق ، عن الخوض فيما كُفَيْتُمْ ، والتخطي إلى ما حذَّرتُمْ ، قَبْلَ أَنْ تَتَلَفَ نَفُوسٌ ، وَيَقْلَّ عَدَدٌ ، وَيَذَلَّ عِزٌّ ، وَمَا أْتَمَّ وَتَلَكَّ؟ أَلَمْ تَجِدُوا مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا مِنْ إِبْرَاهِيمَ الْمُسْتَضْفِقِينَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَقَارِبَهَا؟ بَيْلَى وَالْحِجْرِ وَالْحِجْرِ^(٦) ، وَلَكِنَّهُ حَمْدٌ مُضْمَرٌ ، وَحَسَكٌ^(٧) فِي الصَّدُورِ ، قَرَعْنَا لَمَعَاتِيسَ^(٨) ، وَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(٩) . »

(١) الختر : الغدر ، أو أتبعه . (٢) في الأصل « أَلَمْ يَرُدَّعْكُمْ الْفَتْحُ الْمَبِينُ مِنْ الْخَوْضِ فِي ذَمِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » وهو تحريف . (٣) الضراء : الشجر الملتف في الوادي ، يقال : توارى الصيد منه في ضراء ، وفلان يمشي الضراء : إذا مشى مستخفياً فيما يوارى من الشجر . (٤) في الأصل « وَدَبَّيْتُمُ الْخَمْرَ » وهو تحريف ، وصوابه ما ذكرنا ، والخمر بالتحريك : كل ما وراك من شجر أو بناء أو غيره ، وخر كفرح : توارى ، ومن أمثالهم : « يدب له الضراء ، ويمشي له الخمر » وهو مثل يضرب للرجل يخفل صاحبه . (٥) الروايا جمع راية : وهي المازدة فيها الماء . (٦) الحجر : حجر الكعبة ، وهو ما حواه الحطيم المدار بالكعبة من جانب الشمال . (٧) الحسك : الحقد والعداوة . (٨) المعاطس جمع معطس كعطس ومقعد وهو الأنف ، والرغم : الذل . (٩) وروى صاحب العقد

١٢ - خطبته وقد أرتج عليه

وخطب داود بن عليّ، فحمد الله جل وعز، وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، فلما قال: أما بعد، امتنع عليه الكلام، ثم قال:

«أما بعد، فقد يَحِدُّ المَعْسِرُ، وَيُعْسِرُ المَوْسِرُ، وَيُقَلُّ الحَدِيدُ، وَيَقْطَعُ الكَلِيلُ، وَإِنَّمَا الكَلَامُ بَعْدَ الإِخَامِ، كَالإِشْرَاقِ بَعْدَ الإِظْلَامِ، وَقَدْ يَعْزُبُ البِيَانُ، وَيُعْقَمُ الصَوَابُ، وَإِنَّمَا اللِّسَانُ، مُضْغَعَةٌ مِنَ الإِنْسَانِ، يَفْتَرُ بِفُتُورِهِ إِذَا نَكَلَ، وَيُثَوِّبُ بِإِنْسَابِهِ إِذَا رَتَجَلَ؛ أَلَا وَإِنَّا لَنَنطِقُ بَطَرًا، وَلَا نَسْكُتُ حَصْرًا، بَلْ نَسْكُتُ مُعْتَبِرِينَ، وَنَنطِقُ مُرْشِدِينَ، وَنَحْنُ بَعْدُ أَمْرَاءُ القَوْلِ، فِينَا وَشَجَّتْ^(١) أَعْرَاقُهُ، وَعَلِينَا عَطَفَتْ أَغْصَانُهُ وَلِنَا تَهْدَلَتْ ثَمَرَتُهُ، فَتَنْخِيرُ مِنْهُ مَا أَحْلَوْلَى وَعَدْبُ، وَنَطْرَحُ مِنْهُ مَا امْلَوْلَحَ وَحَبِثُ، وَمِنْ بَعْدِ مَقَامِنَا هَذَا مَقَامٌ، وَبَعْدَ أَيَامِنَا أَيَامٌ، يُعْرَفُ فِيهَا فَضْلُ البِيَانِ، وَفَضْلُ الخَطَابِ وَاللَّهُ أَفْضَلُ مُسْتَعَانَ» ثم نزل^(٢).

(كتاب الصناعتين ص ٢١ ، وأمال السيد المرتضى ٤ : ١٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٨٥)

بعض هذه الخطبة وعزاها إلى أبي جعفر المنصور، فقال: «خطب المنصور حين خروجه إلى الشام فقال:

شِنْشَنَةٌ أَعْرِفِيهَا مِنْ أَحْزَمٍ مَنْ يَلْقَى أَبْطَالَ الرِّجَالِ يُكَلِّمُ

مهلا مهلا روايا الإرجاف، وكهوف النفاق... إلى آخر الخطبة، راجع المعقد للمفيد ٢ : ١٤٥ - والشنينة: الطبيعة والعادة، وهو مثل لأبي أحزم الطائي، وكان له ابن يقال له أحزم، وكان عاقا، فات وترك بنين، فوثبوا يوما على جدتهم أبي أحزم فأدموه فقال:

إن بني ضرجوني بالدم شنشنة أعرفها من أحزم

أي إن هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق: يضرب في قرب الشبه، ويكلم: يبرح.

(١) وشجت العروق والأغصان كوعه وشجا وشيجا: اشتبكت، والواشجة: الرحم المشتبكة.

(٢) وروى الحصري في زهر الآداب بعض هذا القول وعزاها إلى عبد الملك بن صالح، وروى السيد

المرتضى في أماليه قال:

«صعد أبو العباس السفاح المنبر، فأرتج عليه فقال: «أيها الناس، إن اللسان، بضعة

(٢ - جبهة خطب للمرب - ثالث)

١٣ - خطبة صالح بن علي

وخطب صالح بن علي^(١) عم السفاح ، فقال :

يا أعضاء النفاق ، وعُبد الضلالة ، أغرَّكم لين أساسي ، وطولُ إيناسي ؟ حتى ظن
جاهلُكم أن ذلك لفُلُولِ حَدِّ ، وفُتورِ جِدِّ ، وخَوْرِ^(٢) قنَاةٍ ، كذَّبتِ الظنونُ ، إنها
العِترَةُ بَعْضُهَا من بَعْضٍ ، فإِذْ قد استوليتُم العافية ، فعندي فِطَامِ وفِكَاكِ ، وسيفُ يَقدُّ
الهَامَ ، وإني أقول :

أغرَّكمُ أني بأكرمِ شيمَةٍ رَفِيقٍ ، وأني بالفواحشِ أخرقُ ؟
ومثلي إذا لم يُجزَّ أحسنَ سَعِيهِ تَكَلَّمُ نُغَاهِ فِيهَا فتنطِقُ
لعمري لقد فاحشْتَنِي فغلبتني هنيئا مريثا أنت بالفحشِ أرفقُ

(العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

١٤ - خطبة سديف بن ميمون

وروى صاحب العقد قال :

لما قَدِمَ النَّعْمَرُ بنُ يَزِيدِ بنِ عَبْدِ المَلِكِ عَلَي أَبِي العَبَّاسِ السَّفَّاحِ فِي ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنْ

مِنَ الإِنْسَانِ ، يَكِلُّ إِذَا كَلَّ ، وَيَنْفِصِحُ بَانْفِصَاحِهِ إِذَا فَسَّحَ ، وَنَحْنُ أَمْرَاءُ الكَلَامِ ، مَنَّا
تَفَرَّعَتْ فِرْعَوُهُ ، وَعَلَيْنَا تَهَدَّلَتْ غِصُونُهُ ، أَلَا وَإِنَّا لَأَتَتِكُلْمُ هَذْرًا ، وَلَا نَسَكْتُ إِلا
مَعْتَبِرِينَ » ثُمَّ نَزَلَ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَعْفَرَ ، فَقَالَ : « اللَّهُ هُوَ لَوْ خُطِبَ بِمِثْلِ مَا اعْتَذَرَ ،
لَسَكَانَ مِنْ أَخْطَبِ النَّاسِ » ، وَهَذَا الكَلَامُ يَرَوِي لِدَاوُدِ بنِ عَلِيٍّ هـ .

والبضعة بفتح الباء وقد تكسر : القطعة من اللحم ، والهذر بالتحريك : سقط الكلام وبسكون الذال
مصدر هذر في منطوقه كقرب ونصر .

(١) هو صالح بن علي بن عبد الله بن عباس عم السفاح ، وقد ولاء السفاح مصر سنة ١٣٢ ثم فلسطين ،
ثم ولاء مصر ثانية سنة ١٣٦ ، حتى قدم الخبر بموت السفاح في ذي الحجة سنة ١٣٦ ، فأقره المنصور على
عمل مصر ثم خرج إلى فلسطين ، ومات وهو عامل حمص بقنسرين . (٢) ضف .

بنى أمية ، ووضعت لهم الكراسي ، ووضعت لهم تمازق^(١) ، وأجلسوا عليها ، وأجلس
الغمر مع نفسه في اللصلي ، ثم أذن لشيئته فدخلوا ودخل فيهم سُديف بن ميمون^(٢) ،
وكان متوشحاً سيفاً ، متنكباً قوساً ، وكان طويلاً آدم^(٣) ، فقام خطيباً .

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيزعم الضلال بما حبطت^(٤) أعمالهم أن غير
آل محمد أولى بالخلافة ؟ فلم ويم أيها الناس ؟ لكم الفضل بالصحابة ، دون حق
ذوي القرابة ، الشركاء في النسب ، الأكفأ في الحسب ، الخاصة في الحياة ، الوفاة^(٥)
عند الوفاة ، مع ضربهم على الدين جاهلكم ، وإطعامهم في الأولى جائعكم ، فكم قصم
الله بهم من جبار بائع ، وفاسق ظالم ، لم يُسمع بمثل العباس ، لم تخضع له أمة بواجب حق ،
أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أبيه ، وجلدة ما بين عينيه^(٦) ، أمينه ليلة العقبة^(٧)
ورسوله إلى أهل مكة ، وحاميه يوم حنين^(٨) ، لا يرُدُّ له رأياً ، ولا يخالف له قسماً ،
إنكم والله معاشر قريش ما اخترتم لأنفسكم من حيث ما اختاره الله لكم ، تيمى^(٩) مرة ،
وعدوى^(١٠) مرة ، وكنتم بين ظهراني قوم قد آثروا العاجل على الآجل ، والفاني
على الباقي ، وجعلوا الصدقات في الشهوات ، والنفى في اللذات والغناء ، والغنائم ،

(١) تمازق جمع نمرقة كقنفذة : وهي الوسادة الصغيرة . (٢) مولد أبي العباس السفاح .

(٣) وصف من الأدمة ، وهي كالدرة وزنا ومعنى . (٤) فسدت . (٥) الوفاة جمع

واف . (٦) خطب الوليد بن عبد الملك فقال : « إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول : وإن

الحجاج جلدة ما بين عيني ، ألا وإنه جلدة وجهي كله » - البيان والتبيين ١ : ١٦٠ و ٣ : ٢١ - .

(٧) يوم مبايعة الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً معهم امرأتان

وليس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عمه العباس - وهو على دين قومه - ولكنه رأى أنه يحضر

أمر ابن أخيه ليتموثل له . (٨) كان العباس من ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة

حنين ، حين انهزم المسلمون أول الموقعة ، وكان أخذاً بلجام بغلته . (٩) يريد أبا بكر الصديق

رضي الله عنه ، وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤي . (١٠) يريد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو

من عدوى بن كعب بن لؤي .

في الحارم ، إذا ذُكروا بالله لم يذُكروا ، وإذا قدّموا بالحق أدبَرُوا ، فذلك زمانهم ،
وبذلك كان يعملُ شيطانهم^(١) .

(العقد القرية: ٢ : ٢٠١)

١٥ — خطبة أبي مسلم الخراساني

وروى ابن أبي الحديد قال :

وخطب أبو مسلم بالمدينة في السنة التي حج فيها في خلافة السفاح^(٢) ، فقال :
« الحمد لله الذي حمّد نفسه ، واختار الإسلام ديناً لعباده ، ثم أوحى إلى محمد رسول الله
صلى الله عليه وآله من ذلك ما أوحى ، واختاره من خلقه ، نفسه من أنفسهم ، وبيته
من بيوتهم ، ثم أنزل عليه في كتابه الناطق الذي حفظه بعلمه ، وأشهد ملائكته على
حقه ، قوله : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا » ، ثم جعل الحق بعد محمد صلى الله عليه وآله في أهل بيته ، فصبر من صبر منهم
بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله على اللأواء^(٣) والشدة ، وأغضى على الاستبداد
والأثرة ، ثم إن قوماً من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله ، جاهدوا على ملة نبيه
وسنّته بعد عصر من الزمان ، من عمل بطاعة الشيطان ، وعداوة الرحمن ، بين ظهراني
قوم آثموا العاجل على الآجل ، والفاني على الباقي ، إن رُتق جور فتقوه ، أو فُتق حق رتقوه ،
أهل سُخُورٍ وَمَاخُورٍ ، وَطَنَائِيرٍ^(٤) وَمَزَامِيرٍ ، إن ذُكروا لم يذُكروا ، أو قُدّموا إلى
الحق أدبَرُوا وجعلوا الصدقات ، في الشُّبُهَاتِ ، والمغانم في الحارم ، والغي في الغي ،
هكذا كان زمانهم ، وبه كان يعمل سلطانهم ، وزعمو أن غير آل محمد أولى بالأمر
منهم ، فلمَ وبهم أيها الناس ؟ ألكم الفضل بالصَّحَابَةِ ، دون ذوى القرابة ، الشركاء

(١) فقر هذه الخطبة مروية في خطبة أبي مسلم الخراساني الآتية بعدها ، ولكني آثرت إيراد الروايين
جيمًا كما وردتا . (٢) وذلك في سنة ١٣٦ هـ . (٣) الشدة .

(٤) الطنائير : جمع طنبور كمصفور ، وهو الذي يلمب به .

في النسب ، وَالْوَرَثَةَ فِي السَّلْبِ ^(١) ، مع ضربهم على الدين جاهلكم ، وإطعامهم في الجذب جائعكم ، والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط ، وما زلتم بعد نبيه تختارون تميمياً مرة ، وَعَدَوِيّاً مرة ، وَأَمْوِيّاً مرة ، وَأَسَدِيّاً ^(٢) مرة ، وَسُفْيَانِيّاً مرة ، وَمَرْوَانِيّاً مرة ، حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته ^(٣) يضربكم بسيفه ، فأعطيتموها عنوة ، وأتم صاغرون ؛ ألا إن آل محمد أئمة الهدى ، ومَنَارُ سبيل التقى ، القادة الذّادة السّادة ، بنو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَمُنَزَّلِ جبريل بالتنزيل ، كم قصم الله

(١) ما يسلب ، والمراد ورثته في الخلافة . (٢) هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد ابن أسد . (٣) قال ابن أبي الحديد : « يعني نفسه لأنه لم يكن معلوم النسب ، وقد اختلف فيه أبو مول أم عرب » وقال ابن خلكان في (وفيات الأعيان ١ : ٢٨٠) في ترجمته : « أبو مسلم عبد الرحمن ابن مسلم وقيل عثمان الخراساني القائم بالدعوة العباسية ، وقيل هو إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سدوس بن جودرن من ولد بزرجهر بن الهخثكان الفارسي ، وقد اختلف للناس في نسبه ، فقيل إنه من العرب ، وقيل إنه من العجم ، وقيل من الأكراد ، وفي ذلك يقول أبو دلالة :

أبا مجرم ما غير الله نعمة حل عبده حتى يغيرها العبد

أبو دولة المنصور حارات غدرة ألا إن أهل الدهر آباؤك الكرد

وقال ابن طباطبائي الفخرى ص ١٢٢ : « أما نسبه ففيه اختلاف كثير ، فقيل : هو حر من ولد بزرجهر ، وأنه ولد بأصفهان ، ونشأ بالكوفة ، فاتصل بإبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس فقير اسمه وكناه بلقب مسلم ، وثقفه وفقهه ، حتى كان منه ما كان . وقيل هو عبد تنقل في الرق ، حتى وصل إلى إبراهيم الإمام ، فلما رآه أعجبه سمته وعتقه ، فابذعه من مولاه وثقفه وفهمه ، وصار يرسله إلى شيمته وأصحاب دعوته بخراسان ، وما زال حل ذلك حتى كان من الأمر ما كان .

وأما هو فإنه لما قويت شوكته أدهى أنه ابن سليط بن عبد الله بن عباس ، وكان لعبد الله بن عباس جارية فوقع عليها مرة ، ثم احتزها مدة فاستنكحها عبداً فوطئها ، فولدت منه غلاماً سمته سليطاً ، ثم الصغرة بعبد الله بن عباس ، وأنكره عبد الله ولم يعترف به ، ونشأ سليط ، وهو أكره الخلق إلى عبد الله بن عباس ، فلما مات عبد الله نازع سليط ورثته في ميراثه ، وأوجب ذلك بني أمية ليخضعوا من علي بن عبد الله ابن عباس ، فأعانوه وأوصوا قاضي دمشق في الباطن ، قال إليه في الحكم وحكم له بالميراث ، فادعى أبو مسلم حين قويت شوكته أنه من ولد سليط هذا .

وذكر ابن خلكان أن المنصور قال له قبل قتله ، وقد عدد له مساوي وقعت عنه : « بزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن العباس ! لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعباً ! » .

بهم من جبار طاع ، وفاسق باغ ، شَيد الله بهم الهدى ، وَجَلَى بهم اللَّعَى ، لم يُسمع بمثل
العباس ، وكيف لا تخضع له الأمم لِواجب حقِّ الحرمة ؟ أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم
بعد أبيه ، وإحدى يديه ، وَجِلْدَةٌ بين عينيه ، أَمِينُهُ يومَ العَمَّةِ ، وَنَاصِرُهُ بِمَكَّةَ^(١) ،
ورسوله إلى أهلها ، وَحَامِيهِ يومَ حُنَيْنٍ ، عند ملتقى الفِئتين ، لا يخالف له رسماً ،
ولا يَمِصُّ له حكماً ، الشافع يوم نِيقِ العُقَابِ^(٢) ، إلى رسول الله صلى الله عليه وآله
في الأحزاب ، ها إن في هذا أيها الناس لَعِبْرَةٌ لِأولى الأبصار .

(شرح ابن أبي الحديد م : ٢ : ٢١٥)

١٦ - خالد بن صفوان وأحوال السفاح

روى الجاحظ قال :

كان خالد بن صفوان الأهمتي من سُمَّار أبي العباس السَّفَّاح ، وأهل المنزلة عنده ،
ففخر عليه ناس من بَلْحَارِثِ^(٣) ، وأكثروا في القول ، فقال أبو العباس : لم لاتكلم
ياخالد ؟ فقال : « أحوال^(٤) أمير المؤمنين وَعَصَبَتُهُ » قال : « فأتتم أعمام أمير المؤمنين
وَعَصَبَتُهُ » قال خالد : وما عسى أن أقول لقوم ، كانوا بين ناسج بُرْدٍ ، ودابغ جِلْدٍ ،

(١) يشير إلى ما كان من العباس في غزوة أحد ، وذلك أن جيش المشركين خرج من مكة لمحاربة
الرسول صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا مقابل المدينة ، وبلغ الخبر الرسول من كتاب يمث به إليه عمه العباس
الذي لم يخرج معهم في هذه الحرب محتجاً بما أصابه يوم بدر ، وكان بمكة يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم أخبار المشركين (وقيل إنه كان قد أسلم قبل الهجرة ، وكان يكتم إسلامه) .

(٢) موضع بين مكة والمدينة . وذلك أن العباس شفع فيه يوم فتح مكة في أبي سفيان ، وفي أهل مكة
فمعا النبي صلى الله عليه وسلم عنهم .

(٣) انظر الجزء الثاني ٢٢٥ . (٤) كانت أم السفاح من بني الحارث ، وهي ربيعة بنت عبيد الله
أمين عبد الله بن عبد المطلب بن عبد المطلب بن عبد المطلب ، والذات كان يقال له ابن الحارثية .

وسائس قرود ، وراكب عرذ^(١) ، كلّ عليهم هُدُود^(٢) ، وغرقتهم فارة^(٣) ،
وملكهم امرأة^(٤) ؟ » .
(البيان والتبيين ١ : ١٨٤)

* * *

وروى الحضريّ في زهر الآداب قال :

« دخل خالد بن صفوان على أبي العباس السفاح ، وعنده أخواله من بني الحارث
ابن كعب ، فقال : ما تقول في أخوالي ؟ فقال : « هم هامة^(٥) الشرف ، وعزّنين^(٦)
الكرم ، وعرّس الجود ، إن فيهم خصالا ما اجتمعت في غيرهم من قومهم ، لأنهم
أطولهم لِمعا^(٧) ، وأكرم شيئا ، وأطيبهم طعما^(٨) ، وأوفاهم ذمّا ، وأبعدهم همّا ،
الجرّة في الحرب ، والرّفد^(٩) في الجذب ، والرأس في كل خطب ، وغيرهم
بمنزلة العجب^(١٠) » .

فقال : وصفت أبا صفوان فأحسنت ، فزاد أخواله في الفخر ، ففضّب أبو العباس

(١) العرد : الحمار .

(٢) يشير إلى حديث الهدد مع سليمان عليه السلام في قوله تعالى : « وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ
لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْلَادًا يَلْبِغُهُ أَوْلِيَاءُ تِينِي
بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ، فَكَيْتَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ
بِنَبَأٍ يَقِينٍ ، إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ،
وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . . . الآيات » .

(٣) يشير إلى ما يزرعه المؤرخون من أن سيل العرم للذي ضرب اثنين كان سببه قرص الجرذ لسد مأرب
انظر الجزء الأول ص ١٠٥ . (٤) هي بلقيس (بالسكر) ملكة سبأ .
(٥) الخامة : رأس كل شيء . (٦) الرنين : الأنف ، أو ما صلب من عظمه ، ومن كل شيء
أوله . (٧) في الأصل « أما » وأراه محرفا ، وصوابه « لما » والنم جمع لمة بالسكر ، وهي الشعر المجاوز
شعبة الأذن . (٨) الطعم : الطعام . (٩) الرّفد : العطاء والصلة . (١٠) العجب : أصل
الذنب ، ومؤخر كل شيء .

(٣) يشير إلى ما يزرعه المؤرخون من أن سيل العرم للذي ضرب اثنين كان سببه قرص الجرذ لسد مأرب

انظر الجزء الأول ص ١٠٥ . (٤) هي بلقيس (بالسكر) ملكة سبأ .

(٥) الخامة : رأس كل شيء . (٦) الرنين : الأنف ، أو ما صلب من عظمه ، ومن كل شيء

أوله . (٧) في الأصل « أما » وأراه محرفا ، وصوابه « لما » والنم جمع لمة بالسكر ، وهي الشعر المجاوز

شعبة الأذن . (٨) الطعم : الطعام . (٩) الرّفد : العطاء والصلة . (١٠) العجب : أصل

الذنب ، ومؤخر كل شيء .

لأعماله ، فقال : افخر يا خالد على أخوال أمير المؤمنين ، قال : وأنت من أعماله ، قال :

« كيف أفاخر قوماً بين ناسج بُرد ، وسائس قرد ، ودابغ جلد ، وراكب عرد ، دلّ عليهم هدهد ، وغرقهم جرد ، وملكتهم امرأة ؟ » ، فأشرق وجه أبي العباس .
(زهر الآداب ٣ : ١٣٠ ، ٣٤٦)

١٧ - خالد بن صفوان ورجل من بني عبد الدار

وفاخر خالد بن صفوان رجلاً من بني عبد الدار الذين يسكنون اليمامة ، فقال له العبدريّ : من أنت ؟ قال : أنا خالد بن صفوان بن الأهمّ ، فقال له العبدريّ : أنت خالد « كمن هو خالد في النار ^(١) » وأنت ابن صفوان ، وقال الله تعالى : « كمثل صفوان عليه تراب ^(٢) » ، وأنت ابن الأهمّ ، والصحيح خير من الأهمّ ^(٣) ، فقال له خالد ابن صفوان : يا أخا بني عبد الدار ، أتتكلّم ؟ وقد هشمّتك هاشم ، وأمّتك ^(٤) بنو أمية ، وخزمتك بنو مخزوم ، وجمحتك بنو جحج ^(٥) ؟ فأنت عبّد دارهم ^(٦) تفتح إذا دخلوا ، وتغلق إذا خرجوا « فقام العبدريّ محمواً .

(أمال السيد المرتضى ١ : ٢١٥ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٢)

(١) وتام الآية الكريمة : « وسقوا ماءً حمياً فقطع أمعاءهم » .

(٢) صفوان جمع صفوانة : وهي الحجر الصلد الضخم كالصفوان والصفاء ، والآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمّشله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وإيل ، فتركه صلداً ، لا يقدرّون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي الكافرين » .

(٣) هم كفّوح : انكسرت ثناياه من أصولها فهو أهمّ . (٤) قادتك (٥) انظر الجزء الثاني ص ٩٨ . (٦) وكانت الحجابة في بني عبد الدار ، انظر الجزء الثاني ص ٩٨ أيضاً .

١٨ - خالد بن صفوان يرثي صديقاله

وقال الجاحظ : قيل لرجل - أراه خالد بن صفوان^(١) - مات صديق لك ، فقال :
« رحمة الله عليه ، لقد كان يملأ العينَ جمالا ، والأذنَ بيانا ، ولقد كان يُرْجَى
فلا يَحْشَى ، ويُغشى فلا يَغشى ، ويُعطى فلا يُعطى ، قليلا لدى الشرِّ حضوره ، سليماً
للصديق ضميره . »
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والأمال ٢ : ١٧٤)

١٩ - خالد بن صفوان يمدح رجلا

وذكر خالد رجلا ، فقال :
« كان والله بديع المنطق ، دَلِقَ^(٢) الجُرْأَة ، جَزَلَ الألفاظ ، عربى اللسان ، ثابت
المُقَدَّة ، رقيق الحواشى ، خفيف الشَّفَتَيْن ، بليلى الريق ، رَحَبَ الشرف ، قليل
الحركات ، خَفِيَ الإشارات ، خَلَوُ الشَّمائل ، حَسَنَ الطلاوة^(٣) ، حَيَّيَا جَرِيئاً ، قَتُولاً
صَمُوتاً ، يُفْلِحُ الحَزْرَ^(٤) ، وَيُصِيبُ الفاصِلَ ، لم يكن بالمعذَّر^(٥) فى منطِقته ، ولا بالزَّمِنِ^(٦)
فى مَرُوءته ، ولا بالخرق^(٧) فى خَلِيقته ، متبوعاً غير تابع ، كأنه عَلم فى رأسه نار . »
(زهر الآداب ٣ : ١٦٧)

٢٠ - كلمات بليغة لخالد بن صفوان

وقال خالد بن صفوان لبعض الوُلاة : « قَدِمْتَ فَأَعْطَيْتَ كَلًّا بِقِسْطِهِ مِنْ وَجْهِكَ

-
- (١) ورواية القائل : عن الأصمعي قال خالد بن صفوان لفتى بين يديه : رحم الله أباك . . . الخ .
(٢) مأخوذ من « سيف دلق » أى سهل الخروج من غده ، ويقال : اندلق العيل أى اندنع ،
واندلق للسيف : أى شق جفنه فخرج منه . (٣) الطلاوة مثلثة : القبول . (٤) الحز : للقطع .
(٥) عذر فى الأمر تعديرا ، إذا قصر ولم يجتهد . (٦) أى المغيب ، والزمانة كسحابة : العاهة ،
زمن كفرح فهو زمن وزمين . (٧) الخرق : الذى لا يحسن العمل والتصرف فى الأمور .

بوكرامتك^(١)، حتى كأنك من كلِّ أحد، وحتى كأنك لست من أحد.»

(الأمالي ١ : ٢١٦، وزهر الآداب ٣ : ٣٤٧، ١٦٧)

وقال شبيب بن شيبية لخالد بن صفوان: «مَنْ أَحَبَّ إِخْوَانَكَ إِلَيْكَ؟» قال:

«مَنْ سَدَّ خَلِّي، وَغَفَرَ زَلِّي، وَقَبِلَ عَلِّي.» (الأمالي ١ : ١٩٨)

وذكر شبيب عنده مرة، فقال: «ليس له صديق في السر، ولا عدو في العلانية.»

قال الجاحظ: «وهذا كلام ليس يعرف قدره إلا الراسخون في هذه الصناعة.»

(البيان والتبيين ١ : ١٨٤، وزهر الآداب ٣ : ٢٠٩)

وقال خالد: «ما الإنسان، لولا اللسان، إلا صورة ممثلة، أو بهيمة مُمَهَلَة.»

وقال «أتقوا مجانبتي^(٢) الضعفاء» يريد الدعاء. (البيان والتبيين ١ : ١٩٠)

وذكر المزاح بحضرة خالد بن صفوان، فقال: «يُنشِقُ أَحَدَكُمْ أَخَاهُ مِثْلَ الْخُرْدَلِ،

يُفْرِغُ عَلَيْهِ مِثْلَ الْمَرْجَلِ، وَيَرْمِيهِ بِمِثْلِ الْجُنْدَلِ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنْتَ أَمْزَحَ!»

(زهر الآداب ٥٢ : ٨)

٢١ - عمارة بن حمزة والسفاح

وقال عمارة بن حمزة لأبي العباس السفاح - وقد أمر له بجوائز نفيسة وكنوة وصلة،

وَأَدْنَى مَجْلِسِهِ :

« وَصَلَّكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَرَكَكَ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ أَرَدْنَا لَنْ شُكْرَكَ عَلَى كُنْهِ^(٣)

صِلَتِكَ، إِنْ الشُّكْرَ لِيَقْصُرَ عَنْ نِعْمَتِكَ، كَمَا قَصُرْنَا عَنْ مَنَزَلَتِكَ، ثُمَّ إِنْ اللَّهُ تَعَالَى

جَعَلَ لَكَ فَضْلًا عَلَيْنَا، بِالتَّقْصِيرِ مِنَّا، وَلَمْ تَحْجِرْ مِنَّا الزِّيَادَةَ مِنْكَ لِنَقْصِ^(٤) شُكْرَنَا.»

(زهر الآداب ٣ : ٢٤٦)

(١) وفي رواية زهر الآداب: «من نظرك ومجلسك في صونك ومدك.»

(٢) جمع منجنيق بفتح الميم وكسرهما: آلة ترى بها الحجارة. (٣) كنه الشيء: حقيقته.

(٤) في الأصل: «لبعض» وأراء محرفا.

خطب أبي جعفر المنصور (توفي سنة ٥١٥هـ)

٢٢ - خطبته بمكة

خطب أبو جعفر المنصور بمكة ، فقال :

« أيها الناس : إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ، وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه بإذنه ، فقد جعلني الله عليه قفلاً ، إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم ، وقسم أرزاقكم ، فإن شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى ، فارغبوا إلى الله وسلوه في هذا اليوم الشريف الذى وهب لكم من فضله ما أعلمكم به إذ يقول : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » أن يوفقنى للرشاد والصواب ، وأن يلهمنى الرأفة بكم والإحسان إليكم ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٥ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢٥١ ، تاريخ الطبرى ٩ : ٢١)

٢٣ - خطبته بمكة بعد بناء بغداد

وحج بعد بناء بغداد فقام خطيباً بمكة ، فكان مما حفظ من كلامه^(١) : « وَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ^(٢) مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ، أَمْرٌ مُبَرَّمٌ ، وَقَوْلٌ عَدْلٌ ، وَقَضَاءٌ فَضْلٌ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَفْلَحَ^(٣) حُجَّتَهُ ، وَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ،

(١) عز صاحب العقد هذه الخطبة إلى سليمان بن عل (انظر ج ٢ ص ١٤٥) ، وكذا صاحب مواهب

الأدب (انظر ج ٢ : ص ١١٥) . (٢) قبل المراد بالزبور جنس الكتب المنزلة ، وبالذكر العرج

المحفوظ . (٣) نصر .

الذين اتخذوا الكعبة غرضاً ، والنبي إرثاً ، وجعلوا القرآن عِزِينَ^(١) ، لقد حاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ، فكَمْ تَرَى مِنْ بَرِّ مُعْطَلَةٍ^(٢) وَقَصْرِ مَشِيدٍ ، أمهلهم الله حتى بدلوا السنة ، واضطهدوا العترة^(٣) وعندوا^(٤) واعتدوا واستكبروا ، وخاب كلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، ثم أخذهم فهلُمُّسٌ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا؟^(٥) .
(تاريخ الطبري ٩ : ٣١١ ، والكامل لابن الأثير ٦ : ١٢)

٢٤ - خطبته بمدينة السلام

وخطب بمدينة السلام « بغداد » فقال :

« يا عباد الله ، لا تظالموا ، فإنها مظلمة يوم القيامة ، والله لولا يدُ خاطئة ، وظلمٌ ظالمٌ ، لمَشَيْتُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ فِي أَسْوَاقِكُمْ ، وَلَوْ عَلِمْتُ مَكَانَ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنِّي لِأَتَيْتُهُ حَتَّى أَدْفَعَهُ إِلَيْهِ » .
(تاريخ الطبري ٩ : ٣١٠)

٢٥ - خطبته وقد أخذ عبد الله بن حسن وأهل بيته

ولما أخذ عبد الله بن حسن^(٦) وإخوته ، والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته ، صعد المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

(١) الذقة : للفرقة والقطعة والجمع عضون ، وجعل المشركون للقرآن ضفين أي فرقا : فرقوا فيه القول ، فعملوه كذبا وسحرا وكهانة وشعرا ، فهم قد (عضوه) بانتشيد أعضاء أي جزءه وأجزاءه ، وهو يرهد هنا الأمويين يشير إلى أنهم عطلوا بعض أوامر القرآن بما أتوه من الأعمال من رمي الكعبة ، واضطهاد أهل البيت الخ . (٢) متروكة لا يستحق منها هلاك أهلها ، ومشيد : مرفوع أو مطلق بالثيد (بالكسر) وهو ما طلى به الحائط من جص ونحوه ، أي معطل خال من ساكنيه أيضا . (٣) العترة نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأدنون . (٤) عند (مثل النون) من الطارق : مال (٥) الصوت الخفي (٦) هو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد حنه المنصور هو وأهل بيته ، من المدينة إلى العراق سنة ١٤٤ هـ ، وألقاهم في غياهبات السجون حتى ماتوا بسجن الكوفة ، وكان يخوف أن يغالبه على الخلافة محمد بن عبد الله هذا (وهو محمد الملقب بالنفس الزكية) وقد خرج عليه بالمدينة فوجه المنصور جيشا لقتاله فقتل سنة ١٤٥ هـ ، وخرج أخوه إبراهيم طي المنصور بالبصرة فقتل أيضا في مدة السنة .

« يا أهل خراسان : أتم شيعتنا وأنصارنا ، وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خيرٌ منا ، وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب ، تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة ، فلم تعرض لهم فيها بقليل ولا كثير ، فقام فيها علي ابن أبي طالب ، فتلطخ ، وحكم عليه الحكمين ، فافتقرت عنه الأمة ، واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه ، وبطانتته وثقاته فقتلوه ، ثم قام من بعده الحسن بن علي ، فوالله ما كان فيها برجل ، قد عرضت عليه الأموال فقبلها ، فدرس إليه معاوية : إني أحعلك ولي عهدي من بعدى ، فخذعه فانسلخ له مما كان فيه ، وسلمه إليه ، فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها غداً ، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ، ثم قام من بعده الحسين بن علي ، فخذعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق ، والإغراق في الفتن ، أهل هذه المدرة السوداء وأشار إلى الكوفة فوالله ما هي بحرب فأحاربها ولا سلم فأسلمها ، فرق الله بيني وبينها ، فخذلوه وأسلموه حتى قتل ، ثم قام من بعده زيد بن علي ، فخذعه أهل الكوفة وغرّوه ، فلما أخرجوه^(١) وأظهروه أسلموه وقد كان أتى محمد بن علي^(٢) ، فناشده في الخروج ، وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة ، وقال له : إنا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة ، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده عمي داود بن علي ، وحذره غدر أهل الكوفة ، فلم يقبل وتم^(٣) على خروجه ، فقتل وصلب بالكناسة^(٤) ثم وثب علينا بنو أمية ، فأما توار شرفنا ، وأذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا ترة^(٥) يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم ، وبسبب خروجهم عليهم ، فنفتونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف . ومرة بالشام ، ومرة بالشرارة^(٦) ، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة

(١) وقد خرج في خلافة هشام بن عبد الملك ، فقاتله يوسف بن عمر الثقفي والى العراق ، وقتل وصلب

سنة ١٢١ هـ . (٢) يريه أباه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

(٣) تم على الأمر : استمر عليه . (٤) موضع بقرب الكوفة .

(٥) تارة . (٦) موضع بين دمشق والمدية (الكرك الان) .

وأنصارا، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان، ودفع بحقكم أهل الباطل، وأظهر حَقَّنَا، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم، ففقر الحق مقرَّه، وأظهر مناره، وأعز أنصاره، وقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها وحُكْمِ الْعَادِلِ لَنَا، وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا، وبغيا لما فضلنا الله به عليهم، وأكرمنا به من خلافته، وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم:

جَهْلًا عَلَىٰ وَجِبْنَا عَنْ عَدُوهُمْ كَبِئْسَتِ الْخَلْقَانِ الْجَهْلُ وَالْجُبْنُ

فإني والله يأهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة، بلغني عنهم بعض السَّقَمِ والتَرَمُّمِ^(١)، وقد دَسَسْتُ لَهُمْ رَجَالًا، فقلت: قم يا فلان، قم يا فلان، فخذ معك من المال كذا، وحدِّثْ لَهُمْ مِثْلًا يَمْعَلُونَ عَلَيْهِ، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة، فدسُّوا إليهم تلك الأموال، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب، ولا صغير ولا كبير، إلا بايعهم بيعةً استحلَّتْ بِهَا دِمَائُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، وحَلَّتْ لِي عِنْدَ ذَلِكَ بِنَقْضِهِمْ بِيَعْتِي، وطلبهم الفتنة، والتماسهم الخروجَ علىَّ، فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين « ثُمَّ نَزَلَ وَهُوَ يَتْلُو عَلَىٰ دَرَجِ الْمَنِيرِ هَذِهِ الْآيَةُ « وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاءِهِمْ مِنْ قَبْلُ، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ».

(تاريخ الطبري ٩ : ٢١٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٤١)

٢٦ — خطبته حين خروج محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن

ولما خرج محمد وإبراهيم ابنا عبد الله، شن^(١) المنصور عليه درعه، وتقلد سيفه، وصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال:

مَالِي أَكْفَكُفُّ عَنْ سَعْدٍ وَتَشْتُمُنِي؟ وَلَوْ شَتَّمْتُ بَنِي سَعْدٍ لَقَدْ سَكَنُوا

(١) الأصل فيه: تمرمه: تمرقه ونزع ما عليه من اللحم. (٢) شن عليه درعه: صجها.

جَهْلًا عَلَيْنَا وَجُبْنَا عَنْ عِلْمِهِمْ لَبِئْسَتِ الْخَلْقَانِ الْجَاهِلُ وَالْجَبِينُ
أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ مَجَّزُوا عِمَّا قَنَابَهُ ، فَمَا عَصَدُوا الْكَافِي ، وَمَا شَكَرُوا الْمُنْعَمَ ، فَإِذَا
حَاطُوا أَشْرَبَ رَنْقًا عَلَى غَصَصٍ ، وَأَبَيْتُ مِنْهُمْ عَلَى مَضَضٍ ، كَلَّا وَاللَّهِ لَا أُصِلُ ذَا رَحِمٍ
حَاطُوا قَطِيعَتَهَا ، وَلَنْ لَمْ يَرْضَ بِالْفِعْوِ لِيَطَابِينَ مَالٍ يَوْجِدُ عِنْدِي ، فَلْيُبَيِّقِ فَوْ نَفْسٍ
عَلَى نَفْسِهِ ، قَبْلَ أَنْ تَمُتِي ، فَلَا يُبْكِي عَلَيْهِ . (موسم الأدب ٢ : ١١٩)

٢٧ - خطبته وقد قتل أبا مسلم الخراساني

وخطب بالمدائن عند قتل أبي مسلم الخراساني^(١) ، فقال :
« أَيُّهَا النَّاسُ : لَا تَخْرُجُوا مِنْ أُنْسِ الطَّاعَةِ إِلَى وَحْشَةِ الْمَعْصِيَةِ ، وَلَا تُسْرِثُوا غَشَّ
الْأُمَّةِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُسِرَّ أَحَدٌ قَطُّ مَنكَرَةً إِلَّا ظَهَرَتْ فِي آثَارِ يَدِهِ ، وَفَلَّتَاتِ لِسَانِهِ ،
وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ ، وَأَبْدَاهَا اللَّهُ لِإِمَامِهِ ، بِإِعْزَازِ دِينِهِ ، وَإِعْلَاءِ حَقِّهِ ، إِنْ لَنْ تَبْخَسَكُمْ
حَقُوقَكُمْ ، وَلَنْ نَبْخَسَ الدِّينَ حَقَّهَ عَلَيْكُمْ ، إِنْهُ مِنْ نَارِ عَنَا عُرُوءَ هَذَا الْقَمِيصِ أُجْزَرْنَا
خَبِيَّ هَذَا الْفَعْدِ ، وَإِنْ أبا مُسْلِمٍ بَايَعْنَا وَبَايَعَ النَّاسَ لَنَا ، عَلَى أَنَّهُ مِنْ نَكْتِ بِنَا قَدْ
أَبَاحَ دَمَهُ ، ثُمَّ نَكْتِ بِنَا ، فَحَكَمْنَا عَلَيْهِ لِأَنْفُسِنَا حُكْمَهُ عَلَى غَيْرِهِ لَنَا ، وَلَمْ تَمْنُنَا
رِعَايَةَ الْحَقِّ لَهُ ، مِنْ إِقَامَةِ الْحَقِّ عَلَيْهِ . »

(تاريخ الطبري ٩ : ٣١٣ ، ومجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، وموسم الأدب ٢ : ١٢٠ وغرر
الحصائص الواضحة ٧٦) .

(١) قتل أبو مسلم سنة ١٣٧ ، وذلك أن المنصور كان قد أرسله لحرب عمه عبد الله بن علي - وكان
قد خرج عليه بالشام كما سيأتي - فلما ظفر أبو مسلم ، وضم جميع ما كان في عسكر عبد الله ، وأنهزم عبد الله
إلى البصرة ، أرسل المنصور بعض خدومه للحفاظ على ماني العسكر من الأموال ، فغضب أبو مسلم ، وقال :
أمين على الدماء ، خائن في الأموال ! وشم المنصور ، وعزم على الخلاف ، وأن يتوجه إلى خراسان ،
فجعل المنصور يتلطف به حتى استفدمه إليه وقتله .

٢٨ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أيها الناس ، لا تنفروا أطراف النعمة بقلة الشكر ، فتحلَّ بِكُمْ النِّعْمَةُ ، ولا تستروا غِشَّ الأئمة ، فإن أحداً لا يستر مُنْكَراً إلا ظهر في فلتات لسانه ، وَصَفَحَات وجهه ، وَطَوَّالِع نظره ، وإنا لانجمل حقوقكم ما عرَقتم حَقَّنَا ، ولا ننسى الإحسان إليكم ما ذكَّرتم فضلنا ، ومن نازعنا هذا القميصَ أوطأنا أم رأسه خَبءٌ ^(١) هذا الغنم . والسلام » .

(مواسم الأدب ٢ : ١٢٠)

٢٩ - قوله وقد قوطع في خطبته

وخطب يوم الجمعة . فقال :

« الحمد لله أحمدُه . وأستعينه . وأؤمن به . وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له : أيها الناس . اتقوا الله . فقام إليه رجل . فقال : أذ كُرك من ذكَّرتنا به يا أمير المؤمنين . فقطع الخطبة . ثم قال : « سمعاً سمعاً لمن فهم عن الله . وذكَّرت به . وأعوذ بالله أن أكون جَبَّاراً عنيداً . وأن تأخذني العِزَّة بالإثم . لقد ضلَّلتُ إذنَ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . وأنت أيها القائل . فوالله ما أردت بها وجهَ الله . ولكنك حاولت أن يقال : قام فقال . فعُوقِبَ فصَبَّرَ . وأهونَ بها ! ويلك لو هممت ^(٢) ! فاهْتَبَيْهَا ^(٣) إذ غفرتُ . وإياك وإياكم معشرَ الناس أختها فإن الحكمة علينا نزلت . ومن عندنا فصلت . فرُدُّوا الأمر إلى أهله . تُورِدوه مَوَارِدَه . وتُصْدِرُوه مَصَادِرَه . ثم عاد في خطبته . فكأنه يقرؤها من كفه . فقال : وأشهد أن محمداً عبده ورسوله »

(تاريخ الطبري ٩ : ٣١١ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٥ ، وميرون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٦ ، والكامل لابن الأثير ٦ : ١٢ ، وصبح الأمل ١ : ٢٦٢) .

(١) الحب : ما خبى . (٢) أى لو هممت بعقابك . (٣) اغتصبها .

٣٠ - المنصور يصف خلفاء بني أمية

واجتمع عند المنصور أيام خلافته جماعة من ولد أبيه . منهم عيسى بن موسى والعباس بن محمد وغيرهما . فتذاكروا خلفاء بني أمية . والسبب الذي به ساءوا عزهم . فقال المنصور :

« كان عبد الملك جبّاراً لا يُبالى ماصنع . وكان الوليد لحنّاً مجنوناً . وكان سليمان همته بطنه وفرجه . وكان عمر أعور بين عُثمان . وكان هشام رجل القوم . ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهّد لهم من السلطان ، يحوطونه ويصونونه ويحفظونه . ويحرسون ما وهب الله لهم منه ، مع تسنّمهم معالي الأمور ، ورفضهم أدانيها ، حتى أفضى أمرهم إلى أحداثٍ مُترفين من أبنائهم ، فغمطوا^(١) النعمة ، ولم يشكروا العافية ، وأساءوا الرعاية . فابتدأت النّعمة منهم ، باستدراج الله إياهم ، آمنين مكره ، مطّرحين صيانة الخلافة ، مستخفين بحق الرياسة ، ضعيفين عن رسوم السياسة ، فسلبهم الله العزّة ، والبسهم الذلّة ، وأزال عنهم النعمة » . (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢١٥)

٣١ - المنصور يصف عبد الرحمن الداخل

وقال المنصور يوماً لأصحابه : أخبروني عن صقر قريش ، من هو ؟ قالوا : أمير المؤمنين ، الذي راض^(٢) الملّك ، وسكّن الزلازل ، وحسّم الأعداء . وأباد الأعداء . قال : ما صنعتُم شيئاً . قالوا : فمعاوية . قال : ولا هذا . قالوا : فعبد الملك بن مروان . قال : ولا هذا ، قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الرحمن بن معاوية^(٣) ، الذي عبّر

(١) غمط النعمة : هطرها وحقرها .

(٢) ذلل . (٣) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل

مؤسس دولة بني أمية بالأندلس وسياق .

البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجمياً مفرداً ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون
الدواوين ، وأقام ملكاً بعد انقطاعه ، بحسن تدييره ، وشدة شكيمته . إن معاوية
نهض بحرّ كعب حمله عليه عمرُ وعثمان ، وذلالاً له صعبه ، وعبد الملك بديعةً تقدّم له
عقدُها ، وأمير المؤمنين بطاب غيره واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد
برأيه ، مستصحب لعزمه .

(المقه الفريد ٢ : ٢٠٢)

وصايا المنصور لابنه المهدي

٣٢ - وصية له

قال المنصور لابنه المهدي : « يا بُنَيَّ لا تُبْرِمَ أمراً حتى تفكر فيه ، فإن فكرة العاقل مرآته ، تربيته حسناته وسدائته . واعلم أن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى ، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولى الناس بالعمو أقدروهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه » .

(نهاية الأرب ٦ : ٤١ ، والمقد الفريد ١ : ١٤)

٣٣ - وصية أخرى له

ووصاه فقال له : « إني لم أدع شيئاً إلا قد تقدمت إليك فيه ، وسأوصيك بمخاض الله ما أظنك تفعل واحدة منها — وكان له سقط فيه دفاتر عمله ، وعليه قفل لا يأمن على فتحه ومفتاحه أحداً ، يصُرُّ مفتاحه في كُمِّ قميصه — فقال للمهدي : انظر هذا السقط فاحتفظ به ، فإن فيه علم آبائك ما كان وما هو كأن إلى يوم القيامة ، فإن أحزنتك أمرٌ فانظر في الدِّفتر الأكبر ، فإن أصبت فيه ماتريد ، وإلا فالثاني والثالث حتى بلغ سبعة ، فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فإنك واجدٌ فيها ماتريد ، وما أظنك تفعل ، وانظر هذه المدينة فإنك أن تستبدل بها ، فإنها بيتك وعزك ، قد جمعت لك فيها من الأموال ، ما إن كسرت عليك الخراج عشر سنين ، كان عندك كفايةً لأرزاق الجند والنفقات ، وعطاء الدرية ، ومصلحة الثغور ، فاحتفظ بها فإنك لاتزال عزيزاً مادام

يت مالك عامراً ، وما أظنك تفعل . وأوصيك بأهل بيتك ، أن تُظهِرِ كرامتهم
وتُقدِّمهم ، وتُكثر الإحسان إليهم ، وتعظِّم أمرهم ، وتُوطئ الناسَ أعقابهم ، وتوليهم
المنابرَ ، فإن عزك عزمهم ، وذكركم لك ، وما أظنك تفعل ، وانظر مواليك فأحسن إليهم
وقربهم ، واستكثر منهم ، فإنهم مادّتك لشدة إن نزلت بك ، وما أظنك تفعل .
وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بدّلوا أموالهم في دولتك ،
ودمائم دونك ، ومن لا تخرج محبّتك من قلوبهم ، أن تُحسن إليهم ، وتتجاوز عن
مسيئتهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلّف من مات منهم في أهله وولده ،
وما أظنك تفعل ، وإياك أن تبني مدينة الشرقية ، فإنك لا تتمّ بناءها ، وما أظنك تفعل ،
وإياك أن تستعين برجل من بني سليم ، وأظنك ستفعل ، وإياك أن تدخل النساء
في مشورتك في أمرك ، وأظنك ستفعل .

(تاريخ الطبري ٩ : ٢١٩)

٣٤ - وصية أخرى له

ووصى المهديّ أيضاً ، فقال : « اتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى ،
يجعل لك فيما كرتك وحرّتك مخرّجاً ، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث
لا تحسب ، احفظ يا بنى محمداً صلى الله عليه وسلم في أمته ، يحفظ الله عليك أمورك ،
وإياك والدم الحرام ، فإنه حُوب^(١) عند الله عظيم ، وعار في الدنيا لازم مقيم ، والزم
الحلال ، فإن فيه ثوابك في الآجل ، وصلاحك في العاجل ، وأقم الحدود ، ولا تتعدّد
فيها فتبور^(٢) ، فإن الله لو علم أن شيئاً أصاح لدينه ، وأزجرَ عن معاصيه من الحدود ،
لأمر به في كتابه ، واعلم أنه من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب
والعقاب على من سعى في الأرض فساداً ، مع ما ذخر له عنده من العذاب العظيم ، فقال :

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ، فالسلطان يا نبىَّ حبلُ الله اللين ، وعُروته الوثقى ، ودين الله القيم ، فاحفظه وحطه ، وحصنه وذُبَّ عنه ، وأوقع بالمُحدين فيه ، واقمع المارقين منه ، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم ، والمثلات^(١) بهم ، ولا تجاوز ما أمر الله به في مُحكم القرآن ، واحكم بالعدل ولا تشطط ، فإن ذلك أقطع للشغب ، وأحسم للعدو ، وأنجع في الدواء ، وعِفَّ عن النِّيء ، فليس بك إليه حاجة مع ما أخلفه لك ، وافتتح عمك بصلة الرَّحيم وبرِّ القرابة ، وإياك والآثرة ، والتبذير لأموال الرعية ، واشحن^(٢) الثغور ، واضبط الأطراف ، وأمن السبل وخصَّ الواسطة^(٣) ووسَّع المعاش ، وسكن العامة ، وأدخل المرافق عليهم ، واصرف المكاره عنهم ، وأعدَّ الأموال واخزنها . وإياك والتبذير ، فإن النوائب غير مأمونة ، والحوادث غير مضمونة ، وهى من شيم الزمان ، وأعدَّ الرجال والكرَاع^(٤) والجند ما استطعت . وإياك وتأخير عمل اليوم إلى غد ، فتتدارك عليك الأمور وتضع ، جدِّ في إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولاً فأولاً ، واجتهد وثمر فيها ، وأعدِّ رجلاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجلاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وباشر الأمور بنفسك ولا تضجر ، ولا تكسل ، ولا تفشل ، واستعمل حسن الظن بربك ، وأسئ الظن بمالك وكتائبك ، وخذ نفسك بالتيقظ ، وتفقد من يبيت على بابك ، وسهل إذنك للناس ، وانظر في أمر النزاع إليك ، ووكِّل بهم عيناً غير نائمة ، ونفساً غير لاهية ، ولا تتمَّ فإن أباك لم يتمَّ منذ وليَّ الخلافة ، ولا دخل عينه غمض إلا وقلبه مُستيقظ ، هذه وصيتي إليك ، والله خالفتي عليك .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢٢٠)

(١) جمع مثلة : وهى العقوبة .

(٢) أى الأمان بالمداخلة .

(٣) الترسطة

(٤) الكراع : اسم يجمع الخيل .

٣٥ - خطبة النفس الزكية حين خرج على المنصور

لما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بالنفس الزكية^(١) على المنصور ، قام على منبر المدينة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنه قد كان من أمر هذا الطاغية أبي حنيفة من بناء القبة الخضراء ، التي بناها معاندةً لله في ملكه ، وتصغيره الكعبة الحرام ، وإنما أخذ الله فرعون حين قال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » . وإن أحقَّ الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين ، والأنصار الموالين ، اللهم إنهم قد أحلوا حرامك ، وحرّموا حلالك وَعَمِلُوا بِغَيْرِ كِتَابِكَ ، وَغَيَّرُوا عَهْدَ نَبِيِّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَآمَنُوا مِنْ أَخْفَتَ ، وَأَخَافُوا مِنْ آمَنَتَ ، فَأَخْصِمِهِمْ عَدَدًا ، وَأَقْتَلِهِمْ بَدَدًا^(٢) ، وَلَا تُبْقِ عَلَى الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَدًا » .

(ذيل لأمال ص ١٢١)

(١) كان بنو هاشم - الطالبيون والعباسيون - قد اجتمعوا أخريبات مصر الأدي ، وتذاكروا حلهم وما هم عليه من الاضطهاد ، وما قد آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب ، وانفقوا على أن يدعوا الناس إليهم سرا ، ثم قالوا لا بد لنا من رئيس نبايعه ، فاففقوا على مبايعة النفس الزكية ، وكان من سادات بني هاشم ورجالهم فضلا وشرفا وعلما ، وشاء القدر أن يظفر العباسيون بالخلافة ، فوليا السفاح ثم المنصور ، ولم يكن للمنصور هم منذ تبوأ عرشها سوى طلب النفس الزكية ليقتله ، وأغراه بذلك أن الناس كانوا شديدى الميل إليه ، وكانوا يمتدنون فيه الفضل والشرف والرياسة ، فطلبه المنصور هو وأخاه إبراهيم من أبيهما عبد الله بن الحسن ، فقال لا علم لي بهما - وكانا قد تغيبا خوفا منه - فلما أطال عليه ، قال : كم تطول ؟ والله لو كانا تحت قدمي ، لما رفعتهما عنهما ، سبحان الله ! أتدرك بولدي لقتلهما ! فقبض عليه ، وعل أمه من بني الحسن وحبسهم في سجن السكوفة حتى ماتوا فيه كما تقدم ، ولم يزل النفس الزكية مقفورا منذ أفضت الدولة إلى بني العباس خوفا منه على نفسه ، فلما علم بما جرى لوالده واقومه ظهر بالمدينة وأظهر أمره ، وتبعه أعيان المدينة ، ثم غلب عليها ، وعزل عنها أميرها ، ورتب عليها حاملا وقاضرا ، فوجه المنصور لقتاله جيشا بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى ، فسكانت الغلبة لاسكر المنصور ، وقتل النفس الزكية ، وحمل رأسه إلى المنصور سنة ١٤٥ هـ . (٢) متبددين : متفرقين .

٣٦ - وصية عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي

لابنه محمد (أو إبراهيم)

ووصى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ابنه محمداً النفس الزكية (أو إبراهيم) ، فقال :

« أَيْ بُنَيَّ ، إِنْ مُودَّ حَقَّ اللَّهِ فِي تَأْدِيبِكَ ، فَأَدِّ إِلَيَّ حَقَّ اللَّهِ فِي الْإِسْتِمَاعِ مِنِّي ، أَيْ بُنَيَّ كُفِّ الْأَذَى ، وَارْفُضِ الْبِدْأَ ^(١) ، وَاسْتَعِنْ عَلَى الْكَلَامِ بِطَوْلِ الْفِكْرِ ، فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَدْعُوكَ فِيهَا نَفْسُكَ إِلَى الْكَلَامِ ، فَإِنَّ لِلْقَوْلِ سَاعَاتٍ يَضُرُّ فِيهَا الْخَطَأَ ، وَلَا يَنْفَعُ فِيهَا الصَّوَابُ . وَاحْذِرْ مَشُورَةَ الْجَاهِلِ وَإِنْ كَانَ نَاصِحاً ، كَمَا تَحْذِرُ مَشُورَةَ الْعَاقِلِ إِذَا كَانَ غَاشِئاً ، لِأَنَّهُ يُرْدِيكَ بِمَشُورَتِهِ . وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ رَأْيَكَ إِذَا احْتَجَّتْ إِلَيْهِ وَجَدْتَهُ نَاصِحاً ، وَوَجَدْتَهُ هَوَاكُ يَقْطَازُ ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْتَبَدَّ بِرَأْيِكَ ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ هَوَاكَ ، وَلَا تَفْعَلْ فِعْلاً إِلَّا وَأَنْتَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ عَاقِبَتَهُ لَا تُرْدِيكَ ، وَأَنَّ نَتِيجَتَهُ لَا تَجْنِيْ عَمَلِكَ »

(زهر الأداب ١ : ٩٢ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٠ ، ٢ : ٨٨)

٣٧ - قول عبد الله بن الحسن وقد قتل ابنه محمد

ولما قتل المنصور ابنه محمداً - وكان عبد الله في السجن - بَعَثَ بِرَأْسِهِ إِلَيْهِ مَعَ الرَّبِيعِ حَاجِبِهِ ، فَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ :

رَحِمَكَ اللَّهُ أَبَا الْقَاسِمِ ، فَقَدْ كُنْتُ مِنْ « الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْفُضُونَ الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » ، ثُمَّ تَمَثَّلَ :

(١) البداء : السفة والإنشائ في المنطق .

فَتَى كَانَ يَحْمِيهِ عَنِ الذِّلِّ سَيْفُهُ وَيَكْفِيهِ سَوَاءَ الْأُمُورِ اجْتِنَابُهَا
ثم التفت إلى الربيع ، فقال له : « قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا مدة ، ومن
نعيمك مثلها ، والموعِدُ اللهُ تعالى » قال الربيع : فما رأيتُ المنصور قطُّ أ كثرَ
انكساراً منه حين أبلغته الرسالة . (زهر الآداب ١ : ٩٥)

٣٨ - امرأة محمد بن عبد الله والمنصور

ولما قتل المنصور محمد بن عبد الله ، اعترضته امرأة معها صبيان ، فقالت :
« يا أمير المؤمنين ، أنا امرأة محمد بن عبد الله ، وهذان ابناه ، أيتمهما سيفك ،
وأضرعهما^(١) خوزك ، فناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تصعّر لها خدك ، فينأى
عنهما رِفْدُكَ ، أو لتعزّنك عليهما شوايك النسب ، وأواصِر^(٢) الرَّحِمِ » .
فالتفت إلى الربيع ، فقال : أردد عليهما ضياع أبيهما ، ثم قال : كذا والله أحبُّ
أن تكون نساء بني هاشم . (زهر الآداب ١ : ٩٦)

٣٩ - جعفر الصادق والمنصور

وكان أهل المدينة لما ظهر محمد بن عبد الله ، أجمعوا على حرب المنصور ونصر محمد ،
فلما ظهر المنصور أحضر جعفرًا الصادق^(٣) بن محمد الباقر ، فقال له : قد رأيتَ إطباق
أهل المدينة على حربى ، وقد رأيتُ أن أبعث إليهم من يعور^(٤) ويحمر^(٥) نخلهم ،
فقال له جعفر : « يا أمير المؤمنين ، إن سليمان أُعطي فشكر ، وإن أيوب ابتلى فصبر ،

(١) أذلما . (٢) أواصر جمع آصرة ، والآصرة : حبل صغير يشد به أسفل الحياض (وهي
أيضاً الرحم والقربة) . (٣) هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين
ابن الحسين عليه السلام وتوفى سنة ١٤٨ . (٤) فى الأصل « يعور » وأراه محرفاً ، وقد أصلحته
« يعور » يقال : عور البئر أى طمها وسد عيونها التى ينبع منها الماء . (٥) جمر النخل : قطع جماره .

وإن يوسف قدّر فقراً ، فاقتدِ بأيّهم شئتَ ، وقد جعلك الله من نسل الذين يعقون
ويصفحون » ، فقال أبو جعفر : إنَّ أحداً لا يعلّمنا الحلمَ ، ولا يعرفنا العلمَ ، وإنما قلتُ
هممتُ ، ولم ترني فعلتُ ، وإنك لتعلم أن قدرتي عليهم تمنعني من الإساءة إليهم .
(زمر الآداب ١ : ٩٦)

* * *

وروى صاحب العقد قال :

لما حج المنصور مرّاً بالمدينة ، فقال للربيع الحبيب : عليّ بجعفر بن محمد ، قتلني الله
إن لم أقتله ، فطُل به ، ثم ألحّ عليه ، فحضر ، فلما كُشِفَ الستر بينه وبينه ، ومَثَل
بين يديه ، همس جعفر بِشَفَتِيهِ ، ثم تقرب وسلّم ، فقال : « لاسلمَّ الله عليك يا عدوّ الله ،
تعمل على الفوائلِ في ما كفى ؟ قتاني الله إن لم أقتلك » . قال : « يا أمير المؤمنين ،
إن سليمان صلى الله على محمد وعليه أعطى فشكر ، وإن أيوبَ ابتلى فصبر ، وإن يوسفَ
ظلم فففر ، وأنت على إرثٍ منهم ، وأحقُّ من تأسّى بهم » ، فنكس أبو جعفر رأسه ملياً
وجعفر واقف ، ثم رفع رأسه ، وقال : « إلىّ أبا عبد الله فأنت القريب القربة ، وذو الرحم
الواشجة ^(١) ، السليم الناحية ، القايل الغائلة » ، ثم صاحهُ بيمينه ، وعانقه بشماله ، وأجلسهُ
معهُ على فراشه ، وانحرف له عن بعضه ، وأقبل عليه بوجهه يحادثه ويسأله ، ثم قال :
باربيع ، عجل لأبي عبد الله كِسوته وجأزته وإذنه .
(المقدم الفريد ١ : ١٤٥)

٤٠ - صفح المنصور عن سفیان بن معاوية بن يزيد بن المهلب

ولما داهنَ سُفیانُ بن معاوية بن يزيد بن المهلب في شأن إبراهيم بن عبد الله^(١) ،
وصار إلى المنصور ، أمر الربيعَ بخلع سواده ، والوقوف به على رعوس اليمانية
في المقصورة يوم الجمعة ، ثم قال : قل لهم :

« يقول لكم أمير المؤمنين قد عرفتم ما كان من إحساني إليه ، وحسن بلائي ،
وقديم نعمتي عليه ، والذي حاول من الفتنة ، ورام من البغي ، وأراد من شق العصا
ومعاونة الأعداء ، وإراقة الدماء ، وإنه قد استحق بهذا من فعله ، أليم العقاب ، وعظيم
العذاب ، وقد رأى أمير المؤمنين إتمام بلائه الجميل لديه ، ورب^(٢) نعمائه السابقة عنده
لما يتعرفه أمير المؤمنين من حسن عأدة الله عليه ، وما يؤمله من الخير العاجل والآجل ،
عند العفو عن ظلم ، والصفح عن أساء ، وقد وهب أمير المؤمنين مسيئهم لمُحْسِنِهِمْ ،
وغادرهم لوفِيهِمْ » .
(البيان والتبيين ٣ : ١٨٥)

٤١ - استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور

ولما انهزم عبد الله بن علي^(٣) من الشام قديم على المنصور وقد منهم ، فقام عدة
منهم ، فتكلموا ، ثم قام الحارث بن عبد الرحمن الغفاري ، فقال : « يا أمير المؤمنين

(١) هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، أخو النفس الزكية ،
وقد خرج على المنصور بالبصرة ، فوجه إليه المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى بعد رجوعه من قتل
النفس الزكية فقاتله وقتل إبراهيم في المعركة سنة ١٤٥ هـ .

(٢) رب الشيء : جمعه وزاده ، ورب الصبي : ربه حتى أدرك .

(٣) هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس عم المنصور ، وكان قد خرج عليه بالشام ، وقال : إن
السفاح قال لي إن ظهرت على مروان الخدي - وكان السفاح أرسله لقتال مروان بالشام - فأنت ولي العهد
بمدي ، وشهد له جماعة بذلك . فأرسل المنصور أبا مسلم الخراساني لهاربه فهزمه ، وهرب عبد الله إلى
البصرة ، وذل هل أخيه سايهان بن علي ، فشفع فيه سايهان إلى المنصور فأمنه ، فلما جاء إليه حبه ومات
في حبه ، وقيل إنه بنى له بيتا ، وجعل في أساسه ملحما ، ثم أجزى الماء فيه ، فذقت الريح عليه فمات .

إنا لسنا وفدٌ مباحةٍ ، وإنما نحن وفدٌ توبةٍ ، وإنا ابتلينا بفتنةٍ استخفت كرمنا ، واستفرت حلیمنا ، ونحن بما قدمنا مُعترفون ، وبما سلف منا مُعترفون ، فإن تُعاقبنا فبما أجرنا . وإن تعفُ عنا فيفضلك علينا . فاصفح عنا إذ ملكت . وأمنن إذ قدرت . وأحسنن إذ ظفرت ، فطالما أحسنتَ إلى من أساء مِنَّا » ، فقال المنصور : قد فعلت . ثم قال للحرسِ : هذا خطيبهم ، وأمر برد ضياعه عليه بالفوطة ^(١) .

(العقد الفردي ١ : ١٤٤ : وتاريخ العبري ٩ : ٣٠٧ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٨)

٤٢ - استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور أيضا

وقال عثمان بن خزيم للمنصور ، حين عفا عن أهل الشام في إجلائهم ^(٢) مع عبد الله بن عليّ عمه : « يا أمير المؤمنين ، لقد أعطيتَ فشكرتَ وابتليتَ فصبرتَ ، وقدّرتَ فعفوتَ » .

وقال آخر : « يا أمير المؤمنين ، الانتقامُ عدلٌ ، والتجاوزُ فضلٌ ، والمنفصلُ قد جاوز حدَّ النُصفِ ، فنحن نُعيدُ أمير المؤمنين بالله أن يرَضَى لنفسه بأوكس ^(٣) النصيبين ، دون أن يبلغ أرفع الدرجتين » .

وقال آخر : « من انتقم فقد شفى غيظَ نفسه ، وأخذ أنصَى حقّه ، وإذا انتقمَ فقد انتقصت ^(٤) ، وإذا عفوت تطوّلت ^(٥) . ومن أخذ حقّه ، وشفى غيظَه ، لم يجب شكرُه ، ولم يُذكر في العالمين فضله . وكظُم الغيظُ حِلْمٌ ، والحِلْمُ صَبْرٌ ، والتشقى طَرْفٌ من العجز ^(٦) ، ومن رَضِيَ ألا يكون بين حاله وبين حال الظالم إلا ستر رقيق ،

(١) كورة دمشق .

(٢) في الأصل « إجلائهم » وهو تحريف ، والصواب « إجلائهم » أي في فتنتهم وهياجهم من الجلبة بالبحر والرياح . (٣) من الوكس كوعد : وهو النقصان .

(٤) أي انتقص حَقك فخرجنا عليك ، فحقك الانتقام منا لأخذ حَقك .

(٥) تطول عليه : أمن وتفضل . (٦) وفي زهر الآداب : « من الجزع » .

وحجابٌ ضعيف ، لم يجزم في تفضيل الحلم ، وفي الاستيثاق من ترك دواعي الظلم ، ولم تر أهل النهي . والمنسويين إلى الحِجَابِ والتُّقَى ، مدَحُوا الحُكَّامَ بشدة العقاب . وقد ذكروهم بحسن الصَّنِيعِ ، وبكثرة الاغتفار ، وشدة التغافل . وبعدُ ، فالعاقِبِ مستعدٌ^(١) لعداوة أولياء المذنب ، والعاقِبِ مستدعٍ لشكرهم . آمِنٌ من مكافاتهم^(٢) أيام قُدْرَتِهِمْ ، ولأنَّ يُثْنِي عليك باتساع الصدر ، خير من يُثْنِي عليك بضيق الصدر^(٣) ، على أن إقالتك عثرة عباد الله ، مُوجِبٌ لإقالتك عثرتك من رب عباد الله . وعفوك عنهم موصول بعفو الله عنك ، وعقابك لهم موصولٌ بعقاب الله لك . قال الله عزَّ وجلَّ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٨)

٤٣ - أبو جعفر المنصور والربيع

وقال سعيد بن مُسْلِمٍ بن قُتَيْبَةَ : دعا المنصور بالربيع^(٤) ، فقال : سَلْنِي ما تريد ، فقد سكتَ حتى نطقتَ ، وخففتَ حتى ثقلتَ . وتَلَّتَ حتى أكثرتَ ، فقال : « وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا أَرْهَبَ بِحُلِّكَ وَلَا أَسْتَقْصِرُ عُمرَكَ . وَلَا أَسْتَصْغِرُ فَضْلَكَ ، وَلَا أَعْتَمُّ مَالَكَ ، وَإِنْ يَوْمِي بِفَضْلِكَ عَلَيَّ أَحْسَنُ مِنْ أَمْسِي ، وَغَدُكَ فِي تَأْمِيلِي أَحْسَنُ مِنْ يَوْمِي . وَلَوْ جَازَ أَنْ يَشْكُرَكَ مِثْلِي بغيرِ الخِدْمَةِ وَالْمَنَاصِحَةِ لَمَا سَبَقْتَنِي لَدُنْكَ أَحَدٌ » قال : صدقتَ ، علي بهذا منك أحلَّكَ هذا الخُلِّ ، فَسَلْنِي ما شئتَ ، قال : أسألك أن تقربَّ عبدك « الفضل^(٥) » وتؤثره وتحميه ، قال : ياربيع ، إن الحُبَّ ليس بمال يوهب

(١) وفي زهر الآداب : « مستودع » . (٢) مجازاتهم .

(٣) وفي زهر الآداب : « خير من أن توصف بضيقه » .

(٤) هو أبو الفضل الربيع بن يونس ، وزر المنصور ، وكان موهباً فصيحاً كافياً حازماً فطناً ، ولم يزل وزيراً للمنصور إلى أن مات المنصور . وقام للربيع بأخذ البيعة للمهدى ، ثم سعى به أعدؤه إلى الهادي ،

فقتله سنة ١٧٠ هـ . (٥) هو ابنه الفضل بن الربيع ، وقد وزر للرشيدي بعد البرامكة ، وابنه الأمين

ولا رتبة تُبَدَّل ، وإنما تَوَكَّدَه الأسبابُ ، قال : فاجعل لى طريقاً إليه ، بالتفضل عليه ، قال : صدقت . وقد وَصَلْتُهُ بألف درهم ، ولم أصل بها أحداً غير عُموْمَتى ، لتعلم ماله عندى . فيكون منه ما يستدعى به محبتي ، قال : فكيف سألت له المحبة ياربيع ؟ قال : لأنها مفتاح كل خير ، ومِفْلاق كل شرٍّ ، تُسْتَرَّ بها عندك عيوبه ، وتصيرُ حَسَنَاتٍ ذُنُوبُهُ . قال : صدقت .

(زهر الآداب ٢ : ١٦٣)

٤٤ - مقام عمرو بن عميد بين يدي المنصور

دخل عمرو^(١) بن عميد على المنصور بعد ما بايع للهدي ، فقال له : يا أبا عثمان ، هذا ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، فقال له عمرو : يا أمير المؤمنين ، أراك قد وطَّدت له الأمور ، وهى نصير إليه . وأنت عنه مستول ، فاستعبر المنصور ، وقال له : عِظْنى يا عمرو ، قال : « يا أمير المؤمنين : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منها ببعضها ، وإن هذا الذى فى يديك ، لو بقى فى يد غيرك لم يصل إليك . فأحذر ليلة تمخَّضُ عن يوم لا ليلة بعده ، فوجم أبو جعفر من قوله ، فقال له الربيع : يا عمرو غمَّت أمير المؤمنين ، فقال عمرو : إن هذا صحبك عشرين سنةً ، لم يرَ لك عليه أن ينصحك يوماً واحداً . وما عمِلَ وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه ، قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ قد قلت لك ، خائمي فى يدك ، فتعال وأصحابك فاكفنى ، قال عمرو : أدعنا بعدلك ، تسخُ أنفسنا بعونك ، بيارك ألف مظلمة ، أردد منها شيئاً نعلم أنك صادق . »

(مروج الذهب ٢ : ٢٢٤ ، وحيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٧ ، ووفيات الأعيان

١ : ٣٨٤ ، والقد القرية ١ : ٣٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٤٨)

٤٥ - مقام رجل من الزهاد بين يدي المنصور

بما المنصور يطوف ليلاً إذ سمع قائلاً يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحُول بين الحق وأهله من الطمع ، نخرج المنصور ، فجلس ناحية من المسجد ، وأرسل إلى الرجل يدعوه ، فصلى الرجل ركعتين ، واستلم الركن . وأقبل مع الرسول ، فسلم عليه بالخلافة ، فقال المنصور : ما الذي سمعتك تذكر من ظهور البغي والفساد في الأرض ؟ وما الذي يحُول بين الحق وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني^(١) ، قال : يا أمير المؤمنين إن أمننتني على نفسي ، أنباتك بالأمر من أصولها . وإلا احتجزت منك . واقتصرت على نفسي ، ففيها لي شاعِلٌ ، فقال : أنت آمنٌ على نفسك فقل ، فقال : يا أمير المؤمنين إن الذي دخله الطمع ، حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغي والفساد لأنت ، قال : ويحك ، وكيف يدخلني الطمع ، والصفراء والبيضاء^(٢) في قبضتي ، والخلو والحامض عندي ؟ قال : وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك ؟ إن الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر . وأبواباً من الحديد . وحجبةً معهم السلاح ، ثم سجنك فيها عنهم ، وبعثت عمالك في جباية الأموال وجمعها ، وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع ، وأمرت ألا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان ، نفرٌ سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ، ولا الجائع العارى ، ولا الضعيف الفقير ، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق ، فلما رأك هؤلاء نفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت ألا يُحجبوا عنك ، تجبى الأموال وتجمعها ولا تقسمها ، قالوا : هذا

(١) أوجنى وآنى . (٢) الصفراء والبيضاء : الدنانير والدراهم .

قد خان الله ، فما بالنا لانحونه وقد سَجَنَ لنا نفسه ؟ فَأَتَمَّرُوا بِالْأَيُّمِ إِلَى يَوْمِ الْيَوْمِ ، فَمَا يَخْرُجُ لَكَ عَامِلٌ ، فَيُخَالِفُ أَمْرَهُمْ إِلَّا قَصَبَهُ (١) عندك ونفوه ، حتى تسقط منزلته ، ويصفر قدره ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم ، أعظمهم الناس وهابهم ، فكان أول من صنعهم عمالاً بالهدايا والأموال ، ليقووا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو التدرية والثروة من رعيتك ، لينالوا به ظلم من دونهم فامتلات بلادُ الله بالطمع بغيًا وفسادًا ، وصار هؤلاء القوم شرَّ كءك في سلطانك ، وأنت غافل ، فإن جاء متظلم حيلَ بينه وبين دخول مدينتك ، فإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك ، وجدك قد نهيت عن ذلك ، وأوقفت للناس رجالا ينظر في مظالمهم ، فإن جاءك ذلك الرجل ، فباع بطانتك خبره ، سألوا صاحب المظالم ألا يرفع مظلمته إليك ، فإن المتظلم منه له بهم حرمة ، فأجابهم خوفًا منهم ، فلا يزال المظلوم يحتلف إليه ، ويلوذ به ، ويشكو ويستنيث ، وهو يدفعه ويعتلّ عليه ، فإذا أجهد وأخرج وظهرت ، صرَّحَ بين يديك ، فضرب ضربًا مبرِّحًا ليكون نكالًا لغيره ، وأنت تنظر فلا تُنكر ، فما بقاء الإسلام على هذا ؟ وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين فقدمتها مرة ، وقد أصيب ما كها بسمعه ، فبكي يومًا بكاء شديدًا ، فثَّه جاساؤه على الصبر ، فقال : أما إني لست أبكي للبلية النازلة بي ، ولكني أبكي لمظلوم بالباب يصرَّح ، ولا أسمع صوته ، ثم قال : أما إذا ذهب سمعي ، فإن بصرى لم يذهب ، نادوا في الناس ألا يابس ثوبًا أحمر إلا متظلم ، ثم كان يركب الفيل طرفي نهاره ، وينظر هل يرى مظلومًا ؟ فهذا يا أمير المؤمنين مُشْرِكُ بالله ، غابت رأفته بالمشركين شح نفسه ، وأنت مؤمن بالله ، ثم من أهل بيت نبيه ، لا تغلب رأفتك بالمسلمين على شح نفسك ؟ فإن كنت إنما تجمع المال لولدك ، فقد أراك الله عبرًا في الطفل ، يسقط من بطن أمه ،

(١) عابوه وشتموه ، وفي العقد الفريد : « غونوه » .

وما له على الأرض مالٌ، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله يَلطُفُ بذلك الطفل، حتى تعظم رغبة الناس إليه، ولست بالذى تعطى، بل الله يعطى من يشاء ماشاء، وإن قلتَ إنما أجمع المال لتشديد السلطان، فقد أراك الله عِبرًا في بنى أمية، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة، وأعدُّوا من الرجال والسلاح والكراع، حتى أراد الله بهم ما أراد، وإن قلتَ إنما أجمع لطالب غاية هي أجسم من الغاية التي أنا فيها فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلةٌ، لا تُدرِك إلا بخلاف ما أنت عاياه يا أمير المؤمنين، هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل؟ قال المنصور: لا، قال: فكيف تصنع بالملك الذى خوّلك مُلكَ الدنيا، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل؟ ولكن بالخلود فى العذاب الأليم، قد رأى ما قد عُقدَ عليه قلبك، وَعَمَلتَهُ جوارحك، ونظر إليه بصرك، واجترحتَه^(١) يدك، ومشت إليه رجلاك، هل يُغنى عنك ماشحت عاياه من مُلك الدنيا إذا انتزعه من يدك، ودعاك إلى الحساب؟ فبكى المنصور وقال: يا ليتنى لم أُخلَق، ويحك! فكيف أحتال لنفسي؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن للناس أعلامًا يَفزَعون إليهم فى دينهم، ويرضون بهم، فاجعلهم بطانتك يرشدوك، وشاورهم فى أمرك يسدّدوك، قال: قد بعثت إليهم فهربوا منى، قال: خافوا أن تحملهم على طريقتك، ولكن افتح بابك، وسهّل حجّابك، وانصر المظلوم، واقمع الظالم، وخذ النىء والصدقات مما حل وطاب، واقسمه بالحق والعدل على أهله، وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ويُعدّوك على صلاح الأمة»، وجاء المؤذنون، فسلموا عليه، فصلى وعاد إلى مجلسه، وَطَلِبَ الرجل فلم يوجد.

(عبود الأخبار ٢ م : ٢٢٢، والمعقد الفريد ١ : ٢٠٤)

٤٦ - مقام الأوزاعي بين يدي المنصور

قال الأوزاعي^(١) : دخلت على المنصور ، فقال لي : ما الذي بطأ بك عنى ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، وما الذي تريد منى ؟ فقال : الاقتباس منك ، قلت : أنظر ماتقول ، فإن « مكحولاً^(٢) » حدثني عن عطية بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من بلغه عن الله نصيحة في دينه ، فهي رحمة من الله سبقت إليه ، فإن قبلها من الله بشكر ، وإلا كانت حجة من الله عليه ، ليزداد إثمًا ، ويزداد عليه غضبًا ، وإن بلغه شيء من الحق فرضى فله الرضا ، وإن سخط فله السخط ، ومن كرهه فقد كره الله لأن الله هو الحق المبين » فلا تجهلن ، قال : وكيف أجهل ؟ قال : تسمع ولا تعمل بما تسمع ، قال الأوزاعي : فسل على الربيع السيف ، وقال : تقول لأمر المؤمنين هذا ؟ فاتهره المنصور وقال : أمسك ، ثم كلمه الأوزاعي ، وكان في كلامه أن قال :

« إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذي أصبحت به ، والله سأثلك عن صغيرها وكبيرها ، وفتياها وتغيرها^(٣) ، ولقد حدثني عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من راع يبيت غاشًا لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة » فحقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظرًا ، ولما استطاع من عوراتهم ساترًا ، وبالقيسط

(١) هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ، إمام أهل الشام ، ولم يكن لها أعلم منه . وله ببغداد سنة ٥٨٨ هـ ، وتوفى سنة ١٥٧ ببيروت . والأوزاعي : نسبة إلى أوزاع ، وهي بطن من ذرية الكلاب من اليمن ، وقيل : بطن من همدان ، وقيل الأوزاع : قرية بدمشق ، ولم يكن عبد الرحمن منهم ، وإنما زل فيهم : فنسب إليهم ، وهو من سبى اليمن .

(٢) هو مكحول بن عبد الله الشامي ، معلم الأوزاعي ، وكان من سبى كابل ، وقع إلى سعيد بن العاص ، فوهبه لامرأة من هذيل فأعتقه ، قال الزهري : العلماء أرومة : سعيد بن المهلب بالمدينة ، والشعبي بالكوفة ، والحسن البصري بالبصرة ، ومكحول بالشام ، ولم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا ، وسمع أنس بن مالك وغيره ، وكان مقامه بدمشق ، وتوفى سنة ١١٨ هـ .

(٣) الفتيل : السحاة التي في شق النوة ، والتغير : النقرة التي في ظهر النواة .

فما بينهم قائماً ، لا يتخوفُ مُحْسِنُهُمْ مِنْهُ رَهَقًا^(١) ، ولا مُسِيئُهُمْ عُدْوَانًا ، فقد كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ، ويردع عنه المناققين ، فأتاهُ جبريل فقال : « يا محمد ، ما هذه الجريدةُ بيديك ! اذفِها لامتلاء قلوبهم رُعبًا » فكيف من سفك دماءهم ، وشققَ أبقارهم ، وأنهب^(٢) أموالهم ؟ يا أمير المؤمنين : إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، دعا إلى القصاص من نفسه بِمُحْدِثِ خَدَشِهِ أَعْرَابِيًّا لم يتعمده ، فهبط جبريل ، فقال : « يا محمد ، إن الله لم يبعثك جَبَّارًا تَكْسِرُ قُرُونِ أُمَّتِكَ » واعلم أن كل مافي يدك لا يَعدِلُ شَرِبَةَ مِنْ شَرَابِ الْجَنَّةِ ، ولا تَمْرَةَ مِنْ ثَمَارِهَا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَقَابُ^(٣) قَوْسٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ، أَوْ قُدَّةٌ^(٤) خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا بِأَسْرَهَا » إن الدنيا تنقطع ويَزولُ نعيمها ، ولو بقى الملكَ لِمَنْ قَبْلَكَ لم يصل إليك يا أمير المؤمنين ، ولو أن ثوبًا من ثياب أهل النار عُلِقَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَأَذَاهُمْ ، فكيف من يتقَّمصه ؟ ولو أن ذنوبًا^(٥) من صديد أهل النار صُبَّ على ماء الأرض لَأَجَنَّهُ^(٦) ، فكيف بمن يتجرَّعه ؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وُضِعَتْ على جبل لذاب ، فكيف من سُلِكَ^(٧) فيها ، وَيُرَكَّدُ فُضَاهُهَا على عاتقه ؟ وقد قال عمر بن الخطاب : « لا يَقُومُ أَمْرَ النَّاسِ إِلَّا حَصِيفٌ^(٨) الْعُقْدَةُ ، بَعِيدُ الْغِرَّةِ^(٩) لا يَطَّلِعُ النَّاسُ مِنْهُ عَلَى عَوْرَةٍ ، وَلَا يُحْتَقِ فِي الْحَقِّ عَلَى جِرَّةٍ^(١٠) ، وَلَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لِأُمِّ » .

واعلم أن السلطان أربعة : أمير يَظْلِفُ^(١١) نفسه وُعمَّاله ، فذلك له أجرُ الجهاد في سبيل الله ، وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويدُ الله بالرحمة على رأسه تُرْفَرَفُ ، وأمير رَتَعَ وَرَتَعَ عُمَّالَهُ ، فذلك يَحْمِلُ أَثْقَالَهُ وَأَثْقَالَ مَعِ أَثْقَالِهِ ، وأمير يَظْلِفُ نَفْسَهُ ،

(١) ظلما . (٢) جعلها نهبًا يغار عليه . (٣) القاب : ما بين المقبض والسية (وسية للقوس كعدة : ما عطف من طرفيها) . (٤) رمش السهم . (٥) الذنوب : الدلو . (٦) جملة آجنا أى متغير الطعم والون . (٧) قيد . (٨) حصف الرجل ككرم : استحجم عقله فهو حصيف ، وأحصف الحيل : أحكم نظره . (٩) الغفلة . (١٠) أحتق : حقد حقدًا لا ينحل ، وأحتق الصلب : لزق بالطن ، والجرة ما يقبض به الهمير فيأكله ثانية ، والمراد أنه لا يضر الحقد والحقق . (١١) يكف .

ورجع عماله ، فذاك الذي باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع ويظلفُ عماله ، فذاك شر الأكياس .

واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم ، عُرض على السموات والأرض والجال ، فأبين أن يحمله وأشقن منه ، وقد جاء عن جدك في تفسير قول الله عز وجل : « لَا يُفَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » أن الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك ، وقال : فما ظنكم بالكلام وما عملته الأيدي ؟ فأعيزك بالله أن يُخيل إليك أن قرابتك برسول الله صلى الله عليه وسلم تنفع مع المخالفة لأمره ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا ضيفه عمّة محمد ، ويا فاطمة بنت محمد ، استوهبها أنفسكما من الله ، إني لا أغني عنكما من الله شيئا ، وكان جدك الأكبر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة ، فقال : « أي عم ، نفس تُحْيِيهَا ، خير لك من إمارة لا تُحْيِيهَا » نظرًا لهمة ، وشفقةً عليه أن يلي فيجور عن سنته جناح بعوضة ، فلا يستطيع له نفعاً ، ولا عنه دفعا ، هذه نصيحتي إن قبلتها فلنفسك عملت ، وإن ردّدتها فنفسك تحسنت ، والله الموفق للخير والمعين عليه ، قال : بلى ، نقبلها ونشكر عليها ، وبالله نستعين .

(المقدم الفريد ١ : ١٠٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٨)

٤٧ - نصيحة يزيد بن عمر بن هبيرة للمنصور

ودخل يزيد بن عمر بن هبيرة^(١) على أمير المؤمنين المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين : توسّع توسعاً قُرُشِيًّا ، ولا تضقّ ضيقاً حِجَازِيًّا .

ويروى أنه دخل يوماً ، فقال له المنصور حدثنا ، فقال : « يا أمير المؤمنين :

(١) ولي قنشرين الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وجمع له مروان بن محمد ولاية البصرة والسكوفة ، وكان آخر من جمع له المراقان من الولاة ، ولما استظهرت عليه جيوش خراسان ، وهزمت عسكره لحق بمدينة واسط ، فخصم بها . ولما بويج السفاح بالخلافة وجه أخاه أبا جهفر المنصور لقتاله ، فحصره بواسط شهورا ، ثم أمته وانتزع البلد صلحا ، ثم قتل .

إن سلطانكم حديث ، وإمارتكم جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوة عدلها ، وجنبوهم مرارة جورها ، فوالله يا أمير المؤمنين ، لقد مَحَضْتُ^(١) لك النصيحة « ثم نهض فنهض معه سبعمائة من قيس ، فأنارَه^(٢) المنصور بصره ، ثم قال : لا يعزُّ مُلْكٌ يكون فيه مثلُ هذا ! .

(تهذيب الكامل ١ : ٢٨)

٤٨ - معن بن زائدة والمنصور

ودخل مَعْن^(٣) بن زائدة الشَّيباني على أبي جعفر المنصور وقد أسنَّ ، فقارب في خَطْوِه ، فقال له المنصور : لقد كبرت سِنُّكَ يا معن ، قال : في طاعتك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنك لجلد ، قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنَّ فيك كَبِيعَةٌ ، قال : هي لك يا أمير المؤمنين ، قال : فأى الدولتين أحبُّ إليك ، هذه أم دولة بني أمية ؟ قال : ذلك إليك يا أمير المؤمنين ، إن زاد بِرْكَ على برهم كانت دولتك أحب إلى .

(البيان والتهيين ٣ : ٢٢٩ ، ووفيات الأعيان ٢ : ١٠٩ : زهر الآداب ٣ : ١٦١)

٤٩ - معن بن زائدة وأحد زواره

ودخل رجل على مَعْن بن زائدة ، فقال : ما هذه القَيْبَةُ ؟ فقال : « أيها الأمير ، ما غابَ عن العين مَنْ يذكُرُه القلبُ وما زال شوقِي إلى الأمير شديداً ، وهو دون

(١) أخلصت . (٢) أنارَه البحر : أتيه إياه ، وحدد إليه النظر .

(٣) كان جواداً شجاعاً جريلاً العطاء كثير المعروف ، وكان في أيام بني أمية منتقلاً في الولايات ، منقطعا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمير المراقين ، فلما انتقلت الدولة إلى بني العباس ، وحاصر المنصور يزيد بمدينة واسط كما قدمنا ، أبلى يومئذ معن مع يزيد بلاء حسناً ، فلما قتل يزيد خاف ممن من أبي جعفر المنصور ، فاستتر عنه مدة ، ولم يزل مستتراً حتى كان يوم الهاشمية ، وذلك أن جماعة من أهل خراسان ناروا على المنصور ، وجرت مقتلة عظيمة بينهم وبين أصحاب المنصور بالهاشمية - وهي مدينة بناها السفاح بالقرب من الكوفة - وكان معن متوارياً بالقرب منهم ، فخرج متنكراً معاً متألماً ، وتقدم إلى القوم ، وقا تل قدام المنصور فقال أبان فيه من نجدة وشهامة وفرقهم ، فلما أفرج عن المنصور ، قال له : من أنت وبمك ؟ -

ما يَجِبُ لَهُ ، و ذكرى له كثيراً وهو دون قدره ، ولكن جَفْوَةَ الْحُجَّابِ ، وَ قِوَّةَ
بِشْرِ الْعِلْمَانِ ، منعاني من الإكثار ، فأمر بتسهيل حجابي ، وأجزل صلته .
(زهر الآداب ٣ : ١٦١)

٥٠ - المنصور وأحد الأعراب

ودخل أعرابي على المنصور فتكلم ، فأعجب بكلامه ، فقال له : سل حاجتك ،
فقال : يُبْقِيكَ اللهُ ، وَيَزِيدُ فِي سُلْطَانِكَ ، فقال : سل حاجتك ، فإيس في كل وقت
تؤمّر بذلك ، قال : « ولم يا أمير المؤمنين ، فوالله ما أستقصِرُ عمرك ، ولا أخاف
بُخْلَكَ ، ولا أغتَنِمُ مالك ، وإن سؤلك لشرف ، وإن عطاءك لزَيْنٌ ، وما بامرئ
بَدَلَ وَجْهَهُ إِلَيْكَ نَقْصٌ وَلَا شَيْءٌ » . فأحسن جائزته وأكرمه .

(الصناعاتين ص ٤١ ، العقد الفريد : ١٣٩)

٥١ - أعرابية تعزى المنصور وتهنئه

وروى القلقشندى قال : تعرّضت أعرابية للمنصور في طريق مكة بعد وفاة
أبي العباس السّفّاح ، فقالت :

« يا أمير المؤمنين ، اِحْتَسِبِ الصَّبْرَ ، وَقَدِّمِ الشُّكْرَ ، فَقَدْ أَجْزَلَ اللهُ لَكَ الثَّوَابَ
فِي الْحَالِيْنَ ، وَأَعْظَمَ عَلَيْكَ الْمِنَّةَ فِي الْحَادِثِيْنَ ، سَلِّبِكَ خَلِيفَةَ اللهِ ، وَأَفَادَكَ خِلَافَةَ اللهِ ،
فَسَلِّمْ فِيمَا سَلَّبِكَ ، وَاشْكُرْ فِيمَا مَنَحَكَ ، وَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحَارَلَكَ
فِيمَا مَلَكَكَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ » .

== فقال : أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائد ، فأمنه المنصور وأكرمه ، وصار من خواصه ، وروى
سجستان في أواخر أمره ، فلما كانت سنة ١٥١ اندس قوم من الخوارج بين صنّاع كانوا يعملون في داره
بمدينة بخت ، فقتلوه وهو يحتجم ، وتجهّم ابن أخيه يزيد بن يزيد بن زائدة ، فقتلهم بأسرهم .

وروى الجاحظ قال : عَزَّتْ امرأةُ المنصور عن أبي العباس مقدّمه من مكة ، قالت :
« أعظم الله أجرك ، فلا مصيبة أجلُّ من مصيبتك ، ولا عِوَضُ أعظم من خلافتك » .
(صبح الأعشى ٩ : ٢٧٨ ، والبيان والتهيين ٢ : ٥٥)

٥٢ - خطبة محمد بن سليمان^(١) يوم الجمعة (وكان لا يزيها)

الحمد لله ، أحمده وأستعينه وأستغفره ، وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى
ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، من يعتصم بالله ورسوله ،
فقد اعتصم بالعرُوة الوثقى ، وسعد في الأولى والآخرة ، « وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا وَخَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ، أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يُطِيعه
وَيُطِيع رسوله ، ويتبع رضوانه ، ويتجنب سُخطه ، فإنما نحن له وبه . أوصيكم عباد الله
بتقوى الله ، وأحسكم على طاعة الله ، وأرضى لكم ما عند الله ، فإن تقوى الله أفضل
ما تحاثَّ الناس عليه ، وتداعوا إليه ، وتواصوا به ، فاتقوا الله ما استطعتم ، وَلَا تَمُوتُنَّ
إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .
(البيان والتهيين ٢ : ٦٥)

٥٣ - وصية مسلم بن قتيبة

وقال مُسلم بن قتيبة^(٢) : « لاتطابنَّ حاجتك إلى واحد من ثلاثة : لاتطلبها
إلى الكذّاب ، فإنه يُقربها وهي بعيدة ، ويبعدها وهي قريبة ؛ ولا تطلبها إلى الأحمق ،

(١) هو محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان عامل البصرة في خلافة أبي جعفر المنصور
رتوف سنة ١٧٣ في خلافة الرشيد .

(٢) استشاره المنصور في قتل أبي مسلم ، فقال : ماترى في أمره ؟ قال : « لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ

إِلَّا اللَّهَ لَفَسَدَتَا » فقال : حسبك يا بن قتيبة ، لقد أودعتها أدنا واعي (وفيات الأعيان ١ : ٢٨٢) .

فإنه يريد أن ينفك وهو يضرک ؛ ولا تطلبها إلى رجل له عند قوم مأکلة ، فإنه يجعل حاجتك وقاءً لحاجته .
(الأمال : ٢ : ١٩٠)

٥٤ - خطبة المهدي (توفي سنة ١٦٩ هـ)

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه ، ورضى به من خلقه ، أحده على الآئته^(١) ، وأجده لبلائه^(٢) ، وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه توكل راضٍ بقضائه ، وصابر لبلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده المصطفى ، ونبيه المجتبي^(٣) ، ورسوله إلى خلقه وأمينه على وحيه ، أرسله بعد انقطاع الرجاء ، وطُمُوس^(٤) العلم ، واقتراب من الساعة ، إلى أمة جاهلية ، مختلفة أممية ، أهل عداوة وتضاعن ، وفرقة وتباين ، قد استهوتهم شياطينهم ، وغلب عليهم قرناؤهم^(٥) ، فاستشعروا الردى ، وساكوا العمى ، يبشر من أطاعه بالجنة وكريم ثوابها ، وينذر من عصاه بالنار وأليم عقابها ، « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن الاقتصار عليها سلامة ، والترك لها ندامة ، وأحشكم على إجلال عظمته ، وتوقير كبريائه وقدرته ، والاتهاء إلى ما يقرب من رحته وينجى من سخطه ، ويُنَالُ به مالهديه ، من كريم الثواب ، وجزيل المآب ، فاجنبوا ما خوفكم الله من شديد العقاب ، وأليم العذاب ، ووعيد الحساب ، يوم توفقون بين يدي الجبار ، وتعرضون فيه على النار « يَوْمَ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَمِنْهُمْ شِقْقٌ وَسَعِيدٌ ؛ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ أُمَّرٍ

(١) نعمه ، والمفرد إلى كحمل وشمس ، وألوكشمس ، وأل كصا وإل كرضا .

(٢) البلاء : يكون منحة ، ويكون محنة . (٣) الخغار . (٤) الدروس والانشاء .

(٥) القرين : المصاحب ، والشيطان : المقرون بالإنسان : لا يفارقه .

مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ؛ يَوْمَ لَا يُجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ؛ يَوْمَ لَا يُجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغْرُبَنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَفْرُتَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ » ، فإن الدنيا دار غرور ، وبلاء وشرور ، واضمحلال وزوال ، وتقلب وانتقال ، قد أفنت من كان قبلكم ، وهي عائدة عليكم وعلى من بعدكم ، من ركن إليها صرعته ، ومن وثق بها خاتته ، ومن أملها^(١) كذبتة ، ومن رجاها خذلتة ، عزها ذل ، وغناها فقر ، والسعيد من تركها ، والشقي فيها من آثرها ، والذغيبون فيها من باع حظَّه من دار آخرته بها ، فالله عباد الله ، والتوبة مقبولة ، والرحمة مبسوطة ، وبادروا بالأعمال الزكية^(٢) ، في هذه الأيام الخالية ، قبل أن يؤخذ بالكظم^(٣) ، وتندموا فلا تنالون الندم ، في يوم حسرة وتأسف ، وكآبة وتلهف ، يوم ليس كالأيام ، وموقف ضنك المقام . إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ، يقول الله تبارك وتعالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، ألهاكم التكاثر حتى زرئتم المقابر - إلى آخر السورة - أوصيكم عباد الله بما أوصاكم الله به ، وأنها كم عما نهاكم عنه ، وأرضى لكم طاعة الله ، وأستغفر الله لي ولكم .

(المعقد الفريد ٢ : ١٤٦)

(١) أمله وأمله بالتخفيف والتشديد . (٢) زكا يزكو : تما وصلح .

(٣) الكظم : الحلق أو الفم ، أو مخرج النفس ، أى قبل الموت .

مشاورة المهدي لأهل بيته

في حرب خراسان

روى ابن عبد ربه قال :

« هذا ما تراجع فيه المهدي ووزراؤه ، وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان ، أيام تحاملت عليهم العمال وأعنت ، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانة ، على أن نكثوا بيعتهم ، ونقضوا موثقتهم ، وطرودوا العمال ، والتوا بما عليهم من الخراج ، وحمل المهدي ما يجب من مصلحتهم ، ويكره من عننتهم ، على أن أقال عثرتهم ، واغفر زلتهم ، واحتمل دالتهم ، تطوؤا بالفضل ، واتساعاً بالعمو ، وأخذاً بالحجة ، ورفقاً بالسياسة ، ولذلك لم يزل مذمّله الله أعباء الخلافة ، وقلده أمور الرعية ، رفيقاً بمدار سلطانه ، بصيراً بأهل زمانه ، باسطاً للمعدلة في رعيته ، تسكناً إلى كنفه ، وتأنساً بعموه ، وثيقاً بحلمه . فإذا وقعت الأفضية اللازمة ، والحقوق الواجبة . فليس عنده هواده ، ولا إغضاء ، ولا مدهانة ، أثره للحق ، وقياماً بالعدل ، وأخذاً بالحزم ؛ فدعا أهل خراسان الاغترار بحلمه ، والثقة بعموه ، أن كسروا الخراج ، وطرهوا العمال وسألوا ما ليس لهم من الحق ، ثم خاطوا احتجاجاً باعتذار ، وخضومة بإقرار ، وتنصلاً باعتلال ؛ فلما انتهى ذلك إلى المهدي ، خرج إلى مجلس خلائه ، وبعث إلى نفر من لحمة^(١) ووزرائه ، فأعلمهم الحال ، واستنصحهم للرعية ، ثم أمر الموالى^(٢) بالابتداء ، وقال للعباس^(٣) بن محمد : أي عمّ تعقب قولنا ، وكن حكماً بيننا ، وأرسل إلى ولديه

(١) الحمة : القرابة . (٢) جمع مولى ، وهو هنا القربى كابن العم ونحوه .

(٣) هو العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أخو المنصور .

موسى وهرون ، فأحضرهما الأمر ، وشاركهما فى رأى ، وأسر محمد بن الليث بحفظ
سراجتهم ، وإثبات مقالاتهم فى كتاب .

٥٥ - مقال سلام صاحب المظالم

قال سلام صاحب المظالم :

« أيها المهدي : إن فى كل أمر غايةً ، ولكل قوم صناعةً ، استفرغت رأيهم ،
واستفرقت أشغالهم ، واستنفدت أعمارهم ، وذهبوا بها ، وذهبت بهم ، وعرفوا بها ،
وعرفت بهم ، ولهذه الأمور التى جعلتنا فيها غايةً ، وطلبت معونتنا عليها أقوام من
أبناء الحرب وساسة الأمور ، وقادة الجنود ، وفرسان الهزاهز^(١) ، وإخوان التجارب ،
وأبطال الوقائع ، الذين رشحتهم سجالها^(٢) ، وقيأتهم ظلالها ، وعضت بهم شدائدُها ،
وقرمتهم نواجذها^(٣) ، فلو عجمت ما قبلهم ، وكشفت ما عندهم ، لو جدت نظائرَ
تؤيد أمرك ، وتجارِبَ توافق نظرك ، وأحاديثَ تقوى قلبك . فأما نحن معاشرَ عمالك .
وأصحاب دواوينك . فحسن بنا ، وكثير منا أن نقوم بثقل ما حملتتنا من عملك ،
واستودعتنا من أمانتك ، وسفلتتنا به من إمضاء عدلك ، وإنفاذ حُكْمك ،
وإظهار حقك » .

فأجابه المهدي : « إن فى كل قوم حكمةً . ولكل زمان سياسة . وفى كل حال
تدبير . يُبطل الآخر الأول . ونحن أعلم بزماننا ، وتدبير ساطاننا » .

قال نعم : أيها المهدي : أنت متسع الرأى ، وثيق العقدة ، قوى المنة^(٤) ، بليغ
الفطنة ، معصوم النية ، تحضور الروية ، مؤيد البديهة ، موفّق العزيمة ، معان بالظفر ،
مهدي إلى الخير . إن هممت فى عزمك مواقع الظن ، وإن اجتمعت صدع فعلك

(١) الهززة والهزاهز : تحريك البلايا والحروب الناس . (٢) جمع سجل كشمس : وهو العلو

العظيمة مملوءة . (٣) فرم الطعام : أكله ، والنواجذ : أنصى الأضراس . (٤) القوة .

ملتبس الشك . فاعزم يَهْدِ اللهُ إلى الصواب قلبك . وقل يُنطق اللهُ بالحق لسانك .
فإن جنودك جَمَّة . وخزائنك عامرة . ونفسك سخية . وأمرُك نافذ .»

فأجابه المهدي : « المشاورة والمناظرة بالبراحة ومفتاحا بركة . لا يهلك عليهما
رأى ، ولا يتفيل^(١) معهما حزم ، فأشيروا برأيكم ، وقولوا بما يحضركم ، فإنى من
ورائكم ، وتوفيقُ الله من وراء ذلك .»

٥٦ - مقال الربيع بن يونس^(٢)

وقال الربيع :

أيها المهدي : إن تصاريفَ وجوه الرأى كثيرة . وإن الإشارة ببعض معارض
القول يسيرة . ولكن خراسان أرض بعيدة المسافة . متراخية الشقة^(٣) . متفارقة السبل
فإذا ارتأيت من مُحكم التدبير . ومُبرم التقدير . وأبواب الصواب ، رأيا قد أحكمه
نظرك ، وقلبهُ تدبيرك . فإيس وراءه مذهب طاعن . ولا دونه معلق لخصومة عائب .
ثم خبت البرد^(٤) به ، وانطوت الرُّسل عليه ، كان بالحرمى أن لا يصل إليهم مُحكمه .
إلا وقد حدث منهم ما يَنْقُضه . فما أيسر أن ترجع إليك الرسل . وترد عليك الكتب
بمقتائق أخبارهم ، وشوارد آثارهم ، ومصادر أمورهم ، فتحدث رأياً غيره ، وتبتدع
تديراً سواه ، وقد انفرجت الخلق ، وتحللت العقد ، واسترخى الحجاب^(٥) ، وامتد
الزمان . ثم كعلم موقع الآخرة كمصدر الأولى . ولكن الرأى أيها المهدي وفقك الله .
أن تصرف إجابة النظر ، وتقلب الفكر فيما جمعنا له ، واستشترتنا فيه من التدبير
لحريهم ، والحيل في أمرهم ، إلى الطلب لرجل ذى دين فاضل ، وعقل كامل ، وورع

(١) قال رأيه وتفيل : خطأ وضعف . (٢) وزر لابي جعفر المنصور وقتله الهادي سنة ١٧٠ هـ

(٣) البعد والسفر البعيد . (٤) جمع بريد : وهو الرسول ، وخبث : أسرعت .

(٥) الحجاب : ما تشده المرأة في وسطها .

واسع . ليس موصوفاً بهوياً في سواك ، ولا متبهماً في أثره عليك ، ولا ظنيناً^(١) على دُخلة^(٢) مكروهة . ولا منسوباً إلى بدعة محدورة . فيقدح في ملكك ، ويريض^(٣) الأمور لغيرك ، ثم تستند إليه أمورهم . وتقوِّض إليه حربهم ، وتأمره في عهدك ووصيتك إياه . بلزوم أمرك ما لزمه الحزم . وخلاف نهيك إذا خالفه الرأي ، عند استحالة الأمور ، واشتداد الأحوال التي يُنقض أمرُ الغائب عنها ، ويثبت رأيُ الشاهد لها ، فإنه إذا فعل ذلك ، فوائب أمرهم من قريب ، وسقط عنه ما يأتي من بعيد ، تمت الحيلة ، وقويت المكيدة . ونفذ العمل . وأُحِدَ النظر إن شاء الله .

٥٧ - مقال الفضل بن العباس

قال الفضل بن العباس :

« أيها المهدي : إنَّ وليَّ الأمور ، وسائسَ الحروب ، ربما نحى جنوده ، وفرَّق أمواله في غير ماضيقِ أمرٍ حزبه^(٤) ، ولا ضفطة حال اضطرته ، فيقعد عند الحاجة إليها ، وبعد التفريقة لها ، عدِّما منها . فاقداً لها . لا يثق بقوة ، ولا يصول بعدة ، ولا يفزع إلى ثقة . فالرأي لك أيها المهدي وقلقك الله ، أن تُعفى خزائنك من الإفراق للأموال ، وجنودك من مكابدة الأسفار ، ومقارعة الأخطار ، وتفجير القتال ، ولا تُسرِعَ للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون ، والعطاء لما يسألون ، فيفسد عليك أدبهم ، وتجري من رعبك غيرهم ، ولكن اغزهم بالحيلة ، وقاتلهم بالمكيدة ، وصارعهم باللين ، وخاتلهم^(٥) بالرفق ، وأبرق^(٦) لهم بالقول ، وأرعد نحوهم بالفعل ، وابتعث البعوث ،

(١) متبهماً . (٢) دخلة الرجل مثلك ، ودخيلته : نيته ومذهبه .

(٣) في كتب اللغة : راضه وروضه : ذله ، وأراض الأرض جعلها رياضاً . (٤) اشتد عليه .

(٥) خادهم . (٦) رعد وبرق ، وأرعد وأبرق : تهدد وتوعده .

وجنّد الجنود ، وكتب الكتاب ، واعقد الألية ، وانصب الرايات ، وأظهر أنك
موجهٌ إليهم الجيوش مع أحقّ قوادك عليهم ، وأسوّمهم أثراً فيهم ، ثم ادسّ الرسل ،
وابتث الكتب ، وضع بعضهم على طمعٍ من وعدك ، وبعضاً على خوفٍ من وعيدك ،
وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم ، واغرس أشجار التنافس بينهم ، حتى تُملاً
القلوب من الوحشة ، وتنطوي الصدور على البغضة ، ويدخل كلا من كل الحذر
والهيبه ، فإن مرّام الظفر بالغيلة ، والقتال بالحيلة ، والمناسبة^(١) بالكتب ، والمكايده
بالرسل ، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب ، القوي الموقع من النفوس ،
المعقود بالحجج ، الموصول بالحيل ، المبنى على اللين الذي يستميل القلوب ، ويسترق
العقول والآراء ، ويستميل الأهواء ، ويستدعي المواتاة^(٢) ، أنفذ من القتال بظلمات
السيوف ، وأسنة الرماح ، كما أن الوالي الذي يستنزل طاعة رعيته بالحيل . ويفرق كلمة عدوه
بالمكايده ، أحكم عملاً ، وألطف منظرًا ، وأحسن سياسة من الذي لا ينال ذلك
إلا بالقتال ، والإنلاف للأموال . والتفريز والخطار^(٣) . وليعلم المهدي أنه إن وجه
لقتالهم رجال لم يسر لقتالهم إلا بجنود كثيفة ، تخرج عن حال شديدة ، وتقدم على
أسفار ضيقة ، وأموال متفرقة ، وقود غشّة ، إن ائتمهم استنفدوا ماله ، وإن
استنصحهم كانوا عليه لاله .

قال المهدي : « هذا رأى قد أسفر نوره ، وأبرق ضوؤه ، وتمثل صوابه للعيون ،
ومجسد حقه في القلوب ، ولسكن فوق كل ذي علم عليم » ، ثم نظر إلى ابنه عليّ ،
فقال : ما تقول ؟

٥٨ - مقال علي بن المهدي

قال علي بن المهدي :

« أيها المهدي : إن أهل خراسان لم يَخْلَمُوا عن طاعتك ، ولم يَنْصِبُوا من دونك أحداً ، يَقْدَح في تغيير ملكك ، وَيُريِض الأمور لفساد دولتك ، ولو فعلوا لكان الخطبُ أيسرَ ، والشأنُ أصغرَ ، والحالُ أدلَّ ، لأن الله مع حقه الذي لا يَخْذَلُه ، وعند موعده الذي لا يُخْلِفُه ، ولكنهم قوم من رعيتك ، وطائفة من شيعتك ، الذين جعلك الله عليهم والياً ، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً ، طلبوا حقاً ، وسألوا إنصافاً ، فإن أجبْتَ إلى دعوتهم ، ونفست عنهم قبل أن يتلاحم منهم حال ، ويحدث من عندهم فتق ، أطعت أمر الرب ، وأطفأت نائرة الحرب ، ووفرت خزائن المال ، وطرحت تفرير القتال ، وحمل الناسُ حَمَل ذلك على طبيعة جودك ، وسجية حلمك ، وإسجاح^(١) خايقتك ، ومعدلة نظرك ، فأمنت أن تُنسب إلى ضعف ، وأن يكون ذلك فيما بقي ذرْبَة ، وإن منعتهم ما طلبوا ، ولم تُجِبهم إلى ما سألوا ، اعتدلت بك وبهم الحالُ ، وساوتهم في ميدان الخطاب ، فما أربُ المهدي أن يعمد إلى طائفة من رعيتك ، مقرّين بملكته ، مُدعنين بطاعته ، لا يُخْرِجون أنفسهم عن قدرته ، ولا يُبرثونها من عبوديته ، فيملكهم أنفسهم ، ويخلع نفسه عنهم ، ويقف على الحيل معهم ، ثم يجازيهم السوء في حدّ المقارعة وميضار المخاطرة . أيريد المهدي - وفقه الله - الأموال ؟ فلمعمرى لا ينالها ولا يظفر بها إلا بإتفاق أكثر منها مما يطلب منهم ، وأضعاف ما يدعى قباهم ، ولو نالها فحملت إليه ، ووُضعت بخزائنها^(٢) بين يديه

(١) الإسجاح : حسن العفو .

(٢) جمع خريطة : وهي وعاء من آدم وفضهه يمرج على ما فيه .

ثم تجافى لهم عنها ، وطال عليهم بها ، لكان إليه مما يُنسب ، وبه يُعرف ، من الجنود
الذي طبعه الله عليه ، وجعل قرّة عينه ، ونهمة^(١) نفسه فيه ، فإن قال المهدي : هذا
رأى مستقيم سديد ، في أهل الخراج الذين شكّوا ظلم عمالنا ، وتحامل وولاتنا ؛ فأما
الجنود الذين تقصّوا موافق العهود ، وأنطقوا لسان الإرجاف ، وفتحوا باب المعصية ،
وكسروا قيّد الفتنة ، فقد ينبغي لهم أن أجمهم نكالا لغيرهم ، عظة لسواهم ، فيعلم
المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد ، مُقرّنين^(٢) في الأصفاد^(٣) ، ثم اتسع
لحقن دماهم عفوه ، ولإقالة عثرتهم صمّجته ، واستبقاهم لما هم فيه من حربه ، أو لمن
بإزائهم من عدوه ، كما كان بدعا من رأيه ، ولا مستنكرا من نظره ، لقد علمت
العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً ، وأشدّها وقماً ، وأصدقها صولة ، وأنه لا يتعاطمه^(٤)
عفواً ، ولا يتكاهده^(٥) صفحاً ، وإن عظم الذنب ، وجل الخطب ، فالرأى للمهدي
وقفه الله تعالى أن يحل عُقدة الغيظ ، بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم ، وأن
يذكر أولى حالاتهم ، وضيعة عيالاتهم ، برّاهم ، وتوسّعاً لهم ، فإنهم إخوان دولته ،
وأركان دعوته ، وأساس حقه الذين بعزتهم يصول ، وبحجّتهم يقول ، وإنا مثلهم
فيما دخلوا فيه من مساخطه ، وتعرضوا له من معاصيه ، وانظروا فيه عن إجابته ، ومثله
في قلة ما غير ذلك من رأيه فيهم ، أو نُقل من حاله لهم ، أو تغير من نعمته بهم ،
كمثل رجلين أخوين متناصرين متوازيين ، أصاب أحدهما خبلٌ عارض ، وهُوَ حادث .
فنهض إلى أخيه بالأذى ، وتحامل عليه بالكره ، فلم يزد أخوه إلا رقة له ، ولطفاً به ،
واحتيالاً لمداواة مرضه ، ومراجعة حاله ، عطفاً عليه ، وبرّاه به ، ومراحة له .

(١) النهمة : الحاجة وبلوغ الشهوة في الشيء .

(٢) مقيدون . (٣) الأصفاد : القيود ؛ جمع صفة كسب .

(٤) تعاطمه الأمر ؛ عظم عليه . (٥) تكاهده الأمر ؛ شق عليه .

فقال المهدي : أما على فقد نوى سَمَتَ اللَّيَانِ^(١) ، وَفَضَّ الْقُلُوبِ فِي أَهْلِ خِرَاسَانَ ،
وَلِسْكَلٌ نَبِيًّا مُسْتَقَرًّا ، فقال : ما ترى يا أبا محمد يعني موسى ابنه (المهدي) .

٥٩ - مقال موسى بن المهدي

فقال موسى :

« أيها المهدي : لَا تَسْكُنْ إِلَى حِلَاوَةِ مَا يَجْرِي مِنَ الْقَوْلِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ، وَأَنْتَ
تَرَى الدَّمَاءَ تَسِيلُ مِنْ خَلَّالِ فَعْلِهِمْ ، الْحَالُ مِنَ الْقَوْمِ يَنَادِي بِمَضْمَرَةٍ شَرِّ ، وَخَفِيَّةٍ حَقْدٍ ،
قَدْ جَعَلُوا الْمَعَاذِيرَ عَلَيْهَا سِتْرًا ، وَاتَّخَذُوا الْعِلَلَ مِنْ دُونِهَا حِجَابًا ، رَجَاءً أَنْ يَدَافِعُوا
الْأَيَّامَ بِالتَّأخِيرِ ، وَالْأُمُورَ بِالتَّطْوِيلِ ، فَيَكْسِرُوا حِيَلَ الْمَهْدِيِّ فِيهِمْ ، وَيُفْنُوا جُنُودَهُ
عَنْهُمْ ، حَتَّى يَتَلَحَّمْ أَمْرُهُمْ ، وَتَتَلَحَّقَ مَادَّتُهُمْ ، وَتَسْتَفْعَلَ حَرْبُهُمْ ، وَتَسْتَمِرَّ الْأُمُورُ بِهِمْ
وَالْمَهْدِيُّ مِنْ قَوْلِهِمْ فِي حَالِ غِرَّةٍ ، وَلِبَاسِ أَمْنَةٍ ، قَدْ فَتَرَ لَهَا ، وَأَنْسَ بِهَا ، وَسَكَنَ إِلَيْهَا .
وَلَوْلَا مَا اجْتَمَعَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ ، وَبَرَدَتْ عَلَيْهِ جُلُودُهُمْ مِنَ الْمُنَاصَبَةِ بِالقِتَالِ ، وَالْإِضَارِ
لِلْقِرَاعِ ، عَنِ دَاعِيَةِ ضَلَالٍ ، أَوْ شَيْطَانِ فِسَادٍ ، لَرَهَبُوا عَوَاقِبَ أَخْبَارِ الْوَلَاةِ ، وَغَبَّ
بِسُكُونِ الْأُمُورِ ، فَيَشْدُدُ الْمَهْدِيُّ وَقْفَهُ اللَّهُ أَرْزَهُ^(١) لَهُمْ ، وَيَكْتُبُ كِتَابَهُ نَحْوَهُمْ ،
وَيُضِعُّ الْأَمْرَ عَلَى أَشَدِّ مَا يَحْضُرُهُ فِيهِمْ ، وَلِيُوقِنَ أَنَّهُ لَا يُعْطِيهِمْ خُطَّةً يَرِيدُ بِهَا صَلَاحَهُمْ ،
إِلَّا كَانَتْ دُرْبَةً إِلَى فِسَادِهِمْ ، وَقُوَّةً عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ ، وَدَاعِيَةً إِلَى عَوْدَتِهِمْ ، وَسَبَبًا لِفَسَادِ
مَنْ يَحْضُرْتَهُ مِنَ الْجُنُودِ ، وَمَنْ يَبَابُهُ مِنَ الْوَفُودِ الَّذِينَ إِنْ أَقْرَمَهُمْ وَتَلَّتْ الْعَادَةَ ، وَأَجْرَاهُمْ
عَلَى ذَلِكَ الْأَرْبِ ، لَمْ يَبْرَحْ فِي فَتْقِ حَادِثٍ ، وَخِلَافِ حَاضِرٍ ، لَا يَصْلُحُ عَلَيْهِ دِينَ ،
وَلَا تَسْتَقِيمُ بِهِ دُنْيَا ، وَإِنْ طَلَبَ نَعْيِيرَهُ بَعْدَ اسْتِحْكَامِ الْعَادَةِ ، وَاسْتِمْرَارِ الدُّرْبَةِ ، لَمْ يَصِلْ

(١) اللَّيَانُ : الملائنة . مصدر لآين ، والسمت : الطريق .

(٢) القُوَّةُ وَالظُّهْرُ .

إلى ذلك إلا بالعقوبة المُفْرِطَة . والثُّونَة الشديدة . والرأى للمهدى وفقه الله أن لا يُقبل
عثرتهم . ولا يقبل مَعْدِرَتَهُمْ . حتى تطأهم الجيوشُ . وتأخذهم السيوفُ . ويستَحِرُّ^(١)
بهم القتلُ . ويُحَدِّقُ بهم الموت . ويحيط بهم البلاء . وَيُطَبِّقُ عليهم الذل . فإن فعل
المهدى بهم ذلك . كان مَقْطَعَة لكل عادة سوء فيهم . وهزيمة لكل بادرة شر منهم .
واحتمالُ المهدى في مَثُونَة غزوتهم هذه . تضع عنه غزواتٍ كثيرة . ونفقاتٍ عظيمة .
فقال المهدى : « قد قال القوم . فاحكم يا أبا الفضل » .

٦٠ - مقال العباس بن محمد

فقال العباس بن محمد :

« أيها المهدى : أما الموالى فأخذوا بفروع الرأى ، وسلكوا جنّبات الصواب ،
وتعدّوا أموراً قَصَرَ بنظرهم عنها ، أینه لم تأت تجارِبُهُمْ عليها . وأما الفضل فأشار
بالأموال ألا تُنْفَقَ ، والجنودِ ألا تُفَرَّقَ ، وبأن لا يُعْطَى القومُ ما طلبوا ، ولا يُبْذَل
لهم ما سألوا . وجاء بأمرٍ بَيَّنَ ذلك استصفاً لأمرهم ، واستبانةً بحرهم . وإتاما يهيجُ
جسّياتِ الأمورِ صفارها .

وأما على فأشار باللين وإفراط الرِّفْق . وإذا جرّد الوالى لمن غمط أمره وسفه
حقه ، اللين بحتاً ، والخيرَ مَحْضاً . لم يخلطهما بشدةٍ تعطف القلوب عن لينة . ولا بشرّاً
يُخْبِسُهُمْ إلى خيره . فقد ملكهم الخلع لعذرهم . ووسّع لهم الفُرْجَةَ لِثَنِي أعناقهم .
فإن أجاؤا دعوته . وقبِلوا لينة من غير خوف اضطهرم ولا شدة . فَنَزَوَة^(٢) في رءوسهم
يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم . ويستصرخون بها رأى المهدى فيهم . وإن لم يقبلوا
دعوته . ويسرعوا لإجابته باللين المَحْض ، والخير الصراح . فذلك ما عليه الظن بهم ،
والرأى فيهم ، وما قد يشبه أن يكون من مثلهم . لأن الله تعالى خالق الجنة . وجعل فيها

(١) يشهد .

(٢) وثبة إلى الشر .

من النعيم القيم . والملك الكبير . مالا يَحْظُرُ على قلب بشر . ولا تُدْرِكُه الفِكر .
ولا تعلمه نفس ، ثم دعا الناس إليها ، ورغَّبهم فيها . فلولا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمةً
يسوقهم بها إلى الجنة لما أجابوا ولا قبلوا .

وأما موسى فأشار بأن يُعْصَبوا بشدة لا لينَ فيها . وأن يُرَمَوْا بشرًّا لا خيرَ معه
وإذا أضرَّ الوالي لمن فارق طاعته . وخالف جماعته . الخوفَ مُفْرَدًا . والشرَّ مَجْرَدًا .
وليس معها طمع . ولا لينٌ يُنْذِرهم . اشتدت الأمور بهم . وانقطعت الحال منهم
إلى أحد أمرين . إما أن تدخلهم الحِمِيَّةُ من الشدة . والأنفَةُ من الذلة . والامتعاظ
من القهر . فيدعوهم ذلك إلى التَّماذى في الخلاف . والاستبسال في القتال . والاستسلام
للموت . وإما أن ينقادوا بالكُرْه . ويُذعنوا بالقَهْر على بَغْضَة لازمة . وعداوة باقية .
تورث النفاق . وتُعقِب الشقاق . فإذا أمكنتهم فرصةٌ أو ثابَّت^(١) لهم قدرة . أو قويت
لهم حال . عاد أمرهم إلى أصعبَ وأغلظَ وأشدَّ مما كان .

وقال في قول أبي الفضل : أيها المهدي أ كفى دليل . وأوضح برهان . وأبين
خبر بأن قد أجمع رأيه . وحزَم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم . وتوجيه
البعوث نحوهم . مع إعطائهم ما سألوا من الحق . وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل .
قال المهدي : ذلك رأى .

٦١ - مقال هرون بن المهدي

قال هرون :

« خلطت الشدة أيها المهدي باللين . فصارت الشدة أمرًا فِطامٍ لما تَكْرَه .
وعاد اللين أهدى قائد إلى ما حِبِّ . ولكن أرى غير ذلك » .
قال المهدي : « لقد قلت قولاً بديعاً . وخالفت فيه أهل بيتك جميعاً . والمرء

مُؤْتَمِنٌ بِمَا قَال . وَظَنِينَ بِمَا ادَّعَى . حَتَّى يَأْتِيَ بَيِّنَةٌ عَادِلَةٌ . وَحُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ . فَارْجِعْ
عَمَّا قُلْتَ » قَالَ هِرُونَ : « أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ . إِنَّ الْحَرْبَ خُدَعَةٌ ^(١) . وَالْأَعَاجِمُ قَوْمٌ مَكْرَةٌ .
وَرَبَّمَا اعْتَدَلْتَ الْحَالَ بِهِمْ . وَاتَّفَقْتَ الْأَهْوَاءَ مِنْهُمْ . فَسَكَانَ بَاطِنُ مَا يُسْرُونَ عَلَى ظَاهِرِ
مَا يُعْلِنُونَ . وَرَبَّمَا افْتَرَقْتَ الْحَالَانِ . وَخَالَفَ الْقَلْبَ الْإِسَانُ . فَانْطَوَى الْقَلْبُ عَلَى مَحْجُوبَةٍ
تُبْطِنُ . وَاسْتَسْرَّ بِمَدْخُولَةٍ لِاتْلَعَانَ . وَالطَّيِّبُ الرَّفِيقُ بَطْبَةٌ . الْبَصِيرُ بِأَمْرِهِ . الْعَالِمُ بِمُقَدَّمِ
يَدِهِ . وَمَوْضِعُ مَيْسَمِهِ ^(٢) لَا يَتَعَجَّلُ بِالْذَّوَاءِ . حَتَّى يَقَعَ عَلَى مَعْرِفَةِ الدَّاءِ . فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدِيِّ
- وَقَعَهُ اللَّهُ - أَنْ يَفِرَّ ^(٣) بَاطِنُ أَمْرِهِمْ فَرَّ الْمُسِنَّةُ . وَيَمَخَّضُ ظَاهِرُهَا لِمَخْضِ السَّيِّئِ .
بِمَتَابَعَةِ الْكُتُبِ . وَمِظَاهِرَةِ الرُّسُلِ . وَمَوَالِةِ الْعِيُونَ . حَتَّى تُهْتَكَ حُجُبُ عِيُونِهِمْ .
وَتُسَكِّفُ أَغْطِيَةَ أُمُورِهِمْ . فَإِنَّ انْفِرَجَتِ الْحَالَ وَأَفْضَتِ الْأُمُورَ بِهِ إِلَى تَغْيِيرِ حَالِ .
أَوْ دَاعِيَةِ ضَلَالٍ اشْتَمَلَتِ الْأَهْوَاءَ عَلَيْهِ . وَانْقَادَ الرِّجَالَ إِلَيْهِ . وَامْتَدَّتِ الْأَعْنَاقُ نَحْوَهُ
بِذِينَ يَعْتَقِدُونَهُ . وَإِثْمٌ يَسْتَحْلُونَهُ . عَصَبَهُمْ بِشِدَّةٍ لَا لَيْنَ فِيهَا . وَرِمَاهُمْ بِعُقُوبَةٍ لَا عَفْوَ مَعَهَا .
وَإِنْ انْفِرَجَتِ الْعِيُونَ . وَاهْتَصِرَتِ السُّتُورُ . وَرُفِعَتِ الْحُجُبُ . وَالْحَالَ فِيهِمْ مَرَبِيعَةٌ ^(٤) .
وَالْأُمُورُ بِهِمْ مَعْتَدَلَةٌ . فِي أَرْزَاقٍ يَطْلُبُونَهَا . وَأَعْمَالٍ يُسْكِرُونَهَا . وَظُلَامَاتٍ يَدْعُونَهَا .
وَحَقُوقٍ يَسْأَلُونَهَا . بِمَاتَّةٍ سَابَقْتَهُمْ . وَدَالَّةٍ مَنَاحَتَهُمْ . فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدِيِّ - وَقَعَهُ اللَّهُ -
أَنْ يَتَسَعَ لَهُمْ بِمَا طَلَبُوا . وَيَتَجَافَى لَهُمْ عَمَّا كَرِهُوا . وَيَشْعَبُ ^(٥) مِنْ أَمْرِهِمْ مَا صَدَعُوا .
وَيَرْتُقُ مِنْ فِتْنَتِهِمْ مَا قَطَعُوا . وَيُوَلِّي عَلَيْهِمْ مَنْ أَحْبَبُوا . وَيُدَاوِي بِذَلِكَ مَرَضَ قُلُوبِهِمْ
وَفَسَادَ أُمُورِهِمْ . فَإِنَّمَا الْمَهْدِيُّ وَأُمَّتُهُ . وَسَوَادُ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ . بِمَنْزِلَةِ الطَّيِّبِ الرَّفِيقِ .
وَالْوَالِدِ الشَّفِيقِ . وَالرَّاعِيِ الْحَرْبِيِّ الَّذِي يَحْتَالُ لِلرَّابِضِ غَنَمِهِ . وَضَوَّالِ رَعِيَّتِهِ . حَتَّى
يُبْرِئُ الْمَرِيضَةَ مِنْ دَاءِ عِلَّتِهَا . وَيُرَدِّ الصَّحِيحَةَ إِلَى أُنْسِ جَمَاعَتِهَا . ثُمَّ إِنْ خَرَّاسَانَ بِمَخَاصِنِ

(١) خدعة بسكون الدال وتثنية الخاء، وبضم الخاء وفتح الدال، أى تنفضى بخدعة .

(٢) الميسم : المسكوة . (٣) فر الدابة : كشف عن أسنانها ليصرف سنها .

(٤) مرج الوادى ككرم مراعاة : أصعب بكثرة الكلال فهو مريع . (٥) تصلح .

الذين لهم دالةٌ محمولة . وماتةٌ مقبولة . ووسيلةٌ معروفة . وحقوقٌ واجبة . لأنهم أيدي دولته . وسيوف دعوته . وأنصارُ حقه . وأعوان عدله . فليس من شأن المهدي الاضطغان عليهم . ولا المؤاخذة لهم . ولا التوغر^(١) بهم . ولا المكافأة بإساءتهم . لأن مبادرة حَسَمِ الأمور ضعيفةٌ قبل أن تقوى ، ومحاولة قطع الأصولِ ضئيلةٌ قبل أن تغلظ ، أحزمٌ في الرأي وأصح في التدبير من التأخير لها والتهاون بها حتى يلتئم قليلها بكثيرها ، وتجتمع أطرافها إلى جمهورها .

قال المهدي : « ما زال هرون يقع وقع الحياء^(٢) حتى خرج خروج القدح من الماء وانسلَّ انسلال السيف فيما ادعى فدعوا ما سبق موسى فيه أنه هو الرأى ، وثني بعده هرون ، ولكن من لأعنة الخليل وسياسة الحرب وقيادة الناس إن أمعن بهم اللجاج وأفرطت بهم الدالة ؟ » .

٦٣ - مقال صالح بن علي^(٣)

قال صالح :

« لسنا نبليغ أيها المهدي بدوام البحث وطول الفكر أدنى فِراسةٍ رأيك وبمضَ لحظَاتِ نظرك، وليس ينفضُ عنك من بيوتات العرب ورجالاتِ العجم، ذو دينٍ فاضل ورأى كامل، وتدبيرٍ قوى، تقلده حربك، وتستودعه جندك، ممن يحتمل الأمانة العظيمة ويضطليح بالأعباء الثقيلة وأنت بحمد الله ميمون النقيية^(٤)، مبارك العزيمة ، مخبور التجارب ، محمود العواقب معصوم العزم ، فليس يقع اختيارك ولا يقف نظرك على أحد توليه أمرك ، وتُسند إليه تفرك ، إلا أراك الله ماتحب ، وجمع لك منه ما تريد . »

(١) توغر الرجل : تشدد . (٢) المطر .

(٣) هو صالح بن علي بن عبد الله بن هباص . (٤) النفس والطبيعة .

قال المهدي : « إني لأرجو ذلك لتقديم عادة الله فيه وحسن معونته عليه ولكن أحب الموافقة على الرأي ، والاعتبار للمشاورة في الأمر المهم » .

٦٣ - مقال محمد بن الليث

قال محمد بن الليث :

« أهل خراسان أيها المهدي قومٌ ذوو عِزَّةٍ وَمَنَعَةٍ ، وشياطينُ خَدَاعَةٍ ، زُرُوعِ الحَمِيَّةِ فيهم نابتة ، وملابس الأَنَفَةِ عليهم ظاهرة ، فالروية عنهم عازبةٌ وَالْمَعَجَلَةُ فيهم حاضرة ، تسبق سيولهم مطرهم ، وسيوفهم عدوهم ، لأنهم بين سِفْلَةٍ لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم ، وبين رؤساء لا يُلَجِّمُونَ إلا بشدة ولا يُفْطَمُونَ إلا بالمرء ، وإن ولي المهدي عليهم وضعياً لم تنقذ له العطاء ، وإن ولي أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء وإن آخر المهدي أمرهم ، ودافع حربهم ، حتى يُصِيبَ لنفسه من حَشَمِهِ ومواليه أو بني عمه أو بني أبيه ناصحاً ، يتفق عليه أمرهم ، وثِقَةً تجتمع له أملاؤهم^(١) بلا أَنَفَةٍ تَلْزَمُهُمْ . ولا حَمِيَّةٍ تَدْخُلُهُمْ ، ولا مصيبة تنفرهم ، تنفست الأيام بهم ، وتراخت الحال بأمرهم . فدخل بذلك من الفساد الكبير ، والضياع العظيم ، مالا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جدَّ ، ولا يستصلحه وإن جهد ، إلا بعد دهر طويل ، وشرٌّ كبير ، وليس المهدي سوقفه الله فاطماً عاداتهم ، ولا قارِعاً صفاتهم^(٢) ، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ، ولا عدل^(٣) في ذلك بهما ، أحدهما لسان ناطق موصول بسمعك ، ويدٌ ممثلة لعينك ، وصخرةٌ لا تُزْعَرُ ، وبُهْمَةٌ^(٤) لا تُنَدَى ، وبازل^(٥) لا يُفْرَعُهُ صوتُ الجَلْجُلِ ، نقيّ المرعُضِ ، نزيه النفس ، جليل الخطر^(٦) اتضعت الدنيا عن قدره ، وسما نحو الآخرة

(١) جمع ملاكسبب : وهو الجماعة . (٢) الصفاة : الحجر الصلد للضخم . (٣) العدل : النظير .

(٤) البهمة : الصخرة ، والشجاع الذي لا يهتز من أين يؤد . (٥) البازل : الجهل في السنة

الثامنة ، والرجل الكامل في تجربته . (٦) القدر .

بِهِتَهُ ، وجعل الغرض الأقصى لعينه نصباً ، والغرض الأدنى لقدمه مؤطياً ، فليس يقبل عملاً ، ولا يتمدى أملاً ، وهو رأس مواليك ، وأنصح بنى أبيك ، رجل قد غُدِّي بلطيف كرامتك ، وَنَبَتَ في ظل دولتك ، ونشأ على قوائم أدبك ، فإن قلده أمرهم وحملته ثقلهم ، وأسندت إليه نفرهم ، كان قفلاً فتحه أمرُك ، وباباً أغلقه نهيك . فجعل العدل عليه وعليهم أميراً ، والإنصاف بينه وبينهم حاكماً ، وإذا أحكم المنصفه . وملك المعدلة ، فأعطاهم ما لهم ، وأخذ منهم ما عليهم ، غرس لك في الذي بين صدورهم وأسكن لك في الشؤبيداء ، داخل قلوبهم ، طاعة راسخة العروق ، باسقة الفروع ، متائلة في حواشي عوامهم ، متمكنة من قلوب خواصهم ، فلا يبقى فيهم ريبٌ إلا نفوه ولا يلزمهم حقٌ إلا أدوه ، وهذا أحدهما ، والآخر عودٌ من غيظتك^(١) ، وَتَبَعَهُ من أرومتك ، فتى السن ، كنهل الحليم ، راجح العقل ، محمود الصرامة ، مأمون الخلاف . مجرد فيهم سيفه ، ويسيطر عليهم خيره ، بقدر ما يستحقون ، وعلى حسب ما يستوجبون وهو فلان أيها المهدي ، فسلبه أعزك الله عليهم ، ووجهه بالجيش إليهم ، ولا تمنعك ضراعة^(٢) سنه ، وحدائة مؤلده ، فإن الحليم والثقة مع الحدائنة ، خير من الشك والجهل مع الكهولة ، وإنما أحداكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه ، واختصكم به من مكارم الأخلاق ، ومحامد الفعال ، ومحاسن الأمور ، وصواب التدبير ، وصرامة الأنفس ، كفراخ عتاق الطير ، المحكمة لأخذ الصيد بلا تدريب ، والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب . فالعلم والعلم ، والعزم والحزم ، والجود والثوذة ، والرفق ، ثابت في صدوركم ، مزروع في قلوبكم ، مستحکم لكم ، متكامل عندكم بطبائع لازمة ، وغرائز ثابتة .

(١) البضة : الأجمة وجمع الشجر في مفيض ماء . (٢) المراد حدائنة

٦٤ - مقال معاوية بن عبد الله

قال معاوية بن عبد الله :

« أفتناه^(١) أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر ، وأهل خراسان في حال عز على ما وصف ، ولكن إن ولي المهدي عليهم رجلا ليس بقديم الذكر في الجنود . ولا بنبيه الصوت في الحروب ، ولا بطويل التجربة للأموار ، ولا بمعروف السياسة للجيوش ، والهيبية في الأعداء دخل ذلك أمران عظيمان ، وخطران مهولان ، أحدهما أن الأعداء يفتمزونها منه ، ويحتقرونها فيه ، ويحترون بها عليه ، في النهوض به . والمقارعة له ، والخلاف عليه ، قبل ما حين الاختبار لأمره ، والتكشف لحاله ، والعلم بطباعه ؛ والأمر الآخر أن الجنود التي يقود ، والجيوش التي يسوس ، إذا لم يختبروا منه البأس والنجدة ، ولم يعرفوه بالصوت^(٢) والهيبية ، انكسرت شجاعتهم ، وماتت تجلتهم . واستأخرت طاعتهم ، إلى حين اختبارهم ، ووقع معرفتهم ، وربما وقع البوار قبل الاختبار . وبباب المهدي - وفقه الله - رجل مهيب نبيه حنيك^(٣) صيئت ، له نسب زاك . وصوت عال ، قد قاد الجيوش وساس الحروب ، وتألف أهل خراسان ، واجتمعوا عليه باليقة ، ووثقوا به كل الثقة ، فلو ولأه المهدي أمرهم ، لسكفاه الله شرهم . »

قال المهدي : « جانبت قصد الرمية ، وأبيت إلا عصبية إذ رأى الحدث

من أهل بيتنا ، كراى عشرة حلماء من غيرنا . ولكن أين تركتم ولي العهد ؟ » .

قالوا : « لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جدّه ، ونسيج وحده^(٤) . ومن الدين

وأهله . بحيث يقصر القول عن أدنى فضله ، ولكن وجدنا الله عز وجل حجج عن

(١) جمع قتي كيتيم وأيتام . (٢) الصوت والصلوات والصيت : الذكر الحسن . (٣) حنيك .

(٤) هو نسيج وحده : لا نظير له منفرد بخصال معدودة لا يشركه فيها غيره ، كما أن الثوب النقيس

لا ينسج على منواله غيره ، أي لا يشرك بينه وبين غيره في اللدني .

خلقه ، وسرّ دون عباده ، عِلْمٌ ما تختلف به الأيام ، ومعرفة ما تجرى عليه المقاديرُ من حوادث الأمور ، وريب المنون^(١) المُخْتَرِمَةُ لِخَوَالِي القرون ، ومواضى الملوك فكرهنا سُوعَه^(٢) عن محمّلة الملك ، ودار السلطان ، ومقرّ الإمامة والولاية ، وموضع المدائن والخرائن ، ومستقرّ الجنود ، ومعدن الجود ، ومجمّع الأموال التي جعلها الله قُطْبًا لِمَدَار الملك ، ومصيصة لقلوب الناس ، ومثابة لإخوان الطمع ، وثوار الفتن ، ودواعي البدع . وفرسان الضلال ، وأبناء الموت ، وقلنا إن وجه المهدي وليّ عهده ، فحدث في جيوشه وجنوده ، ما قد حدث بجنود الرسل من قبله ، لم يستطع المهدي أن يعقّبهم بغيره ، إلا أن ينهض إليهم بنفسه ، وهذا خطر عظيم ، وهول شديد ، إن تنفّست الأيام بمقامه . واستدارت الحال بإمامه ، حتى يقع عَوْض لا يَسْتَفْتِي عَدُوّه ، أو يَحْدُثُ أمر لا بُدَّ منه . صار ما بعده مما هو أعظم هوًّا وأجل خطرًا ، له تبعًا ، وبه متصلا .

٦٥ - مقال المهدي

قال المهدي :

« اَلْخَطْبُ أيسرُ مما تذهبون إليه ، وعلى غير ماتصفون الأمرَ عليه ، نحن أهل البيت نجرى من أسباب القضايا ، ومواقع الأمور ، على سابق من العلم ، ومحتوم من الأمر ، قد أنبأت به الكتب ، وتنبأت عليه الرسل ، وقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا . وتسكامل بمخدا فيره^(٣) عندنا ، فيه ندير ، وعلى الله نتوكل ، إنه لا بُدَّ لوليّ عهدي . ووليّ عهدٍ عقي بعدي أن يقود إلى خراسان البعوث ، ويتوجه نحوها بالجنود ؛ أما الأول فإنه يُقدّم إليهم رسله ، ويعمل فيهم حيلة . ثم يخرج نسيطًا إليهم حنقًا

(١) المنون النية (مؤنث) والمخترة : المهلكة ، والحوالي جمع خالية : وهي الماضية .

(٢) شمع كنع شعما وشسوعا : بعد فهو شاسع وشسوع .

(٣) جمع حذفور كمصفور أو حذفار كقرطاس : وهو الجانب .

عليهم . يريد أن لا يدع أحداً من إخوان الفتن ، ودواعي البدع ، وفُرسان الضلال .
إلا توطأه بحرَّ القتل ، وألبسه قناع القهر . وقادّه طوق الذل ، ولا أحداً من الذين
علووا في قصِّ جناح الفتنة ، وإخماد نار البدعة ، ونُصرة ولاة الحق ، إلا أجرى عليهم
دِيم فضله ، وجداول نهله ، فإذا خرج مُزْمعاً به ، مُجمِعاً عليه ، لم يسر إلا قليلاً حتى
يأتيه أن قد عملت حيله ، وكَدَحَت كتبه ، ونفَذت مكايده ، فهَدَّأت نافرة القلوب .
ووقعت طائرة الأهواء ، واجتمع عليه المختلفون بالرضا ، فيميل نظراً لهم ، وبراً بهم .
وتعطفاً عليهم ، إلى عدو قد أخاف سبيلهم وقطع طريقهم ، ومنع حجاجهم بيت الله
الحرام ، وساب تجارهم رزق الله الحلال ؛ وأما الآخر فإنه يوجه إليهم ، ثم تعتقله
الحجَّة عليهم بإعطاء ما يطلبون ، وبذلل ما يسألون ، فإذا سمحت الفِرَق بقراباتها له .
وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه ، فأصغت إليه الأفئدة ، واجتمعت له الكلمة .
وقدمت عليه الوفود ، قصد لأول ناحية بَحَثت^(١) بطاعتها ، وألقت بأزمئتها ، فألبسها
جناح نعمته ، وأنزلها ظلَّ كرامته وخصَّها بعظيم حباه^(٢) ، ثم عمَّ الجماعة بالمعدلة .
وتعطف عليهم بالرحمة ، فلا تبقى فيهم ناحية دانية ، ولا فرقة قاصية ، إلا دخلت عليها
بركته ، ووصلت إليها منفعتُه ، فأغنى فقيرها ، وجبر كسيرها ، ورفع وضيعها . وزاد
رفيعها ، ما خلا ناحيتين ، ناحية يغاب عليها الشقاء ، وتستميلهم الأهواء ، فنستخف
بدعوته ، وتبطن عن إجابته ، وتتناقل عن حقه ، فتكون آخر من يبعث ، وأبظاً من
يوجه ، فيصطلي عليها موحدة ، ويتنقى لها علة ، لا يلبث يحد^(٣) بحق يلزمهم ، وأمر
يجب عليهم ، فتستلحمهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، ويستحر بهم القتل ، ويحيط
بهم الأمر ، ويُفنيهم التتبع ، حتى يُخرب البلاد ويوتيم الأولاد ، وناحية لا يسط
لهم أماناً ، ولا يقبل لهم عهداً ، ولا يجعل لهم ذمَّة ، لأنهم أول من فتح باب الفرقة .

(١) بفتح الحاق بخوعاً : أذربه وخضع له . (٢) عطائه . (٣) يفضب .

وتدرِّع جِلبابَ الفتنة ، وربِّضَ في شِقِّ العَصَا ، ولكنه يُقتلُ أعلامهم ، ويأسر قوادهم
ويطلب هُرَّابهم ، في لُججِ البحار ، وَقُلَّلِ الجبال ، وَحَمَّلِ (١) الأودية ، ويطون الأرض .
تفتيلاً وتغليلاً وتنكيلاً ، حتى يدع الدنيا خراباً ، والنساء أَيْامِي ، وهذا أمر لانعرف له
في كتبنا وقتاً ، ولا نصحَّح منه غيرَ ما قلنا تفسيراً ؛ وأما موسى ولي عهدي ، فهذا
أَوَانُ تَوَجُّهه إلى خراسان ، وحلوله بِجُرْجان ، وما قضى الله له من الشخوص إليها .
والمقام فيها ، خير للمسلمين مَغَبَّةً ، وَلَه يَأْذَنُ اللهُ عاقبة من المقام بحيث يُغَمَّرُ في لُججِ
بحورنا ، ومدافع سيولنا ، ومجامع أمواجنا ، فيتصاغر عظيم فضله ، ويتدأب (٢)
مَشْرِقِ نُورِهِ ، ويتقلَّل كثير ما هو كَأَثْنِ منه ، فمن يصحبه من الوزراء ، ويختار له
من الناس ؟ » .

٦٦ - مقال محمد بن الليث

قال محمد بن الليث :

« أيها المهدي : إن وليَّ عهدك أصبحَ لأُمَّتِكَ ، وأهلِ مَلتِكَ ، عَلَمًا قد تَنَتَّ نحوه
أعناقها ، وَمَدَّتْ سَمْتَهُ أَبصارها . وقد كان لُقْرُبِ داره منك ، ومحلَّ جِواره لك ،
عُطِّلَ (٣) الحال ، غُفِّلَ الأمر ، واسعَ المدر . فأما إذا انفرد بنفسه . وخلا بنظره .
وصار إلى تدييره . فإن من شأن العامة أن تنفقد مخارجَ رأيه . وتستنصت لمواقع آثاره
وتسأل عن حوادث أحواله ، في بَرِّه ومَرَحْتِه . وإِقْساطِه (٤) ومَعْدَلْتِه ، وتدييره
وسياسته ، ووزرائه وأصحابه . ثم يكون ماسبق إليهم أغابَ الأشياء عليهم ، وأملك
الأمر بهم ، وألزمها لقلوبهم ، وأشدّها استمالةً لرأيهم ، وعطفاً لأهوائهم . فلا يفتأ
المهدي - وفقه الله - ناظراً له فيما يقوَّى عمده مملكته ، ويسدّد أركان ولايته ،

(١) الحمل : بطن السيل . (٢) يضطرب .

(٣) عطل (كفتح) من المال والأدب : خلا فهو عطل كعقل وعنف . (٤) عدله .

ويستجمع رضا أمته بأمر هو أزينُ لحاله . وأظهرُ لجماله ، وأفضلُ مَغَبَّةً لأمره ، وأجلُ مَوْقِعاً في قلوب رعيته ، وأحمدُ حالا في نفوس أهلِ مِلَّتِهِ . ولا أدفعُ مع ذلك باستجماع الأهواء له . وأبلغُ في استعطاف القلوب عليه ، من مَرَحْمَةٍ تظهر من فعله . ومعدلة تنتشر عن أثره . ومحبة للخير وأهله ، وأن يختار المهديُّ - وفقه الله - من خيار أهل كل بلدة . وقضاء أهل كلِّ مصر ، أقواماً تسكنُ العائمةُ إليهم إذا ذُكِرُوا ، وتأنس الرعية بهم إذا وُصِفُوا . ثم تسهل لهم عمارة سُبُل الإحسان ، وفتح باب المعروف . كما قد كان فتح له ، وسهل عليه .

قال المهدي : صدقت ونصحت . ثم بعث في ابنه موسى ، فقال :

٦٧ - مقال المهدي

« أَي بُنَيَّ . إنك قد أصبحتَ لَسَمْتَ وجوه العامة نُصْباً ، ولثني أعطافِ الرعية غايةً ، فحَسَنَتُكَ شامِلة . وَإِسَاءَتُكَ نائية ، وأمرُكَ ظاهر ، فعليك بتقوى الله وطاعته . فاحتِمْ لِسُخْطِ النَّاسِ فِيهِمَا ، ولا تطلب رضاهم بخلافهما ، فإن الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إيثاركِ رِضاه . وليس بكافيك من يُسَخِطُه عَلَيْكَ إِيْثَارُكَ رِضَا مَنْ سِوَاه . ثم اعلم أن الله تعالى في كلِّ زمانٍ قَترَةً من رسله . وبقايا من صفوة خلقه ، وَخَبَايَا لِنُصْرَةِ حَقِّهِ ، يَجِدُّ حَبْلَ الْإِسْلَامِ بِدَعْوَاهُمْ ، وَيَشِيدُ أَرْكَانَ الدِّينِ بِنُصْرَتِهِمْ ، وَيَتَّخِذُ لِأَوْلِيَاءِ دِينِهِ أَنْصَاراً ، وَعَلَى إِقَامَةِ عُدْلِهِ أَعْوَاناً . يَسُدُّونَ الْخَلَلَ ، وَيَقِيمُونَ الْمَيْلَ ، وَيُدْفَعُونَ عَنِ الْأَرْضِ الْفَسَادَ ، وَإِنْ أَهْلُ خِرَاسَانَ أَصْبَحُوا أَيْدِيَ دَوْلَتِنَا ، وَسِوْفَ دَعْوَتِنَا ، الَّذِينَ نَسْتَدْفِعُ الْمَكَارِهِ بِطَاعَتِهِمْ ، وَنَسْتَصْرِفُ نَزُولَ الْعِظَائِمِ بِمُنَاصَحَتِهِمْ . وَنُدَافِعُ رَيْبَ الزَّمَانِ بِعِزَّتِهِمْ ، وَنُرَاحِمُ رُكْنَ الدَّهْرِ بِبِصَافَتِهِمْ ، وَهُمْ عِمَادُ الْأَرْضِ إِذَا أَرْجَفَ كَنْفُهَا ، وَخَوْفُ الْأَعْدَاءِ إِذَا بَرَزَتْ صَفْحَتُهَا ، وَحُصُونُ الرِّعِيَةِ إِذَا تَضَايَقَتِ الْحَالُ بِهَا ، قَدْ مَضَتْ لَهُمْ وَقَائِعُ صَادِقَاتٍ ، وَمَوَاطِنُ صَالِحَاتٍ ، أَخَذَتْ نِيرَانَ

الفتن ، وقسمت دواعي البِدَع . وأذلت رقاب الجبارين ، ولم ينفكوا كذلك ماجروا مع ربح دولتنا ، وأقاموا في ظلِّ دعوتنا ، واعتصموا بحبل طاعتنا ، التي أعزَّ الله بها ذلتهم ، ورفع بها صعقتهم ، وجعلهم بها أرباباً في أقطار الأرض ، وملوكاً على رقاب العالمين بعد لباس الذل ، وقناع الخوف ، وإطباق البلاء ، ومخالفة الأسي ، وجهد البأس والضر . فظاهر عليهم لباس كرامتك ، وأنزلهم في حدائق نعمتك ، ثم اعرف لهم حق طاعتهم ، ووسيلة دالتهم ، وماتة سابقتهم ، وحرمة مناصحتهم ، بالإحسان إليهم ، والتوسعة عليهم ، والإثابة لحسنهم ، والإقالة لسئبهم .

أى بنى ، ثم عليك العامة . فاستدع رضاها بالعدل عليها ، واستجاب مودتها بالإنصاف لها ، وتحسن بذلك لربك ، وتوثق به في عين رعيتك ، واجعل عمال العُدْر وولاية الحجج مُقدِّمةً بين يدي عملك ، ونصفة منك لرعيتك ، وذلك أن تأمر قاضى كل بلد ، وخيار أهل كل مصر ، أن يختاروا لأنفسهم رجلاً توليه أمرهم ، وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم ، فإن أحسن حدث ، وإن أساء عذرت . هؤلاء عمال العُدْر ، وولاية الحجج ، فلا يسقطنَّ عليك مافى ذلك إذا انتشر في الآفاق ، وسبق إلى الأسماع من انققاد السنة المرجفين ، وكبت قلوب الحاسدين ، وإطفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأمور ، ولا ينفكَنَّ في ظل كرامتك نازلاً ، وبِعراً حبلك متعلقاً ، رجلاًن : أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب ، وأعلام بيوتات الشرف ، له أدب فاضل ، وحلم راجح ، ودين صحيح ، والآخر له دين غير مغموز ، وموضع غير مدخول ، بصير بتقلب الكلام ، وتصريف الرأى ، وأنحاء القرب ، ووضع الكتب ، عالم بحالات الحروب ، وتصاريف الخطوب ، يضع آداباً نافعة ، وآثاراً باقية ، من محاسنك وتحسين أمرك ، وتحلية ذكرك ، فتستشيره في حربك ، وتدخله في أمرك ، فرجل أصبته كذلك ، فهو يأوى إلى محلتى ، ويرعى في خضرة جنانى ، ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان ، وخيار الأمصار ، أقواماً يكونون حيرانك وسمارك ، وأهل

مشاورتك فيما تُورد ، وأصحاب مناظرتك فيما تُصدر ، فسِرْ على بركة الله ، أحصيك الله من عونه وتوفيقه دليلاً يَهْدِي إلى الصواب قلبك ، وهادياً ينطق بالخير لسانك .
وكتب في شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد^(١) .

(العقد الفريد ١ : ٥٧)

٦٨ - ابن عتبة يعزى المهدي ويهتبه

لما توفى المنصور دخل ابن عتبة^(٢) مع الخطباء على المهدي ، فسلم فقال :
« آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك الله لأمر المؤمنين فيما خلقه له أمير المؤمنين بعده ، فما مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين ، ولا عُقْبَى أفضل من وراثته مقام أمير المؤمنين ، فأقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسب عند الله أفضل الرزية » .
(البيان والتبيين ٢ : ١٠٣ ، والعقد الفريد ٢ : ٣٥)

٦٩ - يعقوب بن داود يستعطف المهدي

لما سخط المهدي على وزيره يعقوب بن داود^(٣) أحضره ، فقال : يا يعقوب ، قال : كبيك يا أمير المؤمنين ، تلبيةً مكروبٍ لِمَوْجِدَتِكَ ، شَرِقَ بَغُصَّتِكَ ، قال :

(١) ملاحظة : أقول : وهذا يناق ما ورد في التاريخ : إذ المعروف أن المهدي توفى في المحرم سنة ١٦٩ وأعطاه الهادي ، الذي توفى في ربيع الأول سنة ١٧٠ ، فكيف يكون تاريخ كتابة هذه المشاورة هو ربيع الآخر سنة ١٧٠ أي بعد وفاة المهدي والهادي ، مع أنه ذكر في سياق خبرها أن المهدي أمر محمد بن الحيث بحفظ مراجعتهم ، وإثبات مقالاتهم في كتاب ، أي أنها كتبت في المجلس الذي حدثت فيه المشاورة . والله ارادني التاريخ أيضاً أن الهادي خرج إلى جرجان سنة ١٦٦ و ١٦٧ (راجع تاريخ الطبري ج ١٠ ص ٧ - ٨) اللهم إلا أن يقال إنها كتبت في مجلس المشاورة ، وبقيت محفوظة لدى كاتبها ، حتى نشرت للناس في ربيع الآخر سنة ١٧٠ أي أن ذلك التاريخ هو تاريخ كتابتها لإعلانها للجمهور ، عل أننا نتشكك فيها من وجهة أخرى ، وذلك لما نراه عليها من مـحة الكتابة الفنية المنسقة .

(٢) وفي العقد الفريد « أبو العيناء المحدث » .

(٣) وكان المهدي قد فرض إليه الأمور كلها ، وسلم إليه الدواوين ، وقدمه على جميع الناس ، ثم سخط عليه . وسبب ذلك أنه دفع إليه رجلاً من العلويين ، وقال له : أحب أن تكفي أمره ، فلما صار العلوي -

« ألم أرفع قدرك وأنت خامل ، وأسير ذكرك وأنت هامل ، وألبسك من نعم الله تعالى ونعمي ما لم أجد عندك طاقةً لحمله ، ولا قياماً بشكره ؟ فكيف رأيت الله تعالى أظهر^(١) عليك ، وردّ كيدك إليك ! » .

قال : « يا أمير المؤمنين ، إن كنت قلت هذا بتيقن وعلم فإني معترف ، وإن كان بسماية الباغين ، ونمائم المعاندين ، فأنت أعلمُ بأكثرها ، وأنا عايدٌ بكرمك ، وعميم شرفك » .

فقال : لولا الحنث^(٢) في دمك لألبستك قميصاً لاتشد عليه أزراراً ، ثم أمر به إلى السجن ، فتولى وهو يقول : « الوفاء يا أمير المؤمنين كرم ، والوعدة رحيم ، وما على العفو ندم ، وأنت بالعفو جدير ، وبالحماسن خَلِيق » ، فأقام في السجن إلى أن أخرجه الرشيد .

(زمر الآداب ٣ : ٢٠٧)

٧٠ - رجل من أهل خراسان يخطب محضرة المهدي

وقَدِمَ على المهدي رجل من أهل خراسان ، فقال : « أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، إنا قوم تائبنا عن العرب ، وشغلتنا الحروب عن الخطب ، وأمير المؤمنين يعلم طاعتنا ، وما فيه مصلحتنا ، فيكتفي منا باليسير عن الكثير ، ويقتصر على ما في الضمير ، دون التفسير » ، فقال المهدي : أنت أخطب من سمعته .

(الصناعتين ص ٤٠)

— وفيه : قال له : يا مقوب تلقى الله بدي ، وأنا ابن علي بن أبي طالب ، وابن فاطمة رضي الله عنها ، وليس لي إليك ذنب ؟ فرق له ، ودخل سبيله ، ونهى الخبر إلى المهدي ، فأرسل في طلب العلوي حتى ظهر به ، واستلحق مقوب ، فقال : ما فعلت بالعلوي ؟ قال : قد أراح الله منه أمير المؤمنين ، قال : مات ؟ قال : نعم ، فاستحلفه ، فحلف له ، فأخرج إليه للعلوي ، فلم يجر جواباً ، فأمر بجمسه في بئر مظلمة ، ومازاله محبوساً حتى عفا عنه الرشيد وتوفى سنة ١٨٦ هـ . (١) أي أعان عليك .

(٢) في الأصل « الحسب » وأرى أنها محرفة عن « الحنث » وهو الذنب العظيم والإثم .

٧١ - مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي

دخل صالح بن عبد الجليل على المهدي ، فسأله أن يأذن له في الكلام ، فقال : تكلم

قال :

« إنه لما سَهَّل علينا ما توعَّر على غيرنا من الوصول إليك ، قَمْنَا مقامَ الأداء عنهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي ، عند انقطاع عُذْر الكِثْمَانِ ، ولا سِيَّما حين اتَّسَمَت بِمِيسَمِ التواضع ، ووعدت الله وَحَمَلَةَ كتابه إثارة الحق على ما سواه ، فَجَمَعْنَا وَإِيَّاكَ مشهدً من مشاهد التمهيص ، لِيَمِّمَ مؤدِّبنا على موعود الأداء عنهم ، وقابلنا على موعود القبول ، أو يزيدنا تمحيصُ الله إيانا في اختلاف السر والعلانية ، وَيُحَلِّقُنَا حِلْيَةَ الكذابين ، فقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : « من حَجَبَ الله عنه الْعِلْمَ ، عَذَّبَهُ على الجهل ، وَأَشَدَّ منه عَذَاباً مَنْ أَقْبَلَ إليه العلم وأدْبَرَ عنه ، ومن أهدى الله إليه علماً فلم يعمل به ، فقد رَغِبَ عن هدية الله وقصَّر بها » ، فأقبل ما أهدى الله إليك من أسنتنا ، قبول تحقيق وعمل لا قبول سُمْعَةٍ ورياء ، فإنه لا يَعدَمُك منا إعلامٌ لِمَا تَجْهَلُ ، أو مُوَاطَاة على ما تعلم ، أو تذكير لك من غفلةٍ ، فقد وَطَّنَ الله عزَّ وجلَّ نبيه عليه الصلاة والسلام على نزولها ، تعزيةً عما فات ، وَتَحْصِيناً من التماذى ، ودلالة على المخرج ، فقال : « وَإِذَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » وَأَطْلِعِ الله على قلبك ، بما ينور الله به القلوب ، من إثارة الحق ، ومنابذة الأهواء فإنك إن لم تفعل ذلك يَرُ أترُكُ وَأترُ الله عليك فيه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

٧٢ - عظة شبيب بن شيبه للمهدى

وقال شبيب بن شيبه^(١) للمهدى : « يا أمير المؤمنين ، إن الله إذ قَسَمَ الأقسام في الدنيا ، جعل لك أسنانها وأعلاها ، فلا ترض لنفسك من الآخرة ، إلا مثل ما رضيت لك به من الدنيا ، فأوصيك بتقوى الله ، فعليكم نزلت ، ومنكم أخذت ، وإليكم تُردّ » .
(العقد الفريد ١ : ٣٠٧)

٧٣ - خطبته في تعزية المهدي بابنته

لما ماتت البانوقة بنت المهدي ، جَزَع عليها جزعاً لم يُسمع بمثله ، فجلس للناس يعزونه ، وأمر ألا يُحجَب عنه أحد ، فأكثر الناس في التعازي ، واجتهدوا في البلاغة ، وفي الناس من ينتقد هذا عليهم من أهل العلم والأدب ، فأجمعوا على أنهم لم يسموا تعزية أوجز ، ولا أبلغ ، من تعزية شبيب بن شيبه ، فإنه قال :

« أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزيت أجراً ، وأعقبك صبراً ، ولا أجهد الله بلاءك بنعمة ، ولا نزع منك نعمة ، ثوابُ الله خيرٌ لك منها ، ورحمة الله خير لها منك وأحقُّ ما صبرَ عليه مالا سبيل إلى رده^(١) » .
(تاريخ الطبري ١٠ : ٢١)

٧٤ - خطبة أخرى له في مدح الخليفة

قيل لبعض الخلفاء إن شبيب بن شيبه يستعمل الكلام ويستمدله ، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لرجوت أن يفتضح ، فأمر رسولا فأخذ بيده إلى المسجد فلم يفارقه حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم حق الصلاة عليه ، ثم قال :

(١) هو شبيب بن شيبه بن عبد الله بن عمرو بن الأهم المقرئ القمي وهو ابن عم خالد بن صفوان .
توفي في حدود سنة ١٧٠ هـ .
(٢) روى صاحب العقد أن شيبيا عزى بهذا المذال المنصور على أخته أبي العباس (العقد الفريد ٢ : ٣٥) .

« ألا إن لأمير المؤمنين أشباها أربعة: الأسد الخادر^(١) ، والبحر الزاخر ، والقمر الياهر ، والربيع الناضر ؛ فأما الأسد الخادر : فأشبه منه صولته ومضاهه ؛ وأما البحر الزاخر : فأشبه منه جوده وعطاءه ؛ وأما القمر الباهر : فأشبه منه نوره وضيائه ؛ وأما الربيع الناضر : فأشبه منه حسنه وبهائه ، ثم نزل وأنشأ يقول :

وموقفٍ مثل حدِّ السيف قتُّ به أحمي الذمار وترميني به الخدق^(٢)
فما زلقت ، وما ألقيت كاذبةً إذا الرجال على أمثاله زلقوا

(المعقد الفرديد ٢ : ١٥٨ ، ١ : ١٣٨ ، زهر الآداب ٣ : ٢٠٩)

٧٥ - كلمات لشيب بن شيبه

وقال شيب : « اطلب الأدب ، فإنه دليل على المرأة ، وزيادة في العقل ، وصاحب في العربة ، وصلة في المجلس » .

وقال للمهدى يوماً : « أراك الله في بنيك ، ما أرى أباك فيك ، وأرى الله بنيك فيك ، ما أراك في أبيك » . (البيان والتبيين ١ : ١٩٠)

وخرج من دار الخلافة يوماً ، فقال له قائل : كيف رأيت الناس ؟ قال : « رأيت للداخل راحياً ، والخارج راضياً » .

(البيان والتبيين ١ : ١٩٠ ، زهر الآداب ٣ : ١٢٩)

٧٦ - خطبة يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب

يوم ولي الرشيد الخلافة

روى الطبرى قال : لما كانت الليلة التي توفي فيها موسى الهادى ، أخرج هرون بن أعين هرون الرشيد ليلاً ، فأقعدته للخلافة ، فدعا هرون يحيى بن خالد بن برمك

(١) الخدر : أجمه الأسد ومنه يقال أسد خادر ، وأخدر الأسد : لزم الأجمه . وأخدر العين الأسد : ستره فهو نخدر بكسر الدال وفتحها . (٢) الذمار : مانج حايته .

- وكان محبوساً - وقد كان عزم موسى على قتله ، وقتل هرون الرشيد في تلك الليلة^(١) فحضر يحيى ، وتقلد الوزارة ، ووجه إلى يوسف بن القاسم بن صُبَيْح الكاتب ، فأحضره وأمره بإنشاء الكتب ، فلما كان غداة تلك الليلة وحضر القواد ، قام يوسف ابن القاسم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إن الله بِمَنِّهِ وَلُطْفِهِ ، مَنْ عَايَكُمْ مَعَاشِرَ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ ، بَيْتِ الْخِلَافَةِ ، وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَإِيَّاكُمْ أَهْلَ الطَّاعَةِ مِنْ أَنْصَارِ الدَّوْلَةِ وَأَعْوَانِ الدَّعْوَةِ ، مِنْ نِعْمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَى بِالْعَدَدِ ، وَلَا تَنْقُضِي مَدَى الْأَبَدِ ، وَأَيْدِيهِ التَّامَةَ ، أَنْ جَمَعَ الْفَتْكُمْ ، وَأَعْلَى أَمْرِكُمْ ، وَشَدَّ عَضُدَكُمْ ، وَأَوْهَنَ عَدُوَكُمْ ، وَأَظْهَرَ كَلِمَةَ الْحَقِّ ، وَكُنْتُمْ أَوْلَى بِهَا وَأَهْلَهَا ، فَأَعَزَّكُمْ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ تَوْفِيئًا عَزِيزًا ، فَكُنْتُمْ أَنْصَارَ دِينِ اللَّهِ الْمَرْضِيِّ ، وَالذَّابِّينَ بِسَيْفِهِ الْمُنْتَضِي ، عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِيَّاكُمْ اسْتَنْقَذَهُمْ مِنْ أَيْدِي الظُّلْمَةِ أُمَّةَ الْجُورِ ، وَالنَّاقِضِينَ عَهْدَ اللَّهِ ، وَالسَّافِكِينَ الدَّمَ الْحَرَامَ ، وَالْآكِلِينَ النَّفْيَ وَالْمُسْتَأْتِرِينَ بِهِ ، فَاذْكُرُوا مَا أَعْطَاكُمْ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ ، وَاحذَرُوا أَنْ تَغْيُرُوا فَيَغْيِرَ بِكُمْ ، وَإِنْ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ اسْتَأْتَرَ بِخَلِيفَتِهِ مُوسَى الْهَادِي الْإِمَامَ ، فَقَبِضَهُ إِلَيْهِ ، وَوَلَّى بَعْدَهُ رَشِيدًا مَرْضِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِكُمْ رَهْوَفًا رَحِيمًا ، مِنْ مَحْسَنِكُمْ قَبُولًا ، وَعَلَى مَسِيئِكُمْ بِالْعَفْوِ عَطُوفًا ، وَهُوَ - أَمْتَعَهُ اللَّهُ بِالنِّعْمَةِ ، وَحَفِظَ لَهُ مَا اسْتَرَعَاهُ إِيَّاهُ مِنْ أَمْرِ الْأُمَّةِ ، وَتَوَلَّاهُ بِمَا تَوَلَّى بِهِ أَوْلِيَاءَهُ وَأَهْلَ طَاعَتِهِ - يَعِدُّكُمْ مِنْ نَفْسِهِ الرَّأْفَةَ بِكُمْ ، وَالرَّحْمَةَ لَكُمْ ، وَتَقْسِمُ أَعْطِيَاتِكُمْ فَيْكُمْ عِنْدَ اسْتِحْقَاقِكُمْ ، وَيَبْدُلُ لَكُمْ مِنَ الْجَائِزَةِ ، مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى الْخُلَفَاءِ ، مِمَّا فِي بَيْوتِ الْمَالِ مَا يَنْبُوبُ عَنْ رِزْقِ كَذَا وَكَذَا شَهْرًا ، غَيْرَ مُقَاضٍ لَكُمْ بِذَلِكَ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَ مِنْ أَعْطِيَاتِكُمْ وَحَامِلًا بَاقِيَ ذَلِكَ لِلدَّفْعِ عَنْ حَرِيمِكُمْ ، وَمَا لَعَلَّ أَنْ يَحْدُثَ فِي النُّوَاحِي وَالْأَقْطَارِ مِنْ

(١) وكان الهادي يريد أن يجعل الخلافة في ابنه جعفر ، ويخلف أخاه هارون . وسعى إلى الهادي يحيى ابن خالد ، وقيل له إنه ليس عليك من هرون خلاف ، وإنما يقصد يحيى بن خالد ، فأغضب ذلك موسى الهادي على يحيى وأمر بهجسه .

العصاة المارقين ، إلى بيوت الأموال ، حتى تعود الأموال إلى جوامها^(١) وكثرتها ،
والحال التي كانت عليها ، فاحمدوا الله وجددوا شكراً يوجب لكم المزيد من
إحسانه إليكم ، بما جدّد لكم من رأى أمير المؤمنين ، وتفضل به عليكم ، أيده الله
بطاعته ، وارغبوا إلى الله له في البقاء ، ولكم به في إدامة النعماء ، لعلكم ترحمون ،
وأعطوا صفة أيمانكم ، وقوموا إلى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم ، وأصلح بكم
وعلى أيديكم ، وتولاكم ولاية عباده الصالحين » . (تاريخ الطبري ١٠ : ٤٨)

٧٧ - خطبة هرون الرشيد (توفي سنة ١٩٣ هـ)

« الحمد لله نحمده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصره على أعدائه ،
ونؤمن به حقاً ، وتوكل عليه ، مفوضين إليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بعثه على فترة من الرسل ، ودروس^(٢)
من العلم ، وإدبار من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، بشيراً بالنعيم المقيم ، ونذيراً بين
يدى عذاب أليم ، فبلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله ، فأدى عن الله وعده
ووعيده ، حتى أتاه اليقين ، فعلى النبي من الله صلاة ورحمة وسلام .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن في التقوى تكفير السيئات ، وتضعيف
الحسنات ، وفوزاً بالجنة ، ونجاةً من النار ، وأحذركم يوماً تشخص^(٣) فيه الأبصار ،
وتعلن فيه الأسرار ، يوم البعث ، ويوم التغابن^(٤) ، ويوم التلاق ، ويوم التناد ،
يوم لا يستعقب من سيئة ، ولا يرُدد من حسنة ، يوم الآزفة^(٥) ، إذ القلوب لدى
المنابر كاطنين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين^(٦)

(١) كثرتها . (٢) دروس : الحاء . (٣) شخص بضمه كنع : فتح عينيه ، وجعل لا يهتف .

(٤) يوم القيامة ، وسمى بذلك لأن أهل الجنة تغيب فيه أهل النار بأخذ منازلهم في الجنة أو امتوا .

(٥) القيامة ، من أرف كفرح : دنا وقرب . (٦) بمسارقتها للنظر إلى الحرم .

وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَأَنْتُمْ أَيُّهَا تَرْجَمُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

عباد الله : إنكم لم تُخلقوا عبثاً ، ولن تُترَكوا سُدَى ، حصنوا إيمانكم بالأمانة ،
ودينكم بالورع ، وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له ، ولا دينَ لمن لا عهدَ له ، ولا صلاةَ لمن لا زكاةَ له » .
إنكم سَفَرٌ^(١) مجتازون ، وأتم عن قريب تنقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا
إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهدى بالأمانة ، فإن الله تعالى ذكره
أوجب رحمته للمتقين ، ومغفرته للتائبين ، وهداه للمنيبين . قال الله عز وجل وقوله
الحق : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأْأُكْتِبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » ،
وقال : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » وإياكم والأمانى ،
فقد غرَّت وأزادت^(٢) ، وأوقعت كثيراً ، حتى أكدت بهم منايهم ، فتناوشوا^(٣)
التوبة من مكان بعيد ، وحيلَ بينهم وبين ما يشتهون ، فأخبركم ربكم عن المثلث فيهم
وصرف الآيات ، وضرب الأمثال ، فرغب بالوعد ، وقدم إليكم الوعيد ، وقد رأيتم
وقائعهم بالقرون الخوالى جيناً فجيلاً ، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر ،
باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ، ومن بين أظهركم ، لاندفعون عنهم ، ولا تحولون
دونهم ، فزالت عنهم الدنيا ، وانقطعت بهم الأسباب ، فأسلمتهم إلى أعمالهم عند
المواقف والحساب والعقاب ، « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ
أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » . إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ؛ يقول الله عز وجل
« وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أعود بالله من
الشیطان الرجيم إنه هو السميع العليم ، بسم الله الرحمن الرحيم : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ .

الله الصمد . لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد . أمركم بما أمركم الله به ،
وأنها كم عما نهاكم عنه ، وأستغفر الله لي ولكم . (المقد الفريد ٢ : ١٤٧)

٧٨ - وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين

ووصى الرشيد مؤدب ولده الأمين ، فقال :

« يَا أَحْمَرَ^(١) ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مَهْجَةً نفسه ، وَثَمَرَةَ قلبه ، فصير
يدك عليه مبسوطةً ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ،
أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروّه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام
وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا
عليه ، ورفّع مجالس القواد إذا حضرُوا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مفتنم
فائدة تفيده إياها ، من غير أن تُحزّنه ، فتميت ذهنه ، ولا تُمعن في مساحته ، فيستحلي
الفراغ ويألفه ، وقومهُ ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدّة والغلظة » .
(مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٢)

٧٩ - خطبة لجعفر بن يحيى البرمكي (قتل سنة ١٨٧ هـ)

وهاجت العصبية بالشأم بين أهلها في عهد الرشيد (سنة ١٨٠ هـ) وتفاقم أمرها ،
فاغتم لذلك الرشيد ، وعقد لجعفر بن يحيى على الشأم ، وقال له : إما أن تخرج أنت
أو أخرج أنا ، فقال له جعفر : بل أقيك بنفسى ، فشخص في جلة القواد والكراع
والسلاح ، فأتاهم فأصلح بينهم ، وقتل زواقيلهم^(٢) والمتلصصة منهم ، ولم يدع بها رحماً
ولا فرساً ، فعادوا إلى الأمن والطمأنينة ، وأطفأ تلك النائرة .

(١) هو حل بن المبارك الأحمر صاحب الكسافي ، وكان يؤدب الأمين ، وكان مشهوراً بالنحو واتساع

الحفظ ، ومات سنة ٢٠٦ ، أو سنة ٢٠٧ . انظر ترجمته في «نزهة الألبا في طبقات الأدبا» ص ١٢٥ .

(٢) الزواقيل : المصوص .

فلما قَدِمَ على الرشيد دخل عليه ، فقبَّل يديه ورَّجله ، ثمَّ مثل بين يديه ، فقال :
« الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي آنَسَ وحشتي ، وأجاب دعوتي ، ورَّحمَ تضرَّعي ،
وأنسا^(١) في أجلى ، حتى أرانى وجه سيدى ، وأكرمنى بقرْبه ، وأمتنَّ علىَّ بتقبيل يده ،
ورَدَّنِي إلى خدمته ، فوالله إنَّ كنتُ لأذْكر غيبتى عنه ، ونَحْرَجِي والمقادير التى
أزعجتنى ، فأعلمُ أنها كانتْ بمعاصِ لحقتنى ، وخطايا أحاطتْ بى ، ولو طال مُقامى عنك
يا أمير المؤمنين - جعلنى الله فذاك - لخِفتُ أن يذهب عقلى ، إشفاقاً على قُربك ،
وأسفًا على فراقك ، وأن يعجل بى عن إذْلك الاشتياقُ إلى رؤيتك ، والحمد لله الذى
عصمنى فى حال النِّيبَةِ ، وأمتعنى بالعافية ، وعرفنى الإجابة ، ومَسَّكنى بالطاعة ، وحال
بىنى وبين استعمال العصية ، فلم أشخص إلا عن رأيك ، ولم أقدم إلا عن إذْلك وأمرِك
ولم يخترِ منى أجلٌ دونك ، والله يا أمير المؤمنين - فلا أعظم من اليمين بالله - لقد عاينتُ
مالو تُعرَض لى الدنيا كلُّها ، لاخترتُ عليها قُربك ، ولكنا رأيتها عِوضًا من
المُقام معك » .

ثم قال له بعقب هذا الكلام فى هذا المقام :

« إن الله يا أمير المؤمنين لم يزل يُبليكَ^(٢) فى خلافتك ، بقدر ما يعلم من نيَّتِكَ ،
ويُرِيكَ فى رعيَّتِكَ غاية أمنيَّتِكَ ، فيُصلِّح لك جماعتهم ، ويجمع ألفتهم ، ويَلِمُ شعْثهم ،
حفظًا لك فيهم ، ورحمة لهم ، وإِنما هذا للتمسك بطاعتك ، والاعتصام بحبل مرَّضاتك ،
والله الحمدُ على ذلك وهو مُستَحِقُّه . وفارقتُ يا أمير المؤمنين أهلَ كُورِ الشَّامِ
وهم منقادون لأمرِك ، نادمون على ما فرَّط من معصيتهم لك ، متمسكون بحبلِك ،
نازلون على حُكْمِكَ ، طالبون لعفوك ، واثقون بحلمِك ، مؤثِّلون فضلك ، آمِنون
بأدركك ، حالهم فى اتِّلافهم كحالهم كانت فى اختلافهم ، وحالهم فى ألفتهم كحالهم

كانت في امتناعهم ، وَعَفُو أمير المؤمنين عنهم ، وَتَغْمُذُهُ^(١) لهم ، سابقٌ لمعذرتهم ،
 وَصَلَةُ أمير المؤمنين لهم ، وَعَظْفُهُ عليهم ، متقدِّمٌ عنده لسألتهم ، وَايْمُ الله يا أمير المؤمنين
 لئن كُنْتُ قد شَخَّصْتُ عنهم ، وَقَدْ أَخَذَ اللهُ شِرَارَهُمْ ، وَأَطْفَأَ نَارَهُمْ ، وَنَفَى مُرَاقِمَهُمْ^(٢) ،
 وَأَصْلَحَ دَهْمَهُمْ^(٣) ، وَأَوْلَانِي الْجَمِيلَ فيهم ، وَرَزَقَنِي الانتصارَ منهم ، فما ذلك كله :
 إِلَّا بِرِكَتِكَ وَيَمْنِكَ وَرِيحِكَ^(٤) ، وَدَوَامِ دَوْلَتِكَ السَّعِيدَةِ الِيمُونَةِ الدَّائِمَةِ ، وَتَخَوُّفِهِمْ
 مِنْكَ ، وَرَجَائِهِمْ لَكَ . وَاللهُ يا أمير المؤمنين ما تَقَدَّمْتُ إليهم إِلَّا بِوَصِيَّتِكَ ، وَمَا عَامَلْتَهُمْ
 إِلَّا بِأَمْرِكَ ، وَلَا سِرْتُ فيهم إِلَّا عَلَى حَدِّ مَا مَثَلْتَهُ لِي وَرَسَمْتَهُ ، وَوَقَفْتَنِي عَلَيْهِ ، وَوَاللهُ
 مَا اتَّقَادُوا إِلَّا لِإِدْعَاؤِكَ ، وَتَوَحُّدِ^(٥) اللهُ بِالصَّنْعِ لَكَ ، وَتَخَوُّفِهِمْ مِنْ سَطْوَتِكَ . وَمَا كَانَ
 الَّذِي كَانَ مِنِّي ، وَإِنْ كُنْتُ قد بذلتُ جهدي ، وَبَلَغْتُ مجهودي ، قَاضِيَا بَعْضَ حَقِّكَ
 عَلَيَّ ، بَلْ مَا زَادَتْ نِعْمَتُكَ عَلَيَّ عِظْمًا ، إِلَّا أَزِدْتُ عَنْ شُكْرِكَ مَعْجَزًا وَضِعْفًا ،
 وَمَا خَلَقَ اللهُ أَحَدًا مِنْ رِعِيَّتِكَ ، أَبْعَدَ مِنْ أَنْ يُطْمَعِ نَفْسَهُ فِي قِضَاءِ حَقِّكَ مِنِّي ،
 وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنْ أَكُونَ بِأَذَلِّ مُنْهَجَتِي فِي طَاعَتِكَ ، وَكُلُّ مَا يَقْرُبُ إِلَيَّ مُوَافَقَتِكَ ،
 وَلَكِنِّي أَعْرِفُ مِنْ أَيْدِيكَ عِنْدِي مَا لَا أَعْرِفُ مِثْلَهَا عِنْدَ غَيْرِي ، فَكَيْفَ بِشُكْرِي !
 وَقَدْ أَصْبَحْتُ وَاحِدَ أَهْلِ دَهْرِي ، فَمَا صَنَعْتَهُ فِيَّ ؟ وَبَنِي ؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي ! وَإِنَّمَا
 أَقْوَى عَلَى شُكْرِكَ يَا كِرَامَكَ إِيَّاي ؟ ، وَكَيْفَ بِشُكْرِي ! وَلَوْ جَعَلَ اللهُ شُكْرِي
 فِي إِحْصَاءِ مَا أَوْلَيْتَنِي ، لَمْ يَأْتِ عَلَى ذَلِكَ عَدِّي ؟ وَكَيْفَ بِشُكْرِي ! وَأَنْتَ كَهْفِي دُونَ
 كُلِّ كَهْفٍ لِي ؟ وَكَيْفَ بِشُكْرِي ! وَأَنْتَ لَا تَرْضَى لِي مَا أَرْضَاهُ لِي ؟ وَكَيْفَ بِشُكْرِي !
 وَأَنْتَ تَجِدُّدٌ مِنْ نِعْمَتِكَ عِنْدِي مَا يَسْتَفْرُقُ كُلَّ مَا سَلَفَ عِنْدَكَ لِي ؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي !
 وَأَنْتَ تُدْسِنِي مَا تَقْدِمُ مِنْ إِحْسَانِكَ إِلَيَّ ، بِمَا تُجَدِّدُهُ لِي ؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي ؟ وَأَنْتَ

(١) تغمذه الله برحمته : غمزه بها . (٢) جمع مارق : وهو الخارج الخلد .

(٣) الدهماء : جماعة الناس . (٤) قوتك .

(٥) توحد الله تعالى بمصمته : عصمه ولم يكله إن غيره .

تَقَدَّمَنِي بِطَوْلِكَ عَلَى جَمِيعِ أَكْفَائِي؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي! وَأَنْتَ وَئِي؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي! وَأَنْتَ الْمَكْرَمُ لِي؟ وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي رَزَقَنِي ذَلِكَ مِنْكَ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ لَهُ إِذْ كَانَ الشُّكْرَ مَقْضَرًّا عَنْ بُلُوغِ تَأْدِيَةِ بَعْضِهِ، بَلْ دُونَ شِقْصٍ^(١) مِنْ عَشْرِ عَشِيرِهِ - أَنْ يَتَوَلَّى مَكَافَأَتَكَ عَنِّي، بَمَا هُوَ أَوْسَعُ لَهُ وَأَقْدَرُ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَقْضِيَ عَنِّي حَقَّكَ، وَجَلِيلَ مَنَّتِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ بِيَدِهِ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَيْهِ.» . (تاريخ الطبري ١٠ : ٦٦)

٨٠ - استعطاف أم جعفر بن يحيى للرشد

روى صاحب المقدم قال :

« كانت أم جعفر بن يحيى^(٢) - وهي فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة - أرضعت الرشد مع جعفر ، لأنه كان رُبِّيَّ في حجْرها ، وَغُدِّيَ بِرِسْلِهَا^(٣) ، لأنَّ أُمَّهُ ماتت عن مَهْدِهِ ، فكان الرشد يشاورها مُظْهِرًا لِإِكْرَامِهَا ، وَالتَّبَرُّكِ بِرَأْيِهَا ، وَكَانَ آتِي وَهُوَ فِي كِفَالَتِهَا أَنْ لَا يَحْجُبُهَا ، وَلَا اسْتَشْفَعَتْهُ لِأَحَدٍ إِلَّا شَفَعَهَا ، وَآلَتْ عَلَيْهِ أُمُّ جَعْفَرٍ أَنْ لَا دَخَلَ عَلَيْهِ إِلَّا مَا ذُوْنَا لَهَا ، وَلَا شَفَعَتْ لِأَحَدٍ مَقْتَرَفٍ ذَنْبًا ، فَكَمَ أُسِيرٌ فَكَّتْ وَمُؤَبَّهٌ عِنْدَهُ فَتَحَتْ ، وَمَسْتَعْلِقٌ مِنْهُ فَرَّجَتْ ، وَاحْتَجَبَ الرشد بعد قدومه^(٤) ، فَطَلَبَتْ الإِذْنَ عَلَيْهِ مِنْ دَارِ الْبَاقُونَةِ ، وَمَتَّتْ^(٥) بوسائلها إليه ، فلم يأذن لها ، وَلَا أَمْرَ بِشَيْءٍ فِيهَا ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ بِهَا خَرَجَتْ كَاشِفَةً وَجْهَهَا ، وَأَضَعَتْ لِثَامَهَا ، مُحْتَفِيَةً^(٦) فِي مَشِيئِهَا ، حَتَّى صَارَتْ بِيَابِ قَصْرِ الرشد ، فَدَخَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ الْفَضْلِ الْحَاجِبَ ،

(١) الشقص : السهم والنصيب ، والعشير : جزء من عشرة كالمشار والعشر .

(٢) كان البرامكة قد اسعأثروا بشئون الدولة وأموالها ، وغلَّبوا الرشد على سلطانه ، ولم يكن له مهمم تصرف في مملكته ، ولم يبق له من الخلافة إلا رسمها وصورتها - وحديثهم في ذلك طويل ، ليس هاهنا موضعه - فمزَّم على نكبتهم ، حتى انتهز فرصة رجوعه مهمم من الحج سنة ١٨٧ ، فقتل جعفرًا لهلاف في طريقه ، وقبض على يحيى وابنه الفضل وبقية البرامكة ، وحبسهم في سجن الزنادقة إلى أن ماتوا فيه ، واستصنى أموالهم ورضياعهم . (٣) الرسل : اللب .

(٤) أي من الحج . (٥) توصلت . (٦) احتنى : مشى حافيا .

فقال : ظنُّ^(١) أمير المؤمنين بالباب ، في حالة تقلبِ شماتة الحاسد ، إلى شفقة أم الواحد ؛ فقال الرشيد : وَيحك يا عبد الملك ! أو ساعية ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين حافية . قال : أدخلها يا عبد الملك ، فربَّ كبد غدَّتْها ، وَكُرْبَة فرَجَّتْها ، وَعَوْرَة سَتَرَتْها ، فدخلت ، فلما نظر الرشيد إليها داخلةً محتفياً ، قام محتفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس وأكبَّ على تقبيل رأسها ، ومواضع تدبُّبها ، ثم أجلسها معه ، فقالت : يا أمير المؤمنين أيعدُّو علينا الزمان ، وَيخفوننا خوفاً لك الأعوان ، وَيُحَرِّدُك^(٢) بنا البُهتان ، وقد ربَّيتك في حجرى ، وأخذت برضاك الأمان من عدوى ودهرى ؟ فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ، قالت : ظنُّك يحى ، وأبوك بعد أبيك ، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين ، من نصيحتته ، وإشفاقه عليه ، وتعرضه للحتف في شأن موسى أخيه^(٣) ، قال لها : يا أم الرشيد ، أمرٌ سبق ، وقضاء حُم^(٤) ، وغضبٌ من الله نفذ ، قالت : يا أمير المؤمنين « يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ^(٥) » قال : صدقت فهذا مما لم يَمْحُهُ اللهُ ، فقالت : الغيب محبوب عن النبيين ، فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ فأطرق الرشيد ملياً ، ثم قال :

- (١) الظنُّ : العاطفة على ولد غيرها ، المرصعة له ، في الناس وغيرهم ، فذكر وللأنثى .
(٢) يفضيك . (٣) قدمنا أن الهادى كان اعترم خلع أخيه الرشيد من ولاية المهدي ، واستخلاف ابنه جعفر ، وقد سعى إلى الهادى بيحيى بن خالك ، وأنه يفسد عليه أخاه الرشيد ، فحبسه وهم يقتله . ويروى أنه قال للهادى في خلع الرشيد لما كلمه فيه : « يا أمير المؤمنين ، إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان ، هانت عليهم أيمانهم ، وإن تركتهم على بيعة أخيك ، ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعتهم » فقال : صدقت ونصحت ، ولما في هذا تدبير ، ولما أمر بحبسه رفع إليه يحسى رقعة : إن عندي نصيحة ، فدعا به ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخلنى ، فأخلاه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أرايت إن كان الأمر - أسأل الله ألا ينقله ، وأن يقدمنا قبله - أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر ، وهو لم يبلغ الحلم ، ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزورهم ؟ قال : والله ما أظن ذلك ، قال : يا أمير المؤمنين ، أفتأمن أن يسمو إليها أهلك ، وجلتهم مثل فلان وفلان ، ويطلع فيها غيرهم ، فتخرج من ولد أبيتك ؟ فقال له : نهيتى يا يحيى ، وقال له : لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك ؟ أما كان ينبغي أن تعده له ؟ فكيف بأن تحله عنه ، وقد عقده المهدي له ؟ ولكن أرى أن تقرر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله ، فإذا بلغ جعفر ويبلغ الله به ، أتيت به بالرشيد فخلع نفسه ، وكان أول من يبایعه ويعطيه صفقة يده ، قيل فقيل للهادى قوله ورأيه وأمر بإطلاقه . (٤) حم : قدر . (٥) أم الكتاب : أصله ، أو اللوح المحفوظ .

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميمية لاتنفع^(١)
قالت بغير روية : ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين ، وقد قال الأول^(٢) :
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال
هذا بعد قول الله عز وجل « وَالكَاطِمِينَ أَلْمِيزَةَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْحَسَنِينَ » . فأطرق هرون ملياً ، ثم قال : يا أم الرشيد أقول :
إذا انصرفت فمسي عن الشيء لم تكذ إليه بوجه آخر الدهر تقبل
قالت : يا أمير المؤمنين وأقول :

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعته يمينك فانظر أئى كف تبدل^(٣)
قال هرون : رضيت ، قالت : فهبه لى يا أمير المؤمنين ، فقد قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « من ترك شيئاً لله ، لم يُؤجده^(٤) الله لفقهده » فأكب هرون ماياً ،
ثم رفع رأسه يقول : « لله الأمر من قبل ومن بعد » قالت : يا أمير المؤمنين
« وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » .
واذكر يا أمير المؤمنين أليتك^(٥) ما استشفعت إلا شفعتى . قال : واذكرى
يا أم الرشيد أليتك أن لا شفعت لمقترف ذنباً ، فلما رآته صرّح بمنعها ، ولاذ^(٦) عن
مطلبها ، أخرجت حُقماً من زمرودة^(٧) خضراء ، فوضعت بين يديه ، فقال الرشيد : ما هذا ؟
ففتحت عنه قفلاً من ذهب ؛ فأخرجت منه خفصته^(٨) وذوائبه وثناياه ، قد غمست
جميع ذلك في المسك ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، أستشفع إليك ، وأستعين بالله عليك ،

(١) التمام جمع تميمية : وهى العوذة التى تطلق على الصبي دفماً لعين ، أو المرض والبيت لأبى ذؤيب الهذلى .

(٢) هو الأخطل . (٣) هذا البيت والذي قبله من قصيدة لمن بن أرس المزنى مطلعها :

لمرك ما أدرى ، وإنى لأوجل على أينما تمدو المنية أول ؟

(٤) أى يحزنه . (٥) الآية : القسم . (٦) أى لم يجبه . (٧) الزمرد والزمرد بالبدال

والذال . (٨) خفص الجارية كضرب خفصاً ، وهو كالحتان للغلام ، وقيل : خفص الصبي خفته ،

فاستعمل فى الرجل ، والأهرف أن الخفص للمرأة والحتان للصبي ، يقال للجارية خفصت ، والغلام حتن .

وبما صار معي من كريم جسدك، وطيب جوارحك، ليحيي عبدك، فأخذ هرون ذلك فليته، ثم استعبر وبكى بكاء شديداً، وبكى أهل المجلس، ومرة البشير إلى يحيى، وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له، ورجوع عنه، فلما أفاق رمى جميع ذلك في الحق، وقال لها: **لَحَسَنٌ مَا حَفِظْتَ الْوَدِيعَةَ**، قالت: وأهلٌ للكفاة أنت يا أمير المؤمنين، فسكت وأقل الحق، ودفعه إليها، وقال: **«إِنَّ اللَّهَ يَا مَرْكُمُ أَنْ تُوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا»** قالت: والله يقول: **«وَإِذَا حَاكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ»** ويقول: **«وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ»**، ثم قال: وما ذلك يا أم الرشيد؟ قالت: أو ما أقسمت لي به ألا تحببني ولا تتمهني^(١)؟ قال: أحب يا أم الرشيد أن نشتره محكمة فيه. قالت: أنصفت يا أمير المؤمنين، وقد فعات غير مستقبلة لك، ولا راجعة عنك. قال: بكم؟ قالت: برضاك عمن لم يسخطك، قال: يا أم الرشيد أمالي عليك من الحق مثل الذي لهم؟ قالت: بلى يا أمير المؤمنين، أنت أعزُّ عليّ، وهم أحبُّ إليّ. قال: فتحكمني في تمنية بغيرهم، قالت: بلى قد وهبتك، وجعلتك في حل منه، وقامت عنه، وبقي مبهوتاً ما يحير^(٢) لفظه». (العقد الفرید ٢ : ٢٣)

٨١ - خطبة يزيد بن يزيد الشيباني

لما رضى الرشيد عن يزيد بن يزيد^(٣) أذن له بالدخول عليه، فلما مثل بين يديه قال: **«يا أمير المؤمنين، الحمد لله الذي سهّل لي سبيل الكرامة بلقائك، وردّ عليّ»**

(١) امتنه : ابدله .

(٢) يحير : يرد . (٣) وذلك أن الوليد بن طريف الشاري خرج في عهد الرشيد بالجزيرة، واشتدت شوكته وكثر تبعه سنة ١٧٩ ، فوجه إليه الرشيد يزيد بن يزيد الشيباني ، فجعل يقاتله وبما كره ، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد، فأغروا به الرشيد، وقالوا : إنما يتجاني عنه لرحم (لأنه شيباني مثله) وإلا فشوة للوليد يسيرة وهو يواعده، وينتظر ما يكون من أمره، فوجه إليه الرشيد كتاب مقضب، يقول فيه : « لو وجهت بأحد الخدم لاقام بأكثر مما تقوم به ولسكنك مداهن متعصب ، وأمير المؤمنين يقسم بالله أن أخرت مناجزة

النعمة بوجه الرضا منك ، وكشف عن ضبابة الكرب بإفضالك ، وجزاك الله يا أمير المؤمنين في حال سُخْطِكَ جزاء المحسنين المراقبين، وفي حال رضاك جزاء النعمين المتتئين المتطولين ، فقد جعلك الله - وله الحمد - تَنْبَتٌ^(١) تَحْرُجًا عند الغضب ، وتمنَّ تَطَوُّلاً بِالنِّعَمِ ، وتستبقي المعروف عند الصنائع^(٢) تفضلاً بالعفو .

(العقد الفريد ١ : ١٤١ ، وتاريخ الطبري ١٠ : ١١٧ وزهر للأدب ٢ : ٢٨٧)

٨٢ - خطبة عبد الملك بن صالح^(٣) (توفي سنة ١٩٦ هـ)

أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم ، « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ؟ » يا أهل الشام ، إن الله وصف إخوانكم في الدين ، وأشباهكم في الأجسام فحذرهم نبيهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقال : « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّكُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ ، قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ » ؟ فقاتلكم الله أني تُصْرَفُونَ ؟ جُثِّتْ مَائِلَةٌ ، وَقُلُوبٌ طَائِرَةٌ ، تَشُبُّونَ^(٤) الْفِتْنَ ، وَتَوَلَّوْنَ الدُّبُرَ ، إِلَّا عَنِ حَرَمِ اللَّهِ فَإِنَّهُ دَرِيئَتُكُمْ^(٥) ، وَحَرَمَ رَسُولِهِ ، فَإِنَّهُ مَغْزَاكُمْ ، أَمَا وَحُرْمَةُ النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ لَتَنْفِرَنَّ خِيفًا وَثِقَالًا ، أَوْ لَأَوْسِعَنَّكُمْ إِرْغَامًا وَنَكَالًا . »

(العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

الوايد ، ليوجهن إليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين ه ثم حمل يزيد على الوليد فقتله وبعث برأسه إلى الرشيد ، فلما انصرف يزيد بالظفر ، حجب برأى البرامكة ، وأظهر الرشيد السخط عليه ، فقال : وحق أمير المؤمنين لأصيفن وأشتون على فرسي أو أدخل ، فارتفع الخبر بذلك فأذن له فدخل ، فلما رآه الرشيد ضحك وسر ، وأقبل يصيح مرحباً بالأعرابي ، حتى دخل وأجلس وأكرم وعرف بلاؤه ونقاء صدره (راجع أخباره في الأغانى ١١ : ٨ ، وابن خلكان ٢ : ٢٨٣ ، والطبري ١٠ : ٦٥) .

(١) وفي رواية الطبري « تنيب » . (٢) وفي الطبري : « وقعفو عن المسي » .

(٣) هو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ، ولي لرشيد بلاد الجزيرة والشام وغيرها .

(٤) توفدون . (٥) الدريفة : الحلقة يتلم العلم والرمي عليها .

٨٣ - عبد الملك بن صالح يعزى الرشيد وبيته

ودخل عبد الملك بن صالح دار الرشيد ، فقال له الحاجب : إن أمير المؤمنين قد أصيب الليلة بآبن له ، ووُلد له آخر ، فلما دخل عليه قال : « سَرَّكَ اللهُ يا أمير المؤمنين فيما ساءَكَ ، ولا ساءَكَ فيما سَرَّكَ ، وجعل هذه بهذه ، مَثُوبَةٌ على الصبر ، وَجَزَاءٌ على الشكر . »
(المقد الفريد ٢ : ٢٥)

٨٤ - غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح

وَنَصَبَ^(١) له ابنه « عبد الرحمن » وكتبه « قِامة » فسميا به إلى الرشيد ، وقال له : إنه يطلب الخلافة ، ويطمع فيها ، فأخذه وحَبَسَه عند الفضل بن الربيع ، وذكروا أنه أدخل على الرشيد حين سَخِطَ عليه ، فقال له الرشيد : أ كُفِرًا بالنعمة ، وَجُحُودًا لَجَلِيلِ المِنَّةِ والتسكِّرِمة ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين ، لقد بُوتُ^(٢) إذن بالندم ، وتعرَّضْتُ لاستحلال النَّقَمِ ، وما ذاك إلا بغيُّ حاسدٍ ، نافَسَنِي فيكَ مودةَ القرابة ، وتقديمِ الولاية ، إنك يا أمير المؤمنين خليفةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في أمته ، وأمينه على عِترته ، لك عليها فرضُ الطاعة وأداءُ النصيحة ، ولها عليك العدلُ في حُكْمِها ، والثبُتُ في حادِثِها ، والغُفْرانُ لذنوبِها » ، فقال له الرشيد : « أتَضَعُ لِي من لسانك ، وترفع لِي من جنانك ؟ هذا كاتِبُكَ قِامة ، يُخْبِرُ بِفِلكِ وفسادِ نيتك ، فأسمِعْ كلامه » ، فقال عبد الملك : « أعطاك ما ليس في عَقْدِهِ^(٣) ، ولعله لا يقدر أن يَعْضَنِي^(٤) ولا يَنْهَتَنِي بما لم يَعْرِفِهِ مني » ، وأُحْضِرَ قِامة ، فقال له الرشيد : تكلم غيرِ هائبٍ ولا خائفٍ ، قال : « أقولُ إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك » ،

(١) عاداه . (٢) رجعت . (٣) أى ما يمتلكه .

(٤) عضه كعض : كذب ونم ، وعضه فلانا : بهته وقال فيه ما لم يكن .

فقال عبد الملك: أهو كذلك يا قامة؟ قال قامة: نعم، لقد أردت خنل^(١) أمير المؤمنين، فقال عبد الملك: وكيف لا يكذب عليّ من خلني، وهو يبهنّي في وجهي؟ فقال له الرشيد: « وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرني بعُتُوك، وفساد نيتك، ولو أردت أن أحتجّ عليك بحجّة لم أجد أعدل من هذين لك، فبِمَ تدفعمها عنك؟ »، فقال عبد الملك: « هو مأمور، أو عاقّ مجبور، فإن كان مأموراً: فمعدّور، وإن كان عاقّاً: ففاجر كفور، أخبر الله عزّ وجلّ بعداوته، وحذّر منه بقوله: « إِنْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ »، فنهض الرشيد وهو يقول: « أمّا أمرك فقد وضح، ولكني لا أعجل حتى أعلم الذي يُرضي الله فيك، فإنه الحكم بيني وبينك »، فقال عبد الملك: « رضيت بالله حكماً، وبأمر المؤمنين حاكماً، فإني أعلم أنه يؤثّر كتاب الله على هواه وأمر الله على رضاه ».

* * *

فلما كان بعد ذلك جالس مجلساً آخر، فسلم لما دخل، فلم يردّ عليه، فقال عبد الملك: ليس هذا يوماً أحتجّ فيه، ولا أجادب منازعاً وخَصْماً. قال: ولم؟ قال: لأن أوّلَه جرى على غير السنّة، فأنا أخاف آخرَه، قال: وما ذاك؟ قال: لم تُردّ علىّ السلام، أنصف نصفَ العوامّ، قال: السلام عليكم اقتداءً بالسنة، وإيثاراً للعدل، واستعمالاً للتحية، ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر فقال: وهو يخاطب بكلامه عبد الملك:

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مُراد
ثم قال: « أما والله لكانني أنظر إلى شؤوبها قد همع^(٢)، وعارضها^(٣) قد لَمع،

(١) خنله: خدعه. (٢) الشؤبوب: الدفعة من المطر، وجمع: سال وانصب.

(٣) العارض: السحاب المتعرض في الأفق، والضمير للفتنة المفهومة من سياق الحديث.

وكانى بالوعيد قد أوزى ناراً تَسْطَعُ ، فأقْلَعُ عن بَرَاجِمِ^(١) بلا مَعَاصِمِ ، ورعوسٍ
بِلا غَلَاصِمِ^(٢) فَمَهْلًا مَهْلًا ، فَبِيِ وَاللَّهِ سَهْلٌ لَكُمْ الْوَعْرُ ، وَصَفَا لَكُمْ الْكَدِرُ ، وَأَلْقَتْ
إِلَيْكُمْ الْأُمُورُ أَثْنَاءَ^(٣) أَرْزَمَتَهَا ، فَذَارِ لَكُمْ نَذَارِ قَبْلَ حُلُولِ دَاهِيَةِ خَبُوطِ بِالِيدِ ،
لَبُوطِ^(٤) بِالرَّجْلِ . فقال عبد الملك : « اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولّاك ، وفي رعيتك
التي استرعاك ، ولا تجعل الكفر مكان الشكر ، ولا العقاب موضع الثواب ، فقد
نَحَلْتُ النِّصِيحَةَ ، وَوَحَّضْتُ^(٥) لَكَ الطَّاعَةَ ، وَشَدَّدْتُ أَوْاجِحِي^(٦) مَلَكًا بِأَثْقَلِ مِنْ
رُكْنِي يَلْمُ^(٧) ، وَتَرَكْتُ عَدُوَّكَ مُشْتَغَلًا^(٨) ، فَاللَّهُ اللَّهُ فِي ذِي رَحْمِكَ أَنْ تَقْطَعَهُ
- بعد أن يَلْتَمِ^(٩) - بِظَنِّ أَفْصَحِ الْكِتَابِ لِي بِعَظْمِهِ^(١٠) ، أَوْ بِنِعْيِ بَاغِ يَنْهَسِ^(١١)
الْحَمِّ ، وَيَالِغِ^(١٢) الدَّمِ ، فَقَدْ وَاللَّهِ سَهَّلْتَ لَكَ الْوَعُورَ ، وَذَلَّلْتَ لَكَ الْأُمُورَ ، وَجَمَعْتَ
عَلَى طَاعَتِكَ الْقُلُوبَ فِي الصُّدُورِ ، فَكَمْ مِنْ لَيْلٍ تِمَامِ^(١٣) فِيكَ كَابِدَتُهُ ، وَمَقَامِ ضَيْقِ
لَكَ قُومَتُهُ ، كُنْتُ فِيهِ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي جَعْفَرِ بْنِ كَلَّابِ :

ومقامِ ضَيْقِ فَرَجْتُهُ بَيْنَانِي وَلِسَانِي وَجَدَلِ
لو يقوم الفيلُ أو فيآله زلَّ عن مثل مقامى وزحل^(١٤)
فقال له الرشيد : « أما والله لولا الإبقاء على بنى هاشم لضربت عنقك » .

- (١) جمع بركة كقنفذة : وهى مفاصل الأصابع ، أو ظهر القصب من الأصابع ، والمعاصم جمع معصم
ككبر : وهو موضع السوار أو اليد . (٢) جمع غلصة بالفتح وهى رأس الحلقوم وهو الموضع الذاقه
في الحلق . (٣) أثناء الشيء ومثانيه طاقاته ، واحدهما نفي كحغل ومثناة بفتح الميم وكسرهما .
(٤) لبط به الأرض ضرب ، ولبط البعير كضرب : خبط بيده وهويده .
(٥) أخلصت . (٦) جمع أخية وتشديد : حررة تربط إلى وتد مدفوق وتشدد فيها الدابة ، وأخيت
الدابة فأخية : صنعت لها أخية وربطتها بها . (٧) يلم أو ألم أو يرمم : ميقات العين : جبل هل
مرحلتين من مكة . (٨) وفى رواية العقد : « وتركت عدوك سيلاً تتعاوره الأقدام » .
(٩) بلى فلانا : لزمته . (١٠) الغضه بسكون الضاد وفتحها : الكلب والنميمة . (١١) نهس اللحم
كنع وسمع : أخذه بمقدم أسنانه ونهفه . (١٢) ولغ الكلب فى الإفاه ومنه وبه يبلغ كهب ويالغ :
شرب ما فيه بأطراف لسانه ، أو أدخل لسانه فيه فحركه . (١٣) ليل التمام : أطول ليال الشتاء .
(١٤) زحل من مقامه : زال كزحل .

ولم يزل عبد الملك محبوساً حتى تُوفى الرشيد ، فأطلقه محمد الأمين وعقد له
على الشام^(١) .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٨٩ ، والمعقد الفريد ١ : ١٤٣ ،
والكمال لابن الأثير ٦ : ٧٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٨٣)

٨٥ - قوله بعد خروجه من السجن

ولما خرج من السجن وذكّر الرشيد وفعله به قال :

« والله إن الملك لشيء مانويته ، ولا تمنيته ، ولا نصبت له ولا أردته ، ولو
أردته لكان إلى أسرع من الماء إلى الحدور^(٢) ، ومن النار إلى ييس العرفج^(٣) ،
وإني لماخوذ بما لم أجن ، ومستول عما لا أعرف ، ولكنه حين رآني للملك قمينا^(٤) ،
وللخلاة خطيرا^(٥) ، ورأى لي يداً تناولها إذا مدت ، وتبلغها إذا بسطت ، ونفساً
تكمل نحصاها ، وتستحقها بفعالها ، وإن كنت لم أختَر تلك الخصال ، ولم أصطنع
تلك الفعال ، ولم أترشح لها في السر ، ولا أشرت إليها في الجهر ، ورآها تحن إلى
حنين الوالدة الواهية ، وتميل إلى ميل أهلك^(٦) ، وخاف أن ترغب إلى خير مرغّب ،
وتنزِع إلى أخصب منزِع ، عاقبني عقاب من سهر في طلبها ، وجهد في التماسها ،
فإن كان إنما حبسني على أني أصلح لها وتصلح لي ، وأليقُ بها وتليقُ بي ، فليس
ذلك بذنبٍ جنيته فأتوب منه ، ولا تطاولتُ له فأحطتُ نفسي عنه ، وإن زعم أنه
لاصرف لعقابه ، ولا نجاة من عذابه ، إلا بأن أخرج له من جدّ العلم والحلم والحزم ،
فكما لا يستطيع المضياع أن يكون مصلحاً ، كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلاً ،

(١) وقد جعل للأمين عهد الله وميثاقه : لئن قتل وهو حي لا يعطى المأمون طاعة أبداً ، فات قبل
قتل الأمين ، فدفن في دار من دور الإمارة ، فلما خرج المأمون يريد الروم أرسل إلى ابن له حوله أباك
من داري ، فنهشت عظامه وحولت . (٢) المكان المنحدر . (٣) شجر . (٤) جهديرا .
(٥) عظيم القدر . (٦) الفاجرة المتساقطة على الرجال .

وسواء عليه أعاقبني على علمي وحلمي، أم أعاقبني على نسبي وسني، وسواء عليه عاقبني على جوالي، أم أعاقبني على محبة الناس لي، ولو أردتها لأعجلته عن التفكير، وشغلته عن التدبير، ولما كان فيها من الخطب إلا اليسير». (العقد الفريد ١ : ١٤٣)

٨٦ - وصية عبد الملك بن صالح لابنه

أوصى عبد الملك بن صالح ابنه فقال :

« أئى بنى أحلم ، فإن من حلم ساد ، ومن تفهم ازداد ، وألقى أهل الخير فإن لقاءهم عمارة للقلوب ، ولا تجتمع بك مطية اللجاج ، وفئيك من أعتبك^(١) ، والصاحب المناسب لك ، والصبر على المكروه يعصم القلب ، المزاح يورث الضغائن ، وحسن التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الإسراف ، والاقتصاد يُثمر^(٢) القليل ، والإسراف يُبيد^(٣) الكثير ، ونعم الحظ القناعة ، وشر ما صحب المرء الحسد ، وما كل عورة تُصاب ، وربما أبصر العمى رُشده ، وأخطأ البصير قَصده ، واليأس خير من الطلب إلى الناس ، وَالعِفَّة مع الحِرْفَةِ^(٤) خير من الفنى مع الفجور ، أرفق في الطلب وأجمل في الكسب ، فإنه رب طاب ، قد جرَّ إلى حرب^(٥) ، ليس كل طالب يُمنجح^(٦) ، ولا كل ملجح يحتاج ، والمغبون من غبن نصيبه من الله ، عاتب من رجوت عتابه ، وفاكهة من أمنت بلواه ، لاتكن مضحكا كأم من غير عجب ، ولا مشاء إلى غير أرب ، ومن نأى عن الحق أضاق مذهبه ، ومن اقتصر على حاله كان أنعم لباله ، لا يكبرن عليك ظلم من ظلمك ، فإنه إما سعى في مضرتة ونفعك ، وعود نفسك السامح ، وتَحَيَّر لها من كل خلق أحسنه ، فإن الخير عادة ، والشر بلجاجة ، والصدود آية المقت ، والتعلُّل آية البخل ، ومن ألقه كتمان السر ، ولقَّاح المعرفة

(١) اعنبه : أعطاه المتبى أو الرضا . (٢) ينمى ويكثر . (٣) يهلك .

(٤) الحرمان . (٥) حربه حربا كطابه : سلب ماله . (٦) أنجح : صار ذا نجاح .

(٧ - جبهة خطب العرب - ثالث)

دراسة العلم ، وطولُ التجارب زيادة في العقل ، والقناعة راحة الأبدان ، والشرف التقوى ، والبلاغة معرفة رتق الكلام وفتحه ، بالعقل تُستخرج الحكمة ، وبالعلم يستخرج غور العقل ، ومن شمر في الأمور ، ركب البحور ، شر القول ما نقض بعضه بعضا ، ومن سعى بالنيمة حذره البعيد ، ومقته القريب . من أطال النظر بإرادة تامة أدرك الغاية ، ومن توانى في نفسه ضاع . من أسرف في الأمور انتشرت عليه ، ومن اقتصد اجتمعت له ، والأجاجة تورث الضياع للأموال ، غب الأدب أحمد من ابتدائه ، مُبادرة الفهم تورث النسيان ، سوء الاستماع يُعقبُ العي ، لا تُحدث من لا يُقبل بوجهه عليك ، ولا تُنصت لمن لا ينمي^(١) بحديثه إليك . البلادة للرجل هُجنة ، قل مالك إلا استأثر ، وقل عاجز إلا تأخر ، الإحجام عن الأمور يُورث العجز ، والإقدام عليها يورث اجتلاب الحظ ، سوء الطعمة^(٢) يُفسد العرض ، ويُخلق الوجه ، ويمحق الدين ، الهية قرين الحرمان ، والجلسارة قرين الظفر ، وفئك من أنصك ، وأخوك من عاتبك ، وشريكك من وفى لك ، وصفيك من آثرك ، أعدى الأعداء المقوق ، اتباع الشهوة يُورث الندامة ، وفوت الفرصة يورث الحسرة ، جميع أركان الأدب التائي للرفق ، أكرم نفسك عن كل دنية ، وإن ساقتك إلى الرغائب ، فإنك لا تجد بما تبدل من دينك ونفسك عوضا ، لاتساعد^(٣) النساء فيملائنك ، واستبق من نفسك بقية ، فإنهن أن يرين أنك ذو اقتدار ، خير من أن يطلعن منك على انكسار ، لاتملك المرأة الشفاعة لغيرها ، فتميل من شفعت لها عليك معها ، أي بنى ، إني قد اخترت لك الوصية ، ومحضتك النصيحة ، وأدبت الحق إلى الله في تأديبك ، فلا تُفعلن الأخذ بأحسنها ، والعمل بها ، والله موفقك .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٢)

(١) نى الحديث ونماه بالتشديد: رفته . (٢) الطعمة: وجه المكسب . (٣) لعلها لا تقاعد .

٨٧ - وصية أخرى له

عن يزيد بن عقال قال :

وصّى عبد الملك بن صالح ابنه وهو أمير سرّية ، ونحن ببلاد الروم فقال له :
« أنت تاجرُ الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس ، الذي إن وجد ربحاً تجرّ ،
وإلا احتفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة ، وكن من اجتياك
على عدوك ، أشدّ خوفاً من احتيال عدوك عليك ^(١) . » (البيان والتبيين ٢ : ٥٤)

٨٨ - كلمات حكيمة لابن السماك

وقال محمد بن صباح - المعروف بابن السماك ^(٢) - :

« خيرُ الإخوان أقلهم مصانعةً في النصيحة ، وخير الأعمال أحلاها عاقبةً ، وخير
الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأشرفُ السلطان مالم يخالطه البطر ، وأغنى الأغنياء
من لم يكن للحرص أسيراً ، وخير الإخوان من لم يخاصم ، وخير الأخلاق أعونها
على الورع ، وإنما يُختَبَرُ ذلّ الرجال عند الفاقة والحاجة . »

(زهر الآداب ٢ : ٢٠٥)

٨٩ - ابن السماك والرشيد

وذكر محمد بن هرون عن أبيه قال : حضرت الرشيد ، وقال له الفضل بن الربيع :
يا أمير المؤمنين قد أحضرتُ ابن السماك كما أمرتني ، قال : أدخِله ، فدخل ، فقال له :

(١) أوردت هذه الوصية في الجزء الثاني ص ١٨٥ معزوة إلى عبد الملك بن مروان كما أوردتها صاحب
المقد ، ويؤيد ذلك ما رواه الطبري - ج ٨ : ٣٧ - إذ يقول : « وفي سنة ٨٤ كانت غزوة عبد الله بن
عبد الملك بن مروان للروم ، ففتح فيها المصيبة - كسيفنة - وعزاها الجاحظ إلى عبد الملك بن صالح كما ترى
في هذه الرواية . (٢) كان زاهداً عابداً حسن الكلام صاحب مواظ ، وهو كوفي ، قدم بغداد زمن
الرشيد فسكت بها مدة ، ثم رجع إلى الكوفة فأت بها سنة ١٨٢ هـ .

عِظَى ، قال : يا أمير المؤمنين : اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك واقفٌ غداً بين يدي الله ربك ، ثم مصروفٌ إلى إحدى منزلتين ، لا ثالثة لهما : جنة أو نار ، فبكى هرون حتى اخضتت^(١) لحيته ، فأقبل الفضل على ابن السماك ، فقال : سبحان الله ! وهل يتخالج أحداً شكٌ في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله ! لقيامه بحق الله ، وعدله في عباده ، وفضله ، فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ، ولم يلتفت إليه وأقبل على أمير المؤمنين ، فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا - يعني الفضل بن الربيع - ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك ، فبكى هرون حتى أشفقنا عليه ، وأخم الفضل بن الربيع ، فلم ينطق بحرف حتى خرجنا .

قال : ودخل ابن السماك على الرشيد يوماً ، فبينما هو عنده إذ استسقى ماء ، فأتى بقلية من ماء ، فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها ، قال له ابن السماك : على رسلك^(٢) يا أمير المؤمنين : بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو منعت هذه الشربة ، بكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي ، قال : اشرب هنالك الله ، فلما شربها ، قال له : أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو منعت خروجها من بدنك ، بماذا كنت تشتريها ، قال : بجميع ملكي ، قال ابن السماك : إن مأسكا قيمته شربة ماء لجديره ألا يناقس فيه ، فبكى هرون ، فأشار الفضل بن الربيع إلى ابن السماك بالانصراف فانصرف .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١١٩ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٤٩)

الفتنة بين الأمين والمأمون

وفد الأمين إلى المأمون

لما عزم محمد الأمين على خلع أخيه عبد الله المأمون من ولاية العهد^(١)، كتب إليه كتاباً يستقدمه، ويحیی أن يكون بقره - وكان المأمون على خراسان - ودفع الكتاب إلى العباس بن موسى، وإلى عيسى بن جعفر، وإلى محمد بن عيسى بن نهيك، وإلى صالح صاحب المصلی، وأمرهم أن يتوجهوا به إلى المأمون، وألاً يدعوا وجهاً من اللين والرقق إلا بلغوه، وسهّلوا الأمر عليه، (وذلك سنة ١٩٤ هـ) فتوجهوا بكتابه، فلما وصلوا إلى المأمون أذن لهم، فدفعوا إليه الكتاب، ثم تكلم العباس بن موسى:

٩٠ - خطبة العباس بن موسى

حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الأمير: إن أخاك قد تحمّل من الخلافة ثقلاً عظيماً، ومن النظر في أمور الناس عبئاً جليلاً، وقد صدقت نيته في الخير، فأعوزمه الوزراء والأعوان والكفأة على العدل، وقليل ما يأنس بأهل بيته، وأنت أخوه

(١) ذكروا أن الفضل بن الربيع وزير الأمين، كان قد خاف المأمون، لما فعله عند موت الرشيد بطوس من إحضار جميع ما كان في مسكره إلى الأمين، بعد أن كان الرشيد قد أشهد به للمأمون، وعلم أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوماً وهو حي لم يبق عليه، فحسّن للأمين خلع المأمون والبيعة لابنه موسى - ولم يكن ذلك من رأى الأمين ولا عزمه - واتفق مع الفضل جماعة على ذلك، قال الأمين إلى أقوالهم، ثم إنه استشار عقلاء أصحابه، فجهوه عن ذلك وحذروه عاقبة البغي ونكث للمهود، وقالوا له: لا تجرى للقواد حل النكث للأيمان وعلى الخلع فيخلعوك، فلم يلتفت إليهم، ومال إلى رأى الفضل بن الربيع، وشرع فودع المأمون باستدعائه إلى بغداد، فلم يهنذع وكتب يعنذر.

وشقيقه^(١) وقد فرغَ إليك في أموره ، وأَمَلَكَ للموازرة والمكافئة^(٢) ، ولسنا نستبطنك في برِّه ، اتهاماً لنصرك له ، ولا نحضك على طاعة ، تخوفاً لخلافك عليه ، وفي قدومك عليه أنس عظيم ، وصلاح لدولته وسُلطانته ، فأجِبَ أيها الأمير دعوة أخيك ، وآثِر طاعته ، وأَعِنه على ما استمانك عليه في أمره ، فإن في ذلك قضاء الحق ، وصالَةَ الرحم ، وصلاح الدولة ، وعِزَّ الخلافة ، عزم الله للأمير على الرشد في أموره ، وجعل له الخيرة والصلاح في عواقب رأيه .

٩١ - خطبة عيسى بن جعفر

وتكلم عيسى بن جعفر بن أبي جعفر ، فقال :

« إن الإكثار على الأمير - الله ، الله - في القول خرقٌ ، والاقتصار في تعريفه ما يجب من حق أمير المؤمنين تقصير ، وقد غاب الأمير - أكرمه الله - عن أمير المؤمنين ، ولم يستغن عن قربه من شهيد غيره من أهل بيته ، ولا يجد عنده غنى ، ولا يجد منه خلفاً ، ولا عوضاً ، والأمير أولى من برِّ أخاه ، وأطاع إمامه ، فليعمل الأمير فيما كتب به إليه أمير المؤمنين بما هو أَرْضَى وأقربُ من موافقة أمير المؤمنين ومحبتته ، فإن القدوم عليه فضلٌ وحظ عظيم ، والإبطاء عنه وَكْفٌ^(٣) في الدين ، وضرر ومكروه على المسلمين . »

٩٢ - خطبة محمد بن عيسى بن نهيك

وتكلم محمد بن عيسى بن نهيك ، فقال :

« أيها الأمير إنا لانزيدك بالإكثار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحق أمير المؤمنين ، ولا نشجّد نيتك بالأساطير وأخطب فيما يلزمك من النظر والعناية

(١) أمه أم ولد يقال لها مراحل .

(٢) المعاونة . (٣) الكف المليل والجور والعيب . الإثم .

بأمور المسلمين ، وقد أعوز أمير المؤمنين الكفاة والنصحاء بحضرتة ، وتناولك فزعاً إليك في المعونة والتقوية له على أمره ، فإن تجب أمير المؤمنين فما دعاك إليه ، فنعمة عظيمة يتلافى بها رعيتك وأهل بيتك ، وإن تقعد يُغن الله أمير المؤمنين عنك ، ولن يضعه ذلك مما هو عليه من البرِّ بك ، والاعتماد على طاعتك ونصيحتك .

٩٣ - خطبة صالح صاحب المصلح

وتكلم صالح صاحب المصلح ، فقال :

« أيها الأمير : إن الخلافة ثقيلة ، والأعوان قليل ، ومن يَكِيد هذه الدولة ، وينطوى على غشها ، والمعاندة لأوليائها ، من أهل الخلاف والمعصية كثير ، وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقه ؟ وصلاحُ الأمور وفسادها راجعٌ عليك وعليه ، إذ أنت وليُّ عهده ، والمشارك في سلطانه وولايته ، وقد تناولك أمير المؤمنين بكتابه ، ووثق بمعاونتك على ما استعانك عليه من أموره ، وفي إجابتك إياه إلى القسوم عليه صلاح عظيم في الخلافة ، وأنسُّ وسكونٌ لأهل المِلَّةِ والدِّمَّةِ ، وفقَّ الله الأمير في أموره ، وقضى له بالذي هو أحب إليه وأنفع له » .

٩٤ - خطبة المأمون

فحمد الله المأمون ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« قد عرفتموني من حق أمير المؤمنين - أكرمه الله - مالا أنكره ، ودعوتموني من الموازنة والمعونة إلى ما أوتره ولا أدفعه ، وأنا لطاعة أمير المؤمنين مقدّم ، والمسارة إلى ماسرّه وواقفّه حريصٌ ، وفي الروية تبيانُ الرأي ، وفي إعمال الرأي نُصحُ الاعتزام والأمر الذي دعاني إليه أمير المؤمنين أمرٌ لا أتأخر عنه تثبُطاً ومدافعةً ، ولا أتقدم عليه

اعتسافاً وَعَجَلَةً ، وأنا في ثَغْرٍ^(٢) من ثغور المسلمين ، كَلَبَ عدوُّه ، شديد شوكتُهُ ، وإن أهملتُ أمره لم آمنَ دخول الضرر والمكروهِ على الجنود والرعية ، وإن أقت عليه لم آمن قوتَ ما أَحِبَّ من معونة أمير المؤمنين وموازرتِه وإيثار طاعته ، فانصرفوا حتى أنظُرُ في أمرى ، ويصحَّ الرأى فيما أعتزِمُ عليه من مَسِيرى إن شاء الله .

ثم بعث معهم بكتاب إلى الأمين ، يسأله أن يُفَعِّيه من الشخوص إليه ، وأن يُقرَّه على عمله ، إذ يرى أن ذلك أعظم غناء على المسلمين . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٦)

٩٥ — وصية السيدة زبيدة لعلى بن عيسى بن ماهان

وَتَمَى الشرَّ بين الأخوين ، واستطار شرره ، وبعث الأمين جيشاً كثيفاً بقيادة على بن عيسى بن ماهان لحرب المأمون ، وأعد المأمون للقائه جيشاً بقيادة طاهر بن الحسين فلما أراد على الشخوص إلى خراسان ، ركب إلى باب السيدة زبيدة^(٢) والدة الأمين فودَّعها ، فقالت له :

« يا علىُّ ، إن أمير المؤمنين ، وإن كان ولدى ، إليه تناهت شفقتى ، وعليه تكامل حِذرى ، فإني على عبد الله مُنْعِظَةٌ مُشْفِقَةٌ لما يَحْدُثُ عليه من مكروه وأذى ، وإنما ابني مَلِكٌ نَافِسٌ أخاه في سلطانه ، وَغَارَاهُ^(٣) على ما في يده ، والكريم يؤث كل لحمه ، وَيُمِيته غيره ، فاعْرِفْ لعبد الله حقَّ والده وأخوته ، ولا تَجِبْهُ^(٤) بالكلام ، فإنك لست نظيره ، ولا تَقْتَسِرُهُ^(٥) اقتسار العبيد ، ولا تُرْهِنه بقيد ولا غُلًّا^(٦) ، ولا تمنع منه جاريةً ولا خادماً ، ولا تعتف عليه في السير ، ولا تساوره في السير ، ولا تركب قبله ،

(١) الثغر: موضع الحفاة من فروج البلدان . (٢) هى السيدة زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور وليس في خلفاء بني العباس من أمه وأبوه هاشميان سواه .

(٣) فى الأصل : « غاره » وأراه محرفاً عن « غاراه » ، غاريتُه مغارة وغراء : لاجبته .

(٤) جبته كمنه : لقيه بما يكره . (٥) قسره واقتسره : قهره .

(٦) أرهنه : أضغفه ، وفى الفخرى : « ولا تومنه » وأومنه : أضغفه أيضاً ، ولانل : القيد .

ولا تستقلّ على دابتك حتى تأخذ برِكابه ، وإن شمتك فأحتمل منه ، وإن سفّه عليك فلا ترأده .

ثم دفعت إليه قيداً من فضّة ، وقالت : إن صار في يدك فقيده بهذا القيد ، فقال لها : سأقبل أمرك ، وأعمل في ذلك بطاعتك .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٩ ، والفخرى ص ١٩٥)

٩٦ - وصية الأمين لابن ماهان

وخرج على بن عيسى بن ماهان من بغداد (في ٧ من شعبان سنة ١٩٥ هـ) وخرج معه الأمين يشيعه ، وأقبل يوصيه ، فقال :

« أمتنع جُندك من العَبَثِ بالرعية ، والغارة على أهل القرى ، وقَطْعِ الشجر ، وانتهاك النساء ، وولّ الرىَّ يحيى بن على ^(١) ، واضمّم إليه جنداً كثيفاً ، ومثّره ليدفع إلى جنده أرزاقهم مما يحيى من خراجها ، وولّ كل كورة ترحل عنها رجلاً من أصحابك ، ومن خرج إليك من جند أهل خراسان ووجوهها فأظهِرْ إكرامه ، وأحسِنْ جائزته ، ولا تعاقب أحداً بأخيه ، وضع عن أهل خراسان ربع الخراج ، ولا تأمن أحداً رماك بسهم ، أو طعن في أصحابك برمح ، ولا تأذن لعبد الله في المقام أكثر من ثلاثة أيام ، من اليوم الذى تظهر فيه عليه ، فإذا أشخصته ، فليكن مع أوثق أصحابك عندك ، فإن غرّه الشيطان فनावبك ، فاحرص على أن تأسره أسراً ، وإن هرب منك إلى بعض كور خراسان ، فتولّ إليه المسير بنفسك ، أفهمت كل ما أوصيك به ؟ » .

قال : نعم ، أصاح الله أمير المؤمنين ، قال : سر على بركة الله وعونه .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٥٠)

(١) هو يحيى بن على بن عيسى بن ماهان .

٩٧ - استهانة ابن ماهان بأمر طاهر بن الحسين

وخرج ابن ماهان ، فلما جاز حُلُوانَ ، لَقِيتهُ القوافل من خُرَاسان ، فكان يسألها عن الأخبار ، فيقال له : إن طاهراً مقيم بالريِّ ، يعرض أصحابه ، وَيَرْمُ^(١) آلته ، فيضحك ثم يقول :

« وما طاهر؟ فوالله ما هو إلا شوكة من أغصاني ، أو شرارة من نارى ، وما مثل طاهر يتولَّى على الجيوش ، ويلقى الحروب ، ثم التفت إلى أصحابه فقال : « والله ما بينكم وبين أن ينقص انقصاصَ الشجر من الريح العاصف ، إلا أن يبلغه غُبُورُنا عَقِبَةً^(٢) هَمْدَان ، فإن السَّخَالَ^(٣) لا تقوى على نِطَاحِ الكِبَاش ، والثعالب لا صبرَ لها على لقاء الأسد ، فإن يُقيم طاهر بموضعه يكن أول معرَضٍ لِطَبَاتِ^(٤) السيوف وأسنة الرماح . وسار حتى صار في أول بلاد الريِّ ، وأناه صاحب مقدّمته وقال : « لو كنت - أبقى الله الأمير - أذ كَيْتَ العيون ، وبعثت الطلائع ، وارتدت موضعاً تُعَسِّكِرُ فيه ، وتتخذ خندقاً لأصحابك يأمنون به ، كان ذلك أبلغ في الرأى ، وآنس للجند » .

قال : « لا ، ليس مثل طاهر يستمعدُّ له بالكايد والتحفّظ ، إن حال طاهر تتولَّى إلى أحد أمرين ، إما أن يتحصن بالريِّ ، فَيَبِيهتَهُ^(٥) أهلها ، فيكفوننا مَثُونته ، أو يُخَلِّيها وَيُدْبِر راجعاً لو قرُبَت خيولنا وعساكرنا منه » .

وأناه يحيى بن على ، فقال : « اجمع متفرّق المسكر ، واحذر على جندك البيات ، ولا تسرح الخليل إلا ومعها كُفْتُ^(٦) من القوم ، فإن العساكر لا تُسأسُ بالتوانى ،

(١) يصلح . (٢) العقبة : مرق صعب من الجبال . (٣) السخال جمع سخلة بالفتح : وهو ولد الغنم ذكراً أو أنثى . (٤) الطبات جمع طبة : وهى حد الصيف . (٥) كنهه : أخذه بغتة ، قال تعالى : « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » ، وفى مروج الذهب : « ويشب به » .
(٦) الكفت : الجماعة .

والحروب لا تدبّر بالاعتزاز ، والثقة أن تحترز ، ولا تقل : المحاربُ لي طاهر ، فالشرارة الخفية ربما صارت ضراً^(١) ، والثلمة من السيل ربما اغترب بها وتُهون ، فصارت بحراً عظيماً ، وقد قرّبت عساكرنا من طاهر ، فلو كان رأيه الهرب لم يتأخر إلى يومه هذا .
قال : اسكت ، فإن طاهراً ليس في هذا الموضع الذي ترى ، وإنما يتحفظ الرجال إذا لقيت أقرانها ، وتستعدّ إذا كان المناوي^(٢) لها أكفأها ونظراءها .
(تاريخ الطارى ١٠ : ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٩٩)

٩٨ - حزم طاهر وقوة عزمه

وعسكر طاهر على خمسة فراسخ من الرسى ، وأناه محمد بن العلاء ، فقال : « أيها الأمير ، إن جنديك قد هابوا هذا الجيش ، وامتلات قلوبهم خوفاً ورعباً منه^(٣) ، فلو أقمت بمكانك ، ودافعت القتال إلى أن يشأمهم^(٤) أصحابك ، ويأنسوا بهم ، ويعرفوا وجه المأخذ في قتالهم » ، فقال :

« لا ، إني لا أوتى من قلة تجربة وحزم ، إن أصحابي قليل ، والقوم عظيم سوادهم ، كثير عددهم ، فإن دافعت القتال ، وأخرت المناجزة ، لم آمن أن يطلّعوا على قلتنا وعورتنا ، وأن يستميلوا منى برغبة أو رهبة ، فينفر عنى أكثر أصحابي ، ويخذلنى أهل الحفاظ والصبر ، ولكن ألف الرجال بالرجال ، وألحم^(٥) الخيل بالخيال ، وأعتمد على الطاعة والوفاء ، وأصبر صبراً محتسب للخير ، حريص على الفوز بفضل الشهادة ، فإن

(١) الضرام : اشتعال النار في الحلفاء وغيرها ، ودقائق الحطب الذى يسرع اشتعال النار فيه .

(٢) المعادى .

(٣) وكانت عدة مسكر ابن ماهان حسين ألفاً ، وذكر بعض أهل بغداد أنهم لم يروا مسكراً كان أكثر رجلاً وأفره كراعاً ، وأظهر سلاحاً ، وأتم عدة ، وأكل هيئة من مسكروه ، وروى أن طاهراً كافى أقل من أربعة آلاف . (٤) شاماً وتشاماً : ثم أحدهما الآخر ، والمعنى اقترباً .

(٥) أى أقرن الخيل بالخيال ، من قولهم : ألحمت الحرب فاللحمت ، والملاحم بضم الميم وبفتح الحاء : الملتصق بالقوم ، ولاحم الشيء بالشيء : ألصقه به .

يَرْزُقَ اللهُ الظُّفْرَ وَالْفَلَجَ^(١) ، فَذَلِكَ الَّذِي نَزِيدُ وَرَجُو ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَلَسْتُ
أَوَّلَ مَنْ قَاتَلَ فَقْتُلْ ، وَمَا عِنْدَ اللهِ أَجْزَلُ وَأَفْضَلُ » . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٥١)

٩٩ — طاهر يشد عزيمة جنده

وَكَتَبَ طَاهِرُ بْنُ الْحُسَيْنِ كِتَابِيَهُ ، وَكَرَدَسَ كَرَادِيْسَهُ^(٢) ، وَسَوَّى صَفْوَفَهُ ،
وَجَمَلَ يَمْرَ بَقَائِدِ قَائِدٍ ، وَجَمَاعَةَ جَمَاعَةٍ ، فَيَقُولُ :

« يَا أَوْلِيَاءَ اللهِ ، وَأَهْلَ الْوَفَاءِ وَالشُّكْرِ ، إِنَّكُمْ لَسْتُمْ كَهَوْلَاءَ الَّذِينَ تَرَوْنَ مِنْ
أَهْلِ النَّكْتِ وَالغَدْرِ ، إِنْ هُوَلَاءَ ضَيَّعُوا مَا حَفِظْتُمْ ، وَصَفَّرُوا مَا عَظَّمْتُمْ ، وَنَكَثُوا
الْأَيْمَانَ الَّتِي رَعَيْتُمْ ، وَإِنَّمَا يَطْلُبُونَ الْبَاطِلَ ، وَيَقَاتِلُونَ عَلَى الْغَدْرِ وَالْجَهْلِ ، أَصْحَابُ سَلْبٍ
وَنَهَبٍ ، فَلَوْ قَدْ غَضَّضْتُمْ الْأَبْصَارَ ، وَأَثْبَتْتُمْ الْأَقْدَامَ ، قَدْ أَنْجَزَ اللهُ وَعْدَهُ ، وَفَتَحَ عَلَيْكُمْ أَبْوَابَ
عِزِّهِ وَنَصْرِهِ ، فَجَالِدُوا طَوَاغِيَتِ الْفِتْنَةِ ، وَيَعَاسِبِ النَّارِ^(٣) عَنْ دِينِكُمْ ، وَدَافِعُوا بِحَقِّكُمْ
بِاطِلَهُمْ ، فَإِنَّمَا هِيَ سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » .

وَنَشِبَ الْقِتَالَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَدَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى جَيْشِ ابْنِ مَاهَانَ وَقَتِلَ^(٤) .

وَوَجَّهَ الْأَمِينَ بَعْدَ ذَلِكَ لِحَرْبِ طَاهِرٍ جَيْشًا بِقِيَادَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَبَلَةَ ، فَهَزَمَ
وَقَتَلَ أَيْضًا . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٢)

(١) الفوز الظفر .

(٢) الكرديس جمع كردوسة بالضم : وهي القطعة العظيمة من الخيل وكردس الخيل جعلها كتيبة كتيبة .

(٣) الطواغيت جمع طاغوت : وهو الشيطان وكل رأس ضلال ، واليعاسيب جمع يعسوب : وهو الرئيس

الكبير . (٤) روى أن نعي على بن عيسى ورد إلى الأمين وهو على الشط يصيد السمك ، فقال للذي

أخبره : وبلك دهني ، فإن كوثرا قد اصطاد سمكتين ، وأنا ما اصطدت شيئا بعد — وكان كوثر خادما
خصيا له وكان يحبه .

١٠٠ - وصف الفضل بن الربيع غفلة الأمين

وندب أسد بن يزيد بن مزيد لقتال طاهر

وبعث الفضل بن الربيع بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة إلى أسد بن يزيد بن مزيد ، قال : فأتيته ، فلما دخلت عليه وجدته قاعداً في صحن داره ، وفي يده رقعة قد قرأها ، واحمرّت عيناه ، واشتد غضبه ، وهو يقول :

« ينام نوم الظَّربان ^(١) ، وينتبه انتباه الذئب ، همته بطنه ، ولذته قرجه ، لا يفكر في زوال نعمته ، ولا يروى في إمضاء رأى ولا مكيدة ، قد ألهاه كأسه ، وشغله قدحُه ، فهو يجري في لهوه ، والأيام تُسرع ^(٢) في هلاكه ، قد شمرَّ عبدُ الله له عن ساقه ، وفوق له أصيب ^(٣) أسهمه ، يرميه على بعد الدار بالحطف النافذ ، والموت القاصد ^(٤) ، قد عبى له المنايا على مُتون الخليل ، وناط ^(٥) له البلاء في أسنة الرماح ، وشفار السيوف . ثم استرجع وتمثل بأبيات للبعيث ^(٦) ، ثم التفت إلى فقال :

« يا أبا الحارث ، إنا وإياك لنجربى إلى غاية ، إن قصرنا عنها ذُمننا ، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا ، وإما نحن شُعب من أصل ، إن قوى قويننا ، وإن ضعف ضعفنا ، إن هذا قد ألتى بيده إلقاء الأمة الوكفاء ^(٧) ، يشاور النساء ، ويعتمد على الرؤيا . وقد أمكن أهل اللهو والحسارة من سمعه ، فهم يعدونه الظفر ، ويمنون به عُقب ^(٨) الأيام ،

(١) الظربان : دويبة فوق جرو الكلب منتنة الريح كثيرة الفسوخ ، يضرب بها المثل فيقال : « أفسى من ظربان » . (٢) في الأصل « تضرع » وأراه محرفاً . (٣) أصيب : أفل من صاب السهم يصيب صيباً : أى أصاب ، وسهم صيوب كصبور . (٤) القاصد أى السكار ، من القاصد بالفتح : هو للسكسر أى وجه كان ، أو بالنصف ، كالتقصيد ، يقال قصد الخمة وقصدها : كسرها وفصلها فتقصدت . (٥) هلق . (٦) هو خدائش بن بشر الحاشمي ، أحد شعراء الدولة الأموية ، وكان يهاجى جريراً . (٧) وصف من الوكفاء بالتحريك : وهو الإثم والعيب والنقص ، وكف كفرح إذا أثم ، وفي رواية قطري « الوكفاء » بالعين ، وهي الحفقاء . (٨) العقب كقفل وعنق : العاقبة .

والهلاك أسرع إليه من السيل إلى قيعان^(١) الرمل ، وقد خَشِيتُ وألله أن يَهْلِكَ
بِهلا كه ، ونعطب بعطبه .

وأنت فارس العرب وابن فارسها ، وقد فزِعَ إليك في لقاء هذا الرجل (طاهر) ،
وأطمعهُ فيما قبلك أمران ؛ أمّا أحدهما فصدّقُ طاعتك ، وفضلُ نصيحتك ؛ والثاني يُمنُّ
تَقِيَّتِكَ^(٢) ، وشدة بأسك ، وقد أمرني بإزاحة عِلَّتِكَ ، وبسطِ يدك فيما أحببت ، غير
أن الاقتصاد رأس النصيحة ، ومفتاح اليُمن والبركة ، فأُنجز حوائجك ، وعجّل المبادرة
إلى عدوك ، فإنّي أرجو أن يُؤليكَ اللهُ شرف الفتح ، ويُلمِّمَ بك شعَثَ هذه الخلافة والدولة .
فأجاب بالسمع والطاعة ، غير أنه طلب مطالب لم ترُقْ في عين الأمين فغضب عليه ،
وأمر بِسَجْنِهِ . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٨ وزهر الآداب ٢ : ١٥٨)

١٠١ - وصية الأمين لأحمد بن مزيد

ثم ندب عمّه أحمد بن مزيد ، فلما أراد الشخصوص دخل على الأمين ، فقال : أوصني
أكرم الله أمير المؤمنين ، فقال :

« أوصيك بِحِصَالِ عِدَّةٍ ، إِيَّاكَ وَالبغى فَإِنَّهُ عِقَالٌ^(٣) النصر ، ولا تقدّم رجلاً إلا
باستخارة ، ولا تشهر سيفاً إلا بعد إعدار ، ومهما قدّرت عليه بالين ، فلا تتعدّه إلى
إلى الخرق والشّرّه ، وأحسن صحابة من معك من الجنس ، وطالعني بأخبارك في كل
يوم ، ولا تخاطر بنفسك في طلب الزُّلْفَةِ^(٤) عندي ، ولا تستقها فيما تخوف رجوعه على ،
وكن لعبد الله أخاً مضافاً ، وقربناً برّاً ، وأحسن مجامعته ، وصحبته ومعاشرته ، ولا تحذله إن
استنصرك ، ولا تبطئ عنه إذا استصرخك ، ولتكن أيديكما^(٥) واحدة ، وكلتكما متفقة .»

(١) القيعان جمع قاع : وهو أرض مطبنة سهلة قد انفرجت عنها الجهال والآكام .

(٢) التقيية : النمس والطبيعة . (٣) العقال في الأصل : الخيل الذي تقيد به الدابة .

(٤) الزلفة والزلنى : القرية . (٥) أى أنت وعبد الله بن حميد بن قحطبة .

وتوجه أحمد بن مزيد في عشرين ألفاً من الأعراب ، وعبد الله بن حميد بن قحطبة في عشرين ألفاً من الأبناء ، حتى نزلا خانقين - قريباً من حلوان - ولم يزل طاهر يحنال في وقوع الاختلاف والشغب بينهم ، حتى اختلفوا ، وانتقض أمرهم ، وقاتل بعضهم بعضاً ، فأخولوا خانقين ورجعوا عنها ، دون أن يلقوا طاهراً .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٩)

١٠٢ - مقال عبد الملك بن صالح للأمين

وكان عبد الملك بن صالح يشكر للأمين تخليمة سبيله ، ويوجب بذلك على نفسه طاعته ونصيحته ، فلما قوى طاهر ، واستعلى أمره ، وهزم من هزم من قواد الأمين وجيوشه ، دخل عبد الملك على الأمين ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إني أرى الناس قد طمِعُوا فيك ، وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك ، وقد بذلت سماحتك ، فإن تَمَّتْ على أمرِك أفسدتهم وأبترتهم ، وإن كَفَفْتَ أمرِك عن العطاء والبذل أسخطتهم وأغضبتهم ، وليس تملك الجنود بالإمساك ، ولا يبقى ثبوتُ الأموال على الإنفاق والسرف ، ومع هذا فإن جنك قد رعبتهم الهزائم ونهكتهم ، وأضعفتهم الحرب والوقائع ، وامتلات قلوبهم هيبةً لعدوهم ، ونكولاً^(١) عن لقاءهم ومناهضتهم ، فإن سيرتهم إلى طاهر ، غلبَ بقليل من معه كثيرهم ، وهزم بقوة نيته ضعف نصحهم ونياتهم ، وأهل الشام قوم قد ضرسهم^(٢) الحروب ، وأدبهم الشدائد ، وجلبهم منقاداً إلى ، مسارعاً إلى طاعتي ، فإن وجهني أمير المؤمنين اتخذت له منهم جنداً يعظم نكايتهم في عدوه ، ويؤيد الله بهم أوليائه وأهل طاعته . »

فقال الأمين : « إني مؤليك أمرهم ، ومقويك بما سألت من مال وعدة ، فعجل

(٢) جريتهم واحكمتهم .

(١) جبناً وخوفاً .

الشخص إلى ما هنالك ، فاعمل عملا يظهر أثره ، وَيُحْمَدُ بركته ، رأيك ونظرك فيه إن شاء الله ، فولاه الشام والجزيرة .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٦٦ ، والكمال لابن الأثير ٦ : ١٠٢)

١٠٣ - الشعب في جيش عبد الملك بن صالح

وسار عبد الملك بن صالح ، فلما قَدِمَ الرَّقَّةَ^(١) ، كتب إلى رؤساء أجناد الشام ووجوه الجزيرة ، فلم يبق أحد من يُرْجَى ، ويذكر بأسه وَغَنَاؤُهُ إلا وَعَدَهُ ، وبسط له في أمله وأمنيته ، قدموا عليه رئيساً بعد رئيس ، وجماعة بعد جماعة ، فكان لا يدخل عايه أحد إلا أجازته ، وخلق عليه وحمله ، فأتاه أهل الشام ، الزَّوْاقِيل والأعراب من كل فج ، واجتمعوا عنده حتى كثروا ، بَيَدَ أنه شبت نار الفتنة بين جند أهل خراسان وبين الزَّوْاقِيل^(٢) ، وَأَفْضَى الأمر إلى تلاحمهم وَاقْتتالهم ، ثم قام رجل من أهل حِصص ، فقال : « يا أهل حِصص ، الهَرَبُ أهونُ من العَطَبِ ، والموت أهون من الذل ، إنكم بُعِثْتُمْ عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد القلة ، والعزة بعد الذلَّة ؛ ألا وفي الشر وقعتم ، وإلى حَوْمَةِ الموت أنْحَتَمْتُمْ ، إن المنايا في شوارب المسوِّدَةِ^(٣) وَقَلَانِسِهِمْ ، النفيرَ النفير^(٤) قبل أن ينقطع السبيل ، وينزل الأمرُ الجليل ، ويفوت المطلب ، ويمسُر المذهب ، ويبعد العمل ، ويقترَب الأجل » .

وقام رجل من كلب ، فقال :

« يا معشر كلب ، إنها الراية السَّوْدَاءُ ، والله ما ولت ولا عدلت ، ولا ذلَّ

(١) بلدة على الفرات . (٢) وسببها أن بعض جند أهل خراسان نظر إلى دابة كانت قد أخذت منه في إحدى اللقعات تحت بعض الزواقيل ، فتملق بها ، فجرى الأمر بينهما إلى أن اختلفا ، واجتمعت جماعة من الزواقيل والجنود فتلحقوا ، وأمان كل فريق منهم صاحبهم ، ثم اتسع نطاق الفتنة فانشقت وحدة الجيش . (٣) كانت الجنود الخراسانية التي تقاتل الامويين في سبيل نشر الدعوة العباسية يحملون الرايات السود فسموا من أجل ذلك المسودة . (٤) نفر إلى الأمر كضرب نفيرا : أسرع إليه .

نصرها ، ولا ضُف ولَيْهَا ، وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم ، وآثار أسننتهم في صدوركم ، اعتزّلوا الشر قبل أن يعظم ، وتخطّوه قبل أن يضطرم ، شامكم ، داركم داركم ، الموت الفلستيني خير من العيش الجزري ، ألا وإني راجع فمن أراد الانصراف فليصرف معي .

ثم سار وسار معه عامة أهل الشام ، وأقبلت الزواويل حتى أضرّموا ما كان مِجْع من الأعلاف بالنار ، (وكان ذلك في سنة ١٩٦ هـ) . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٦٢)

١٠٤ - خطبة الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان

يدعو إلى خلع الأمين

ومات عبد الملك بن صالح بالرقة ، وكان معه الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان ، فأقل الجند من الجزيرة إلى بغداد ، فتلّقاها أهلها بالكرامة والتعظيم ، وضرّبوا له القباب ، واستقبله القواد والرؤساء والأشراف ، ثم اجتمع إليه الناس فقام فيهم فقال : « يا معشر الأبناء ، إن خلافة الله لا تُجاوز بالبطر ، ونعمة لا تستصحب بالتجبر والتكبر ، وإن محمداً يريد أن يوتغ^(١) أديانكم ، وينكث ببيعتمكم ، ويفرق جمعكم ، وينقل عزّكم إلى غيركم ، وهو صاحب الزواويل بالأمس ، وباللّه إن طالت به مدة ، وراجعه من أمره قوّة ، ليرجعن وبال ذلك عليكم ، وليُعرفن ضرره ومكروهه في دولتكم ودعوتكم ، فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم ، وضعوا عزّه قبل أن يضع عزّكم ، فواللّه لا ينصره منكم ناصرٌ إلا خذل ، ولا يمنعه مانعٌ إلا قتل ، وما عند الله لأحد هواده ، ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده ، وألحنت بأيامه » .

وخلع الحسين بن علي محمداً الأمين وحبسه^(٢) ، وأخذ البيعة لعبد الله المأمون . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٦٣)

(١) أوتغ دينه بالإثم : نفسه ، وأوتغه الله : أملاكه .

(٢) وكان حبس الحسين بن علي في قصر أبي جعفر يرمين .

١٠٥ - خطبة محمد بن أبي خالد

في فض الناس عن اتباع الحسين بن علي بن عيسى

فلما أصبح الناس من الند ، طلبوا من الحسين بن علي الأرزاق ، وماج الناس بعضهم في بعض ، وقام محمد بن أبي خالد ، فقال :

« أيها الناس ، والله ما أدري ، بأي سبب يتأمر الحسين بن علي علينا ، ويتولّى هذا الأمر دوننا؟ ما هو بأكبرنا سناً ، ولا أكرمنا حسَباً ، ولا أعظمنا منزلةً ، وإن فينا من لا يرَضَى بالدنيّة ، ولا يُقاد بالخذاعة ، وإنّي أوّلُكم ، نقض عهدَه ، وأظهر التغييرَ عليه ، والإنكار لفعله ، فمن كان رأيه رأياً ، فليعتزل معي . »

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٦٤)

١٠٦ - إطلاق الأيمن من سجنه ورده إلى مجلس الخلافة

وقام أسد الحرّبيّ ، فقال : « يا معشر الحرّبية ، هذا يومٌ له ما بعده ، إنكم قد فتمّمْتُمْ وطال نومكم ، وتأخرتُم فقدم عليكم غيرُكم ، وقد ذهب أقوامٌ بذي كرك خلع محمد وأسرِه فاذهبوا بذكر فكّه وإطلاقه . »

فأقبل شيخ كبير من أبناء الكفاية على فرس ، فصاح بالناس : اسكتوا ، فسكتوا ، فقال :

« أيها الناس ، هل تعتدّون على محمد بقطع منه لأرزاقكم؟ قالوا : لا ، قال : فهل قصّر بأحد منكم ، أو من رؤسائكم وكبرائكم؟ قالوا : ما علينا ، قال : فهل عزّل أحداً من قوادكم؟ قالوا : معاذ الله أن يكون فعل ذلك ، قال : فما بالكم خذلتُموه ، وأعنتم عدوّه على اضطهاده وأسرِه؟ أما والله ما قتل قومٌ خليفتهم قطّ ، إلا سلّط الله عليهم السيفَ القاتل ، وألحّفت الجارِف ، انهضوا إلى خليفتم وإدفعوا عنه ، وقاتلوا من أراد خلعهُ والفتك به . »

فنهضوا معه وقاتلوا الحسين بن عليّ وأصحابه قتالاً شديداً ، وأكثروا في أصحابه الجراح ، وأسروا الحسين ، ودخل أسد الحربى على محمد فكسر قيوده وأقعده في مجلس الخلافة .

وأثنى الأمين بالحسين بن عليّ ، فلامه على خلافه وقال له : ألم أقدم أباك على الناس ، وأولّه أعنة الخليل ، وأملاً يده من الأموال ، وأشرف أقداركم في أهل خراسان ، وأرفع منازلكم على غيركم من القواد ؟ قال : بلى ، قال : فما الذى استحقت به منك أن تخلع طاعتي ، وتؤلّب الناس عليّ ، وتندبهم إلى قتالى ؟ قال : الثقة بعفو أمير المؤمنين وحسن الظن بصفحه وتفضله ، قال : فإن أمير المؤمنين ، قد فعل ذلك بك ، وولّاك الطلب بئارك ، ومن قُتل من أهل بيتك ، ثم دعا له بخيلة ، فخلعها عليه ، وحمله على مراكب ، وأمره بالمسير إلى حلوان ، وخرج الحسين ، فهرب في نفر من خدمه ومواليه ، فنادى محمد في الناس ، فركبوا في طلبه فأدركوه وقتلوه . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٦٤)

١٠٧ - خطبة داود بن عيسى يدعو إلى خلع الأمين

وقام داود بن عيسى^(١) والى مكة والمدينة - وكان خطيباً فصيحاً جهير الصوت - يدعو إلى خلع الأمين ومبايعة المأمون ، فقال :

(١) هو داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان الأمين حين أفضت الخلافة إليه يبعث به والياً على مكة والمدينة ، فأقام والياً عليهما حتى دخلت سنة ١٩٦ ، فكتب الأمين إلى داود بن عيسى بأمره بخلع عبد الله المأمون ، والبيعة لابنه موسى ، وبعث إلى الكتائب الذين كان الرشيد كتبهما وعلقهما في السكبة ، فأخذهما ، فلما فعل ذلك جمع داود حجة السكبة والقرشيين والفقهاء ، ومن كان شهد على ما في الكتائب من الشهود - وكان داود أحدهم - فقال داود : قد علمت ما أخذ علينا وعليكم الرشيد من العهد والميثاق ، عند بيت الله الحرام ، حين بايعنا لابنيه لتسكونن مع المظلوم منهما على الظالم ، ومع المبني عليه على الباغى ، ومع المنذور به على الغادر ، فقد رأينا ورأيتم أن محمداً (الأمين) قد بدأ بالظلم والبغى والغدر على أخويه عبد الله المأمون ، والقاسم المؤتمن ، وخلعهما ، وبايع لابنه للطفل رضيع صغير لم يقطع ، واستخرج الشرطيين من السكبة عاصياً ، فحرقهما بالنار ، وقد رأيت خلمه ، وأن أباع لعبد الله المأمون بالخلافة ، إذ كان مظلوماً مبغياً عليه ، فقال له أهل مكة : رأينا تبع لرأيك ، ونحن خالموه معك ، فجمع الناس ، وخطبهم هذه الخطبة .

« الحمد لله مالك الملك ، يُؤتي الملكَ من يشاء ، وَيَنْزِعُ الملكَ من يشاء ، وَيُعْزِزُهُ من يشاء ، وَيُذِلُّ من يشاء ، بيده الخيرُ ، وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالدين ، وختم به النبيين ، وجعله رحمةً للعالمين ، صلى الله عليه في الأولين والآخرين .

أما بعد ، ي أهل مكة ، فأنتم الأصلُ والفرع ، والعشيرة والأسرة ، والشركاء في النعمة ، إلى بلدكم يَفِدُ وَفَدَ اللهُ^(١) ، وإلى قبلكم يَأْتُمُّ المسلمون ، وقد علمتم ما أخذ عليكم الرشيد هرون ، رحمة الله عليه وصلاته ، حين بايع لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم من العهد والميثاق ، لتَنْصُرَنَّ المظلومَ منهما على الظالم ، والمبغى عليه على الباغى ، والمغدورَ به على الغادر ، ألا وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هرون قد بدأ بالظلم والمبغى ، والغدر ، وخالف الشروط التي أعطاهما من نفسه في بطن البيت الحرام ، وقد حلّ لنا ولكم خلعهُ من الخلافة وتصويرها إلى المظلوم المبغى عليه ، المغدور به ، ألا وإني أشهدكم أنني قد خلعت محمد بن هرون من الخلافة ، كما خلعت قلنسوتي هذه من رأسي وخلع قلنسوته عن رأسه ، فرمى بها إلى بعض الخدم تحته ، وكانت من بُرُودِ حَبْرَةَ^(٢) مسلسلة حمراء ، وأتى بقلنسوة سوداء هاشمية فلبسها - ثم قال : قد بايعت لعبد الله المأمون أمير المؤمنين بالخلافة ، ألا فقوموا إلى البيعة خلايفتكم ، « فصعد جماعة من الوجوه إليه إلى المنبر رجل فرجل ، فبايعه لعبد الله المأمون بالخلافة وخلع محمداً .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٧٠)

(١) أي لتأدية فريضة الحج . (٢) برود حبرة : ضرب من البرود البيانية ، يقال : برد حبرة مثل حبرة على الوصف والإضافة ، وبرود حبرة ، وليس حبرة موضعاً أو شيئاً معلوماً ، إنما هو وثى كقولك : ثوب قرمز ، والقرمز : صبغة .

١٠٨ - خطبة الأمين وقد تولى الأمر عنه

ولما رأى الأمين الأمر قد تولى عنه، وأنصاره يتسللون فيخرجون إلى طاهر، أمر بإحضار كل من كان معه في المدينة من القواد والجنود، فأشرف عليهم وقال:

« الحمد لله الذي يرفع ويضع، ويعطي ويمنع، ويقبض ويسقط، وإليه المصير، أحمد على نوائب الزمان، وخذلان الأعوان، وتشنت الرجال، وذهاب الأموال، وحلول النوائب، وتوفد المصائب، حمداً يدخر لي به أجزل الجزاء، ويرفدني^(١) أحسن العزاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كما شهد لنفسه، وشهدت له ملائكته، وأن محمداً عبده الأمين، ورسوله إلى المسلمين صلى الله عليه وسلم، أمين رب العالمين.

أما بعد: يامعشر الأبناء، وأهل السبقي إلى الهدى، فقد علمت غفلة غفلتكم عن أيام الفضل بن الربيع وزير علي ومشير، فمادت^(٢) به الأيام بما كرمني به من الندامة في الخاصة والعامة، إلى أن نبهتموني فانتبهت، واستغتموني في جميع ما كرهتم من نفسي وفيكم، فبذلت لكم ما حواه ملكي، ونالته مقدرتي مما جمعه وورثته عن آبائي فقودت^(٣) من لم يجز، واستكفيت من لم يكف، واجتهدت - علم الله - في طلب رضاكم بكل ما قدرت عليه، واجتهدتم - علم الله - في مساءتي في كل يوم ما قدرت عليه، من ذلك توجيهي إليكم علي بن عيسى شيخكم وكبيركم، وأهل الرأفة بكم، والتحنن عليكم، فكان منكم ما يطول ذكره، فغفرت الذنب، وأحسنتم واحتملت وعزيت نفسي عند معرفتي بشذوذ الظفر، وحرصى على مقامكم مسلحة^(٤) بخولان مع ابن كبير صاحب دعوتكم، ومن علي يدي أبيه^(٥) كان نغركم، وبه تمت طاعتكم

(١) رفته وأرفده: أعطاه. (٢) طاولته وأمهله: (٣) أي اتخذته قائداً.

(٤) المسلحة: للقوم ذور سلاح.

(٥) يعني جده عبد الله بن حميد بن قسطنطين، وهو قسطنطين بن شبيب الطائي، أحد الدعاة العباسية والقواد

الذين قاتلوا الجيوش الأموية - انظر الجزء الثاني ص ٥١٣

عبد الله بن حميد بن قحطبة، فصرتم من التائب عليه إلى مالا طاقة له به، ولا صبراً عليه، يقودكم رجل منكم وأتم عشرون ألفاً إلى عامين، وعلى سيدكم متوثبين، مع سعيد الفرد، سامعين له مطيعين، ثم وثبت مع الحسين عليّ، فخلعتموني وشتمتموني، واتهبتموني وحبستموني وقيدتموني، وأشياء منعتموني من ذكرها، حقد قلوبكم، وتلكي^(١) طاعتكم أكبر وأكثراً، فالحمد لله حمد من أسلم لأمره، ورضى بقدره، والسلام» .

وكانت عاقبة أمره أن قتل سنة ١٩٨ هـ وحل رأسه إلى المأمون بخراسان .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٢٠٥ ، وروج الذهب ٢ : ٣٠٥)

١٠٩ - استعطاف الفضل بن الربيع للمأمون

وقال المأمون للفضل بن الربيع^(٢) لما ظفر به : « يا فضل ، أكان من حقّ عليك وحقّ آبائي ونعمهم عند أبيك وعندك أن تثلّيني^(٣) وتسبّني وتخرّص على دمي ؟ أحبّ أن أفعل بك ما فعلتني ؟ » .

فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن عذري يُحقّدك إذا كان واضحاً جميلاً ، فكيف إذا حفتته^(٤) العيوب ، وقبّحته الذنوب ، فلا يضيق عني من عفوك ما وسع غيري منك فأنت كما قال الشاعر^(٥) فيك :

صَفْوَحٌ عَنِ الْأَجْرَامِ حَتَّى كَأَنَّهُ مِنْ الْعَفْوِ لَمْ يَعْرِفِ مِنَ النَّاسِ مُجْرِمًا
وَلَيْسَ يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بِهِ الْأَذَى إِذَا مَا الْأَذَى لَمْ يَغْشَ بِالْكَرْهِ مُسْلِمًا
(زهر الآداب ٢ : ١٦٣)

(١) مسهل عن تلكؤ . (٢) توفي سنة ٢٠٨ . (٣) ثلّيه كضربه : لامة وعابه .

(٤) هكذا في الأصل ، وربما كان « أخفتته » لقوله قبل : « إذا كان واضحاً » .

(٥) هو الحسن بن رجا بن أبي الضحّاك .

١١٠ - خطبة طاهر بن الحسين ببغداد بعد مقتل الأمين

ودخل طاهر بن الحسين بغداد يوم الجمعة بعد قتل الأمين ، فصلى بالناس وخطبهم خطبة بليغة ، وقد حضره من بني هاشم والقواد وغيرهم جماعة كثيرة قال :

« الحمد لله مالك الملك ، يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُسْذِينَ ، وَلَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ، إِنْ ظَهَرَ غَلَبَتْنَا لَمْ يَكُنْ مِنْ أَيْدِينَا وَلَا كَيْدِنَا ، بَلْ اخْتَارَ اللَّهُ لِلْخَلِيفَةِ ، إِذْ جَمَلَهَا عِمَادًا لِدِينِهِ ، وَقَوَامًا لِعِبَادِهِ ، وَضَبَطَ الْأَطْرَافَ ، وَسَدَّدَ الثُّغُورَ ، وَإِعْدَادِ الْعُدَّةِ ، وَجَمْعِ الْفَيْءِ ، وَإِنْفَازِ الْحُكْمِ ، وَنَشْرِ الْعَدْلِ ، وَإِحْيَاءِ السُّنَّةِ بَعْدَ إِذْ بَالَ الْبَطَالَاتِ ، وَالتَّلَذُّ بِمُوبِقِ الشَّهَوَاتِ ، وَالْمُخْلِذِ إِلَى الدُّنْيَا مُسْتَحْسِنٌ لِدَاعِي غُرُورِهَا ، مُحْتَلِبٌ دِرَّةً^(١) نَعْمَهَا ، أَلْفَ زَهْرَةٍ رَوَّضَتْهَا ، كَلَفٌ بَرَوْتِقٍ بَهَجَتْهَا ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ وِفَاءِ مَوْعُودِ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا لِمَنْ بَغَى عَلَيْهِ ، وَمَا أَحْلَى بِهِ مِنْ بَأْسِهِ وَنَقْمَتِهِ ، لَمَّا نَكَبَ^(٢) عَنْ عَهْدِهِ ، وَارْتَكَبَ مَعْصِيَتَهُ ، وَخَالَفَ أَمْرَهُ ، وَغَيَّرَهُ نَاهِيَةَ ، وَعَظَمْتَهُ مَوْدِبَةً ، فَتَمَسَّكُوا بِدِقَائِقِ عَصْمِ^(٣) الطَّاعَةِ ، وَاسْتَلْكَوْا مَنَاحِي سَبِيلِ الْجَمَاعَةِ ، وَاحذَرُوا مِصَارِعَ أَهْلِ الْخِلَافِ وَالْمَعْصِيَةِ ، الَّذِينَ قَدَحُوا زِنَادَ الْفِتْنَةِ ، وَصَدَعُوا شَعْبَ الْأُلْفَةِ ، فَأَعَقَبَهُمُ اللَّهُ خَسَارَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٠٦ ، والمعقد الفرديد ٢ : ١٥٥)

(٢) عدل .

(١) الدرّة : اللين .

(٣) جمع عصام ككتاب ، وعصام القرية : رباطها وسيرها الذى تحمل به .

خطب المأمون (توفي سنة ٥٢١٨ هـ)

١١١ - خطبته وقد ورد عليه نعي الرشيد

خطب الناس بمرو حين ورد عليه نعي الرشيد ، فقال :
« إن ثمرة الصبر الأجر ، وثمره الجزع الوزر ، والتسليم لأمر الله عز وجل ، فائدة
جليلة ، وتجارة مربحة ، فالموت حوض مورود ، وكأس مشروب ، وقد أتى على خليفتم
ما أتى على نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، فما كان إلا عبداً
دعياً فأجاب ، وأمر فأطاع ، وقد سدد أمير المؤمنين نلمه ، وقام مقامه ، وفي أعناقكم
من العهد ما قد عرفتم ، فأحسنوا العزاء على إمامكم الماضي ، واغتبطوا بالنعماء والوفاء
في خليفتم الباقي ، يأهل الدنيا : الموت نازل ، والأجل طالب ، وأمس واعظ ،
واليوم مغتتم ، وغد منتظر » .

١١٢ - خطبته وقد سلم الناس عليه بالخلافة

ولما بلغه بخراسان قتل أخيه ، وأقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة ، صعد المنبر ،
فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :
« أيها الناس : إني جمعتُ لله على نفسي ، إن أسترعاني أموركم أن أطيعه فيكم ،
ولا أسفك دماً عمداً لا تحلله حدوده ، وتسفكه فرائضه ، ولا آخذ لأحد مالا ، ولا
أماناً ، ولا نحلة^(١) تحرم على ، ولا أحكم بهواي ، في غضبي ولا رضاي ، إلا ما كان

(١) حلة : أعطاه والاسم للنحلة .

في الله وله ، جعلتُ كلَّه لله عهداً مؤكِّداً ، وميثاقاً مُشدِّداً ، إني أفي رغبةً في زيادته إيايَ في نعمتي ، ورهبةً من مسألته إيايَ عن حقه وخلقه ، فإنَّ غيرتُ أو بدلتُ كنتُ للغيرِ مستأهلاً ، وللنكالِ مُعرَّضاً ، وأعوذ بالله من سَخَطِهِ ، وأرغب إليه في المعونة على طاعته ، وأنَّ يحولَ بيني وبين معصيته .

١١٣ - خطبته يوم الجمعة

الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجبهِ على خلقه ، أحمدُه وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الذين كُله ولو كره المشركون ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده ، والتنجيز لوعده ، والخوف لوعيده ، فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه ، وعمل له وأرضاه ، فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا أعمالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما ببقى بما يزول عنكم ، وترحلوا فقد جدَّ بكم ، واستعدُّوا للموت فقد أظلمكم ، وكونوا قوماً صريح بهم فانتبهوا ، وعلِّموا أن الدنيا ليست لهم بدارٍ فاستبدلوا ، فإن الله لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترككم سدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، وإن غاية تنقصها اللحظة ، وتهدمها الساعة الواحدة ، لجديرة بقصر المدة ، وإن غائباً يحذوه^(١) الجديدان : الليل والنهار لحريٍّ بسرعة الأوبة ، وإن قادماً يحلُّ بالفوز أو بالشقوة لمستحقٍّ لأفضل العدة ، فاتقَ عبدُ ربِّه ، ونصح نفسه ، وقدم توبته ، وغلب شهوته ، فإن أجله مستورٌ عنه ، وأمله خادع له ، والشيطان موكل به ، يزين له العصية ليركبها ، ويمنيه التوبة ليسوفها ، حتى تهجم عليه منيته ، أغفل ما يكونُ عنها ، فيالها حسرةً على ذي غفلة ، أن يكون عمره عليه حجةً ، أو تؤدِّيه أيامه إلى شقوة ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تُبطرُه نعمة ،

وَلَا تَقْصُرْ بِهِ عَنْ طَاعَتِهِ غَفْلَةً ، وَلَا تَحُلَّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ فَرْعَةً . إِنَّهُ سَمِيعُ الدَّعَاءِ ، وَيَسْمَعُهُ الْخَيْرُ ، وَإِنَّهُ فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٣ ، والمعتمد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٤ - خطبته يوم الأضحى

قال بعد التكبير والتحميد : إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله ، وأوجب تشریفه ، وعظم حرُمته ، ووفَّق له من خلقه صفوته ، وابتلى فيه خليله ، وفدى فيه من الذبح نبيه ، وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر ، ومتمدِّم الأيام المدودات من النفر^(١) ، يوم حرام ، من أيام عظام ، في شهر حرام ، يوم الحج الأكبر ، يوم دعا الله إلى مشهده ، ونزل القرآن بتعظيمه ، قال الله جل وعز : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُوكَّ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا ، وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ، ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ، وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ ، وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ^(٢) » .

فتقرَّبوا إلى الله في هذا اليوم بذباحكم ، وعظَّموا شعائر الله ، واجعلوها من طيب أموالكم ، وبصحة التقوى من قلوبكم ، فإنه يقول : « لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائَهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ^(٣) » ، ثم التكبير والتحميد والصلاة على النبي والوصية

(١) يوم النفر : اليوم الذي ينفر فيه الناس من منى ، وهو بعد يوم للقر (يوم القر بالفتح : اليوم الذي بعد يوم النحر ، لأن الناس يقرون في منازلهم) .

(٢) رجلا : أى مشاة ، جمع راجل كقائم وقيام ، - وعلى كل ضامر : أى وركبانا على كل ضامر ، أى بعير مهزول ، يأتين : أى الضوامر ، صفة لضامر حلا على المعنى ، من كل فج عميق : أى طريق بعيد ، ليشهدوا مَنافع لهم : دينية ودنيوية ، في أيام معلومة : هى عشر ذى الحجة ، وقيل : أيام النحر ، من بهيمة الأنعام : الإبل والبقر والغنم التى تحرر للضحايا ، ثم ليقضوا تفثهم : أى يزيلوا أوساخهم وشعثهم من نحو قص الأظفار ، وحلق العانة ، وغير ذلك . (٣) أى يرفع إليه منكم العمل الصالح .

بالتقوى ، ثم قال بعد ذكر الجنة والنار ، عَظُمَ قَدْرُ الدَّارِينَ ، وارتفع جزاء العاملين^(١) ، وطالت مدة الفريقين ، اللهُ اللهُ ، فوالله إنه أَلْجِدُّ لِأَلَلْعَبِّ ، وإنه الحقُّ لا الكذب ، وما هو إلا الموت والبعث ، والميزان والحساب والأقصاص والصراط ، ثم العقاب والثواب ، فمن نجا يومئذ فقد فاز ، ومن هوى يومئذ فقد خاب ، الخير كله في الجنة ، والشر كله في النار . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٤ ، والمعتمد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٥ - خطبته يوم الفطر

قال بعد التكبير والتحميد : إن يومكم هذا يوم عيد وسنة ، وابتهاال ورغبة ، يوم ختم الله به صيام شهر رمضان ، وافتتح به حج بيته الحرام ، فجعله خاتمة الشهر ، وأوّل أيام شهر الحج ، وجعله مُعَقَّباً لمفروض صومكم ، ومُتَنَفَّلَ قِيَامِكُمْ ، أَحَلَّ فِيهِ الطَّعَامَ لَكُمْ ، وَحَرَّمَ فِيهِ الصِّيَامَ عَلَيْكُمْ ، فَاطْلُبُوا إِلَى اللَّهِ حَوَائِجَكُمْ ، وَاسْتَغْفِرُوهُ لِتَفْرِيطِكُمْ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : « لا كبير مع استغفار ، ولا صغير مع إصرار » ثم التكبیر والتحميد ، وذكر النبي عليه الصلاة والسلام ، والوصية بالتقوى ، ثم قال : فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا الأمر الذي أعتدل فيه يقينكم ، ولم يحتضر^(٢) الشك فيه أحداً منكم ، وهو الموت المكتوب عليكم ، فإنه لا تستقال بعده عثرة ، ولا تُحْطَرَّ قبله توبة ، واعلموا أنه لا شيء قبله إلا دونه ، ولا شيء بعده إلا فوقه ، ولا يُعِينُ على جزعه وعَلَزَه^(٣) وَكَرْبَه . ولا يعين على القبر وظلمته ، وَضِيقِهِ وَوَحْشَتِهِ ، وَهَوْلِ مَطَاعِمِهِ وَمَسْأَلَةِ مَلَائِكَتِهِ ، إِلَّا الْعَمَلُ الصَّالِحُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، فَمَنْ زَلَّتْ عِنْدَ الْمَوْتِ قَدَمُهُ ، فَقَدْ ظَهَرَتْ نَدَامَتُهُ ، وَفَاتَتْهُ اسْتِقَالَتُهُ ، وَدَعَا مِنَ الرَّجْعَةِ إِلَى مَالٍ يُجَابُ إِلَيْهِ ، وَبَذَلَ مِنَ الْفِدْيَةِ مَا لَا يُقْبَلُ مِنْهُ ، فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ ، وَكُونُوا قَوْمًا سَأَلُوا الرَّجْعَةَ فَأَعْطَوْهَا ، إِذْ مُنِعَهَا الَّذِينَ طَلَبُوهَا ،

(١) أي عمل الخير وعمل الشر .

(٢) يحضر .

(٣) العلز : ما يصيب المريض عند حشجة الموت من رعدة واضطراب .

فإنه ليس يتنمى المتقدمون قبلكم إلا هذا المهل المبسوط لكم ، واحذروا ما حذركم الله ،
 واتقوا اليوم الذى يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم ، ونشر صحيفكم الحافظة لأعمالكم ،
 فلينظر عبداً ما يضع فى ميزانه مما يتقبل به ، وما يميل^(١) فى صحيفته الحافظة لما عليه وله ،
 فقد حكى الله لكم ما قال المرطون عندها ، إذ طال إعراضهم عنها ، قال : « وَوَضَعَ
 الْكِتَابُ فَتَرَى الْجُرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ، مَا لِهَذَا الْكِتَابِ
 لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ
 أَحَدًا » ، وقال : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ^(٢) لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ،
 وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » ، ولست أنها كم عن
 الدنيا بأعظم مما نهتكم الدنيا عن نفسها ، فإن كل ما بها ينهى عنها ، وكل ما فيها يدعو
 إلى غيرها ، وأعظم مما رأته أعينكم من معائبها ذم كتاب الله لها ، ونهى الله عنها ،
 فإنه يقول : « فَلَا تَعْرَبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ » ، وقال :
 « إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌ . . الآية » ، فانتفعوا بمعرفتكم بها ، وبإخبار الله عنها ،
 واعلموا أن قوماً من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذروا مصارعها ، وجانبوا خدائنها ،
 وآثروا طاعة الله فيها ، فأدركوا الجنة بما تركوا منها .

(ميون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٥ ؛ والمقد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٦ — خطبة ابن طباطبا العلوى

وخطب محمد^(٣) بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم طباطباً بن الحسن بن الحسن بن
 على بن أبى طالب ، حين انتهب قائد جيوشه أبو السرايا السرى بن منصور قصر
 العباس بن موسى بن عيسى ، فقال :

(١) يميل . (٢) القسط : العدل : مصدر وصف به للمبالغة أو ذوات القسط .
 (٣) خرج بالكوفة لمشر خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٩ هـ يدعو إلى الرضى من آل محمد ، والعمل
 بالكتاب والسنة ، وكان القيم بأمره في تدبير الحرب ، وقيادة جيوشه أبا السرايا السرى بن منصور وكان سبب
 خروجه صرف المأمون طاهر بن الحسين عما كان إليه من أعمال البلدان التي افتتحها ، وتوجهه إلى ذلك الحسن =

« أما بعدُ : فإنه لا يزال يَبْلَغُنِي أن القائل منكم يقول : إن بنى العباس قِيْلَ لنا ، ونخوضُ في دماءهم ، وَتَرْتَعُ في أموالهم ، وَيُقْبَلُ قولنا فيهم ، وَتُصَدِّقُ دعوانا عليهم ، حُكْمٌ بلا علم ، وَعَزْمٌ بلا رَوِيَّةٍ ! عَجَبًا لمن يُطْلِقُ بذلك لسانه ، ويحدِّثُ به نفسه ! أبتكاتب الله تعالى حَكَمَ ، أم لِسُنَّةِ نبيه صلى الله عليه وسلم أَتَبَعَ ؟ أفي مِثْلِي ^(١) معه طَمَعٌ ، أم بَسَطَ يدي له بالجود أَمَلٌ ؟ هيهات ! فازدوا الحق بمِا نَوَى ، وأخطأ ذوا الباطل بما تَمَنَّى ، حَقُّ كل ذي حقٍّ في يده ، وكل مُدَّعٍ على حجة ، وَيَلُ من اغتصب حقًّا ، وادعى باطلا ، أفلح مَنْ رَضِيَ بحكم الله ، وخاف من أرغم الحقُّ أنفه ، العَدْلُ أَوْلى بالأثرة وإن رَغِمَ الجاهلون ، حُقَّ لمن أمر بالمعروف أن يجتنب المنكر ، ومن سلك سبيل العدل أن يصبر على مرارة الحق ، كل نفس تسمو إلى هَمَّتْها ، وَنِعَمَ الصاحبُ الفِئاعَة .

أيها الناس ، إن أكرم العبادة الوَرَعَ ، وأفضل الزاد التقوى ، واعملوا في دنياكم ، وتزوّدوا الآخرتكم ، اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وإياكم والعصبيةَ وَحَمِيَّةَ الجاهلية ، فإنهما يَمَحَقَانِ الدين ، ويورثان النفاق ، ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، يَصْلُحْ لَكُمْ دينكم ، وتحسُنْ المقالة فيكم . الحقُّ أبلجٌ ، والسبيل منهجٌ ، وَالباطل لَجَلَجٌ ^(٢) ، والناس مختلفون ، وَلِكُلِّ في الحقِّ سَعَةٌ ، من حَارَبَنَا حارَبناه ،

= ابن سهل ، فلما فعل ذلك تحدث الناس بالعراق أن الفضل بن سهل قد غاب على المأمون ، وأنه قد أنزله قصرًا حجبته فيه عن أهل بيته ، ووجوه قواده من الخاصة والعامة ، وأنه يهرم الأمور على «واه» ، ويستبد بالرائى دونه ، ففضضه لذلك بالعراق من كان بها من بني هاشم ، ووجوه الناس ، وأنفوا من غلبة الفضل على المأمون ، واجتروا على الحسن بن سهل بذلك ، وهاجت الفتى في الأمصار ، فكان أول من خرج بالكوفة ابن طباطبا المذكور ، فوجه إليه الحسن بن سهل زهير بن المذيب في عشرة آلاف فواقهم فهزموه واستباحوا عسكره ، فلما كان من غد اليوم الذي كانت فيه الوقعة (وذلك يوم الخميس ليلة غلت من رجب سنة ١٩٩) مات ابن طباطبا فجأة فذكر أن أبا السرايا سمع ، وذلك أن ابن طباطبا لما أحرز ما عسكر زهير منه أبا السرايا ، وحظره عليه ، وكان الناس له مطيعين ، فعمل أبو السرايا أنه لا أمر له معه فسمه .

(١) في الأصل : « أفي مثل » و« تحريف ، والصواب ما ذكرته .

(٢) أبلج : أى واضح بين . والمنهج الطريق الواضح ، والباطل الخلق : أى يترد دفيه صاحبه فلا يصيب مخرجا .

وَمَنْ سَأَلْنَا سَأَلْنَا ، وَالنَّاسَ جَمِيعًا آمِنُونَ إِلَّا رَجُلًا نَصَبْنَا لِنَا نَفْسَهُ ، وَأَعَانَ عَلَيْنَا بِمَالِهِ ،
وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَقُولَ : وَرَجُلٌ قَالَ فِينَا يَتَنَاوَلُ مِنْ أَعْرَاضِنَا : لَقُلْتُ ، وَكُنِي ، حَسْبُ كُلِّ
أَمْرٍ مَا يَصْنَعُهُ ، وَسَيُكْفِي الظَّالِمُونَ » . (موسم الأدب ٢ : ١١٢)

١١٧ - استعطف إبراهيم بن المهدي المأمون

لما ظفر المأمون بعمه إبراهيم بن المهدي^(١) أمر بإدخاله عليه ، فجىء بإبراهيم
يُجَلِّ^(٢) في قيوده ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال له
المأمون : لا سلم الله عليك ، ولا حفظك ، ولا رعاك ، ولا كلالك^(٣) يا إبراهيم ، فقال
له إبراهيم : على رسلك^(٤) يا أمير المؤمنين ، ولي^(٥) الثائر مُحْكَمٌ في القصاص ، والعفو
أقرب للتقوى ، ومن مدَّ له الاغترار في الأمل ، هجمت به الأناة على التآف^(٦) وقد
أصبح ذنبي فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل^(٧) عفو ، فإن تعاقب فبحقك ،
وإن تعف فبفضلك » ، ثم قال :

ذَنبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ
نَحْذُ بِحَقِّكَ أَوْ لَا فَاصْفَحْ بِفَضْلِكَ عَنْهُ
إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فِعَالِي مِنَ الْكِرَامِ فَكُنْهُ

فأطرق المأمون ملياً ، ثم رفع رأسه فقال : إني سأورت أبا إسحق^(٨) والعباس

(١) كان المأمون قد عهد بالخلافة لعل الرضا بن موسى الكاظم ، فلما سمع العباسيون ببغداد (وكان المأمون
يمرو حاضرة خراسان) ماطله المأمون من نقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي ، أنكروا منه ذلك ،
وخلعوه من الخلافة ، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدي سنة ٢٠١ هـ ، ولما علم المأمون بذلك جد في السير إلى بغداد ،
وهرب عمه إبراهيم وتوارى .

(٢) حجل المقيد كضرب ونصر : رفع رجلا ، وتريث في شبهة هل رجله .

(٣) كلاله : حرسه . (٤) المهل والثؤدة . (٥) صاحبه .

(٦) وفي رواية : « ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الرخاء ، أمن عادية الدهر » .

(٧) وفي رواية : « وقد أصبحت فوق كل ذنب ، كما أصبح كل ذنب عفو دونك » وفي أخرى :

« وقد جعلت الله فوق كل ذنب ، كما جعل كل ذنب دونك » .

(٨) أبو إسحق هو المعتصم أخو المأمون ، والعباس هو ابن المأمون .

في قتلك فأشارا علىَّ به ، قال : فما قلتَ لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلتُ لهما : بدأنا له بإحسان ، ونحن نستأمره فيه ، فإن غيرَ فآله يغير ما به ، قال : أمّا أن يكونا قد نصحاك في عِظَم قدر الملك ، وما جرّت عليه عادةُ السياسة فقد فعلا ، ولكن أيتَ أن تستجلب النصر إلا من حيثُ عودك الله ، ثم استعبر با كياً ، فقال له المأمون : ما يُبكيك ؟ قال : جدلاً ، إذ كان ذنبي إلى من هذه صِفته في الإنعام ، ثم قال : يا أمير المؤمنين إنه وإن كان جرّمي يبلغ سَفْكَ دمي ، فلم أمير المؤمنين وتفضله يُبلغانني عفوَه ، ولي بعدها شفاعَةُ الإقرار بالذنب ، وَحُرْمَةُ الأبِ بعد الأبِ ، قال المأمون : « القدرةُ تذهب الحفيظة^(١) ، والندم توبةٌ ، وعفوُ الله بينهما ، وهو أكبر ما يحاول ، يا إبراهيم : لقد حَبَبْتُ إلى العفو ، حتى خِفْتُ أن لا أُوجِرَ عليه ، أما لو عَلمَ الناس ما لنا في العفو من اللذة ، لتقربوا إلينا بالجنايات ، لا لتثريب^(٢) عليك ، يغفر الله لك ، ولو لم يكن في حق نسبك ما يبلغ الصفح عن زلّتك ، لبغّك ما أمّلتَ حسنُ توصلك ، ولطيف تنصّلك » ، ثم أمر بردّ ماله وضياعه ، فقال :

رَدَدْتُ مَالِي ، وَلَمْ تَبْخَلْ عَلَيَّ بِهِ وَقَبِلَ رَدِّكَ مَالِي قَدْ حَقَّقْتَ دَمِي
فَأَبْتُ مِنْكَ - وَمَا كَأَفَاتُهَا - بِيَدٍ هَا الْحَيَاتَانِ مِنْ وَفْرٍ مِنْ عَدَمٍ^(٣)
وَقَامَ عِلْمُكَ بِي فَاحْتَجَّ عِنْدَكَ لِي مَقَامَ شَاهِدٍ عَدْلٍ غَيْرِ مُتَّهَمٍ
فَلَوْ بَدَأْتُ دَمِي أَبْغِي رِضَاكَ بِهِ وَالْمَالُ ، حَتَّى أَسْأَلَ النُّعْلَ مِنْ قَدَمِي
مَا كَانَ ذَاكَ سِوَى عَارِيَةٍ رَجَعَتْ إِلَيْكَ ، لَوْ لَمْ تَهَبْهَا كُنْتُ لَمْ تُلَمَّ

(الأغاني ٩ : ٥٧ ، والمقد الفریدی ١ : ١٤٢ ، الأمالی ١ : ٢٠٢ ، وزهر الأديب ٣ : ١٩١)

(١) الحفيظة : الغضب ، وفي رواية الأغاني أن هذه الجملة من قول إبراهيم بن المهدي .

(٢) البعد : التهمة .

(٣) لا لوم .

١١٨ - إبراهيم بن المهدي ومختيشوع الطيب

تنازع إبراهيم بن المهدي هو ومختيشوع الطيب بين يدي أحمد بن دؤاد القاضي ، في مجلس الحكم ، في عقارٍ بناحية السواد^(١) ، فرزى عليه^(٢) ابن المهدي ، وأغلظ له بين يدي أحمد بن دؤاد ، فأحفظه^(٣) ذلك ، فقال : يا إبراهيم إذا نازعت أحداً في مجلس الحكم ، فلا أعلن أنك رفعت عليه صوتاً ، ولا أشرت بيد ، وليكن قصدك أمماً^(٤) ، وطريقك نهجاً^(٥) ، وريحك ساكنة ، وكلامك معتدلاً ، ووف مجلس الحكومة حقوقها ، من التوقير والتعظيم والاستكانة والتوجه إلى الواجب ، فإن ذلك أشبه بك وأشكل لذهبك في محتدك^(٦) ، وعظيم خطر^(٧) ، ولا تعجل ، فرب محملة تهب ريثاً^(٨) ، والله يعصمك من الزلل ، وخطأ القول والعمل ، ويتم نعمته عليك كما آتمها على أبويك من قبل ، إن ربك حكيم عليم .

قال إبراهيم : « أصلحك الله أمرت بسداد ، وحضضت على رشاد ، ولست بعائد إلى ما يئلم^(٩) مروءتي عندك ، ويسقطني من عينك ، ويخرجني من مقدار الواجب إلى الاعتذار ، فهأنأ معتزاً إليك من هذه البادرة ، اعتذاراً مقرّباً بذنبه ، باخج مجرمه^(١٠) ، فإن الغضب لا يزال يستنزني بمواده ، فيردني مثلك بحمله ، وتلك عادة الله عندنا منك ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وقد وهبت حق من هذا العقار لبختيشوع ، فليت ذلك اليوم يعول^(١١) بأرش^(١٢) الجناية ، ولم يتأنف مال أفاد موعظة ، وبالله التوفيق .

(العقد الفريد ١ : ٢٧ ، وزهر الآداب ١ : ٢٣٢)

(١) سواد العراق ، والعقار : كل ملك ثابت له أصل كالدار والنخل ، والجمع عقارات .

(٢) عابه . (٣) أغضبه . (٤) الأمم : القصد الوسط . (٥) واضحاً .

(٦) أصلك . (٧) قدرك . (٨) إبطاء . (٩) يعيب وينقص . (١٠) مقر .

(١١) يزهد ويرجع . (١٢) الأرض : الهدية .

١١٩ - استعطاف إسحاق بن العباس المأمون

وقال المأمون لإسحاق بن العباس : « لا تحسبني أغفلتُ إجلابك مع ابن المهدي ، وتأيمدك لرأيه ، وإيقادك لناره ، قال : « يا أمير المؤمنين ، ولرحمى أمسٍ من أرحامهم وقد قال لهم كما قال يوسف لإخوته : « لا تثرِب^(١) عَلَيْكُمْ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » ، وأنت يا أمير المؤمنين أحق وارثٍ لهذه المنة ، وممثل^(٢) لخلال العفو والفضل . »

قال : هيهات ! تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسلام ، وجُرمك جرم في إسلامك ، وفي دار خلافتك . قال : « يا أمير المؤمنين فوالله للمسلم أحق بإقالة العثرة ، وغفران الزلة من الكافر ، هذا كتاب الله بيني وبينك ، يقول الله تعالى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » فهي للناس يا أمير المؤمنين سنة دخل فيها المسلم والكافر ، والشريف والمشروف » قال : صدقت ، اجلس ، وریت بك زنادى ، ولا برحت أرى من أهلك أمثالك . (العقد الفريد ١ : ١٤٢ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٣)

١٢٠ - أحد وجوه بغداد يمدح المأمون حين دخلها

لما دخل المأمون بغداد ، تلقاه وجوه أهلها ، فقال لهم رجل منهم : « يا أمير المؤمنين ، بارك الله لك في مقدّمك ، وزاد في نعمتك ، وشكرك عن رعيتك ، تقدمت من قبلك ، وأتعبت من بعدك^(٣) ، وآيست أن يُعاین مثلك ، أمّا فيما مضى فلا نعرفه ،

(١) لا لوم . (٢) امثل طريقته : تبهما فلم يعدها .

(٣) إذ أنه يجهد أن يلحق بك فلا يستطيع .

وأما فيما بقي فلا نَرَجُوه ، فنحن جميعاً ندعو لك ، ونُثْنِي عليك ، خَصِبِ لَنَا جَنَابُكَ ،
وعَذْبُ نَوَابِكَ ، وحَسُنْتَ نَظْرَتَكَ ، وكرُمْتَ مَقْدَرَتَكَ ، جَبَرْتَ الْفَقِيرَ ، وفكَّكَ
الْأَسِيرَ ، فَإِنَّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

مازلتَ في البَدَلِ والنَّوَالِ وإِطْلَاقِ إِيْعَانِ بِجُرْمِهِ غَلِقِ (١)
حتى تَمْتَنِي الْبِرَاءَةَ أَنَّهُمْ عِنْدَكَ أُسْرَى فِي الْقَيْدِ وَالْحَلْقِ (٢)

(المعقد للفريد ١ : ١٣٧)

١٢١ - أحد أهل الكوفة يمدح المأمون

وقدم وفد من الكوفة إلى بغداد ، فوقفوا للمأمون فأعرض عنهم ، فقال شيخ
منهم : « يا أمير المؤمنين : يَدُكَ أَحَقُّ يَدٍ بِتَقْيِيلِ ، لَعْلَوْهَا فِي الْمَكَارِمِ ، وَبُعْدَهَا مِنْ
الْمَأْتَمِ ، وَأَنْتَ يَوْسُفِيُّ الْعَفْوِ فِي قَلَّةِ التَّثْرِبِ ، مَنْ أَرَادَكَ بِسُوءٍ جَعَلَهُ اللَّهُ حَصِيدَ سَيْفِكَ ،
وَطَرِيدَ خَوْفِكَ ، وَذَلِيلَ دَوْلَتِكَ » ، فقال ياعمرو : نعم الخطيب خطيبهم ، أقض حوائجهم .
(مروج الذهب ٢ : ٣١٩)

١٢٢ - محمد بن عبد الملك بن صالح بين يدي المأمون

ودخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قبض ضياعهم ، فقال :
« يا أمير المؤمنين ، محمد بن عبد الملك بين يديك ، رَيْبَ دَوْلَتِكَ ، وَسَلِيلَ نِعْمَتِكَ ،
وَعُضْنَ مِنْ أَعْصَانِ دَوْلَتِكَ (٣) ، أَتَأْذِنُ فِي الْكَلَامِ ؟ قَالَ نَعَمْ ، قَالَ : « أَسْتَمْنِحُ اللَّهَ
حَيَاةَ دِينِنَا وَدُنْيَانَا ، وَرِعَايَةَ أَدْنَانَا وَأَقْصَانَا بِنِقَائِكَ ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَزِيدَ فِي عَمْرِكَ مِنْ
أَعْمَارِنَا ، وَفِي أَثْرِكَ مِنْ آثَارِنَا ، وَيَقْبِكَ الْأَذَى بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا ، هَذَا نَقَامُ الْعَائِدِ
بِفَضْلِكَ ، الْهَارِبِ إِلَى كِنْفِكَ وَظِلِّكَ ، الْفَقِيرِ إِلَى رَحْمَتِكَ وَعَدْلِكَ » ، ثُمَّ تَكَلَّمَ فِي حَاجَتِهِ ،
فَقَضَاهَا . (المعقد للفريد ١ : ١٤٦)

(١) العاقب : الأسير ، والغلقي : أصله من غلق للرهن إذا استحققه المرتهن ، وذلك إذا لم يفتكك في الوقت
المشروط . (٢) البراءة ككبرام جمع برى .
(٣) الدرحة : الشجرة العظيمة .

١٢٣ - الحسن بن سهل يمدح المأمون

وقال الحسن بن سهل^(١) يوماً للمأمون :

« الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك ، وسني ما أعطاك ، إذ قسم لك الخلافة ، ووهب لك معها الحجة ، ومكّنك بالسلطان ، وحلّاه لك بالعدل ، وأيدك بالظفر ، وشفعه لك بالعمو ، وأوجب لك السعادة ، وقرنها بالسيادة ، فمن فسح^(٢) له في مثل عطية الله لك ؟ أم من ألبسه الله تعالى من زينة المواهب ما ألبسك ؟ أم من ترادفتُ نعمةُ الله تعالى عليه ترادفها عليك ؟ أم هل حاولها أحدٌ وارتبّطها بمثل محاولتك ؟ أم أي حاجة بقيت لرعيّتك لم يجدوها عندك ؟ أم أي قيمٍ للإسلام انتهى إلى عنايتك ودرجتك ؟ تعالى الله تعالى ، ما أعظم ما خصّ القرن الذي أنت ناصره ، وسبحان الله ! أيُّ نعمة طبقت^(٣) الأرض بك إن أدّى شكرها إلى بارئها والنعم على العباد بها ؟ إن الله تعالى خلق السماء في فلّكها ضياءً يستنير بها جميع الخلائق ، فكل جوهر زها حسنه ونوره ، فهل ليست زينته إلا بما اتصل به من نورك ؟ وكذلك كل وليٍّ من أوليائك ، سعد بأفعاله في دولتك ، وحسنت صناعته عند رعيّتك ، فإنما نالها بما أيّدتَه من رأيك وتديريك ، وأسعدته من حسنك وتقومك » .

(زهر الآداب : ٣ : ٢٠٠)

١٢٤ - يحيى بن أكرم يمدح المأمون

وقال المأمون ليحيى بن أكرم^(٤) : صف لي حالي عند الناس ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، قد انقادت لك الأمور بأزمّتها ، وملكتك الأمة فضولاً

(١) وزر للمأمون بعد أخيه الفضل بن سهل ، وتزوج المأمون ابنته بوران ؛ وتوفى سنة ٢٣٦ هـ .

(٢) أي وسع . (٣) ملأت وسمت ، والاستفهام للتنظيم .

(٤) من ولد أكرم بن صفيق التميمي ، وكان فقيها عالماً بالفقه بصيراً بالأحكام ؛ وقد غلب على المأمون ؛

حتى لم يقدمه أحده من الناس جميعاً ؛ وقلده قضاء القضاة ، وتدير أهل مملكته ؛ فكانت الوزراء لا تعمل

في تدبير الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيى بن أكرم ؛ وتوفى سنة ٢٤٦ هـ ؛ وعمره ٨٢ سنة .

أَعْنَتَهَا ، بِالرَّغْبَةِ إِلَيْكَ ، وَالْهَيْبَةَ لَكَ ، وَالرَّفْقَ مِنْكَ ، وَالْعِيَاذَ بِكَ ، بِمِثْلِكَ فِيهِمْ ، وَمِنْكَ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى لَقَدْ أُنْسِيَتْهُمْ سَلْفَكَ ، وَأَيْسَتَهُمْ مِنْ خَلْفِكَ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَمَعَنَا بِكَ بِمَدِّ التَّقَاتِ ، وَوَفَعَنَا فِي دَوْلَتِكَ بِمَدِّ التَّوَاتُوعِ .

فَقَالَ : يَا بَحِي ، أَتَحْبِرُ أَمْ ارْتَجِلُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : وَهَلْ يَمْتَنِعُ فِيكَ وَصْفٌ ، أَوْ يَتَعَذَّرُ عَلَى مَا دَحَكَ قَوْلٌ ، أَوْ يُفْجَمُ فِيكَ شَاعِرٌ ، أَوْ يَتَلَجَّلُجُ فِيكَ خَطِيبٌ ؟
(الصناعتين ص ٤٠)

١٢٥ — أَحَدُ بَنِي هَاشِمٍ وَالْمَأْمُونِ

أَذْنَبَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ذَنْبًا ، فَمَنَّهَ الْمَأْمُونُ ، فَقَالَ :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كَانَتْ لَهُ مِثْلُ دَالَّتِي ، وَلَبَسَ ثَوْبَ حُرْمَتِي ، وَمَتَّ بِمِثْلِ قِرَابَتِي ، غُفِرَ لَهُ فَوْقَ زَلَّتِي » فَأَعْجَبَ الْمَأْمُونُ كَلَامَهُ وَصَفَحَ عَنْهُ .
(الأمالي ٢ : ١٢٦ ؛ وزهر الآداب ٣ : ٨٩)

١٢٦ — رَجُلٌ يَتَظَلَّمُ إِلَى الْمَأْمُونِ

وَتَظَلَّمَ رَجُلٌ إِلَى الْمَأْمُونِ مِنْ عَامِلٍ لَهُ فَقَالَ :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا تَرَكَ لِي فِضَّةً إِلَّا فَضَّهَا ، وَلَا ذَهَبًا إِلَّا ذَهَبَ بِهِ ، وَلَا غَلَّةً إِلَّا غَلَّهَا^(١) ، وَلَا ضَيْعَةً إِلَّا أَضَاعَهَا ، وَلَا عَلِقًا^(٢) إِلَّا عَلَقَهُ ، وَلَا عَرَضًا إِلَّا عَرَضَ لَهُ ، وَلَا مَاشِيَةً إِلَّا أَمْتَشَّهَا^(٣) ، وَلَا جَلِيلًا إِلَّا أَجْلَاهُ ، وَلَا دَقِيقًا إِلَّا دَقَّهُ » ، فَعَجِبَ مِنْ فَصَاحَتِهِ وَقَضَى حَاجَتَهُ .
(زهر الآداب ٢ : ١٢٧)

(١) المراد احتيازها ؛ والأصل فيه غله ؛ أى وضع في عنقه أو يده الغل (بالضم) وهو القيد .

(٢) العلق : اللفيس من كل شيء ؛ وعلق به كفرح أحبه أو هو «علقه» مشدداً ، بيئياً المجهول ؛ علق امرأة :

أى أحبها . (٣) امتش ما في الضرع : أخذ جميعه .

١٢٧ - عمرو بن سعيد والمأمون

وقال عمرو بن سعيد بن سلم : كانت عليّ نوبةً أُتوبها في حرس المأمون ، فكنت في نوبتي ليلةً ، فخرج متفقدًا من حضر ، فعرفته ولم يعرفني ، فقال : من أنت ؟ قلت : عمرو ، عمرك الله ، ابن سعيد ، أسعدك الله ، ابن سلم ، سلمك الله ، فقال : أنت تكلوكم منذ الليلة ؟ قلت : الله يكلوكم قبلي ، وهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ، فقال المأمون :

إن أخاك الصدق من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا صرف الزمان صدعك بدد شمل نفسه ليجمعك
(زهر الآداب ٢ : ١٢٧)

١٢٨ - الحسن بن رجاء والمأمون

دخل المأمون بعض الدواوين ، فرأى غلامًا جميلًا على أذنه قلم ، فقال : من أنت يا غلام ؟ فقال :

« أنا يا أمير المؤمنين ، الناشئ في دولتك ، المتقلب في نعمتك ، المؤمل لخدمتك ، خادمك وابن خادمك : الحسن بن رجاء » ، فقال : أحسنت يا غلام ، وبالإحسان في البديهة تفاضلت العقول ، وأمر برفع مرتبته .
(زهر الآداب ٢ : ١٧٢)

١٢٩ - سعيد بن مسلم والمأمون

وقال سعيد بن مسلم بن قتيبة للمأمون :
« لو لم أشكر الله تعالى إلا على حسن ما أبلاني من أمير المؤمنين ، من قصده إلى بحديثه ، وإشارته إلى بطرفه ، لقد كان في ذلك أعظم الرفعة ، وأرفع ما توجبته الحرمة » .

قال : « يفعل أمير المؤمنين ذلك ، لأن أمير المؤمنين يجد عندك من حسن الإفهام إذا حدثت ، وحسن الفهم إذا حدثت ، مالم يجده عند أحد من مضي ، ولا يظن أنه يجد عند أحد ممن بقي ، فإنك لتستقصي حديثي ، وتقف عند مقاطع كلامي ، وتخبر بما كنت أغفلته منه » .
(زمر الآداب : ١ : ١٧٣)

١٣٠ - أبو زهمان يعظ سعيد بن مسلم

وقال سعيد بن مسلم : كنت والياً بأزمينية ، فغبر^(١) أبو زهمان العلافى على بابى أياماً ، فلما وصل إلى مثل بين يدي قائماً بين السماطين^(٢) وقال :
« والله إنى لأعرف أقواماً لو علموا أن سفء التراب يُقيم من أود^(٣) أصلابهم ، لجلعوه مُسكَّة^(٤) لازماً فيهم ، إيثاراً للتنزه عن عيش رقيق الحواشى ، أما والله إنى لبعيد الوثبة ، بطيء العطفة ، إنه والله ما يثنيى عليك إلا مثل ما يصر فى عنك ولأن أكون مُقلِّاً مقرَّباً ، أحبُّ إلى من أن أكون مُكثراً مُبعداً ، والله ما نسال عملاً لانضبطه ، ولا مالاً إلا نحن أكثر منه ، وهذا الأمر الذى صار إليك فى يدك ، كان فى يد غيرك ، فأمسوا والله حديثاً ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فتجيب إلى عباد الله بحسن البشر ، ولين الجانب ، فإن حبَّ عباد الله موصول بحبَّ الله ، وبفضهم موصول بفيض الله ، لأنهم شهداء الله على خلقه ، ورؤباؤه على من اعوج عن سبيله » .
(البيان والعيين : ٢ : ١٠٥)

١٣١ - وصية طاهر بن الحسين

لابنه عبد الله لما ولّاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما^(٥) سنة ٢٠٦ هـ .
« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له ،

(١) مكث . (٢) السماطان من الناس : الجانبان ؛ يقال : مشى بين السماطين .

(٣) اعوجاج . (٤) المسكة : ما يمسك الأبدان من الغذاء والشراب أو ما يبلغ به منهما .

(٥) أثبتنا هذا الكتاب هنا لأنه فى حداد الوصايا .

وخشيته ومراقبته ومزايلة سُخْطِهِ وحفظِ رِعِيَتِكَ ، والزَمَ ما أَلْبَسَكَ اللهُ مِنَ العَافِيَةِ
بِالذِّكْرِ لِعَادِكَ ، وما أَنْتَ صَائرٌ إِلَيْهِ ، وموقوفٌ عَلَيْهِ ، ومستولٌ عَنْهُ ، والعملُ فِي ذلكِ
كلِّهِ بِما يَعصَمُكَ اللهُ ، وينجيكُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَذَابِهِ ، وألِيمٌ عِقَابِهِ ، فَإِنَّ اللهُ قَدْ أَحْسَنَ
إِلَيْكَ ، وَأوجبَ عَلَيْكَ الرَّأْفَةَ بِمَنْ اسْتَرَكَ أَمْرَهُمْ مِنْ عِبَادِهِ ، وَأزْمَكَ العَدْلَ عَلَيْهِمْ ،
وَالقِيَامَ بِحَقِّهِ وَحدودِهِ فِيهِمْ ، وَالذَّبَّ^(١) عَنْهُمْ ، وَالدَّفْعَ عَنْ حَرِيمِهِمْ وَبَيِّضَتَهُمْ^(٢) ،
وَالحَقْنَ لِدَمَائِهِمْ ، وَالأَمْنَ لِسَبِيلِهِمْ^(٣) ، وَإِدْخَالَ الرَّاحَةِ عَلَيْهِمْ فِي مَآئِشِهِمْ ، وَمُواخِذِكَ
بِمَا فَرَضَ عَلَيْكَ مِنْ ذلكِ ، وَموقِفِكَ عَلَيْهِ ، وَمَسَائِلِكَ عَنْهُ ، ومُثِيبِكَ عَلَيْهِ بِمَا قَدِمْتَ
وَأَخَّرْتَ ، ففَرِّغْ لِدَلكِ فِكْرَكَ وَعَقْلَكَ وَبِصْرَكَ وَرؤْيَتَكَ ، وَلَا يَذْهَبْكَ^(٤) عَنْ ذَاهِلٍ ،
وَلَا يَشْفَلْكَ^(٥) عَنْهُ شَاغِلٌ ، فَإِنَّهُ رَأْسُ أَمْرِكَ ، وَمِلاكُ شَأْنِكَ ، وَأولُ ما يوفِّقُكَ اللهُ بِهِ
لِرَشْدِكَ ، وَلِيَكُنْ أَوَّلَ ما تُتَلَزِمُ بِهِ نَفْسَكَ ، وَتَنْسَبُ إِلَيْهِ فَعَالِكَ ، المُواظِبَةُ عَلَى ما افْتَرَضَ
اللهُ عَلَيْكَ مِنَ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ ، وَالجماعَةِ عَلَيْهَا بِالنَّاسِ قِبَلِكَ فِي مَواقِبِهَا عَلَى سُنَنِهَا ،
فِي إِسْبَاغِ^(٦) الوُضوءِ لَهَا ، وَافْتِتاحِ ذِكْرِ اللهِ فِيهَا ، وَتَرْتِلَ^(٧) فِي قِراءَتِكَ ، وَتَمَكَّنْ
فِي رُكُوعِكَ وَسُجُودِكَ وَتَشْهَدِكَ ، وَتُصَدِّقْ فِيهَا رَبِّكَ نَيْتُكَ ، واحضُضْ عَلَيْهَا جَماعَةَ
مِنْ مَعَكَ وَتَحْتَ بَدَنِكَ ، وَأدأِبْ عَلَيْهَا فَإِنَّها كَمَا قالَ اللهُ : تَأْمُرُ بِالمَعروفِ وَتَنْهَى عَنِ
الفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ ، ثُمَّ اتَّبِعْ ذلكَ الأَخْذَ بِسُنَنِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالمُتَابِرَةَ
عَلَى خِلائِقِهِ ، وَاقْتِفاءَ آثارِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَإِذا وَرَدَ عَلَيْكَ أَمْرٌ فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ
بِاسْتِخْارَةِ^(٨) اللهُ وَتَقْوَاهُ ، وَلِزُومِ ما أَنْزَلَ اللهُ فِي كِتابِهِ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَحِلالِهِ وَحَرَامِهِ
وَإِتِّبَامِ ما جَاءَتْ بِهِ الأَثارُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قُمْ فِيهِ بِما يَحِقُّ لَهِ عَلَيْكَ ،

(١) الدَّفْعُ . (٢) البَيِّضَةُ : حوزة كلِّ شَيْءٍ .

(٣) وَفي مَقَدِّمَةِ ابنِ خَلْفَوادٍ : لِسِرِّهِمْ ؛ وَالسَّرْبُ : النَفْسُ

(٤) ذَهَلَتْ مِنْ الشَّيْءِ (كَفَتَحَ) غَفَلَتْ وَقَدْ يَعْمَلُ بِنَفْسِهِ . فيقالُ ذَهَلَتْ ؛ وَالأَكْثَرُ أَنْ يَعْمَلَ بِالمُهمَزَةِ ؛
فيقالُ : أَذْهَلَنِي فلانٌ عَنِ الشَّيْءِ . (٥) شغَلَهُ مِنْ بابِ فَتَحَ وَأشغَلَهُ لَعِبَ جِدَّةً أَرَقْلِيلَةً أَوْ رَدِيئَةً .

(٦) أَسْبَغَ الوُضوءَ : وَفي كُلِّ مَعْضُوقِهِ . (٧) تَمَهَّلَ وَلا تَعْجَلْ .

(٨) اسْتِخْارَةُ اللهِ : طَلَبُ مِنْهُ الخَيْرِ .

ولا تَمَلَّ عن العدل فيما أُحِببت أو كَرِهت ، لِقَرِيب من الناس أو يَعيد ، وآثِرِ الفقهَ وأهلَهُ ، والدينَ وَحَمَلتَهُ ، وكتابَ اللهِ والعاملينَ به ، فإنَّ أفضلَ ما تَزِينُ به المرءَ الفقهَ في دينِ الله ، والطالبَ له ، والحثَّ عليه ، والمعرفةَ بما يَتَقَرَّبُ به إلى الله ، فإنه الدليلُ على الخيرِ كله ، والقائدُ له ، والآمرُ به ، والناهي عن المعاصي والموبقاتِ كلها ، وبها مع توفيقِ الله تزدادُ العبادُ معرفةً بالله عزَّ وجلَّ ، وإجلالاً له ، وَدَرَ كَأَ للدرجاتِ العُلَّاءِ في العَمَادِ ، مع ما في ظهوره للناسِ من التوقيرِ لأمرِك ، والهيبةِ لسلطانك ، والأنسَةِ بك ، والثقةِ بعدلك ، وعليك بالاعتقادِ في الأمورِ كلها ، فليس شيءٌ أبينَ نفعاً ، ولا أضرَّ أمنًا ، ولا أَجَمَعَ فضلًا من القصدِ ، والقصدُ داعيةٌ إلى الرشدِ ، والرشدُ دليلٌ على التوفيقِ ، والتوفيقُ قائدٌ إلى السعادةِ ، وَقَوَامُ الدينِ والسننِ الهاديةِ بالاعتقادِ ، فَأَثَرُهُ في دنياك كلها ، ولا تَقْصُرُ في طابِ الآخرةِ والأجرِ والأعمالِ الصالحةِ ، والسننِ المعروفةِ ، ومعالمِ الرشدِ ، فلا غايةَ للاستكثارِ من البرِّ والسعيِ له ، إذا كان يُطَلَبُ به وجهُ الله ومَرْضَاتُهُ ومرافقةُ أوليائه في دارِ كرامتهِ ، واعلم أنَّ القصدَ في شأنِ الدنيا يُورثُ العِزَّ ويحصنُ من الذنوبِ ، وإنك لن تَحُوطَ ^(١) نفسك وَمَن يَليكَ ، ولا تستصلحَ أمورَكَ بأفضلِ منه ، فَأَتِهِ واهتدِ به تَمَّ أمورَكَ ، وتَزِدْ مقدرتَكَ ، وتصلحَ خاصتك وعامتَكَ ، وأحسنِ الظنَّ بالله عزَّ وجلَّ تستقيمُ لك رعيتكَ ، والتمسِ الوسيلةَ إليه في الأمورِ كلها ، تَسْتَدِمُ به النعمةَ عليك ، ولا تتهمنَ أحداً من الناسِ فيما توليه من عملِكَ قبل أن تَكشِفَ أمره ، فإنَّ إيقاعَ التهمِ بالبِرِّ آءُ ، والظنونَ السيئةَ بهم مَأْثَمٌ ، واجعل من شأنِكَ حُسْنَ الظنِّ بأصحابِكَ ، واطرد عنكَ سوءَ الظنِّ بهم ، وارفضه فيهم ، يُعينكَ ذلك على اصطناعهم ^(٢) ورياضتهم ، ولا يَجِدَنَّ عدوَّ الله الشيطانُ في أمرِكَ مَفْخَرًا ، فإنه إنما يكتفي بالقليلِ من وَهْنِكَ ^(٣) ، فَيُدْخِلُ عَلَيْكَ من الغمِّ في سوءِ الظنِّ ما يَنْفَعُكَ لَدَاةَ عَيْشِكَ ، واعلم أنك

(١) تصون . (٢) اصطنعتك لنفسى : اخترتك لخاصة أمر استكفيك إياه .

(٣) الوهن يسكون الماء وفتحها ، القصف .

تجدُّ حُسْنَ الظنِّ قوَّةً وراحةً ، وَتُكْفَى به ما أُحِبَّتْ كفايَتَه من أمورِك ، وتدعو به
الناس إلى محبتِك ، والاستقامة في الأمور كلها لك ، ولا يمتنع حُسْنَ الظنِّ بأصحابِك
والرأفة برعيَّتِك ، أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورِك ، والمباشرة لأُمور الأولياء ،
والحيطة للرعية ، والنظر فيما يُقيمها وَيُصلِحها ، بل لتكن المباشرة لأُمور الأولياء ،
والحيطة للرعية ، والنظر في حوائجهم وَحَلُّ مَتُوناتهم ، آثَرَ عِنْدِكَ مما سوى ذلك ،
فإنه أقومُ للدين ، وأحيا للسنة ، وأخلصُ نيتك في جميع هذا ، وتفرَّد بتقويم نفسك
تفرَّد من يعلم أنه مسئول عما صنع ، ومجزى بما أحسن ، وماخوذ بما أساء ، فإن الله
جعل الدين حِرْزاً وعِزاً ، ورفع من اتبعه وعزَّزه ، فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهجَ الدين
وطريقة الهدى ، وأقيم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ،
ولا تعطل ذلك ولا تهانُ به ، ولا تؤخِّر عقوبة أهل العقوبة ، فإن في تفریطك في ذلك
لما يُفسد عليك حسنَ ظنك ، واعزِم على أمرِك في ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب
الشبهة والبِدعات ، يَسَلِّم لك دينك ، وتقم لك مروءتك ، وإذا عاهدت عهداً فَفِ به ،
وإذا وعدت الخير فَأَتِّجِزْه ، واقبل الحسنة وادفع بها ، وأغْمِض عن عيب كل ذي عيب
من رعيَّتِك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وأبغِضْ أهله ، وأقْصِ أهل
النميمة ، فإن أول فساد أمرِك في عاجل الأمور وآجالها تقريب الكذوب والجُرأة على
الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنميمة خاتمتها ، لأن النميمة لا يسلم
صاحبها ، وقائلها لا يسلم له صاحب ، ولا يستقيم لطبيعتها أمر ، وأحبُّ أهل الصدق والصَّلاح
وأعزُّ الأشراف بالحق ، وواصل الضعفاء وصل الرحم ، وابتغ بذلك وجه الله وعزة
أمره ، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة ، واجتنب سوء الأهواء والجور ، واصرف
عنهما رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيَّتِك ، وأنعم بالعدل في سياستهم ، وقم بالحق
فيهم ، وبالعرفه التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى ، واملِك نفسك عند الغضب ، وآثِر

لثوقار والحلم ، وإياك والحدة والطيشَ والفروز فيما أنت بسبيله ، وإياك أن تقول :
إني مُسَلِّطُ أفعال ما أشاء ، فإن ذلك سريع بك إلى نقص الرأي ، وقلة اليقين بالله وحده
لاشريك له ، وأخاص الله النية فيه واليقين به ، واعلم أن الملكَ لله ، يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ ،
ويزعُ عهُ مَنْ يَشَاءُ ، ولن تجد تغبّر النعمة وحلول النعمة إلى أحد ، أسرع منه إلى حَمَلَةِ
النعمة من أصحاب السلطان ، والمبسوطِ لهم في الدولة ، إذا كفروا بنعم الله وإحسانه ،
واستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شره نفسك ، ولتكن ذخاُرك وكنوزك
التي تدّخر وتكزير البرّ والتقوى والمعدلة ، واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم ، والتفقد
لأمورهم والحفظ لِدَهْمَائِهِمْ^(١) وَالْإِغَاثَةَ لِلْمُهَوِّفِهِمْ ، واعلم أن الأموال إذا كثرت وذُخِرَتْ
في الخزان لا تُشْمِرُ ، وإذا كانت في إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم ، وكف الثبونة
عندهم ، نَمَتْ وَرَبَّتْ وصلحت به العامة ، وتزينت به الولاة ، وطاب به الزمان ، واعتقد
فيه العز والمنعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ، ووقر
منهُ على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف رعيتك من ذلك حصصهم ،
وتمهّد ما يصلح أمورهم ومعايشهم ، فإنك إذا فعلت ذلك قرّت النعمة عليك ،
واستوجبت المزيد من الله ، وكنت بذلك على جباية خراجك ، وجمع أموال رعيتك
وعملك أقدر ، وكان الجمع لما شملهم من عدلك وإحسانك أساسَ لطاعتهم ، وأطيب
قسماً لكل ما أردت ، فاجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب ، ولتعظّم حسبتك فيه
فإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيل حقه ، واعرف للشاكرين شكرهم وأثبهم عليه ،
وإياك أن تُنْسِنِكَ الدنيا وغرورها حول الآخرة ، ففتهاون بما يحق عليك ، فإن التهاون
يوجب التفريط ، والتفريط يورث البوار ، وليكن عمك لله وفيه تبارك وتعالى وارج
الثواب ، فإن الله قد أسبغ عليك نعمته في الدنيا ، وأظهر لديك فضله ، فاعتصم بالشكر
وعليه فاعتمد ، يَزِدْكَ اللهُ خَيْراً وإحساناً ، فإن الله يُثِيبُ بِقَدْرِ شُكْرِ الشَّاكِرِينَ ،

(١) للدهم : جماعة الناس « وفي المقدمة : والحفظ لدهمهم » .

وسيرة المحسنين ، وَقَضَى الْحَقَّ فِيمَا حَمَلَ مِنَ النِّعَمِ ، وَأَلْبَسَ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالسَّكْرَامَةِ ،
 وَلَا تَحْقِرَنَّ ذَنْبًا ، وَلَا تَمَالُئِنَّ حَاسِدًا ، وَلَا تَرَحَّمَنَّ فَاجِرًا ، وَلَا تَصِلَنَّ كَفُورًا ، وَلَا
 تَدَاهِنَنَّ عَدُوًّا ، وَلَا تَصَدَّقَنَّ نَمَامًا ، وَلَا تَأْمَنَنَّ غَدَارًا ، وَلَا تَوَالِيَنَّ فَاسِقًا ، وَلَا تَتَّبِعَنَّ
 غَاوِيًا ، وَلَا تَحْمَدَنَّ مُرَائِيًا ، وَلَا تَحْقِرَنَّ إِنْسَانًا ، وَلَا تَرَدَّنَّ سَائِلًا فَقِيرًا ، وَلَا تَجْبِينَنَّ (١)
 بِاطْلَا ، وَلَا تَلَاظِنَنَّ مَضْحَكًا ، وَلَا تُخْلِفَنَّ وَعْدًا ، وَلَا تَزْهَوَنَّ نَجْرًا ، وَلَا تُظْهِرَنَّ غَضَبًا ،
 وَلَا تَأْتِيَنَّ بَدْحًا (٢) ، وَلَا تَمْشِيَنَّ مَرَحًا ، وَلَا تَرْكَبَنَّ سَفَهًا (٣) ، وَلَا تَفْرُطَنَّ فِي طَلَبِ
 الْآخِرَةِ ، وَلَا تَرْفَعَنَّ لِلنَّامِ عَيْنًا ، وَلَا تُغْمِضَنَّ عَنِ الظَّالِمِ رَهْبَةً مِنْهُ أَوْ مَخَافَةً ، وَلَا تَطْلُبَنَّ
 ثَوَابَ الْآخِرَةِ بِالدُّنْيَا ، وَأَكْثِرْ مَشَاوِرَةَ الْفُقَهَاءِ ، وَاسْتَعْمَلْ نَفْسَكَ بِالْحِلْمِ ، وَخَذْ عَنِ
 أَهْلِ التَّجَارِبِ ، وَذَوِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ وَالْحِكْمَةِ ، وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ أَهْلَ الدَّقَةِ (٤) ،
 وَابْخُلْ ، وَلَا تَسْمَعَنَّ لَهُمْ قَوْلًا ، فَإِنَّ ضَرَرَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ مَنَفْعَتِهِمْ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ
 فُسَادًا لِمَا اسْتَقْبَلَتْ فِي أَمْرِ رَعِيَّتِكَ مِنَ الشُّحِّ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ حَرِيصًا كُنْتَ
 كَثِيرَ الْأَخْذِ قَلِيلَ الْعَطِيَةِ ، وَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ يَسْتَقِمْ لَكَ أَمْرُكَ إِلَّا قَلِيلًا ، فَإِنَّ
 رَعِيَّتَكَ إِنَّمَا تَعْتَقِدُ عَلَى مَحَبَّتِكَ ، بِالْكَفِّ عَنِ أَمْوَالِهِمْ وَتَرْكِ الْجُورِ عَنْهُمْ ، وَيَدْوَمُ صَفَاءُ
 أَوْلِيَائِكَ لَكَ ، بِالْإِفْضَالِ عَلَيْهِمْ وَحَسَنِ الْعَطِيَةِ لَهُمْ ، فَاجْتَنِبِ الشُّحَّ . وَاعْلَمْ أَنَّهُ أَوْلُ
 مَا عَصَى بِهِ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ ، وَأَنَّ الْعَاصِيَ بِمَنْزِلَةِ خَزْيٍ ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :
 « وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، فَسَهِّلْ طَرِيقَ الْجُودِ بِالْحَقِّ ، وَاجْعَلْ
 لِلْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ مِنْ نَيْتِكَ حِظًّا وَنَصِيبًا ، وَأَيِّقِنَنَّ أَنَّ الْجُودَ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ ، فَأَعِدِّدْهُ
 لِنَفْسِكَ خُلُقًا ، وَارْضَ بِهِ عَمَلًا وَمَذْهَبًا ، وَتَقَدَّرْ أُمُورَ الْجَنَّةِ فِي دَوَائِبِهِمْ وَمَكَاتِبِهِمْ ،
 وَأَدْرِ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ ، وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي مَعَايِشِهِمْ ، لِيَذْهَبَ بِذَلِكَ اللَّهُ فَاقْتَهُمْ ، وَيَقُومَ
 لَكَ أَمْرُهُمْ ، وَيَزِيدَ بِهِ قُلُوبَهُمْ فِي طَاعَتِكَ وَأَمْرِكَ خُلُوصًا وَانْشِرَاحًا ، وَحَسْبُ ذِي سُلْطَانِ

(١) وفي المقدمة : « وَلَا تَحْمَدَنَّ بِاطْلَا » .

(٢) الخ : الكبير . (٣) وفي المقدمة : « وَلَا تَرْكَبَنَّ سَفَهًا » .

(٤) وفي المقدمة : « أَهْلُ الدَّقَةِ » .

من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمةً في عدله، وحِيطته^(١) وإنصافه، وعنايته وشفقته، وبره وتوسعته، فزایل مكرهه أحد البابين باستشعار تسكلة الباب الآخر، ولزوم العمل به، تلقَ إن شاء الله نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً، واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور، لأنه ميزان الله الذي يعتدل عليه الأحوال في الأرض، وإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية، وتأمين السبل، وينتصف المظلوم، ويأخذ الناس حقوقهم، وتحسُن المعيشة، ويؤدَّى حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتجري السنن والشرائع، وعلى مجاريها يتنجز الحق والعدل في القضاء، واشتد في أمر الله، وتورع عن النَّطْفِ^(٢)، وامض لإقامة الحدود وأقلل العجلة، وابتعد من الضجر والقلق، واقنع بالقَسَمِ، ولتسكن رِيْحُكَ، ويقر جدك وانتفع بتجربتك، وانتبه في صمتك، وأسَدِدِ^(٣) في منطقتك، وأنصِفِ الخَصْمَ، وقف عند الشُّبْهَةِ، وأبلغ في الحجّة، ولا يأخذك في أحد من رعيته محاباةً ولا محاماةً^(٤) ولا لوم لأئم، وثبت وتأنَّ ورَاقِبْ، وانظر وتدبر، وتفكر واعتبر، وتواضع لربك وارأف^(٥) بجميع الرعية، وسَلِّطِ الحق على نفسك، ولا تُسرِعن إلى سفك دم (فإن الدماء من الله بمكان عظيم) انتهاكاً لها بغير حقها، وانظر هذا الخراج الذي قد استقامت عليه الرعية، وجعله الله للاسلام عزاً ورفعة، ولأهله سعةً ومَنَعَةً، ولعدوه وعدوهم كَبْتًا^(٦) وغِيظًا، ولأهل الكفر من مُعَادِيهِمْ ذلاً وَصَغَارًا، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه، ولا عن غنيٍّ لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا أحد من خاصتك، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له، ولا تَكَلِّفنَ أمراً فيه شَطَطٌ، واحمل الناس كلهم على مُرِّ الحق، فإن ذلك أجمع لألقتهم،

(١) في المقدمة : « وحيطته » .

(٢) النطف : الموب والشر والفساد . (٣) صد يمه كضرب : صار سهيداً .

(٤) في المقدمة : « ولا محاملة » . (٥) من باب كرم وقطع وطرب .

(٦) كبت : صرعه وأخزاه ؛ ورد العدو بغيظه وأذله .

وأزَمَ لرضا العامة ، واعلم أنك جُعِلْتَ بولايك خازنا وحافظا وراعيا ، وإنما سُمِّيَ أهل عملك رعيتك ، لأنك راعيهم وقيّمهم ، تأخذ منها ما أعطوك من عفوم ومقدرتهم وتنفقه في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم ، فاستعمل عليهم في كور عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل ، والعلم بالسياسة والنفاء ، ووسّع عليهم في الرزق ، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأُسندَ إليك ، ولا يسفّلنك عنه شاغل ، ولا يصرفنك عنه صارف ، فإنك متى آتته ووقت فيه بالواجب ، استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الأحداث في عملك ، واحترزت النصحة من رعيتك ، وأُعنت على الصلاح ، فدرت الخيرات ببلدك ، وفشت العارة بناحياتك ، وظهر الخصب في كورك ، فكثرت خراجك ، وتوفرت أموالك ، وقويت بذلك على ارتباط جنديك ، وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود السياسة ، مرضى العدل في ذلك عند عدوك ، وكنت في أمورك كلها ذا عدل وقوة وآلة وعدة ، فنافس في هذا ولا تقدم عليه شيئا ، تحمد مغبة أمرك إن شاء الله ، واجعل في كل كورة من عملك أمينا يخبرك أخبار عمالك ، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل في عمله ، مُعَين لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر ، فانظر في عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع فأمضه ، وإلا فتوقف عنه ، وراجع أهل البصر والعلم ، ثم خذ فيه عدته ، فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أمره قد واتاه على ما يهوى فقواه^(١) ذلك وأعجبه ، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره ، فاستعمل الحزم في كل ما أردت ، وباشره بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استشارة ربك في جميع أمورك ، وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لعدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لعد أموراً وحوادث تلهمك عن عمل يومك الذى أخرت ، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرت عمله

(١) في المقدمة : « وقد أتاه على ما يهوى فأغواه ذلك » .

اجتمع عليك أمر يومين ، فَشَفَّاكَ ذلك حتى تُعْرَضَ عنه ، فإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحتَ نفسك وبدنك ، وأحكمتَ أمور سلطانك ، وانظر أحرار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم استيقن صفاء طَوِيَّتِهِمْ ، وتهذيب مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك ، فاستخلصهم وأحسن إليهم ، وتعاهدَ أَهْلَ البيوتات ممن دخلت عليهم الحاجة ، فاحتلِ مئوتهم ، وأصلح حالهم ، حتى لا يجدوا تَخَلَّتَهُمْ ^(١) مَسًّا ، وأفرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مَظْلَمَتِهِ إِلَيْكَ ، والمحقر الذى لا علم له بطلب حقه ، فاسأل عنه أحنّ مسألة ، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ، ومُرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك ، لتنظر فيها بما يُصْلِحُ الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال ، اقتداءً بأمر المؤمنين - أعزه الله - فى العطف عليهم والصلة لهم ، لِيُصْلِحَ اللهُ بذلك عيشتهم ، ويرزقك به بركةً وزيادة ، وَأَجْرٍ لِلأَصْرَاءِ من بيت المال ، وَقَدِّمِ حَمَلَةَ القرآن منهم والحافظين لأكثره فى الجراية ^(٢) على غيرهم ، وانصب لِمَرْضَى المسلمين دُوراً تُؤْوِيهِمْ ، وَقَوَّاماً يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وَأَسْعِفُهُمْ بشهواتهم ، مالم يؤدَّ ذلك إلى سرف فى بيت المال ، واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيتهم ، لم يرضهم ذلك ، ولم تُطِبْ أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى وُلائِهِمْ ، طمعاً فى نيل الزيادة وفضل الرفق منهم ، وربما برِم ^(٣) المتصفح لأموار الناس ، لكثرة ما يرد عليه ، وَيَشْفَلُ فكره وذهنه منها ما يناله به مؤنة ومشقة ، وليس من يرغب فى العدل ، وَيَعْرِفُ محاسن أموره فى العاجل ، وفضل ثواب الآجل ، كالذى يستقبل ما يقربه إلى الله ، ويلتمس رحمته به وأكثر الإذن للناس عليك ، وَأَبْرز لهم وجهك ، وسكن لهم أحراسك ، واخفِضْ لهم جَنَاحَكَ ، وأظهر لهم بِشْرَكَ ، وَلِنُ لهم فى المسألة والمنطق ، واعطِ عليهم بجزوك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط بسماحةٍ وطيب نفس ، واتمس الصنيعة والأجر غير مكدر ولا متأن

فإن العطية على ذلك تجارة مرهنة إن شاء الله ، واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى
من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والأمم البائدة ، ثم اعتصم
في أحوالك كلها بأمر الله ، والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته ، وإقامة دينه
وكتابه ، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله ، واعرف ما تجمع عمالك
من الأموال ، وما ينفقون منها ، ولا تجمع حراماً ، ولا تنفق إسراراً ، وأكثر مجالسة
العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها ، وإيثار مكارم
الأمور ومعاليها ، وليكن أكرم دُخلائك وخاصتك عليك ، من إذا رأى عيباً فيك
لم يمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك في سر ، وإعلامك ما فيه من النقص ، فإن أولئك
أنصح أوليائك ، ومظاهريك لك ، وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابتك ، فوقت
لكل رجل منهم في كل يوم وقتاً يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامراته وما عنده من
حوائج عمالك ، وأمر كورك ورعيتك ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك
وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرّر النظر إليه والتدبير له ، فما كان موافقاً للحزم والحق
فأمضه ، واستخر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى التثبيت فيه والمسألة عنه ،
ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه إليهم ، ولا تقبل من أحد منهم
إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك
وتفهم كتابي إليك ، وأكثر النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله على جميع أمورك
واستخره فإن الله مع الصلاح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك وأفضل رعيتك ، ما كان
لله رضا ، ولدينه نظاماً ، ولأهله عزاً وتمكيناً ، وللذمة والملة عدلاً وصلاحاً ، وأنا أسأل
الله أن يصلح عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءك ، وأن ينزل عليك فضله ورحمته
بتمام فضله عليك وكرامته لك ، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيباً ، وأوفرهم حظاً ،
وأسنام ذكراً وأمراً ، وأن يهلك عدوك ومن ناوأك وبغى عليك ، ويرزقك من

رعيتك العافية ، ويحجز الشيطان عنك ووساوسه ، حتى يستعلى أمرك بالعزّة والقوّة والتوفيق ، إنه قريب مجيب .

وذكروا أن طاهراً لما عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهد ، تنازعه الناس وكتبوه وتدارسوه ، وشاع أمره حتى بلغ المأمون ، فدعا به وقرئ عليه ، فقال : ما بقي أبو الطيب (يعنى طاهراً) شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة ، وإصلاح الملك والرعية ، وحفظ البنيضة ، وطاعة الخلفاء ، وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدم ، وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال .
(تاريخ الطبري ١٠ : ٢٥٨ ، ومقمة ابن خلدون ص ٢٢٩)

١٣٢ — خطبة عبد الله بن طاهر

خطب عبد الله بن طاهر الناس ، وقد تيسر لقتال الخوارج^(١) فقال :

« إنكم فئة الله المجاهدون عن حقه ، الذائبون عن دينه ، الذائبون عن محارمه ، الداعون إلى ما أمر به ، من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاية أمره ، الذين جعلهم رعاة الدين ، ونظام^(٢) المسلمين ، فاستنجزوا موعود الله ونصره ، بمجاهدة عدوه ، وأهل معصيته ، الذين أشرو^(٣) وتمردوا ، وشقوا العصا ، وفارقوا الجماعة ، ومرقوا من الدين ، وسعوا في الأرض فساداً ، فإنه يقول تبارك وتعالى : « إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ

(١) الوارد في كتاب « الفرق بين الفرق » أن المأمون بعث طاهر بن الحسين لقتال الخوارج من أكرح - هكذا فيه ، وفي الملل والنحل حزة بن أدرك بالدال - وهو زعيم فرقة الحمزية إحدى فرق الخوارج المجاهدة ، وقد عاث في سجستان وخراسان ومكران وقوهستان وكرمان ، وهزم الجيوش الكفيرة ، وكان ظهوره في أيام هرون الرشيد سنة ١٧٩ ، وبقى الناس في فتنته إلى أن مضى صدر من أيام خلافة المأمون ، فلما تمكن المأمون من الخلافة كتب إليه كتاباً استدعاه فيه إلى طاعته ، فإزداد لإعتراضاً ، فبعث لقتاله طاهر بن الحسين ، فدارت بينه وبين حزة حروب قتل فيها من الفريقين مقدار ثلاثين ألفاً ، أكثرهم من أتباع حزة ، وانهمز حزة إلى كرمان ، ثم استدعى المأمون طاهراً من خراسان ، فطعم فيها حزة ، وأقبل بجيشه من كرمان ، فخرج إليه عبد الرحمن النيسابوري في عشرين ألفاً فهزموه ، وقتلوا الألوف من أصحابه ، وانقلت منهم حزة جريحاً ، ومات في هزيمته - انظر ص ٧٩ -

(٢) النظام : السلك يعظم فيه ، وملاك الأمر . (٣) بطروا .

وَبُيِّنَتْ أَقْدَامُكُمْ» ، فليكن الصبر مَعْقِلَكُمْ الذي إِلَيْهِ تَلْجَأُونَ^(١) ، وَعُدَّتْكُمْ التي بها تستظهرون ، فإنه الوزر المنيع ، الذي دلّم الله عليه ، وَالْجَنَّةُ^(٢) الحصينة التي أمركم الله بلباسها . غَضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، وَاخْفَتُوا أَصْوَاتَكُمْ في مصافِّكم ، وَامضُوا قُدَمًا عَلَى بَصَائِرِكُمْ ، فارغين إلى ذكر الله ، وَالاستعانة به كما أمركم الله ، فإنه يقول : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أيدكم الله بعز الصبر ، وَوَلِيكُمْ بِالْحَيَاةِ وَالنَّصْرِ .

(المنه للفرهيد : ٢ : ١٥٥)

١٣٣ - العباس بن المأمون والمعتمد (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ)

قال العباس بن المأمون : لما أفضت الخلافة إلى المعتمد دخلت ، فقال : هذا مجلس كنت أكرهه الناس لجلوسى فيه ، فقلت : « يا أمير المؤمنين ، أنت تغفو عما تيقنته ، فكيف تعاقب على ما توهمت ؟ » ، فقال : « لو أردت عقابك ، لتركت عتابك » .
(زهر الآداب ٣ : ٩١)

١٣٤ - استعطاف تميم بن جميل للمعتمد

كان تميم بن جميل السدوسي قد خرج بشاطىء الفرات ، واجتمع إليه كثير من الأعراب ، فعظم أمره ، وبعد ذكره ، فكتب المعتمد إلى مالك بن طوق في النهوض إليه ، فبدد جمعه ، فظفر به ، فحمله مؤثقا إلى المعتمد ، قال أحمد بن أبي ذؤاد : ما رأينا رجلاً عاين الموت ، فما هاله ، ولا أذهله عما كان يجب عليه أن يفعله إلا تميم بن جميل ، فإنه أوفى به الرسولُ باب أمير المؤمنين المعتمد ، في يوم الموكب ، حين يجلس للعامة ، ودخل عليه ، فلما مثل بين يديه ، دعا بالنطع^(٣) والسيف فأحضرهما ، فجعل تميم بن جميل ينظر إليهما ولا يقول شيئاً ، وجعل المعتمد يصعد النظر فيه ويصوبه ، وكان جسماً

(١) الملجأ والمعتمد ؛ وكذا الوزر . (٢) كل ما يقى .

(٣) النطع كحمل وشمس وسبب وصب : بساط من الأديم .

وسياً^(١) ، ورأى أن يستنطقه لينظر أين جنانه ولسانه من منظره ، فقال : يا تميم إن كان لك عذرت فأنت به ، أو حجة فأدل بها ، فقال : أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فأني أقول :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسَبَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » جبر بك صدع الدين ، ولم بك شعث المسلمين ، وأوضح بك سبل الحق ، وأخذ بك شهاب الباطل ، يا أمير المؤمنين إن الذنوب تُحْرِسُ الألسنة الفصيحة ، وتُعَيِّ الأفتدة الصحيحة ، ولقد عظمت الجريرة ، وانقطعت الحجة ، وكبر الذنب ، وساء الظن ، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربهما مني ، وأسرعهما إليّ ، أولاهما بامتنانك ، وأشبههما بخلافتك ، ثم أنشأ يقول :

أرَى الموتَ بينَ السيفِ والنَّطعِ كامنًا	يلاحظني من حيثما أتلفتُ
وأَكْبَرُ ظنِّي أنك اليومَ قاتلي	وأى أمرى مما قضى اللهُ يُفْلِتُ؟
ومن ذا الذي يُدلي بعذري وحجتي	وسيفُ المنايا بينَ عينيهِ مُصَلَّتُ؟ ^(٢)
يعزُّ على الأوسِ بنِ تغلبَ موقِفُ	يُسلُّ علىَّ السيفُ فيه وأسكتُ
وما جَزَعِي من أن أموتَ وإنتي	لأعلمُ أن الموتَ شيءٌ موقَّتُ
ولكنَّ خلفي صبيَّةٌ قد تركتهم	وأكبادهم من حسرةٍ تنفتتُ
كأنني أراهم حين أنعى إليهمُ	وقد خمشوا تلكَ الوجوهَ وصوتوا ^(٣)
فإن عشتُ عاشوا خافضينَ بغيطةٍ	أذودُ الردى عنهم وإن ميتَ موتوا ^(٤)
فكم قاتلٍ لا يُبعدُ اللهُ روحه	وأخرَ جَدلانٍ يُسرُّ ويُسْمَتُ

(١) جملا . (٢) مسلول . (٣) خمش وجهه كنعصر وضرب : خدشه ولطمه وضربه .

(٤) كثر فيهم الموت .

فتبسم المعتصم وقال : « كاد والله يا تميم أن يسبق السيفُ العَدَلُ (١) ، أذهب فقد غفرت لك الصبوة (٢) ، ووهبتك للصبيبة » ، ثم أمر بك قيوده وخلع عليه ، وعقد له بشاطئ الفرات .
(العقد الفريد ١ : ١٤٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٩)

١٣٥ - بين يدي سليمان بن وهب وزير المهدي بالله

ولما ولى المهدي بالله (٣) بن الواثق بن المعتصم سليمان بن وهب وزارته، قام إليه رجل من ذوى حرمة، فقال : « أعزَّ الله الوزير ، أنا خادمك ، المؤمِّل لدولتك ، السعيد بأيامك ، المنطوي القلب على ودك ، المنشور اللسان بمدحك ، المرْتَمَن بشكر نعمتك » .
(زهر الآداب ٣ : ١٩٧)

١٣٦ - أحمد بن أبي دواد والواثق (المتوفى سنة ٢٣٣ هـ)

دخل أحمد بن أبي دواد (٤) على الواثق فقال : ما زال اليوم قومٌ في ثلبك ونقصك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لِكُلِّ أَمْرِي مِنْهُمْ مَا أُكْتَسِبَ مِنَ الْإِنْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ (٥) مِنْهُمْ لَهُ عَدَابٌ عَظِيمٌ ، والله وليُّ جزائه ، وعقابُ أمير المؤمنين من ورثه ،

(١) العَدَلُ كشمس وسبب : الوم ؛ وهو مثل ؛ وأول من قاله ضبة بن أد بن طابجة ؛ وكان له ابنان يقال لأحدهما سعد ؛ وللآخر سعيد ؛ فذفرت إبل لضبة تحت البل ؛ فوجه ابنه في طلبها ففترقا ؛ فوجدها سمع فردها ؛ ومضى سعيد في طلبها ؛ فلقى الحرث بن كعب ؛ وكان على الغلام بردان ؛ فسأله الحرث إياها فأبى عليه فقتله وأخذ برديه ؛ فكان ضبة إذا أمسى فرأى تحت الليل سوادا . قال : أحمد أم سعيد ؟ فكث ضبة بذلك ماشاء الله أن يمكث ؛ ثم إنه حج فوافى مكاظ ؛ فلقى بها الحرث بن كعب ؛ ورأى عليه بردى ابنه سعيد فمرفهما ؛ فقال له : هل أنت نجبري ما هذان البردان اللذان عليك ؟ قال بل : لقيت غلاما ؛ هما عليه فسألته إياها ؛ فأبى على فقتله ؛ وأخذت برديه هذين ؛ فقال ضبة : بسيفك هذا ؟ قال نعم ؛ فقال : فأعطينيه أنظر إليه فأبى أظنه صارما ؛ فأعطاه الحرث سيفه ؛ فلما أخذه من يده هزه وقال : الحديث ذو شجون ؛ ثم ضربه به حتى قتله ؛ فقيل له يا ضبة : أفي الشهر الحرام ؟ فقال : سبق السيف العَدَلُ . (٢) جهلة الفتوة . (٣) نولى الخلافة سنة ٢٥٥ إلى سنة ٢٥٦ هـ

(٤) هو القاضي أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد من كبار أئمة المعتزلة ، ونصره الاعتزال ، كان مقربة من المأمون أثيرا عنده ، ولما ولي المعتصم الخلافة جعله قاضي القضاة ؛ وعزل يحيى بن أكثم ، وخص به أحمد ، حتى كان لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهرا إلا برأيه ، ولما مات المعتصم ، وتولى بعده ابنه الواثق بالله حسنت حال ابن أبي دواد عنده ، ثم فُجِع في أول خلافة المتوكل ، ففقد ولده محمداً القضاة مكانه ، وتوقف سنة ٢٤٠ هـ . (٥) أي معظمه ، وفي قراءة وكبره . بضم الكاف .

وما ذلَّ يا أمير المؤمنين من أنت ناصرُه ، وما صاق من كنت جاراً له ، فما قلت لهم
يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت يا أبا عبد الله :

وَسَعَى إِلَى بَعِيْبِ عَزَّةَ مَعْشَرُ جَعَلَ الْإِلَهَ خَلُودَهُنِ نِعَاَهَا

(زهر الآداب ٣ : ٢٠٨ ، والمقد الفريد ١ : ١٤١)

١٣٧ — ابن أبي دواد والواثق أيضاً

وقال الواثق يوماً لابن أبي دُواد تضحُّراً بكثرة حوائجهم : قد أخلتُ بيوتَ
الأموالِ بطلِّياتِكِ للأذنينِ بك ، والمتوسلينِ إليك ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، نتأخُّجُ شكرها متصلةً بك ، وذخائرُها موصولةٌ لك ، ومالِي
من ذلك إلا عِشْقُ اتصالِ الألسنِ بخلودِ المدحِ » ، فقال : « والله لا منعناك ما يزيد
في عشقتك ، ويقوى في همتك فينا ولنا » ، وأمر فأخرج له خمسةً وثلاثين ألف درهم .
(زهر الآداب ٢ : ٣١٠)

١٣٨ — ابن أبي دواد وابن الزيات

وكان بين القاضي أحمد بن أبي دُواد وبين الوزير محمد بن عبد الملك الزيات^(١) منافسة
وشحناء ، حتى منع الوزير شخصاً كان يصحب القاضي ، ويختص بقضاء حوائجهم ، من
الترداد إليه ، فبلغ ذلك القاضي ، فجا إلى الوزير فقال له :

« والله ما أحييتك متكثرأً بك من قلة ، ولا متمرِّزأً بك من ذلة ، ولكن
أمير المؤمنين رتبك مرتبة أوجبَتْ لقاءك ، فإن لقيناك فله ، وإن تأخره نا عنك فلك^(٢) » .
(وفيات الأميان ١ : ٢٥)

(١) وزر للمعتصم ، وللواثق من بعده ، ثم نسكبه المتوكل كما سيأتي .

(٢) وكان الواثق قد أمر ألا يرى أحد من الناس ابن الزيات ، إلا قام له ، فكان ابن أبي دواد إذا
راه قام واستقبل القبله يصل .

١٣٩ - الجاحظ وابن أبي دؤاد

وكان الجاحظ مختصاً بمحمد بن عبد الملك الزيات ، منحرفاً عن أحمد بن أبي دؤاد ، فلما نكس ابن الزيات^(١) ، هُجِل الجاحظ مقيداً من البصرة ، وفي عنقه سلسلة ، وعليه قيض سَمَل^(٢) ، فلما دخل على القاضي أحمد قال له : « والله ما أملك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنعة ، معدّناً للمساوي ، وما فتنتني باستصلاحى لك ، ولكن الأيام لا تُصلِح منك ، لفساد طويبتك ، ورداءة دَخِيائتك ، وسوء اختيارك ، وغالب طباعك » . فقال الجاحظ : « خَفَضَ عليك - أَيْدِكَ اللهُ - فوالله لأن يكون لك الأمر على ، خيرٌ من أن يكون لى عليك ، ولأن أَسِيءَ وَتَحَسَّنَ ، أحسنُ فى الأُخْدُوثة عليك ، من أن أحسن وتسىء ، ولأن تَفُوقَ عَنى فى حال قدرتك ، أجمل بك من الانتقام منى » . فقال أحمد : والله ما علمتكَ إلا كثير تزويق الكلام ، فخلَّ عنه الغُلَّ والقيد ، وأحسن إليه ، وصدَّره فى المجلس . (زهر الآداب ٢ : ١٠٦ ، والمنية والأمل ص ٣٩)

(١) كان فى نفس المتوكل من ابن الزيات شيء كثير ، وذلك أنه لما مات الواثق (وهو أخو المتوكل) . أشار ابن الزيات بتولية ولده الواثق ، وأشار ابن أبى دؤاد بتولية المتوكل ، وقام فى ذلك وقعد حتى صممه يديه وألبسه البردة ، وقبله بين عينيه ، وكان المتوكل فى أيام الواثق يدخل على ابن الزيات فيتجهمه ويغلظ له فى الكلام - يتقرب بذلك إلى الواثق - فحقه المتوكل ذلك عليه ، فلما ولى الخلافة ، أمهله أربعين يوماً حتى يطمن إليه ، ثم قبض عليه وسجنه ، واستصنى أمواله ، وكان ابن الزيات إبان وزارته قد اتخذ تنوراً من حديد ، وأطراف مساميره إلى داخل ، وهى قائمة مثل رموس المسال ، يمدب فيه من يستحقون العقوبة وكان إذا قال أحدهم ارحمنى أيها الوزير . قال له : الرحمة خور فى الطبيعة ، فلما اعتقله المتوكل أمر بادخاله فى التنور : وقبده بجمسة عشر رطلاً من الحديد ، فقال : يا أمير المؤمنين ارحمنى ، فقال له : الرحمة خور فى الطبيعة ، وبق فى اللذاب أربعين يوماً حتى مات سنة ٢٣٣ هـ .

(٢) السمل : الخلق من الشباب .

١٤٠ - أبو العيناء وابن أبي دؤاد

وقال أبو العيناء لابن أبي دؤاد : إن قوماً من أهل البصرة قدِموا إلى « سُرَّ مَنْ رَأَى » يَدَا عَلِيٍّ ، فقال : « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » ، فقلت : إن لهم مكرراً ، فقال : « وَلَا يَحِيقُ الْمَبَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » ، فقلت : إنهم كثير ، قال : « كَمَ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

(زهر الآداب ٢ : ٣١٠ ، والمعقد الفريد ١ : ١٤١)

تم الجزء الثالث

ويليه

ذيل الجمهرة

فهرس

الجزء الثالث

من جمهرة خطب العرب

الباب الرابع

الخطب والوصايا في العصر العباسي الأول

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة أبي العباس السفاح وقد بويع بالخلافة	١	١
« داود بن عليّ	٢	٣
« داود بن عليّ وقد أرتج على السفاح	٣	١١
« أخرى له	٤	١١
« للسفاح بالكوفة	٥	١٢
« السفاح بالشام حين قتل مروان	٦	١٢
« عيسى بن عليّ	٧	١٣
« داود بن عليّ بمكة	٨	١٤
خطبته بالمدينة	٩	١٥
خطبته وقد بلغه أن قوما أظهروا شكاة بني العباس	١١	١٦
« وقد أرتج عليه	١٢	١٧
خطبة صالح بن عليّ	١٣	١٨
« سديف بن ميمون	١٤	١٨
« أبي مسلم الخراسانيّ	١٥	٢٠
خالد بن صفوان وأخوال السفاح	١٦	٢٣
« « « ورجل من بني عبد الدار	١٧	٢٤

الخطبة أو الرصينة	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خالد بن صفوان يرثي صديقا له	٢٥	١٨
« « « يمدح رجلا	٢٥	١٩
كلمات بليغة لخالد بن صفوان	٢٥	٢٠
عمارة بن حمزة والسفاح	٢٦	٢١
خطب أبي جعفر المنصور	٢٧	
خطبته بمكة	٢٧	٢٢
« بعد بناء بغداد	٢٧	٢٣
خطبته بمدينة السلام	٢٨	٢٤
« وقد أخذ عبد الله بن الحسن وأهل بيته	٢٨	٢٥
« حين خروج محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن	٣٠	٢٦
« وقد قتل أبا مسلم الخراساني	٣١	٢٧
خطبة أخرى	٣	٢٨
قوله وقد قوطع في خطبته	٣٢	٢٩
المنصور يصف خلفاء بني أمية	٣٣	٣٠
« عبد الرحمن الداخل	٣٣	٣١
وصايا المنصور لانه المهدي	٣٥	
وصية له	٣٥	٣٢
« أخرى له	٣٦	٣٣
« « «	٣٦	٣٤
خطبة النفس الزكية حين خرج على المنصور	٣٨	٣٥
وصية عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي لابنه	٣٩	٣٦
قوله وقد قتل ابنه محمد	٣٩	٣٧
امرأة محمد بن عبد الله والمنصور	٤٠	٣٨
جعفر الصادق والمنصور	٤٠	٣٩
صفح المنصور عن سقيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب	٤٢	٤٠
استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور	٤٢	٤١

الخطبة أو الرخصة	رقم الخطبة	رقم الصفحة
استعطاف أهل الشام المنصور أيضاً	٤٢	٤٣
أبو جعفر المنصور والربيع	٤٣	٤٤
مقام عمرو بن عبيد بين يدي المنصور	٤٤	٤٥
« رجل من الزهاد » « »	٤٥	٤٦
« الأوزاعي بين يدي المنصور	٤٦	٤٩
نصيحة يزيد بن عمر بن هبيرة المنصور	٤٧	٥١
معن بن زائدة والمنصور	٤٨	٥٢
« » « وأحد زواره	٤٩	٥٢
المنصور وأحد الأعراب	٥٠	٥٣
أعرابية تعزى المنصور وتمتهن	٥١	٥٣
خطبة محمد بن سامان	٥٢	٥٤
وصية مسلم بن قتيبة	٥٣	٥٤
خطبة المهدي	٥٤	٥٥
مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب حراسان		٥٧
مقال سلام صاحب المظالم	٥٥	٥٨
« الربيع بن يونس	٥٦	٥٩
« الفضل بن العباس	٥٧	٦٠
مقال علي بن المهدي	٥٨	٦٢
« موسى بن المهدي	٥٩	٦٤
« العباس بن محمد	٦٠	٦٥
« هرون بن المهدي	٦١	٦٦
« صالح بن علي	٦٢	٦٨
« محمد بن الليث	٦٣	٦٩
« معاوية بن عبد الله	٦٤	٧٤
« المهدي	٦٥	٧٢
« محمد بن الليث	٦٦	٧٤
« المهدي	٦٧	٧٥

الخطبة أو الرصيه	رقم الصفحة	رقم الخطبة
ابن عتبة يعزى المهدي ومهنته	٧٧	٦٨
يعقوب بن داود يستعطف المهدي	٧٧	٦٩
رجل من أهل خراسان يخطب بحضرة المهدي	٧٨	٧٠
مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي	٧٩	٧١
عظة شبيب بن شذبة للمهدي	٨٠	٧٢
خطبته في تعزية المهدي بابنته	٨٠	٧٣
خطبة أخرى له في مدح الخليفة	٨٠	٧٤
كلمات لشبيب بن شذبة	٨١	٧٥
خطبة يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب يوم ولي الرشيد الخليفة	٨١	٧٦
خطبة هرون الرشيد	٨٣	٧٧
وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين	٨٥	٧٨
خطبة لجعفر بن يحيى البرمكي	٨٥	٧٩
استعطف أم جعفر بن يحيى للرشيد	٨٨	٨٠
خطبة يزيد بن يزيد الشيباني	٩١	٨١
« عبد الملك بن صالح	٩٢	٨٢
عبد الملك بن صالح يعزى الرشيد ومهنته	٩٣	٨٣
غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح	٩٣	٨٤
قوله بعد خروجه من السجن	٩٦	٨٥
وصية عبد الملك بن صالح لابنه	٩٧	٨٦
« أخرى له	٩٩	٨٧
كلمات حكيمه لابن السماك	٩٩	٨٨
ابن السماك والرشيد	٩٩	٨٩
الفتنة بين الأمين والمأمون	١٠١	
وفد الأمين إلى المأمون		
خطبة العباس بن موسى	١٠١	٩٠
« عيسى بن جعفر	١٠٢	٩١
« محمد بن عيسى بن نهيك	١٠٢	٩٢

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة صالح صاحب المصلى	٩٣	١٠٣
و المأمون	٩٤	١٠٣
—————		
وصية السيدة زبيدة لعلي بن عيسى بن ماهان	٩٥	١٠٤
« الأمين لابن ماهان	٩٦	١٠٥
استهانة ابن ماهان بأمر طاهر بن الحسين	٩٧	١٠٦
حزم طاهر وقوّة عزمه	٩٨	١٠٧
طاهر يشد عزيمه جنده	٩٩	١٠٨
وصف الفضل بن الربيع غفلة الأمين	١٠٠	١٠٩
وصية الأمين لأحمد بن مزيد	١٠١	١١٠
مقال عبد الملك بن صالح للأمين	١٠٢	١١١
الشغب في جيش عبد الملك بن صالح	١٠٣	١١٢
خطبة الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان يدعو إلى خلع الأمين	١٠٤	١١٣
« محمد بن أبي خالد	١٠٥	١١٤
إطلاق الأمين من سجنه ورده إلى مجلس الخلافة	١٠٦	١١٤
خطبة داود بن عيسى يدعو إلى خلع الأمين	١٠٧	١١٥
« الأمين وقد تولى الأمر عنه	١٠٨	١١٧
استعطاف الفضل بن الربيع للمأمون	١٠٩	١١٨
خطبة طاهر بن الحسين ببغداد بعد مقتل الأمين	١١٠	١١٩
—————		
خطب المأمون		١٢٠
خطبته وقد ورد عليه نعي الرشيد	١١١	١٢٠
« وقد سلم الناس عليه بالخلافة	١١٢	١٢٠
« يوم الجمعة	١١٣	١٢١
« يوم الأضحى	١١٤	١٢٢
« يوم الفطر	١١٥	١٢٣
—————		
خطبة ابن طباطبا العاوى	١١٦	١٢٤
استعطاف إبراهيم بن المهدي للمأمون	١١٧	١٢٦

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
إبراهيم المهدي وبعثيشوع الطيب	١٢٨	١١٨
استعطاف إسحاق بن العباس المأمون	١٢٩	١١٩
أحد وجوه بغداد يمدح المأمون حين دخولها	١٢٩	١٢٠
أحد أهل الكوفة يمدح المأمون	١٣٠	١٢١
محمد بن عبد الملك بن صالح بين يدي المأمون	١٣٠	١٢٢
الحسن بن سهل يمدح المأمون	١٣١	١٢٣
يحيى بن أكرم يمدح المأمون	١٣١	١٢٤
أحد بني هاشم والمأمون	١٣٢	١٢٥
رجل يتظلم إلى المأمون	١٣٢	١٢٦
عمرو بن سعيد والمأمون	١٣٣	١٢٧
الحسن بن رجاء والمأمون	١٣٣	١٢٨
سعيد بن مسلم والمأمون	١٣٣	١٢٩
أبو زهيان يعظ سعيد بن مسلم	١٣٤	١٣٠
وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما	١٣٤	١٣١
خطبة عبد الله بن طاهر	١٤٤	١٣٢
العباس بن المأمون والمعتصم	١٤٥	١٣٣
استعطاف تميم بن جميل للمعتصم	١٤٥	١٣٤
بين يدي سليمان بن وهب وزير المهدي بالله	١٤٧	١٣٥
أحمد بن أبي دواد والوائق	١٤٧	١٣٦
ابن أبي دواد والوائق أيضاً	١٤٨	١٣٧
ابن أبي دواد وابن الزيات	١٤٨	١٣٨
الجاحظ وابن أبي دواد	١٤٩	١٣٩
أبو العيناء وابن أبي دواد	١٥٠	١٤٠

فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إلتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

(ح)	(ا)
الحارث بن عبد الرحمن : ٤٢	ابراهيم بن المهدي : ١٢٥ - ١٢٧
الحسن بن رجاء : ١٣٣	ابن السماك : ٩٩
الحسن بن سهل : ١٣١	ابن طباطبا العلوي : ١٢٤
الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان : ١١٣	ابن عتبة : ٧٧
(خ)	أبو جعفر المنصور : ٢٧ - ٢٧ - ٣٠ -
خالد بن صفوان : ٢٢ - ٢٤ - ٢٥	٤٢ - ٣٣ - ٣٣ - ٢٩ - ٣٢ - ٣١
(د)	أبو زهان العلاني : ١٣٤
داود بن علي :	أبو العباس السفاح : ١٣ - ١٤ - ١
٨ - ١١ - ١١ - ١٢ - ١٤ - ١٥ - ١٥	أبو مسلم الخراساني : ٢٠
داود بن عيسى : ١١٥	أحمد بن أبي دواد : ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩
(ر)	إسحاق بن العباس : ١٢٨
الربيع بن يونس : ٤٤ - ٥٩	أم جعفر بن يحيى : ٨٨
(ز)	الأمين : ١١٠ - ١١٠ - ١١٥
السيدة زبيدة : ١٠٤	الأوزاعي : ٤٩
(س)	(ت)
سديف بن ميمون : ٨	تميم بن جميل : ١٤٥
سعيد بن مسلم : ١٣٣	(ج)
سلام (صاحب المظالم) : ٥٥	الجاحظ : ١٤٩
(ش)	جعفر الصادق : ٤٠
شبيب بن شيبه : ٨٠ - ٨١	جعفر بن يحيى البرهكي : ٨٥

الفضل بن العباس ٦٠

(م)

المأمون : ١٠٣ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢ - ١٢٣

محمد بن أبي خالد : ١١٤

محمد بن سليمان : ٥٤

محمد بن عبد الملك بن صالح : ١٣٠

محمد بن عيسى بن نهيك : ١٠٢

محمد بن الليث : ٦٩ - ٧٤

مسلم بن قتيبة : ٥٤

معاوية بن عبد الله : ٧٤

معن بن زائدة : ٥٢

المهدي : ٥٥ - ٧٢ - ٧٥

(ن)

النفيس الزكوية : ٣٨

(هـ)

الهادي : ٦٤

هرون الرشيد : ٦٦ - ٨٣ - ٨٥

(ي)

يحيى بن أكثم : ١٣١

يزيد بن عمر بن هبيرة : ٥١

يزيد بن مزيد الشيباني : ٩١

يعقوب بن داود : ٧٧

يوسف بن القاسم بن صبيح : ٨١

- تم فهرس أعلام خطب العرب -

(ص)

صالح (صاحب المصلي) : ١٠٣

صالح بن عبد الجليل : ٧٩

صالح بن علي : ١٨ - ٦٨

(ط)

طاهر بن الحسين :

١٠٧ - ١٠٨ - ١١٩ - ١٣٤

(ع)

العباس بن المأمون : ١٤٥

العباس بن محمد : ٦٥

العباس بن موسى : ١٠١

عبد الله بن الحسن : ٣٩

عبد الله بن طاهر : ١٤٤

عبد الملك بن صالح :

٩٢ - ٩٣ - ٩٦ - ٩٧ - ١١١

عثمان بن خزيمة : ٤٣

علي بن عيسى بن ماهان : ١٠٦

علي بن المهدي : ٦٢

عمارة بن حمزة : ٢٦

عمرو بن سعيد : ١٣٣

عمرو بن عبيد : ٤٥

عيسى بن جعفر : ١٠٢

عيسى بن علي : ١٣

(ف)

الفضل بن الربيع : ١٠٩ - ١١٨

ذِيكَ

جَمْعُهُ خُطْبُ الْعَرَبِ

فِي عِصْوَرِ الْعَرَبِ الزَّاهِرَةِ

ويحوى خمسة أبواب

الباب الأول : في خطب الأندلسيين والمغاربة .

» الثاني : في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها .

» الثالث : في نثر الأعراب .

» الرابع : في خطب النكاح .

» الخامس : في خطب من أرتج عليهم ونوادير طريفة لبعض الخطباء

فهرس المآخذ

- فتح الطيب ، للمقرى : الجزء الأول - الثاني - الرابع
- مطمح الأنفس ، للفتح بن خاقان :
- المعجب ، في تلخيص أخبار المغرب :
- لمحي الدين بن علي - المراكشي
- الإحاطة : في أخبار غرناطة ، :
- لسان الدين بن الخطيب :
- الأمالى : لأبي علي - القالي : الجزء الأول - الثاني - ذيل الأمالى
- الأغاني : لأبي الفرج الأصبهاني : « الثالث عشر - السابع عشر
- صبح الأعشى : لأبي العباس القلقشندي : « الأول
- نهاية الأرب : لشهاب الدين النويري : « السابع
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينوري : المجلد الثاني
- الكامل : لأبي العباس المبرد : الجزء الأول
- العقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثاني - الثالث
- زهر الآداب : لأبي إسحق الحضرمي : « الأول - الثاني - الثالث
- البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثاني - الثالث
- أمالى السيد المرتضى : « الرابع
- مجمع الأمثال : لأبي الفضل الميداني : « الأول - الثاني
- تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبري : « السابع - الثامن
- مروج الذهب : للمعدي : الجزء الثاني

- الصناعتين : لأبي هلال العسكري :
- بلاغات النساء : لابن أبي طاهر طيفور :
- سرح العيون : لابن نبأة المصرى :
- سيرة عمر بن عبد العزيز : لابن الجوزى :
- مواسم الأدب للسيد جعفر البيهى العلوى : الجزء الثانى
- بلوغ الأرب : للسيد محمود شكرى الأوسى : « الثالث
- مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح

الباب الأول

في

خطب الأندلسيين والمغاربة

١ - خطبة عبد الرحمن الداخل (المتوفى سنة ١٧١ هـ)

يوم حربه مع يوسف الفهري صاحب الأندلس

لما اشتد الكرب بين يدي عبد الرحمن الداخل^(١) ، يوم حربه مع يوسف الفهري^(٢) صاحب الأندلس ، ورأى شدة مُقاساة أصحابه قال :

« هذا اليوم هو أس ما يُبني عليه ، إِمَّا ذلّ الدهر ، وإِمَّا عزّ الدهر ، فاصبرُوا ساعةً فيما لا تشتهون ، ترَبِّحُوا بها بقيةَ أعماركم فيما تشتهون » .

ولما أُنحى أصحابه على أصحاب الفهري بالقتل يوم هزيمتهم على قُوطبة قال :

(١) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل ، وذلك أنه لما أصاب دولتهم بالشرق ما أصابها ، وتبع السفاح من بقي من بني أمية بالقتل والإهلاك ، فر عبد الرحمن إلى الأندلس ، واستطاع بهمه أن يؤسس هناك دولة أورثها عقبه حقبة من الدهر ، وهي دولة بني أمية في المغرب من سنة ١٣٨ إلى سنة ٥٤٢ هـ ، وكانت عاصمة ملكها قرطبة ، وهي مدينة على نهر الوادي الكبير .

(٢) يوسف الفهري هو ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع بن الفيزري ، وأمير معاوية على أفريقيا والمغرب ، وكانت ولاية يوسف الفهري الأندلس سنة ١٢٩ فذانت له تسع سنين وتسعة أشهر ، وعنه انتقل سلطانها إلى بني أمية .

« لا ستأصلوا شأفة^(١) أعداء ترجون صدقاتهم ، واستبقوهم لأشدّ عداوة منهم » - يشير إلى استبقائهم ، ليُستعان بهم على أعداء الدين - . (نفع الطيب ٢ : ٧٠)

٢ - عبد الرحمن الداخل ورجل من جنود قنسرين

ولما أذعن يوسف صاحب الأندلس لعبد الرحمن ، واستقر ملكه ، استحضر الوفود إلى قرطبة ، فانتالوا^(٢) عليه ، ووالى القعود لهم في قصره عدة أيام ، في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم ، بكلامٍ سرّهم ، وطيب نفوسهم . وفي بعض مجالسهم هذه مثّل بين يديه رجل من جنود قنسرين^(٣) يستجديه ، فقال له :

« يا بن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين ، إليك فرّرت ، وبك عذت ، من زمن ظلوم ، ودهرٍ غشوم ، قلّل المال ، وكثّر العيال ، وشعث^(٤) الحال ، فصير إلى نداءك المال ، وأنت وليُّ الحمد والمجد ، والمرجوُّ للرفد^(٥) » .
فقال له عبد الرحمن مسرعاً :

« قد سمعنا مقاتلتك ، وقصينا حاجتك ، وأسرنا بعمونك على دهرك ، على كرهنا لسوء مقامك ، فلا تعودن ولا سواك لثله ، من إراقة ماء وجهك بتصریح المسألة ، والإحاف في الطلبة^(٦) ، وإذا ألمّ بك خطب ، أو حزّبك^(٧) أمر ، فارفعه إلينا في رقة لا تعدوك ، كما نستر عليك خلتك ، ونكفّ شمات العدو عنك ، بعد رفعك لها إلى مالِكِك ومالِكنا - - عزّ وجهه - بإخلاص الدعاء ، وصدق النية » .

(١) الشأفة : قرحة تخرج في أسفل القدم فتكوى فتذهب ، أو إذا قطعت مات صاحبها ، والأصل ، واستأصل الله شأفته : أذهب كما تذهب تلك القرحة ، أو معناه أزاله من أصله .
(٢) انتال : انصب ، أي تتابغوا وتوافدوا عليه . (٣) بالشام .
(٤) شعث الأمر : نشره وفرقه . (٥) الرفد : المعطاء والصلوة .
(٦) للطلبة : الطلب . (٧) أي اشتد عليك ، والخلة الحاجة .

وأمر له بجائزة حسنة ، وخرج الناس يتعجبون من حسن منطقه ، وبراعة أدبه ، وكفّ فيما بعدُ ذوو الحاجات عن مقابلته بها شفاهاً في مجلسه . (نفع الطيب ٢ : ٦٨)

٣ — عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده يهنئه بفتح سرقسطة

ولما فتح عبد الرحمن الداخل سَرَقُسْطَةَ^(١) ، وَحَصَلَ في يده ثأرُها الحسين الأنصاري ، وانتهى نصرُه فيها إلى غايةِ أمله ، أقبل خواصُه يهنئونه ، فجرى بينهم أحدُ من لا يُؤبَهُ به من الجند ، فهنَّأه بصوت عال ، فقال له عبد الرحمن :

« وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ هَذَا الْيَوْمَ يَوْمٌ أُسْبِغَ عَلَيَّ فِيهِ النِّعْمَةُ مَنْ هُوَ فَوْقِي ، فَأَوْجِبَ عَلَيَّ ذَلِكَ أَنْ أَنْعِمَ فِيهِ عَلَيَّ مَنْ هُوَ دُونِي ، لِأَصْلِيَّتِكَ مَا تَعَرَّضْتَ لَهُ مِنْ سُوءِ النَّكَالِ ، مَنْ نَكُونُ ؟ حَتَّى تُقْبِلَ مُهْنِتًا رَافِعًا صَوْتِكَ ، غَيْرَ مُتَلَجِّجٍ وَلَا مَتَهَيِّبٍ لِمَكَانِ الْإِمَارَةِ ، وَلَا عَارِفٍ بِقِيمَتِهَا ، حَتَّى كَأَنَّكَ تَخَاطَبُ أَبَاكَ أَوْ أَخَاكَ ! وَإِنَّ جِهْلَكَ لِيَحْمِلَكَ عَلَى الْعَوْدِ لِمِثْلِهَا ، فَلَا تَجِدْ مِثْلَ هَذَا الشَّافِعِ فِي مِثْلِهَا مِنْ عَقُوبَةٍ . »

فقال : « ولعل فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جلي وذنوبي ، فقتشع لي مق أتيت بمثل هذه الزلة ، لا أعدمنيه الله تعالى . »

فهلل وجه الأمير ، وقال : ليس هذا باعتذار جاهل ، ثم قال : نهونا على أنفسكم إذا لم تجدوا من ينبهنا عليها ، ورفع مرتبته وزاد في عطائه . (نفع الطيب ٢ : ٧٠)

٤ — تاديب عبد الرحمن الأوسط لابنه المنذر

كان المنذر ابن الأمير عبد الرحمن الأوسط^(٢) سيء الخلق في أول أمره ، كثير الإصغاء إلى أقوال الوشاة ، مُفْرِطُ الْقَلْقِ مِمَّا يُقَالُ فِي جَانِبِهِ ، معاقباً على ذلك من يقدر على معاقبته ،

(١) مدينة على نهر إبرة . (٢) هو عبد الرحمن الأوسط (الثاني) ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، حكم الأندلس من سنة ٢٠٦ إلى سنة ٢٣٨ هـ .

مكثر التشكى من لا يقدر عليه لوالده الأمير عبد الرحمن ، فقال ذلك على الأمير ، فأمر
ثقةً من ثقاته أن يبنى بجبل منقطع عن العمران بناءً يُسكن فيه ابنه ، وألاً بدع أحداً
من أصحابه يزوره ، فلما استقر المنذر في ذلك المكان ، وبقي وحده ، ونظر إلى ما سلبه
من الملك ، ضجر وقال للثقة : عسى أن يصلنى غلمانى وأصحابى آتس بهم ! فقال له :
إن الأمير أمر ألا يصلك أحد ، وأن تبقى وحدك ، لتستريح مما يرفع لك أصحابك من
الوشاية ، فعلم أن الأمير قصد بذلك محنته وتأديبه ، فكتب إليه يشكو استيحاشه^(١)
بمكانه ، فلما وقف الأمير على رفقته ، وعلم أن الأدب بلغ به حقه استدعاه ، فقال له :
« وصلت رقتك ، تشكو ما أصابك من توحش الافراد ، في ذلك الموضع ،
وترغب أن تأنس بمخولك^(٢) وعبيدك وأصحابك ، وإن كان لك ذنب يترتب عليه أن
تطول سُكنائك في ذلك المكان ، وما فعلت ذلك عقاباً لك ، وإنما رأيناك تُكثر
الضجر والتشكى من القال والقيل ، فأردنا راحتك بأن نَحْجُب عنك سماع كلام من
يرفع لك وَيَنِم ، حتى تستريح منهم » .

فقال له : « سماع ما كنت أضجرُ منه ، أخفُ على من التوحد والتوحش ،
والتخلى مما أنا فيه من الرفاهية والأمر والنهي » .

فقال له : « فَإِذْ قَدْ عَرَفْتَ وَتَادَبْتَ ، فَارْجِعْ إِلَى مَا اعْتَدْتَهُ ، وَعَوَّلْ عَلَى أَنْ تَسْمَعَ
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ ، وَتَرَى كَأَنَّكَ لَمْ تَرَ ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَوْ تَكَاشَفْتُمْ
مَا تَدَافَنْتُمْ » ، وَاَعْلَمْ أَنَّكَ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيَّ ، وَأَحَبُّهُمْ فِيَّ ، وَبَعْدَ هَذَا فَمَا يَخْلُو صَدْرَكَ
فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ عَنِ الْإِنْكَارِ عَلَيَّ ، وَسُخْطِ لِمَا أَفْعَلُهُ فِي جَانِبِكَ ، أَوْ جَانِبِ غَيْرِكَ ،

(١) ونصر للكتاب : « إني قد توحشت في هذا الموضع توحشاً ما عليه من مزيد ، وهدمت فيه من
كنت آتس إليه ، وأصبحت مسلوب العز ، فقيد الأمر والنهي ، فإن كان ذلك عقاباً للذنب كبير ارتكبته ،
وعلمه مولاي ولم أعلمه ، فأني صابر على تأديبه ، ضارح إليه في عفوه وصفحه .

وإن أسير المؤمنين وفعله السكندر ، لا عار بما فعل الدهر »

(٢) الخول : مثال الخدم والحشم وزنا ومعنى .

مالو أطلعني الله تعالى عليه لسأني ، لكن الحمد لله الذي حَفِظَ ما بين القلوب بِسْتَرِ بعضها عن بعض ، فيما يحول فيها ، وإِنَّكَ لَذُو هِمَّةٍ وَمَطْمَحٍ ، ومن يكن هكذا يَصْبِرُ وَيَقْضِ وَيَحْمِلُ ، وَيَبْدُلُ بالعقاب الثوابَ ، ويصيرُ الأعداءَ من قبيل الأصحاب ، ويصيرُ من الشخص على ما يسوء ، فقد يَرَى منه بعد ذلك ما يَسْرُ ، ولقد يَخِفُّ على اليومَ مَنْ قاسيتُ من فعله وقوله مالو قطعتم عضواً عضواً لما ارتكبوه مني ، ماشفيتُ منهم غيظي ، ولكن رأيت الإغضاء والاحتمال ، لاسيما عند الاقتدار أولى ، ونظرت إلى جميع مَنْ حولي مِمَّنْ يُحْسِنُ وَيُسِيءُ ، فوجدت القلوب متقاربةً بعضها من بعض ، ونظرت إلى المسيء يعود محسناً ، والحسن يعود مسيئاً ، وصرتُ أُنْذِمُ على من سبق له مني عقاب ، ولا أُنْذِمُ على من سبق له مني ثواب ؛ فالزَمَ يا بني معالي الأمور ، وإنَّ جَماعها في التفاضي ، ومن لا يتفاض لا يسلم له صاحب ، ولا يُقَرَّبُ منه جَانِبٌ ، ولا يَنال ما تترقُّ إليه همته ، ولا يظفر بأمله ، ولا يجد مُعيناً حين يَحْتَاجُ إليه .

فَقَبِلَ المنذر يده وانصرف ، ولم يزل يأخذ نفسه بما أوصاه والده ، حتى تَخَلَّقَ بالخلق الجميل ، وبلغ ما أوصاه به أبوه ورُفِعَ قدره .
(نفع الطيب ٢ : ٢٢٧)

ه — عبد الرحمن الأوسط وابنه المنذر أيضا

وقال له أبوه يوماً : إن فيك كتيباً مُفَرِّطاً ، فقال له : حَقٌّ لفرع أنت أصله أن يعلو ، فقال له : يا بني ، إن العيون تَمُجُّ التَّيَّاهَ ، والقلوب تَنْفِرُ عنه ، فقال : يا أبي ، لي من العزِّ والنسبِ وعلوِّ المكان والسلطان ما يَجِلُّ^(١) عن ذلك ، وإني لم أر العيون إلا مُقْبِلَةً على ، ولا الأسماع إلا مُصْغِيَةً إلى ، وإن لهذا السلطان رَوْتَجاً يُرَبِّقُه التبذل ، وعلوًّا يَخْفِضُه الانبساط ، ولا يصونه ويشرفه إلا التَّيَّه والانتباض^(٢) ، وإن هؤلاء الأندال ،

(١) في الأصل : « يجمل » ، وأرى صوابه : « يجمل »

(٢) جرى وذلك هل سنن أي مسلم الحراساني ، وكان يقول لقواده إذا أخرجهم : « لا تكلوا

الناس إلا رمزاً ، ولا تلاحظوهم إلا شزراً ، لتمل صدورهم من هيبكم » - انظر المعقده المفريدي ٢ : ٢٩٩ -

لهم ميزان يَسْبُرُونَ^(١) به الرجل منا ، فإن رأوه راجعاً ، عرفوا له قدر رجاخته ،
وإن رأوه ناقصاً عاملوه بنقصه ، وصبروا تواضعه صبراً ، وتحفّضه خسة » ، قال له أبوه :
لله أنت ! فابق وما رأيت . (نفع الطيب ٢ : ٢٧٩)

٦ - يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط وأحد خدامه

ومدح بعض الشعراء يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط ، فأمر له بجال جزيل ، فلما
كان مثل ذلك الوقت ، جاءه بمدح آخر ، فقال أحد خدام يعقوب : هذا اللئيم له دين
عندنا يقتضيه ! فقال الأمير :

« يا هذا ، إن كان الله تعالى خلقك مجبولاً على كرهه ربّ الصنائع ، فاجر على
ما جُبلت عليه في نفسك ، ولا تكن كالأجرب يُعدى غيره ، وإن هذا رجل قصدنا
قبل ، فكان منا ما أشير^(٢) به ، وحله على العودة ، وقد ظن فينا خيراً ، فلا تخيب
ظنه ، والحديث أبداً يحفظ القديم ، وقد جاءنا على جهة التهينة بالعمر ، ونحن نسأل الله
تعالى أن يطيل عمرنا ، حتى يكثر ترداده ، ويُديم نعمنا حتى نجد ما نُنعِم به عليه ،
ويحفظ علينا مروءتنا ، حتى يعيننا على التجمل معه ، ولا يُبلينا بجليس مثلك ، يقبض
أيدينا عن إسداء الأيادي » .

وأمر للشاعر بما كان أمر له به قبل ، وأوصاه بالعود عند حلول ذلك الأوان

(نفع الطيب ٢ : ٢٢٠)

مادام العمر .

(٢) أشير : مرج .

(١) السبر . انتحان غور الجرج .

٧ - وفاة الوزير ابن غانم لصديقه الوزير هاشم بن عبد العزيز

واعذاره عنه لدى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط

كان الوزير الوليد بن عبد الرحمن بن غانم صديقاً للوزير هاشم بن عبد العزيز ،
ثابتاً على مودته ، فلما قضى الله على هاشم بالأسر ، أجرى السلطان محمد بن عبد الرحمن
الأموي^(١) ذِكْرَهُ في جماعة من خُدَّامِهِ ، والوليدُ حاضرٌ ، فنسبه إلى الطيش والعجلة
والاستبداد برأيه ، فلم يكن فيهم من اعتذر عنه غير الوليد ، فقال :

« أصاح الله تعالى الأمير ، إنه لم يكن على هاشم التخثير في الأمور ، ولا الخروج
عن المقدور ، بل قد استعمل جهده ، واستفرغ نصحه ، وقضى حق الإقدام ، ولم يكن
مِلاك النصر بيده ، فخذله من وثق به ، وَنَكَلَ عنه من كان معه ، فلم يُرحزح قدمه
عن موطن حفاظه ، حتى ملك مُقبلاً غير مُدبر ، مُبلياً غير فِشِلٍ ، فجوزى خيراً
عن نفسه وسلطانهِ ، فإنه لا طريقَ للامام عليه ، وليس عليه ما جنته الحرب الفُشوم .
وأيضاً فإنه ما قصد أن يجود بنفسه إلا رِضاً للأمير ، واجتناباً لسُخْطِهِ ، فإذا كان
ما اعتمد فيه الرضا جالبَ التقصير ، فذلك معدودٌ في سوء الحظ » .

فأعجب الأمير كلامه ، وشكر له وفاءه ، وأقصر عن تنفيذ هاشم ، وسعى

في تخليصه .
(نفع الطيب ٢ : ٢٣٠)

(١) هو الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، حكم الأندلس من سنة ٢٢٨ إلى سنة ٢٧٢ هـ ،
وكان غزاه لأهل الفرنك والخلاف ، ورجعاً أوغل في بلاد الغنوسة أشهر أو أكثر يهرق ويهذف ،
وله في العدو رقمة وادى سليط ، وهي من أمهات الوقائع لم يعرف مثلها في الأندلس قبلها .

٨ - خطبة منذر بن سعيد البلوطي^(١) المتوفى سنة ٣٥٥ هـ

في الاحتفال بقدم رسل ملك الروم

روى المؤرخون أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله^(٢) ، بلغ من عزّة الملك ، ورفعة السلطان بالأندلس ، أن كانت ملك الروم والإفرنجية تزدلف إليه ، تطلب مهادنته ، وتهدى إليه أنفس الذخائر ، ومن جلتهم قسطنطين بن ليون صاحب القسطنطينية ، فقد رغب في موادعته ، وبعث إليه سنة ٣٣٨ هـ وفداً من قبله بهدية له ، فتأهب الناصر لورودهم ، واحتفل بقدمهم احتفالاً رائعاً ، أحب أن يقوم فيه الخطباء والشعراء بين يديه ، لتذكّر جلالة ملكه ، وعظيم سلطانه ، ونصف ما تهباً من توطيد الخلافة في دولته ، وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه ووليّ عهده ، بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء ، فأمر الحكم صنيعة الفقيه محمد بن عبد البرّ بالتأهب لذلك ، وكان يدعى من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره ، وحضر المجلس السلطاني ، فلما قام يحاول التكلم ، بهرّه هولُ المقام ، وأبهة الخلافة ، فلم يهتد إلى لفظه ، بل غشى عليه وسقط إلى الأرض ، فقيل لأبي عليّ القالي - صاحب الأملی - وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق - : قم فارقع هذا الوهي^(٣) ، فقام فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع به القول ، فوقف ساكناً متفكراً

(١) ولد سنة ٢٦٥ هـ ، وتوفى سنة ٣٥٥ هـ ، وكان خطيباً بليغاً عالماً بالجدل حاذقاً فيه ، شديد المعارضة حاضر الجواب عتيده ، ثابت الحجّة ، ولي بقرطبة قضاء الجماعة - المعبر عنه في المشرق بقضاء القضاة - لعبد الرحمن الناصر ، ثم لابنه الحكم المستنصر ، ستة عشر عاماً من سنة ٣٢٩ إلى سنة ٣٥٥ هـ ، لم يحفظ عليه فيها جور في قضية ، ولا قسم بغير سوية ، ولا ميل لهوى .

(٢) هو عبد الرحمن الثالث ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الثاني ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، حكم الأندلس من سنة ٣٠٠ هـ إلى سنة ٣٥٠ هـ ، وهو أول من تسمى من أمراء بني أمية بالأندلس بأمر المؤمنين عندما لاث أمر الخلافة بالشرق ، وغلب موالى الترك هل بنى العباس ، وبلغه أن المقتدر قتل مولاه مؤنس المظفر سنة ٣١٧ هـ . (٣) الرهي : الشق في الشيء .

في كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه ، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد البلوطي - وكان ممن حضر في زُمرَة الفقهاء - قام من ذاته بدرجة من مِرقاته ، فوصل افتتاح أبي عليٍّ لأول خطبته بكلام كان يَسُحُه سَحًا ، كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة : فقال :

« أما بعد حمد الله ، والثناء عليه ، وَالتَّعَدَادَ لآلَائِهِ ، والشكر لِنِعْمَائِهِ ، والصلاة والسلام على محمد صَفِيِّهِ وخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ ، فإن لكل حَادِثَةٍ مَقَامًا ، ولكل مقام مقال ، وليس بعد الحقِّ إلا الضلال ، وإني قد قمتُ في مقام كريم ، بين يَدَيِّ مَلِكٍ عَظِيمٍ ، فَأَصْفُوا^(١) إلى مَعَشَرَ الْمَلَأِ بِأَسْمَاعِكُمْ ، وَأَتَقِنُوا عَنِّي^(٢) بِأَفئِدَتِكُمْ ، إن من الحق أن يقال لِلْحَقِّ صِدْقٌ ، وَلِلْبُطْلِ كَذِبٌ ، وإن الجليل تعالَى في سَمَائِهِ ، وَتَقَدَّسَ في صفاته وأَسْمَائِهِ ، أَمْرَ كَلِيمَةِ موسى صلى الله على نبيينا وعليه وعلى جميع أنبيائه ، أن يذكر قومهُ بأيام الله جل وعز عندهم ، وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، وإني أذكركم بأيام الله عندهم ، وَتَلَا فِيهِ لَكُمْ مَخْلَافَةٌ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، التي لَمَّتْ شَعَنَكُمْ ، وَأَمَنْتَ سِرْبَكُمْ^(٣) ، ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلًا فكثركم ومستضعفين فقواكم ، وَمُسْتَدْلِينَ فنصركم ، وَوَلَّاهُ اللهُ رِعَايَتَكُمْ ، وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضَرَبَتِ الْفِتْنَةُ سُرَادِقَهَا على الأفاق ، وأحاطت بكم شَعْلُ النِّفَاقِ ، حتى صرتم في مِثْلِ حَدَاقَةِ البعير ، من ضيق الحال ، ونكد العيش والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة الرخاء^(٤) ، وانتقلتم بيمين سياسته إلى تمهيد كَنَفِ العافية بعد استيطان البلاء .

أُنشِدُكُمْ بِاللَّهِ مَعَاشِرَ الْمَلَأِ ، أَلَمْ تَكُنِ الدَّمَاءُ مَسْفُوكَةً فَحَقَّنَهَا ، وَالسَّبِيلُ مَخُوفَةً فَأَمَّنَهَا

(١) الذي في كتب اللغة : « أصغى إليه سمعه : أماله ، وأصغى إليه : مال بسمعه نحوه . ولعل زيادة

الهاء في « بأسماعكم » من النسخ لأن الخطيب .

(٢) هكذا في نفع الطيب ، وفي مطبخ الأنفس : « ومنوا على بأفئدتكم » .

(٣) السرب : النفس .

(٤) في الأصل « فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء » والصواب ما ذكرنا :

والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمرها، وثغور المسلمين مهتزمة فحماها ونصرها؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غيظكم، وشق صدوركم، وصرتهم يداً على عدوكم، بعد أن كان بأسكم بينكم.

فأنشدكم الله، ألم تسكن خلافته قُبل الفتنة بعد انطلاقها من عقابها؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها؟ ولم يكِل ذلك إلى القواد والأجناد، حتى باشره بالقوة والمهجة والأولاد، واعتزل النسوان، وهجر الأوطان، ورفض الدعة، وهي محبوبة، وترك الرُّكون إلى الراحة، وهي مطلوبة بطوية صحيحة، وعزيمة صريحة، وبصيرة ثابتة، نافذة ثاقبة، وريح هابئة غالبة، ونصرة من الله واقعة واجبة، وسلطان قاهر، وجدّ ظاهر، وسيف منصور، تحت عدل مشهور، متحملاً للنصب، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها، ولم يبق لها غاربٌ إلا جبهه^(١)، ولا نجم^(٢) لأهلها قرنٌ إلا جدّه، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، ويلمّ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعاوناً، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأفضين والأذنين مستخدمةً إليه وإليكم، يأتون من كل فجٍّ عميق، وبلد سحيق^(٣)، لأخذ حبل^(٤) بيته وبينكم جُملةً وتفصيلاً، ليَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، ولن يُخلف الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أحوال باطنة خافية، دليلها قائم، وجفنها غير قائم « وَعَدَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

(١) القارب: السكادل، أو ما بين السنام والمنتق، وجهه: قطعه.

(٢) في الأصل: «نجم» وهو تحريف، والصواب: «نجم» أي ظهر وطلع، وجهه: قطعه.

(٣) سحيق: بعيد. (٤) أي معاهدة بينه وبينكم.

في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولما كنتم لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً ، وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب ، ولكل نبأ مستقر ، ولكل أجل كتاب . فاحذوا الله أيها الناس على آلائه ، واسألوه للزيد من نعمائه ، فقد أصبحتم بين ^(١) خلافة أمير المؤمنين - أيده الله بالعصمة والساد ، وألمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد - أحسن الناس حالاً ، وأنعمهم بالاً ، وأعزهم قراراً ، وأمنهم داراً ، وأكثفهم جمعاً ، وأجلهم صنماً ، لاتهمجون ولا تذاون ، وأتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون ، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناحة لإمامكم والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فإن من نزع يده من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

وقد علمت أن في التعلق بعصمتها ، والتمسك بعروتها ، حفظ الأموال ، وحقن الدماء ، وصلاح الخاصة والدَّهْمَاءِ ^(٢) ، وأن بدوام ^(٣) الطاعة تُقام الحدود ، وتوفى العهود ، وبها وُصِّت الأرحام ، ووُضِّحَت الأحكام ، وبها سدَّ الله الخلل ، وأمن السبل ، ووطأ الأكناف ، ورفع الاختلاف ، وبها طاب لكم القرار ، واطمأنت بكم الدار ، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فإنه تبارك وتعالى يقول : « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » ، وقد علمت ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين ، وصنوف الملحدين الساعين في شق عصاكم ، وتفريق ملتكم ، الآخذين في مخاذلة دينكم ، وهتك حرمتكم ، وتوهين دعوة نبيكم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى جميع النبيين والمرسلين ، أقول قولي هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين ، مستغفراً الله الغفور الرحيم ، فهو خير الغافرين .

(١) هكذا في نفع الطيب ، ومطمح الأنفس ، ولعل صوابه : « أصبحتم بخلافة أمير المؤمنين » .

(٢) الدهماء : جماعة الناس . (٣) في الأصل : « بقوام » ، وأظنه : « بقوام » .

وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه ، وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه ، وكان
الناصر أشدهم تعجباً منه ، فولاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء ، ثم توفى
محمد بن عيسى القاضي ، فولاه قضاء الجماعة بقرطبة ، وأقره على الصلاة بالزهراء .
(نفع الطيب ١ : ١٧٢ ، وطمح الأنفس ص ٤٢)

٩ - خطبة أخرى له

وخطب منذر بن سعيد يوماً - وأراد التواضع - فكان من فصول خطبته ،
أن قال :

« حتى متى ، وإلى متى ، أعِظْ ولا أتَعْظِ ، وأزجُرْ ولا أنزجر ، أدلّ الطريق
إلى المستدلين ، وأبقي مقيماً مع الخائرين ! كلا ، إن هذا هو البلاء المبين ! إن هي
إلا فتنتك نُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ ، وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَوَلِيِّنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ،
وَأَنْتَ خَيْرُ الْعَافِرِينَ . اللهم فرغني لما خلقتني له ، ولا تشغلي بما تكفّلت لي به ،
ولا تحزمني وأنا أسألك ، ولا تعذبني وأنا أستغفرك ، يا أرحم الراحمين » .
(نفع الطيب ١ : ٢٧٢)

١٠ - أحد حساد الرمادي الشاعر والمنصور بن أبي عامر

(المتوفى سنة ٣٩٤ هـ)

وقال المنصور بن أبي عامر المعافري^(١) يوماً لأبي عمر يوسف الرمادي الشاعر :

(١) هو المنصور أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك
المعافري . دخل جده عبد الملك الأندلس مع طارق ، وكان عظيماً في قومه ، وله في الفتح أثر ، وكان
الحكم بن الناصر قد استوزر ابن أبي عامر ، وفوض إليه أموره ، وترقت حاله عنده ، ثم توفى الحكم
سنة ٣٦٦ هـ ، وول بعده ابنه هشام ، وكانت سنة تسع سنين ، فحدث ابن أبي عامر نفسه بالتغلب عليه
لمصر سنة وتم له ما أمل ، فتغلب عليه ، وترجع على سرير الملك ، وأمر أن يجبا بعمية الملوك ، وتسمى

كيف ترى حالك معي؟ فقال: «فوق قدرى، ودون قدرك^(١)»، فأطرق المنصور كالغضبان، فأنسلَّ الرمادى وخرج وقد ندم على ما بدر منه، وجعل يقول: أخطأت! لا والله، ما يُفليح مع الملوك من يعاملهم بالحق، ما كان ضررتى لو قلت له: إني بلغت السماء، وتمنقتُ بالجوزاء! وأنشد:

متى يأت هذا الموتُ لا يُلفِ حاجةً لِنَفْسِي إلا قد قَضَيْتُ قضاءها

وكان في المجلس من يحسده على مكانه من المنصور، فوجد فرصة فقال:

«وَصَلَّ اللهُ لِمَوْلَانَا الظَّفَرَ وَالسَّعْدَ، إِنْ هَذَا الصَّنْفُ صَنَفُ زُورٍ وَهَذَيَانٌ، لا يشكرون نعمة، ولا يرعون إلا^(٢) ولا ذمةً، كلابٌ من غلب، وأصحابٌ من أخصب، وأعداء من أجذب، وحسبك منهم أن الله جل جلاله يقول فيهم: «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ، وَأَنْهَهُمْ يَقُولُونَ مَالًا يَفْعَلُونَ» والابتعاد منهم أولى من الاقتراب، وقد قيل فيهم: ما ظنك بقومٍ الصدقُ يستحسن إلا منهم؟»

* * *

فرجع المنصور رأسه - وكان محامي أهل الأدب والشعر - وقد اسودَّ وجهه، وظهر فيه الغضب المفرط، ثم قال:

«ما بال أقوام يُشِيرُونَ في شيء لم يُسْتَشَارُوا فيه، ويسيتون الأدب بالحكم فيما لا يدرون، أيرضني أم يسخط؟ وأنت أيها المبتعث للشر دون أن يُبْعَثَ، قد علمنا غرضك، في أهل الأدب والشعر عامةً، وحسدك لهم، لأن الناس كما قال القائل:

بالحاجب المنصور، ونفذت الكتب والمحاطبات والأوامر باسمه، وأمر بالبقاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة، ولم يبق لهشام من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء له على المنابر، وكتابة اسمه في السكة والطرر، وهلك المنصور أعظم ما كان ملكاً سنة ٣٩٤ هـ لسبع وعشرين سنة من ملكه.

(١) يريد «ودون ما ينبغي أن يعطيه مثلك مثل».

(٢) الإل: العهد.

من رأى الناس له فضلاً عليهم حسدوه
وعرفنا غرضك في هذا الرجل خاصةً ، ولسنا إن شاء الله نبلغ أحداً غرضه في أحد ،
ولو بلغناكم بلغنا في جانبكم ، وإنك ضربت في حديد بارد^(١) ، وأخطأت وجه الصواب ،
فزدت بذلك احتقاراً وصغاراً ، وإني ما أطرقت من كلام الرمادى إنكاراً عليه ، بل
رأيت كلاماً يجل عن الأقدار الجليلة ، وتعجبت من تهديبه له بسرعة ، واستنباطه له على
قلة من الإحسان الفامر ، مالا يستنبطه غيره بالكثير ، والله لو حكمته في بيوت الأموال ،
لرأيت أنها لا ترجح ما تكلم به قابيه ، ذرة . وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام
في شخص ، قبل أن يؤخذ معه فيه ، ولا تحكموا علينا في أوليانا ، ولو أبصرت منا
التغير عليهم ، فإننا لا نتغير عليهم بعضاً لهم ، وانحرافاً عنهم ، بل تأديباً وإنكاراً ، فإننا
من نريد إبعاده لم نظهر له التغير ، بل ننبذه مرة واحدة ، فإن التغير إنما يكون لمن
يراد استبقاؤه ، ولو كنت مائل السمع لكل أحد منكم في صاحبه ، لتفرقتم في أيدي
سبا^(٢) ، وجونبت أنا مجانبة الأجر ، وإني قد أطلعتكم على مافى ضميري ، فلا تعدلوا
عن مرضاتي ، فنجبوا سخطي بما جئتموه على أنفسكم .

* * *

ثم أمر أن يرد الرمادى ، وقال له : أعد على كلامك ، فارتاع ، فقال : الأمر
على خلاف ما قدرت ، الثواب أولى بكلامك من العقاب ، فسكن لتأنيسه ، وأعاد
ما تكلم به .

فقال المنصور : « بلغنا أن النعمان بن المنذر حشاً فم النابغة بالدُّر ، لكلام .

(١) من أشك العرب : « تقرب : في حديد بارد » وهو مثل يضرب لمن طمع في غير مطعم .
(٢) من أشكهم أيضاً : « ذهبوا أيدي سبا ، وتفرقوا أيدي سبا ، وأيادي سبا » ، وليلد : الطريق
أى فرقهم طرقهم التي سلكوها كما تفرق أهل سبا في مذاهب مختلفة . ضرب المثل بهم ، لأنه لما غرق مكائهم ،
وهبت جناتهم ، تبددوا في البلاد . انظر القصة في الجزء الأول صفحة ١٠٨ - وقد بنوا أيدي سبا ،
وأيادي سبا على السكون لكونه مركبا تركيب خمسة عشر .

استملحه منه ، وقد أمرنا لك بما لا يَقْصُرُ عن ذلك ، ماهو أنوهُ وأحسن عائِدَةً ،
وكتب له ببال وَخَلَعَ وموضع يعيش منه ، ثم ردد رأسه إلى المتكلم في شأن الرمادى
- وقد كان يفوص في الأرض لو وجد ، لشدة ما حلَّ به مما رأى وسمع - وقال :
« وَالْعَجَبُ مِنْ قَوْمٍ يَقُولُونَ : الْابْتِعَادُ مِنَ الشُّعْرَاءِ أَوْلَى مِنَ الْاقْتِرَابِ ، نَعَمْ ، ذَلِكَ لِمَنْ
لَيْسَ لَهُ مَفَاخِرُهُ ، يَرِيدُ تَخْلِيدَهَا ، وَلَا أَيَادٍ يَرْغَبُ فِي نَشْرِهَا ، فَأَيْنَ الَّذِينَ قِيلَ فِيهِمْ :
عَلَى مُكْثَرِهِمْ رِزْقٌ مَنْ يَمْتَرِيهِمْ وَعِنْدَ الْمُقَائِنِ السَّمَاحَةُ وَالْبَذَلُ^(١) »
وَأَيْنَ الَّذِي قِيلَ فِيهِ :

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ بَيْنَ مَبْدَاهِ وَمُخْتَصِرِهِ
فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلْفٍ وَلَّتْ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ^(٢)

أَمَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ أَكْرَمُ مَنْ قِيلَ فِيهِ هَذَا الْقَوْلُ ؟ بَلَى ، وَلَكِنْ صُحْبَةُ
الشُّعْرَاءِ وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ ، أَحْيَتْ غَايِرَ ذِكْرِهِمْ ، وَخَصَّصَتْهُمُ بِمَفَاخِرِ عَصْرِهِمْ ، وَغَيْرِهِمْ
لَمْ تَخْلُدِ الْأَمْدَاحُ^(٣) مَا تَرَاهُمْ ، فَدَثَّرَ ذِكْرَهُمْ ، وَدَرَسَ نَجْوَاهُمْ .
(نفع الطب ٢ : ٢٢٦)

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى من قصيدة في مدح آل هرم بن سنان .

(٢) البيتان لعل بن جبلة الأنباري الملقب بالملكوك من قصيدة قالها في مدح أبي دلف القاسم بن عيسى
العجل - وكان جواداً مدحاً وفيها يقول :

كل من في الأرض من عرب بن بادية إليه حضره
ومستعير منه مكرمة يكتسبها يوم مفخره

وهذا البيتان الأشعريان أحفظا عليه المأمون ، فطلبه حتى ظفر به ، فسل لسانه من ففده ، ويقال : بل هرب
ولم يزل متوارباً منه حتى مات ، قال صاحب الأغاني : « وهذا هو الصحيح من القولين ، والآخر شاذ »

(٣) لم أجد هذا الجمع في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها : « اللحة بالكسر والمديح والأمدوحة بالضم :
ما يمدح به ، والجمع مدح كعنب ومدائح وأمديح » .

١١ — ابن اللبانة الشاعر وعز الدولة بن المعتصم بن صمادح

لما مات المعتصم بن صمادح^(١) ملك المرية ركب البحر ابنه وولى عهده الواثق عز الدولة ، وفارق الملك كما أوصاه والده المعتصم .

قال أبو بكر بن اللبانة الشاعر : ما علمت حقيقة جور الدهر ، حتى اجتمعت ببجاية^(٢) مع عز الدولة بن المعتصم ، فإني رأيت منه خيراً من يُجتمع به ، كأنه لم يخلقه الله تعالى إلا للملك والرياسة ، وإحياء الفضائل ، ونظرت إلى همته تنم من تحت حمله ، كما ينم فرند^(٣) السيف وكرمه من تحت الصدا ، مع حفظه لفتون الأدب والتواريخ ، وحسن استماعه وإسماعه ورقة طباعه ، ولطافة ذهنه ، ولقد ذكّرته لأحد من صحبته من الأدباء في ذلك المكان ، ووصفته بهذه الصفات ، فتشوّق إلى الاجتماع به ، ورغب إليّ في أن أستأذنه في ذلك ، فلما أعلمت عز الدولة قال :

« يا أبا بكر ، إنك لتعلم أنّا اليوم في حمول وضيع ، لا يتسع لنا معهما ، ولا يحمل بنا الاجتماع مع أحد ، لا سيّما مع ذى أدب ونباهة ، يلقانا بعين الرحمة ، ويزورنا بمنّة التفضل في زيارتنا ، ونكابد من ألقاظ توجّع ، وألحاظ تفجّع ، ما يجدد لنا همّاً قد بلى ، ويحبي كمداً قد فني ، وما لنا قدرة على أن نجود عليه بما يرضى عن همنا ، فدعنا كأننا في قبر ، تتدرّع لسهام الدهر ، بدرع الصبر ، وأما أنت فقد اختلطت بنا اختلاط اللحم بالدم ، وامتزجت امتزاج الماء بالخر ، فكأننا لم نكشّف حالنا لسوانا ، ولا أظهرنا ما بنا لغيرنا ، فلا نحمل غيرك بحملك » .

(١) هو أحد ملوك الطوائف بالأندلس ، وكان صاحب المرية « بلد بالأندلس على الساحل الجنوبي » ، وكان منافساً للمعتصم بن مهدي صاحب إشبيلية مناونا له ، وقد سعى به لدى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين وأفسد ما بينهما ، وكان ابن عباد قد استنصر بابن تاشفين لصد غارة الإسبان ، فعبّر بجيشه من مراکش إلى الأندلس ، وأبلى بلاء حسناً في قتالهم حتى دارت عليهم الدائرة في وقعة الزلاقة ، ثم مال على ملوك الطوائف ، فاكتسح دولهم ، ودانت له الأندلس . (٢) بجاية : بلد بالمغرب على ساحل بلاد الجزائر . (٣) جوهرية .

قال ابن اللبابة : فلأ والله سمى بلاغةً لاتصدُر إلا عن سداد ، ونفسٍ أبية متمكنة من أعنة البيان ، وانصرفت متمثلاً :

لسانُ الفتى نصفٌ ، ونِصفُ فؤاده فلم يبقَ إلا صورةُ اللحم والدمِ
وكانت ترى من صامتٍ لك مُعجِبٍ زيادتهُ أو نقصه في التكلم^(١)
(نفع الغيب ٢ : ٢٢٨)

١٢ - دفاع ابن الفخار عن القاضي الوحيدى

بحضرة ابن تاشفين

لما تألب بنو حسون على القاضي أبى محمد عبد الله الوحيدى قاضى مالقة^(٢) ، انبرى للدفاع عنه العالم الأصولى أبو عبد الله بن الفخار ، فقصد إلى حضرة الإمامة «مراً كُش» ، وقام فى مجلس أمير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، وقد غصَّ بأربابه ، فقال :

« إنه لَمقام كريم ، نبدأ فيه بحمد الله على الدنوِّ منه ، ونصلي على خيرة أنبيائه ، محمد الهادى إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحابة نجوم الليل البهيم^(٣) ، أما بعد ، فإننا نحمد الله الذى اصطفاك للمؤمنين أميراً ، وجعلك للدين الحنيفى نصيراً وظهيراً ، ونفزع إليك مما دهمنا^(٤) فى حماك ، ونبئُ إليك ما لحقنا من الضيم ، ونحن تحت ظلِّ علاك ، ويأبى الله أن يُدْهم من احتضى بأمر المسلمين ، ويصابُ بضمٍّ من أدرع بحصنه الحصين ، شكوى قت بها بين يديك ، فى حق أمرك الذى عَضده^(٥) مؤيِّده ، لتسمع منها ما تختبره برأيك وتنفقه ، وإن قاضيك ابن الوحيدى الذى قدَّمته فى مالقة للأحكام ، ورضيت

(١) البيتان لزهير بن أبى سلمى من معلقته . (٢) باد بالأندلس على الساحل الجنوبى .

(٣) الأسود . (٤) دهمه كسمع ومنع : غشبه .

(٥) عضده كنصره : أصاب عضده ، والمراد بمؤيده بنو حسون ، والمعنى : إن بنى حسون - وكانوا

أحق بتأييد أمرك وتوطيده - قد أوهنته وأوهره بتمرغهم لأحكام القاضى ، والظعن فيها ، أو معنى

عضده : نصره ، فالمراد بمؤيده القاضى الوحيدى ، والمعنى على ذلك ، إن القاضى للقائم بأمرك يداب على

نصره ، وتلبيت دعائه ، بانتهاجه طريق الحق فى حكمة ، ولو غضب من جراء ذلك فريق من الرعية .

بعده فممن بها من الخاصة والعموم ، لم يزل يدُلّ على حسن اختيارك بحسن سيرته ، وَيُرْضِي اللهُ تَعَالَى وَيُرْضِي النَّاسَ بظَاهِرِهِ وَسِرِّيهِ ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْكَ مِنْ سُوءٍ ، وَلَا دَرَيْنَا لَهُ مَوْقِفٍ خِزْيٍ ، وَلَمْ يَزَلْ جَارِيًا عَلَى مَا يُرْضِي اللهُ تَعَالَى وَيَرْضِيكَ وَيَرْضِينَا ، إِلَى أَنْ تَعَرَّضْتَ بِنُوحِ حُسُونِ اللَّطَائِنِ فِي أَحْكَامِهِ ، وَالْهُدَى مِنْ أَعْلَامِهِ ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنْ اهْتِضَامَ الْمَقْدَمِ رَاجِعٌ عَلَى الْمَقْدَمِ ، بَلْ جَمَحُوا فِي جَلَابِهِمْ ، فَعَمُوا وَصَمُوا ، وَفَعَلُوا وَأَمَضُوا مَا بِهِ هُمُومًا ، وَإِلَى الشُّحْبِ يَرْفَعُ الْكُفَّ مِنْ قَدْ جَفَّ عَنْهُ مَسِيلُ عَيْنٍ وَنَهْرٍ .

فَمَا سَمِعَهُ بِإِلَاحَةِ أَعْقَبَتْ نَصْرَهُ وَنَصَرَ صَاحِبَهُ . (نفع الطيب ٢ : ٢٤٠)

١٣ - موعظة ابن أبي رندة الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ

للأفضل بن أمير الجيوش

دخل ابن أبي رندة الطرطوشي^(١) مرة على الأفضل^(٢) بن أمير الجيوش

فوعظه ، وقال له :

« إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك ، إنما صار إليك بموت من كان قبلك ، وهو خارجٌ عن يدك ، بمثل ما صار إليك ، فاتق الله فيما خوّلك من هذه الأمة ، فإن الله عزَّ وجلَّ سائلك عن النّقيير والتقطير والفتيل^(٣) ، واعلم أن الله عزَّ وجلَّ آتِي سليمان بن داود

(١) هو الفقيه العالم أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الطرطوشي (بضم الطاءين) ، وقد تفتح الطاء الأولى ، نسبة إلى طرطوشة من بلاد الأندلس) ويعرف بابن أبي رندة وكان زاهداً حابداً متورعاً متقللاً من الدنيا قوالاً للحق ، رحل إلى المشرق ، ودخل بغداد والبصرة ، وسكن الشام مدة ، ودرس بها ، وكان الأفضل بن أمير الجيوش يكرمه ، فلما ولي بعده المأمون بن البطاشي أكرم الطرطوشي إكراماً كبيراً ، وله ألف الشيخ «سراج الملوك» وتوفى بالاسكندرية سنة ٥٢٠ هـ .

(٢) هو الوزير الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش المشهور ، وكان أبوه بدر الجمالي حاكم حكا ، فأرسل إليه الخليفة الفاطمي المنتصر يسأله القدوم إلى مصر لإصلاح أحوالها المضطربة إذ ذلك ، فقدم إليها ، وتولى شئونها ، وأقام موعجها ، وصارت له فيها الكلمة النافذة ، ثم لابنه الأفضل .

(٣) النقيير : المنفرة التي في ظهر النواة ، والتقطير : القشرة الرقيقة التي بين النواة والثمرة ، والفتيل :

ما يكون في شق النواة .

مُلْك الدنيا بحدّ أفيرها ، فسخرّ له الإنس والجِن والشياطين والطيور والوحوش والبهائم ، وسخرّ له الريح تجرى بأمره رُخاء^(١) حيثُ أصاب ، ورفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال عزّ من قائل : « هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ^(٢) أَوْ اْمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، فماعدّ ذلك نعمة كما عدّتموها ، ولا حسيها كرامةً كما حسبتموها ، بل خاف أن يكون استدراجاً من الله عزّ وجلّ فقال : « هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ، لِيَبْلُوَنِي^(٣) أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ » ، فافتتح الباب ، وسهّل الحجاب ، وانصر المظلوم . (نفع الطب ١ : ٢٦٢)

١٤ - خطبة ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين

(التوفي سنة ٥٣٤ هـ)

استدعى محمد بن عبد الله بن تومرت^(٤) مؤسس دولة الموحدين أصحابه ، قبل موته بأيام يسيرة ، وقد أراد أن يستخلف عليهم عبد المؤمن بن عليّ ، فلما حضروا بين يديه قام :

(١) الرخاء : الريح اللينة . (٢) أي فأعط منه من شئت . (٣) بلاه : اعتبره .

(٤) هو محمد بن عبد الله بن تومرت من جبل السوس في أقصى بلاد المغرب ، ولد سنة ٤٨٥ هـ ، ورحل إلى المشرق سنة ٥٠١ هـ في طلب العلم ، وانتهى إلى بغداد ، وقيل إنه لقي أبا حامد الغزالي ، ثم رجع إلى المغرب ، وقامت دعوته في أول الأمر في صورة أمر بالمعروف ، ناه عن المنكر ، فاتبعه بعض القوم ، وخرج هو وأصحابه إلى السوس ، وشرع في التدريس والدعاء إلى الخير : وما زال يستميل القلوب حتى كثرت شيعته ، ثم جعل يذكر المهدي ويشوق إليه ، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه ، فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ، ادعى ذلك لنفسه ، وتسمى بالمهدي ، ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وادعى أنه من نسل الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ، وصرح بدعوى العصبة لنفسه وأنه المهدي للمصوم ، وروى في ذلك أحاديث كثيرة حتى استقر عندهم أنه المهدي ، فبايعوه على ذلك ، ولما كانت سنة ٥١٧ هـ جهز جيشاً عظيماً - وكانت مراکش تحت إمرة المرابطين - فقال : اقتصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسماوا بالمرابطين ، فادعوهم إلى إمامة المنكر ، وإحياء المعروف ، وإزالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدي المصوم ، فإن أجابوكم فهم إخوانكم ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم ، وأمر على الجيش عبد المؤمن بن عليّ ، فخرجوا إلى مراکش فلقبهم المرابطون قريباً منها بجيش ضخم أميرهم الزبير بن عليّ بن يوسف بن قاشفين ، فدعوهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت فردوا عليهم أسوأ رد ، ثم التقت الفتنان ، فانهزم أصحاب ابن تومرت وقتل منهم خلق كثير ، فلما رجع القوم إلى ابن تومرت جعل يهون عليهم أمر الهزيمة ، ويقرر في نفوسهم أن قتلهم شهداء ، لأنهم ذابون -

فحَمِدَ اللهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، وَصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ
 أَنْشَأَ يَتْرَضِي عَنْ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ ، وَيَذَكُرُ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ
 الثَّبَاتِ فِي دِينِهِمْ ، وَالْعَزِيمَةِ فِي أَمْرِهِمْ ، وَأَنَّ أَحَدَهُمْ كَانَ لَا تَأْخُذُهُ فِي اللهِ لَوْمَةٌ لَأْتُمْ ،
 وَذَكَرَ مِنْ حَدِّ عَمْرِو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ابْنَهُ فِي الْحَمْرِ ، وَتَصْمِيمِهِ عَلَى الْحَقِّ ، فِي أَشْبَاهِ هَذِهِ
 الْفُصُولِ ، ثُمَّ قَالَ :

فَانْقَرَضَتْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ ، نَضَّرَ اللهُ وَجُوهَهَا ، وَشَكَرَ لَهَا سَعِيمَهَا ، وَجَزَاها خَيْرًا عَنْ
 أُمَّةٍ نَدِيهَا ، وَخَبَطَتِ النَّاسَ فِتْنَةٌ تَرَكْتَ الْحَلِيمَ حَيْرَانَ ، وَالْعَالِمَ مُتَجَاهِلًا مُدَاهِنًا ، فَلَمْ
 يَنْتَفِعِ الْعُلَمَاءُ بِعِلْمِهِمْ ، بَلْ قَصَدُوا بِهِ الْمُلُوكَ ، وَاجْتَلَبُوا بِهِ الدُّنْيَا ، وَأَمَالُوا وَجُوهَ النَّاسِ
 إِلَيْهِمْ ، فِي أَشْبَاهِ هَذَا الْقَوْلِ ، إِلَى هَلْمٍ جَرًّا .

ثُمَّ إِنَّ اللهَ سَبَّحَانَهُ - وَهُوَ الْحَمْدُ - مِنَّْ عَلَيْكُمْ - أَيُّهَا الطَّائِفَةُ - بِتَأْيِيدِهِ ، وَخَصَّكُمْ
 مِنْ بَيْنِ أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ بِحَقِيقَةِ تَوْحِيدِهِ ، وَقِيَّضَ^(١) لَكُمْ مَنْ^(٢) أَلْفَاكُمْ ضَلَالًا لَا لَاتَهْتَدُونَ ،
 وَعُغْيًا لَا تَبْصُرُونَ ، لَا تَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا ، وَلَا تُنْكِرُونَ مَنْكَرًا ، قَدْ فَشَّتْ فِيكُمْ الْبِدْعُ ،
 وَاسْتَهْوَتْكُمْ الْأَبْطِيلُ ، وَزَيَّنَ لَكُمْ الشَّيْطَانُ أَضَالِيلَ وَتُرَّهَاتٍ^(٣) ، أَنْزَلَهُ لِسَانِي عَنْ
 النَّطْقِ بِهَا ، وَأَرَبًا^(٤) بَلْفُظِي عَنْ ذِكْرِهَا ، فَهَذَا كَمَا أَنَّ اللهَ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ ، وَبَصَّرَكُمْ بَعْدَ
 الْعَمَى ، وَجَمَعَكُمْ بَعْدَ الْفُرْقَةِ ، وَأَعَزَّكُمْ بَعْدَ الْفَلَّةِ ، وَرَفَعَ عَنْكُمْ سُلْطَانَ هَؤُلَاءِ الْمَارِقِينَ^(٥) ،
 وَسَيَّورَتْكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ ، ذَلِكَ بِمَا كَسَبَتْهُ أَيْدِيهِمْ ، وَأَضْمَرَتْهُ قُلُوبُهُمْ ، وَمَا رَبُّكَ
 بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ .

- عَنْ دِينِ اللهِ ، فَزَادَهُمْ ذَلِكَ بَعِيرَةً فِي أَمْرِهِمْ ، وَحِرْصًا عَلَى لِقَاءِ حُدُودِهِمْ ، وَجَعَلُوا يَشْتَرُونَ الْفَارَاتِ عَلَى نَوَاحِي
 مَرَاكِسَ وَيَقْتُلُونَ وَيَسْبُونَ وَلَا يَبْقُونَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ قَدَرُوا عَلَيْهِ ، وَكَثُرَ الدَّاخِلُونَ فِي طَاعَتِهِمْ ، وَلَمْ يَزَلْ
 أَصْحَابُهُ ظَاهِرِينَ ، وَأَحْوَالُ الْمُرَابِطِينَ تَحْتَلُّ ، وَانْتِقَاضُ دَوْلَتِهِمْ يَتَزَايِدُ ، إِلَى أَنْ تَوَفَّى ابْنَ مَوْمَرْتِ سَنَةَ ٥٣٤ هـ
 بَعْدَ أَنْ أُسِسَ الْأُمُورُ ، وَأَحْكَمَ التَّدْبِيرُ ، وَقَامَ بِأَمْرِ الْمُوحِدِينَ مِنْ بَعْدِهِ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ . وَقَدْ اسْتَوْثَقَ لَهُ
 الْأَمْرَ بِمَوْتِ عَلِيِّ بْنِ يُوْسُفَ بْنِ تَاشَفِينَ مَلِكِ الْمُرَابِطِينَ سَنَةَ ٥٣٧ هـ .

- (١) أتاح لكم وسبب وهياً . (٢) يعنى نفسه . (٣) جمع ترهة : وهى الباطل .
 (٤) أرتفع . (٥) يريد المرابطين .

لقد حو الله سبحانه خالص نياتكم ، وأرؤه من الشكر قولاً وفعلاً ما يُزَكِّي به
سعيكم ، ويتقبل أعمالكم ، وينشر أمركم ، واحضروا الفرقة واختلاف الكلمة ، وشتات
الآراء ، وكونوا بدأ واحدة على عدوكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، هابكم الناس ،
وأسرعوا إلى طاعتكم ، وكثر أتباعكم ، وأظهر الله الحق على أيديكم ، وإلا تفعلوا
تتملكم الذل ، وعممكم الصغار^(١) واحترتكم العامة ، فتخطفكم الخاصة ، وعليكم
في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة ، واللين بالعنف ، واعلموا مع هذا أنه لا يصلح
أمر آخر هذه الأمة ، إلا على الذي صلح عليه أمر أولها .

وقد اخترنا لكم رجلاً منكم ، وجعلناه أميراً عليكم ، هذا بعد أن بلّوناه^(٢) في جميع
أحواله ، من ليله ونهاره ، ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سيرته وعلا نيته ، فرأيناه في ذلك كله
ثباتاً^(٣) في دينه ، متبصراً في أمره ، وإني لأرجو أن لا يخلف الظن فيه ، وهذا المشار
إليه هو : « عبد المؤمن » ، فاسمعوا له وأطيعوا مادام سامعاً مطيعاً لربه ، فإن بدّل
أو نكص على عقبه ، أو ارتاب في أمره ، ففي الموحدين - أعزهم الله - بركة وخير
كثير ، والأمر أمر الله يقلده من شاء من عباده .

فبايع القوم عبد المؤمن ، ودعا لهم ابن تومرت .

(المعجب ، في تاريخ أخبار المغرب ص ١٠٨)

١٥ - مقال لسان الدين بن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ)

في الحَضِّ عَلَى الجهاد

وقال لسان الدين بن الخطيب^(١) في الحَضِّ عَلَى الجهاد^(٢) :

« أيها الناس - رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى - :

إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دَهَمَ العدوُّ - قَصَهُ اللهُ تَعَالَى - ساحتهم ،
ورام الكفرُ - خَذَلَهُ اللهُ تَعَالَى - استباحتهم ، وَزَحَفَتِ أَحْزَابُ الطَّوَاغِيَتِ إِلَيْهِمْ ،
وَمَدَّ الصَّلِيبُ ذِرَاعَيْهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَيْدِيكُمْ - بَعِزَّةُ اللهُ تَعَالَى - أَقْوَى ، وَأَتَمَّ الْمُؤْمِنُونَ
أَهْلُ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَهُوَ دِينُكُمْ فَانصُرُوهُ ، وَجِوَارُكُمْ الْقَرِيبَ فَلَا تُخْفَرُوهُ^(٣) ، وَسَبِيلُ
الرَّشْدِ قَدْ وَضِحَ فَلَئِنْ بَصُرُوهُ ، الْجِهَادَ الْجِهَادَ فَقَدْ تَعَيَّنَ ، الْجَارَ الْجَارَ فَقَدْ قَرَّرَ الشَّرْعُ
حَقَّهُ وَبَيَّنَّ ، اللهُ اللهُ فِي الْإِسْلَامِ ، اللهُ اللهُ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، اللهُ اللهُ
فِي الْمَسَاجِدِ الْمَعْمُورَةِ بِذِكْرِ اللهِ ، اللهُ اللهُ فِي وَطَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، قَدْ اسْتَعَاثَ بِكُمْ
الدِّينُ فَأَعِيشُوهُ ، قَدْ تَأَكَّدَ عَهْدُ اللهِ وَحَاشَاكُمْ أَنْ تَنْكُثُوهُ ، أَعِينُوا إِخْوَانَكُمْ بِمَا أَمَكَنَ
مِنَ الْإِعَانَةِ ، أَعَانَكُمْ اللهُ تَعَالَى عِنْدَ الشَّدَائِدِ ، جَدِّدُوا عَوَائِدَ الْخَيْرِ ، يَصِلِ اللهُ تَعَالَى

(١) هو لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المشهور بابن الخطيب خاتمة أديب الأندلس ، ولد بقرطبة سنة ٧١٣ ، وكان أول أمره في عداد كتاب السلطان أبي الحجاج يوسف أحد ملوك بني الأحمر ، ثم اصطفاه وجعله وزيره ، وفوض إليه شؤون مملكته ، ولما مات أبو الحجاج ، وخلفه ابنه محمد أقره عاد الوزارة ، ثم وثب إسماعيل أخو السلطان على مملكته ، فاضطر أن يفادته إلى المغرب مع وزيره لسان الدين ، فلما تحسنت الأحوال عاد محمد إلى مملكته ، وبقى مدة كتب له فيها ابن زمرك أحد تلاميذ لسان الدين ثم عاد لسان الدين إلى قرطبة ، وحل مكانه من سلطانه ، فألب ذلك نار الحسد في ابن زمرك وأذصاره ، فسعوا به إليه حتى أحفظوه عليه ، فهرب إلى المغرب - وكان في حوزة بني مرين ، وهم من البربر - حكموا المغرب بعد الموحدين من سنة ٦٦٨ إلى سنة ٨٩٠ هـ - فأكرمه سلطان المغرب عبد العزيز ، وخطب ابن الأحمر في أهله وولده ، فيصم إليه إلى أن مات (عبد العزيز) ، وثار أحد أمراء بني مرين على ابن عبد العزيز ، وساعده ملك بني الأحمر بشرط تسليمه ابن الخطيب ، وتم له أمره ، وقبض عليه ، وسجن بغاس ، ونظر في كلمات له في كتابه «الحجة» وأقن الفقهاء بقتله ، فدمس عليه من خنفة في سجنه سنة ٧٧٦ .

(٢) وكان سلطانه محمد بن أبي الحجاج أسفزه إلى ملوك بني مرين يستجدهم على الإسمان .

(٣) أسفزه : غدر به ونقض عهده .

لكم جميل العوائد ، صلوا رَحِمَ الْكَلِمَةِ^(١) وأسُوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائفِ
المُسَلِّمَةِ ، كتابُ الله بين أيديكم ، وألْسِنَةُ الْآيَاتِ تُنَادِيكُمْ ، وسنة رسول الله صلى الله
عليه وسلم قائمةٌ فيكم ، والله سبحانه يقول فيه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَى تِجَارَةٍ تُنَجِّيكُمْ » ، وما صحَّ عنه قوله : « من أَعْبَرَتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
حَرَّمَهَا اللَّهُ عَلَى النَّارِ » « لا يجتمع غُبارٌ في سبيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ » ، « من جَهَّزَ غَازِيًا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا » أدركوا رَمَقَ الدِّينِ قَبْلَ أَنْ يَفُوتَ ، بادِرُوا عَليلاً الْإِسْلَامِ قَبْلَ
أَنْ يَمُوتَ ، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عبادته ، جاهدوا في الله
بالألسن والأقوال حقَّ جِهَادِهِ :

ماذا يكون جوابكمُ لِنَبِيِّكُمُْ وطريقُ هذا العذرِ غيرُ مُمَهَّدِ
إن قالَ : لمُ فَرَطْتُمُو فِي أُمَّتِي وتركتموهمُ للعدوِّ المعتدى ؟
تالله لو أن العقوبة لم تُخَفْ لكفى الحياء من وجه ذلك السيد

اللهم اعطف علينا قلوبَ العباد ، اللهم بُثْ لنا الحَيَّةَ فِي الْبِلَادِ ، اللهم دافع عن
الحرِّيمِ والضعيفِ والأولادِ ، اللهم انصرنا على أعدائِكَ ، بأحبابِكَ وأولِيائِكَ ،
ياخيرِ الناصرين ، اللهم أفرغ علينا صبراً ، وثبَّتْ أقدامنا وانصرنا على القومِ الكافرين
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

(نفع الطيب : : ٣)

١٦- ما خاطب به لسان الدين تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني

وخاطب لسان الدين بن الخطيب تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني
لما قصدتها عقب ما شرع في جواره ، فقال :

« السلام عليك ثم السلام ، أيها المولى الهمام ، الذي عرف فضله الإسلامُ ،
وأوجبت حقه العلماء الأعلامُ ، وَخَفَقَتْ بِعِزِّ نَصْرِهِ الْأَعْلَامُ ، وتنافست في إنفاذ أمره

(١) أى كلمة التوحيد .

وهيه السيوفُ والأفلامُ، السلام عليك أيها الموالى الذى قَسَمَ زمانه بين حُكْمٍ قَصَلٍ وإمضاء نَصَلٍ، وإحراز خَصَلٍ^(١)، وعبادة قامت من اليقين على أصل، السلام عليك يامقرّر الصدقاتِ الجارية، ومُشيع البطونِ الجائعة، وكاسي الظهورِ العارية، وقادِح زنادِ العزائمِ الوازية، ومكْتَبِ الكُتائبِ الغازية، فى سبيلِ الله تعالى والسَّرَايَا^(٢) السارية، السلام عليك يا حُجَّةَ الصبرِ والتسليمِ، ومتلِّقِ أمرِ الله تعالى بأخلاقِ المرصِيِّ والقلبِ السليمِ، ومفوضِ الأمرِ فى الشدائدِ إلى السميعِ العليمِ، ومُعَمِّلِ البَنانِ الطاهرِ فى اكتتابِ الذكرِ الحكيمِ، كَرَّمَ اللهُ تعالى تُرْبَتَكَ وَقَدَّسَهَا، وطَيَّبَ رُوحَكَ الزَكِيَّةَ وآنَسَهَا، فلقد كنت للدهرِ جَمَالاً، وللإسلامِ ثَمَالاً^(٣)، وللمستجيرِ مُجِيراً، وللمظلومِ ولياً ونصيراً، لقد كنت للمحاربِ صَدْرًا، وفى المواقبِ بَدْرًا، وللموهابِ بَحْرًا، وعلى العبادِ والبلادِ ظِلًّا ظليلاً وَسِتْرًا، لقد فَرَعْتَ^(٤) أَعْلَامَ عِرْكَ الثنايا، وأجزلتُ همتك لملوكِ الأرضِ الهدايا، كأنك لم تَعْرِضِ الجنودِ، ولم تنشُرِ البُنودِ^(٥)، ولم تبسُطِ العدلَ المحدودِ، ولم تُوجِدِ الجودِ، ولم تزيِّنِ الرُكْعَ السُجودِ، فتوسَّدتِ الثرى، وأطلتِ الكَرَى، وشربتِ الكأسَ التى يشربها الوَرَى، وأصبحتِ ضارِعَ^(٦) الخدِّ، كليلِ الخدِّ، سالِكًا سَنَنِ الأبِ والجدِّ، لم تجدِ بعد انصرامِ أجلك، إلا صالحَ عملك، ولا صحبَتَ لقبرك، إلا رابِحَ تجرُّك^(٧)، وما أسلفتِ من رضاك وَصَبْرِكَ، فنسألُ الله تعالى أن يُؤنِّسَ اغترابك، ويجودَ بسحابِ الرحمةِ تُرابك، وينفعك بصدقِ اليقين، ويحملك من الأئمةِ المتقين، وَيُعَلِّيَ درجتك فى عَلِيَّينِ^(٨)، ويحملك مع الذين أنعم اللهُ عليهم من النبيين والصدِّيقين .

(١) الحصل: الغاية فى النضال . (٢) السرايا: جمع سرية وهى من خمسة أنفس إلى ثمانمائة أراى بعمامة .

(٣) الثمال: الثبات الذى يقوم بأمر قومه .

(٤) فرعت: علت، والثنايا: جمع نثية كهودية، وهى العقبة، أو الجبل، أو الطريقة فيه .

(٥) البنود جمع بند كشمس: وهو العلم الكبير .

(٦) ذليل: (٧) تاجر تجراً وتجارة .

(٨) اسم لأهل الجنة، أو هو كتاب جامع لأعمال الخير .

وَأَيُّهَا أَنْ صَبَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مَلَكَكَ مِنْ بَعْدِكَ ، إِلَى نَيْرِ سَعْدِكَ ، وَبَارِقِ رَعْدِكَ ،
وَمُنْجِزِ وَعْدِكَ ، أَرْضِي وَلَدِي ، وَرَيْحَانَةَ خَلْدِكَ (١) ، وَشِقَّةَ (٢) نَفْسِكَ ، وَالسَّرْحَةَ الْمُبَارَكَةَ
مِنْ غَرْسِكَ ، وَنُورِ شَمْسِكَ ، وَمَوْصِلِ عَمَلِكَ الْبَرِّ إِلَى رَمْسِكَ ، فَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ أَثَرُ دَعْوَاتِكَ
فِي خَلْقَاتِكَ ، وَأَعْقَابِ صَلَوَاتِكَ ، فَكَلِمَتُكَ - وَاللَّيْلَةُ لِلَّهِ تَعَالَى - بَاقِيَةٌ ، وَحَسَنَتُكَ إِلَى مَحَلِّ
الْقَبُولِ رَاقِيَةٌ ، يَرَعَى بِكَ الْوَسِيلَةَ ، وَيَتِمُّ مَقَاصِدَكَ الْجَمِيلَةَ ، أَعَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِبِرْكَةِ رِضَاكَ
عَلَى مَا قَلَّدَهُ ، وَعَمَّرَ بِتَقْوَاهُ يَوْمَهُ وَغَدَهُ ، وَأَبْعَدَ فِي السَّعْدِ أَمَدَهُ ، وَأَطْلَقَ بِالْخَيْرِ يَدَهُ ،
وَجَعَلَ الْمَلَائِكَةَ أَنْصَارَهُ وَالْأَقْدَارَ عُدَدَهُ .

وَإِنِّي أَيُّهَا الْمَوْلَى الْكَرِيمُ ، الْبَرُّ الرَّحِيمُ ، لَمَّا اشْتَرَانِي ، وَرَاشِي (٣) وَبَرَّانِي ،
وَتَعَبَّدَنِي بِإِحْسَانِهِ ، وَاسْتَعْمَلَ فِي اسْتِخْلَاصِي حَظَّ بِنَانِهِ ، وَوَصِيَّةَ لِسَانِهِ ، لَمْ أَجِدْ مِثْلَهُ
إِلَّا التَّقَرُّبَ إِلَيْكَ وَإِلِيهِ بَرِّيَاتِكَ ، وَإِغْرَاءَ لِسَانِي بِتَخْلِيدِ عَلَيَانِكَ ، وَتَعْفِيرِ الْوَجْنَةِ
فِي حَرَمِكَ ، وَالْإِشَادَةَ بَعْدَ الْمَاتِ بِمَجْدِكَ وَكَرَمِكَ ، فَفَتَحْتَ الْبَابَ فِي هَذَا الْفَرْضِ ،
إِلَى الْقِيَامِ بِحَقِّكَ الْمَقْتَرَضِ ، الَّذِي لَوْلَاهُ لَاتَّصَلَتِ الْعُقَلَةُ عَنْ أَدَائِهِ وَتَمَادَتْ ، فَمَا يَبَسَتْ
الْأَلْسُنُ وَلَا كَادَتْ ، مَتَحِيَّزًا بِالسَّبْقِ ، إِلَى أَدَاءِ هَذَا الْحَقِّ ، بَادئًا بِزِيَارَةِ قَبْرِكَ الَّذِي هُوَ
رِحْلَةُ الْغُرْبِ ، مَا نُوَيْتَهُ مِنْ رِحْلَةِ الشَّرْقِ ، وَمَا أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَأَقْطَعَهُ أَثَرُ مَوَاقِعِ الْاسْتِحْسَانِ
وَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الشُّكْرِ وَالتَّنَوُّبِ وَالإِحْسَانِ ، وَاللَّهِ سُبْحَانَهُ يَجْعَلُهُ عَمَلًا مَقْبُولًا ، وَيَبْلُغُ فِيهِ
مِنَ الْقَبُولِ مَأْمُولًا ، وَيَتَعَمَّدُ مِنْ ضَاجِعَتِهِ مَنْ سَأَلَكَ الْكِرَامَ بِالْمَغْفِرَةِ الصَّيِّبَةِ ، وَالتَّحِيَّاتِ
الطَّيِّبَةِ ، فَانْعَمَ الْمَلُوكُ الْكِبَارُ ، وَالخُلَفَاءُ الْأَبْرَارُ ، وَالأَئِمَّةُ الْأَخْيَارُ ، الَّذِينَ كَرُمَتْ مِنْهُمْ
السَّيْرُ وَحَسُنَتْ الْأَخْبَارُ ، وَسَعِدَ بَعَزَمَاتِهِمُ الْجِهَادِيَّةُ الْمُؤْمِنُونَ وَشَقِيَ الْكُفَّارُ ، وَصَلَوَاتُ
اللَّهِ تَعَالَى عَوْدًا وَبَدَأً ، عَلَى الرَّسُولِ الَّذِي اصْطَفَاهُ وَاخْتَارَهُ فَهُوَ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارُ ، وَعَلَى آلِهِ
وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ هُمْ السَّادَةُ الْأَبْرَارُ ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا .

(نفع الطيب : : ١٢٥)

(١) الخلائق : النفس والقلب . (٢) الشقة : نصف الشيء إذا شق ، والسرحة : الشجرة العظيمة .

(٣) راش السهم : ألزقه عليه الريش ، وراش الصديق : أطعمه وسقاه وكساه وأصلح حاله .

١٧ - وصية لسان الدين بن الخطيب لأولاده

« الحمد لله الذى لا يُرَوِّعُهُ الحِمَامُ المَرْقُوبُ ، إِذَا شِمْ (١) نَجْمُهُ المَقْبُوبُ ، وَلَا يَبِغْتَهُ الأَجَلُ المَكْتُوبُ ، وَلَا يَفْجُوهُ الفِرَاقُ للعتوب ، مُلْهِمِ الهدى الذى تَطْمِئُنُّ بِهِ القلوب ، وَمَوْضِحِ السبيلِ المَطْلُوبِ ، وَجَاعِلِ النصيحةِ العريضةِ من قِسمِ الوجوبِ ، لاسِيَّما لِلوَلِيِّ المَحْبُوبِ ، وَالوَلَدِ المَنْسُوبِ ، القائلِ فى الكتابِ المَعْجِزِ الأَسْلُوبِ : « أَمَّ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ (٢) » ، « وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ (٣) » ، وَالصلاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدِ رَسُولِهِ ، أَكْرَمَ مِنْ زُرَّتْ عَلَى نُورِهِ جُيُوبِ الغيوبِ ، وَأَشْرَفَ مَنْ خُلِقَتْ عَلَيْهِ حُلَالُ المَهَابَةِ وَالعِصْمَةِ ، فَلَا تَقْتَحِمُهُ العيونُ ، وَلَا تَصِمُهُ العيوبُ (٤) ، وَالرِّضَاعِ عَنِ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ المُنَابِرِينَ عَلَى لِسَانِ (٥) الاستقامةِ بِالهُوَى المَطْلُوبِ ، وَالأَمَلِ المَسْلُوبِ ، وَالإقْتِدَاءِ المَوْضِلِّ إِلَى المَرْغُوبِ ، وَالعِزِّ وَالأَمْنِ مِنَ اللُّغُوبِ (٦) ، وَبَعْدَ : فَإِنِّي لِمُسَاعِلَانِي المَشِيبِ بِقِمَّتِهِ (٧) ، وَقَادِنِي الكَبِيرِ بِرِمَّتِهِ (٨) ، وَأَدَّ كَرَّتُ الشَّبَابِ

(١) من شام البرق : نظر إليه أين يقصد ، وأين يطر .

(٢) وتام الآية الكريمة :

« إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .

(٣) وتام الآية الكريمة : « إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ ،

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » .

(٤) تزدرية وتحقره ، ووصفه : جاهه . (٥) اللسان : الرسالة .

(٦) اللغوب : أشد الإعياء . (٧) القصة : أعلى كل شيء .

(٨) الرمة بالضم ويكسر : قطعة من جبل .

بعد أمته^(١)، أسِفْتُ لِمَا أضعْتُ، وَنَدِمْتُ بعد النِطَام على مَا رَضَعْتُ، وَتَأَكَّدَ
 وَجوبُ نصحِي لمن لَزِمَنِي رَعِيَهُ، وَتعلَّقَ بعيني سَعِيَهُ، وَأَمَّاتُ أَنْ تَتَعَدَّى إِلَى ثَمَرَةٍ
 استقامته، وَأَنَارِهينَ فَوَاتِ، وَفِي بَرَزَخِ أَمْوَاتِ، وَبِأَمْنِ العُثُورِ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي اقْتَضَتْ
 عِثَارِي، إِنْ سَلَكَ - وَعَسَى أَلَّا يَكُونُ ذَلِكَ - عَلَيَّ آثَارِي، فَقُلْتُ أَخاطِبُ الثَّلَاثَةَ
 الوَلَدِ، وَثَمَرَاتِ الخَلْدِ^(٢) بعد الضَّرَاعَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي تَوْفِيقِهِمْ، وَإِيضَاحِ طَرِيقِهِمْ،
 وَجَمْعِ تَفْرِيقِهِمْ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيَّ مِنْهُمْ بِحَسَنِ الخَلْفِ، وَالتَّلَافِي مِنْ قَبْلِ التَّلَفِ، وَأَنْ
 يَرِزُقَ خَلْفَهُم التَّمَسُّكَ بِهَدْيِ السَّلَفِ، فَهُوَ وَوَلِيُّ ذَلِكَ، وَالهَادِي إِلَى خَيْرِ المَسَالِكِ:
 اعْلَمُوا هَذَا كَمَا اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي بَأْنَوَارِهِ تَهْتَدِي الضَّلَالُ، وَبِرِضَاهُ تُرْفَعُ الأَغْلَالُ،
 وَبِالْتِمَاسِ قُرْبِهِ يَحْصُلُ الكَمَالُ، إِذَا ذَهَبَ المَالُ، وَأَخْلَفَتِ الأَمَالُ، وَتَبَرَّاتُ مِنْ يَمِينِهَا
 الشَّمَالُ، أَنِي مُودِّعُكُمْ وَإِنْ سَأَلْتَنِي الرَّدَى، وَمُفَارِقُكُمْ وَإِنْ طَالَ المَدَى، وَمَا عَدَا مِمَّا
 بَدَأَ، فَكَيْفَ وَأَدْوَاتُ السَّفَرِ تُجْمَعُ، وَمَنَادَى الرِّحْلِ يُسْمَعُ، وَالأَقْلُ لِلْحَبِيبِ المُوَدِّعِ،
 مِنْ وَصِيَّةِ مُحْتَضِرٍ، وَعَجَّالَةَ مُقْتَصِرٍ، وَرَتِيمَةٍ^(٣) تُعَقَّدُ فِي خِنْصِرٍ، وَنَصِيحَةٍ تَكُونُ
 نَشِيدَةً وَإِعْ مُبْصِرٍ، تَتَكَفَّلُ لَكُمْ بِحَسَنِ العَوَاقِبِ مِنْ بَعْدِي، وَتَوْضِيحَ لَكُمْ مِنَ
 الشَّفَقَةِ وَالخَنَوِّ قَصْدِي، حَسْبَمَا تَضَمَّنَ وَعَدُّ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ وَعْدِي، فَهِيَ أَرْبُكُمْ الَّذِي
 لَا يَتَغَيَّرُ وَقْفُهُ، وَلَا يَنَالُكُمْ المَكْرُوهُ مَارَفًا عَلَيْكُمْ سَقْفُهُ، وَكَأَنِّي بِشَبَابِكُمْ قَدْ شَاخَ،
 وَبِرَاحِلِكُمْ قَدْ أَنَاخَ، وَبِنَاشِطِكُمْ قَدْ كَسِلَ، وَإِسْتَبْدَلَ الصَّابَ^(٤) مِنَ العَسَلِ،
 وَنُصُولِ^(٥) الشَّيْبِ تَرَوُّعَ بِأَسَلٍ، لَا بِلِ السَّامِ^(٦) مِنْ كُلِّ حَدَبٍ قَدْ نَسَلِ، وَالمَعَادُ

(١) الأمة هنا: الحيين، اقتبسه من قوله تعالى: « وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » .

(٢) الخلد: القلب والنفس .

(٣) الرتيمة: خيوط يعقده في الأصبع لتذكير .

(٤) الصاب: عصارة شجر مر . (٥) النصول جمع نصل: وهو حديدة الرمح والسيف .

والأسل: الرماح . (٦) السام: الموت: والحذب: ما ارتفع من الأرض، ونسل كضرب: أسرع
 والمعاد: المرجع .

اللحْدُ وَلَا تَسَلْ ، فَبِالْأَمْسِ كُنْتُمْ فِرَاحَ حِجْرٍ^(١) ، وَالْيَوْمَ أَبْنَاءُ عَسْكَرٍ حِجْرٍ ، وَغِلْمًا شَيْخٍ مَضْمُوعَةٍ وَهَجْرٍ ، وَالْقُبُورُ قَاعَةٌ^(٢) ، وَالنَّفُوسُ عَنِ الْمَأْلُوفَاتِ صَاغِرَةٌ ، وَالدُّنْيَا بِأَهْلِهَا سَاخِرَةٌ ، وَالْأَوْلَى تَعْقُبُهَا الْآخِرَةُ ، وَالْحَازِمُ مَنْ لَمْ يُتَّعِظْ بِهِ فِي أَمْرٍ ، وَقَالَ : « بِيَدِي لَا يَبِيدُ عَمْرُو^(٣) » ، فَاقْتَنَوْهَا مِنْ وَصِيَّةٍ ، وَمَرَامٍ^(٤) فِي النَّصْحِ قَصِيَّةٍ ، خُصُّوا بِهَا أَوْلَادَكُمْ إِذَا عَقَلُوا ، لِيَجِدُوا زَادَهَا إِذَا اتَّقَلُوا ، وَحَسْبِي وَحَسْبُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَخْلُقِ الْخَلْقَ هَمَلًا ، وَلَكِنْ لِيَبْلُغُوهُمْ أَهْمُهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَا رَضِيَ الدُّنْيَا مَنْزِلًا ، وَلَا لَطَفَ يَمُنْ أَصْبَحَ عَنْ فِتْنَةِ الْخَيْرِ مُنْعَزِلًا ، وَلِتَلْقَنُوا تَلْقِينًا وَتَعَلَّمُوا عِلْمًا يَقِينًا ، أَنْكُمْ لَنْ تَجِدُوا بَعْدَ أَنْ أَنْفَرَدَ بَدْنِي ، وَيَفْتَرِشَ التَّرَابَ جَنِي ، وَيَسُحَّ انْسِكَابِي ، وَتَهْرُولَ عَنِ الْمَصَلِّي رِكَابِي ، أَحْرَصَ مَنْ عَلَى سَعَادَةٍ إِلَيْكُمْ تُجَلَّبُ ، أَوْ غَايَةِ كَمَالٍ بِسَبَبِكُمْ تُرْتَادُ وَتُطَلَّبُ ، حَتَّى لَا يَكُونَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا أَوْرَفُ^(٥) مِنْكُمْ ظِلًّا ، وَلَا أَشْرَفُ نَحْلًا ، وَلَا أَعْبَطُ نَهْلًا وَعَلَا^(٦) ، وَأَقْلُ مَا يَوْجِبُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُصَيِّخُوا^(٧) إِلَى قَوْلِي الْآذَانَ ، وَتَسْتَلِحُوا

(١) أي كالفرّاح في حِجْر أمها وحضنها ، والمجر : الكثير من كل شيء ، وجيش مجر : كثير جدا .

(٢) أي فائمة أفواها للموق .

(٣) هو مثل قاطعه الزبّاء ملكة الجزيرة ، وذلك أنها كانت دعت جذيمة قد قتلته - فاحتال مولاه قصير لثأر عنها ، فجدع أنفه وأثر آثاراً يظهره ، ثم خرج إلى الزبّاء ، وأظهر أن عمرو بن هدي - ابن أخت جذيمة - فعل ذلك به ، وأنه زعم أنه مكر بخاله جذيمة وغره من الزبّاء ، فلما استرسلت إليه ووثقت به ، زين لها أن تبيته إلى العراق ليحمل إليها من طرائفها وثيابها وطيبها ، وأنها ستصيب في ذلك أرباحاً عظيماً ، فأذنت له وقدم العراق ، وأقى الحيرة متنكراً ، وزوده عمرو بصنوف البز والأمتعة ، ورجع إلى الزبّاء ، فأعجبها ما رأت وسرها ، وازدادت به ثقة ، وجهازته ثانية ، فسار حتى قدم على عمرو فجهزه وعاد إليها ، ثم عاد الثالثة وجمع ثقات رجال عمرو ، وحلمهم في الغرائر على الجمال ، وصار إلى الزبّاء ، ودخلت الإبل المدينة وكانت الزبّاء قد حذرت عمراً ، واتخذت نفقاً إلى حصن لها في داخل مدينتها ، وقالت : إن فجأني أمر دخلت النفق إلى حصن - ودل قصير عمراً على باب النفق ، فلما خرجت الرجال من الغرائر صاحوا بأهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح ، وقام عمرو على باب النفق ، وأقبلت الزبّاء تريد النفق ، فأبصرت عمراً ففرقت بالصورة التي صورت لها - فصت خاتمها وكان فيه السم ، وقالت : « بيدي لا يبيد عمرو » فذهبت مثلاً ، وتلقاها عمرو فجللها بالسيف وقتلها ، وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلها ، وانكفأ راجعاً إلى العراق .

(٤) مرام جمع مرمى ، وقصبة بييدة .

(٥) ورف الظل : اتسع وطال وامتد .

(٦) النهل : الشرب الأول ، والمعل والمعلل : الشرب الثاني أو الشرب بعد الشرب تبارها .

(٧) أصاخ له استمع .

صَبَحَ نُصْحِي فَقَدْ بَانَ ، وَسَاعَيْدُ عَلِيمٍ وَصِيَّةُ لُقْمَانَ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ :
 « وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ -
 يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ
 إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . وَلَا تُصَعِّرْ^(١) خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا
 إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ، وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ، وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ
 أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » وَأَعِيدُ وَصِيَّةَ خَلِيلِ اللَّهِ وَإِسْرَائِيلَ حُكْمًا^(٢)
 مَا تَضَمَّنَهُ حُكْمُ تَنْزِيلِهِ « يَا بُنَيَّ إِنَّ اللَّهَ أَضْطَفَنِي لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمْوُنَنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
 مُسْلِمُونَ » والدين الذي ارتضاه واصطفاه ، وأكمله ووفّاه ، وقرّره مُصْطَفَاهُ ، من قبل
 أن يتوفّاه ، إذا أُعْمِلَ فِيهِ انتقاد ، فهو عمل واعتقاد ، وكلاهما مُقَرَّرٌ ، ومستمدٌّ من
 عقل أو نقل محرر ، والعقل متقدّم ، وبنائوه مع رَفْضِ أَخِيهِ متهدّم ، فالله واحد أحد ،
 فَرُدَّ صَمَدًا^(٣) ، ليس له والد ولا ولد ، تنزّه عن الزمان والمكان ، وَسَبَقَ وجودُهُ
 وجودَ الأَكْوَانِ ، خَالِقُ الخَلْقِ وما يعملون ، الذي لا يُسْأَلُ عن شيء وهم يُسْأَلُونَ ، الحَيُّ
 العليمُ المدبّرُ القديرُ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ، أرسل الرسل رحمةً
 لتدعو الناس إلى النجاة من الشقاء ، وتوجهه الحُجَّةُ في مصيرهم إلى دار البقاء ، مؤيِّدَةً
 بالمعجزات التي لا تُنتَصَفُ أنوارها بالاختفاء ، ولا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء ،
 ثم ختم ديوانهم بنبيّ ملتنا المرعية الهمل ، الشاهدة على المِلَلِ ، فتاخّصت الطاعة ،
 وَتَعَيَّنَتِ الأَمْرَةُ المُطَاعَةَ ، ولم يَبْقَ بعده إلا ارتقَابُ الساعَةِ ، ثم إن الله تعالى قَبَضَهُ
 إِذْ كَانَ بَشْرًا ، وترك دينه يُضْمُّ من الأُمَّة نَشْرًا^(٤) ، فمن تَبِعَهُ لِحَقِّ بِهِ ، ومن تركه
 نُوطًا^(٥) عنه في مَنْسَبِهِ ، وكانت نجاته على قدر سببه ، رُوِيَ عنه عليه الصلاة والسلام

(١) صعر خذه : أماله كبراً .

(٢) إسرائيله : يعقوب عليه السلام ، والحكم : الحكمة ، وهو بدل من وصية .

(٣) الصمد : السيد ، لأنه يصمد أي يقصد في قضاء الحوائج . (٤) النشر : المنتشر ، ومنه :

« اللهم اغصم نشري » . (٥) أي أبعد منه وطرد ، ويقال ناطت الدار : أي بعدت .

أنه قال : « تركتُ فيكم ما إن تمسَّكُمُ به لم تَضِلُّوا بعدي ، كتابَ الله وسُنَّتِي ، فَعَضُّوا عليهما بالنواجذ^(١) . »

فاعلموا يا بني بوصية من ناصح جاهد ، ومُشفِقٍ شفقةَ والد ، واستشعروا حُبَّهُ الذي توافرت دواعيه ، وعُوا مَرَّاشِدَ هَدْيِهِ ، فَيَا فَوْزَ وَاغِيهِ ! وَصِلُوا السَّبَبَ بِسَبَبِهِ ، وَآمِنُوا بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ ، مُجْمَلًا أَوْ مُفَصَّلًا عَلَى حَسَبِهِ ، وَأَوْجِبُوا التَّجَلَّةَ لِصَحْبِهِ ، الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِصَحْبَتِهِ ، وَاجْعَلُوا مَحَبَّتَكُمْ إِيَّاهُمْ مِنْ تَوَابِعِ مَحَبَّتِهِ ، وَاشْمَلُوهُمْ بِالتَّوَقِيرِ ، وَفَضَّلُوا مِنْهُمْ أَوْلَى الْفَضْلِ الشَّمِيرِ ، وَتَبَرَّءُوا مِنَ الْعَصْبِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَدْعِكُمْ إِلَيْهَا دَاعٍ ، وَلَا تَعِ الشَّجَرَ بَيْنَهُمْ أَدْنُ وَايِعَ ، فَهُوَ عِنْوَانُ السَّدَادِ ، وَعَلَامَةُ سَلَامَةِ الْإِعْتِقَادِ ، ثُمَّ اسْحَبُوا فَضْلَ تَعْظِيمِهِمْ عَلَى فَقَهَاءِ الْمِلَّةِ ، وَأُمَّتِهَا الْجَلَّةِ^(٢) ، فَهَمَّ صَقَلَةٌ نُصُوبُهُمْ ، وَفُرُوعٌ نَاشِئَةٌ مِنْ أَصُولِهِمْ ، وَوَرَثَتُهُمْ وَوَرِثَةُ رَسُولِهِمْ ، وَاعْلَمُوا أَنِّي قَطَعْتُ فِي الْبَحْثِ زَمَانِي ، وَجَعَلْتُ النُّظْرَ شَانِي ، مِنْذُ بَرَانِي اللَّهُ تَعَالَى وَأَنْشَانِي ، مَعَ نُبْلِ^(٣) يَعْتَرِفُ بِهِ الشَّانِي ، وَإِدْرَاكِ يَسْلَمُهُ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِي ، فَلَمْ أَجِدْ خَاطِبًا وَرَقَّ ، وَلَا مُصَبِّبَ عَرَقٍ ، وَلَا نَازِعَ خِطَامٍ ، وَلَا مَتَكَلِّفَ فِطَامٍ ، وَلَا مَقْتَحِمَ بَحْرِ طَامٍ ، إِلَّا وَغَايَتُهُ الَّتِي يَقْصِدُهَا قَدْ نَضَلَّتْهَا الشَّرِيعَةُ وَسَبَقَتْهَا ، وَفَرَعَتْ^(٤) نَفْسِيهَا وَارْتَقَتْهَا ، فَعَلَيْكُمْ بِالْإِزْمَامِ جَادَّتْهَا^(٥) السَّابِلَةَ ، وَمَصَاحِبَةَ رَفُقَتِهَا الْكَامِلَةَ ، وَالْإِهْتِدَاءَ بِأَقْمَارِهَا غَيْرِ الْآفَلَةِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ ، وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ، وَقَدْ عَلَتْ شَرَائِعُهُ ، وَرَاعَ الشُّكُوكَ رَائِعُهُ ، فَلَا تَسْتَنْزِلُكُمْ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ ، وَابْذُلُوا دُونَهُ النُّفُوسَ فَعَلَ الْمُهْتَدِينَ ، فَلَنْ يَنْفَعَ مَتَاعُ بَعْدِ الْخُلُودِ فِي النَّارِ أَبَدَ الْآبِدِينَ ، وَلَا يَضُرُّ مَقْضُومَ الْفَوْزِ بِالسَّعَادَةِ وَاللَّهُ أَصْدَقُ الْوَاعِدِينَ ، وَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَحْسَنُ مَا وَرِثَ الْأَوْلَادُ مِنَ الْوَالِدِينَ ، اللَّهُمَّ قَدْ بَلَغْتُ فَأَنْتَ خَيْرُ الشَّاهِدِينَ ، فَاحْذَرُوا الْمَعَاطِبَ الَّتِي تَوْجِبُ فِي الشَّقَاءِ الْخُلُودَ ، وَتَسْتَدْعِي شَوْهَ الْوَجُوهِ وَنُضْجَ الْجُلُودِ ، وَاسْتَعِيدُوا بِرِضَا اللَّهِ مِنْ سُخْطِهِ ، وَارْتَبُّوا بِنُفُوسِكُمْ عَنْ غَمَطِهِ ، وَارْفَعُوا أَمَالَكُمْ عَنِ التَّنَوُّعِ بِفُرُورٍ قَدْ خَدَّعَ

(١) أقصى الأضراس . (٢) جمع جليل . (٣) النبيل : الذكاء والنجابة ، والشانِي : المبغض .

(٤) فرعه : علاه ، والذنية : العقبة ، أو الجليل أو الطريقة فيه أو إليه .

(٥) الجادة : الطريق الواضح ، والسابِلَةُ : الطرق المملوكة .

أسلافكم ، ولا تحمدوا على جيفة العرّض الزائل اثتلافكم ، واقنعوا منه بما تيسر ، ولا تأسؤا^(١) على ما فات وتعدّر ، فإنما هي دُجَنَةٌ^(٢) ينسخها الصّباح ، وصَفْقَةٌ يتعاقبها الخسار أو الرّياح ، ودونكم عقيدة الإيمان فشدّوا بالنواجذ عليها ، وكفّفكفؤوا الشّبه أن تدنّوا إليها ، واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خرّق لا يرّفؤه^(٣) عمل ، وكلّ ماسوى الراعى همل ، وما بعد الرأس في صلاح الجسم أمل ، وتمسّكوا بكتاب الله تعالى حفظًا وتلاوةً ، واجعلوا جملة على حمل التكليف علاوة ، وتفكروا في آياته ومعانيه ، وامتلوا أوامرهم ونواهيهم ولا تتأولوه ولا تغفلوا فيه ، وأشربوا قلوبكم حبّ من أنزل على قلبه ، وأكثروا من بواعث حبه ، وصونوا شعائر الله صون المحترّم ، واحفظوا القواعد التي يبنى عليها الإسلام حتى لا ينخرم ، الله الله في الصلاة ذريعة التّجلّي ، وخاصّة المِلة ، وحاquina الدم ، وغمّي المستاجر المستخدم ، وأمّ العبادة ، وحافظه اسم المراقبة لعالم الغيب والشّهادة ، والناهيّة عن الفحشاء والمنكر ، إن عرّض الشيطان عرّضها ، ووطأ للنفس الأمّارة سماءها وأرضها ، والوسيلة إلى بلّ الجنوح ببرود الذكر ، وإيصال ثمجة الله إلى مريض الفكر ، وضامنة حسن العشرة من الجار ، وداعية للمسألة من الفجار ، والواسمة بسمة السلامة ، والشّاهدة للعبد برفع الملامة ، وغسول^(٤) الطبع إذا شانه طبع ، والخير الذي يكلّ ماسواه له تبع ، فاصبروا النفس على وظائفها ، بين بدء وإعادة ، فالخير عادة ، ولا تفضّلوا عليها الأشغال البدنيّة ، وتؤثروا على العليّة الدنيّة ، فإن أوقات المعينة بالانفلات تنبّس^(٥) ، والفلك بها من أجلكم لا يحبّس ، وإذا قورنت بالشواغل فلها الجاه الأصيل ، والحكم الذي لا يميّره الغدوّ ولا الأصيل ، والوظائف بعد أدائها لا تقوت ، وأين حقّ من يموت من حقّ الحى الذي لا يموت ؟ وأحكوا أوضاعها إذا أقمتموها ، وأتبعوها النوافل ما أطقتموها ، فبالإتقان تفاضلت الأعمال ، وبالمرعاة

(١) ولا تحزنوا . (٢) الدجنة: الظلمة . (٣) رفا الثوب كنع: لام خرقة، وضم بعضه إلى بعض.

(٤) الغسول كصبور وتثور: الماء يفتسل به، وفي الأصل غاسول وهو تحريف، والطبع الشين والديس .

(٥) أى تذهب وتضيع ، يقال: انبَسَ الرجل إذا ذهب ، وفي الأصل «نبَس» وأراه محرّفاً .

استحقت الكمال ، ولا شكرَ مع الإهمال ، ولا ربحَ مع إضاعة رأس المال ، وذلك أحرى بإقامة الفرض ، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض .

والطهارة التي هي في تحصيلها سبب مؤصل ، وشرط لمشروطه محصل ، فاستوفوها ، والأعضاء نظّفوها ، ومياهاها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها ، والحجول والغرر^(١) فأطيلوها ، والنيّات في كل ذلك فلا تهملوها ، فالبناء بأساسه ، والسيف بمراسه ، واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور ، وذكر مجهور وغير مجهور ، تستغرق الأوقات ، وتنازع شتى الخواطر المفترقات ، فلا يضبطها إلا من ضبط نفسه بعقال ، واستعاض صدأه بصقال^(٢) ، وإن تراخى فتهقر^(٣) الباع ، وسرّقه الطّباع ، وكان لما سواها أضيع . فشمل الضّيع ، والزكاة أختها الحبيبة . ولدتها القرّية . مفتاح السعادة بالعرض الزائل . وشكران المسئول على الضدّ من درجة السائل . وحق الله تعالى في مال من أغناه . لمن أجهده في المعاش وعناه^(٤) من غير استحقاق ملء يده وإخلاء يد أخيه . ولا علة إلا القدر الذي يُخفيه . وما لم ينله حظّ الله تعالى فلا خير فيه ، فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها . في اختيار عرّضها ونتاجها . واستحيوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل . وخالفوا الشيطان كلما عدل . واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون ، ولا تدرّون أين تسلكون . فوهب وأقدر . وأورد بفصله

(١) الحجول : جمع حجول بالكسر والفتح وهو الخللخال ، والمراد بها هنا الأطراف ، وبإطالها استيعاب غسلها ، والغرر جمع غرة بالضم وهي الوجه ، والمراد بتطولها في الوضوء : غسل مقدم الرأس مع الوجه ، وغسل صفحة العنق ، وجملة المعنى : أنه يأمر بإسباغ الوضوء ، وفي الحديث الشريف : « أُمَّتِي الْغُرُّ الْمُحَجَّجُونَ » والغر جمع الأغر من الغرة ، وهي بياض في جبهة الفرس فوق الدرهم ، يقال : فرس أغر وغراء ، والمحجل : للفرس الذي يرتفع البياض في قوائمه في موضع القيد ، أي بياض مواضع الوضوء من الوجه الأيمن والأقدام ، استعار أثر الوضوء في الوجه واليدين والرجلين من البياض الذي يكون في وجه الفرس ويديه ورجليه .

(٢) صواب العبارة « واستعاض بصدنه صدقلا » يقل استبدل الشيء بغيره : إذا أخذته مكانه (ومنه ترى أن الباء داخل على المعرّوك) واعتاضه منه واستعاضه (والباء كن) .

(٣) تهقر وتهقر : رجع وتهقرى . (٤) أتعبه .

وأصدر . ليرتب بكرمه الوسائل ، أو يقيم الحجج والدلائل . فابتغوا إليه الوسيلة بالله وأغتنموا رضاه ببعض نواله . وصيام رمضان عبادة السرِّ المقرَّبة إلى الله زُلْفَى . المحروضة^(١) لمن يعلم السرَّ وأخفى . مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام . والقيام ببرِّ القيام ، والاجتهاد ، وإيثار الشهاد ، على المهاد ، وإن وسع الاعتكاف فهو من سننه المرعية ، ولو احقه الشرعية ، فبذلك تحسُن الوجوه ، وتحصل من الرقة على ما ترجوه ، وتذهب قسوة الطباع ، ويمتد في ميدان الوسائل الباع ، والحجج مع الاستطاعة الركن الواجب ، والقرض على العين لا يحجبه الحاجب ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره فيما فرض عن ربه وسنّه ، وقال : « ليس له جزاء عند الله إلا الجنة » ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوة عليه ، وغنى لديه ، فكونوا ممن يسمع نفيده ويطيعه ، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه . هذه عمُد الإسلام وفروضة ، وتقود مهزه وعروضة ، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين ، وعلى من يناويكم ظاهرين^(٢) ، وتلقوا الله لامبدلين ولا مغيّرين ، ولا تضيعوا حقوق الله فمهلكوا مع الخاسرين .

واعلموا أن بالعلم تستعمل وظائف هذه الألقاب ، وتجلى محاسنها من بعد الانتقاب^(٣) فعليكم بالعلم النافع دليلا بين يدي السامع ، فالعلم مفتاح هذا الباب ، والموصل إلى اللباب ، والله عز وجل يقول : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » والعلم وسيلة النفوس الشريفة إلى المطالب المنيفة ، وشرطه الخشية لله تعالى والخيفة ، وخاصة الملأ الأعلى ، وصفة الله في كتبه التي تتلى ، والسبيل في الآخرة إلى السعادة ، وفي الدنيا إلى النجاة^(٤) عادة ، والدخر الذي قايله يشفع ، وكثيره ينفع ، لا يغلبه الغاصب ، ولا يسلبه العدو المناصب ، ولا يبتزه الدهر إذا نال ، ولا يستأثر به البحر إذا هال ، من لم ينله فهو ذليل ، وإن كثرت آماله ،

(١) الخالصة . (٢) يهاديكم ، وظاهرين : غالبين . (٣) أي بعد الاختفاء ، من انتعقت المرأة : لبست النقاب . (٤) نخله : أعطاه ، والاسم النحلة .

وقليل ، وإن جمَّ ماله ، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم ، وَتَخَطَّى حِسَابَكُمْ ،
فَاتَمَسَّوْهُ لَبِيكُم ، واستدرِكُوا منه ما خرج عن أيديكم ، وَأَحْلَوْهُم عَلَى جَمْعِهِ وَدَرَسِهِ ،
واجعلوا طباعهم تُرْمَى لِعَرْسِهِ ، واستسهلوا ما ينالهم من تَعَبٍ مِنْ جَرَاهُ (١) وَسَهَرِهِ
يَهْجُرُ لَهُ الْجَفْنَ كَرَاهٍ ، تَفْقِدُوا لَهُمْ وَلايَةَ عَزٍّ لَاتُعْزَلُ ، وَتُحْلَوْهُم مَثَابَةَ رِفْعَةٍ لَاتُحِطُّ
فَارِعُهَا وَلا يُسْتَنْزَلُ ، واختاروا العلوم التي يتعقَّبُها الوقت ، فلا ينالها في غيرهِ (٢) المقت ،
وخير العلوم علوم الشريعة ، وما نجمَ بِمَنَابِتِهَا المَرِيعةُ (٣) ، من علوم لسان لاتستغرق
الأعمارَ فصولها ، ولا يضايق ثمراتِ المعادِ حصولها ، فإنها هي آلاتِ لغيرِ ، وأسباب
إلى خير منها وخير ، فمن كان قابلاً للازدياد ، وألْقَى فهمه ذا انقياد ، فليخصَّ تجويد
القرآن بتقديمه ، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمهِ ، ثم الشروع في أصول الفقه
فهو العلم العظيم المِنَّةُ ، المَهْدَى كنوز الكتاب والسُّنَّة ، ثم المسائل المنقولة عن العلماء
الجِلَّةِ ، والتدرج في طرق النظر بضحح الأدلَّة ، وهذه هي الغاية القصوى في المِلَّةِ ،
ومن قصر إدراكه عن هذا المرعى ، وتقاعدَ عن التي هي أسمى ، فَلْيَزُوِ الحديثَ
بعد تجويد الكتاب وإحكامه ، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه ، وإياكم
والعلوم القديمة ، والفنون المهجورة الذميمة ، فأكثرها لا يُفيد إلا تشكيكاً ، ورأياً
ركيكاً ، ولا يُشمر في العاجلة إلا اقتحامَ العيون ، وتطريقِ الظنون ، وتطويقِ الاحتقار
وَسِمَةِ الصَّعَارِ ، وُخْمُولِ الأقدار ، وأنحسَف من بعد الإبدار ، وجادَّة الشريعة أعرق
في الاعتدال ، وأوفق من قطع العمر في الجدال ، هذا ابن رُشد (٤) قاضي المصر ومُفتيه

(١) يقال : فعلت ذلك من جراه ومن جرانه بالتشديد ويخففان ، ومن جريرته : أى من أجله ،
والكبرى : الترم . (٢) غير الدهر : أحداثه المفيرة ، والضمير فيه يعود على الوقت . (٣) الخصبة .
(٤) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، أعظم فلاسفة الأندلس وأطبائها ، ولد سنة ٥٢٠ هـ
ودرس علوم الدين والفلسفة والطب ، وانصل بيوسف بن عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وشرح له فلسفة
أرسطو ، وقد ولاء قضاء إشبيلية ؛ ثم استدعاه إلى المراكش ، وجعله طبيبه الخاص ، ثم جعله قاضي القضاة
بقرطبة ، ولما ولي بعده ابنه المنصور بالله علت مكانة ابن رشد عنده ، فأثار ذلك حسد خصومه ، فكادوا
له عند السلطان واتهموه أنه يجحد القرآن ، وينشط الفلسفة وعلوم الأوائل بدلا من علوم الدين ، وينصر -

وملتبسُ الرشد ومُؤليهِ ، عادت عليه بالسَّخطة الشنيعة ، وهو إمام الشريعة ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، والتورُّط في ازدحامها ، ولا تخلطوا جامكم^(١) بجامها ، إلا ما كان من حساب ومِساحة ، وما يعود بِمجدوى فلاحه ، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة ، وما سوى ذلك فمحجور ، وَضَرَمَ^(٢) مَسْجُور ، وممقوت مهجور ، وأمرُوا بالمعروف أمراً رقيقاً ، وانهُوا عن المنكر نهياً حريّاً بالاعتدال حقيقاً ، وَاغْبَطُوا مَنْ كَانَ مِنْ سِنَةِ الْعَفْلة مُفِيقاً ، واجتنبُوا ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ حتى لا تُسَلِّكُوا مِنْهُ طريقاً ، وأطيعوا أمر من وَّلاه اللهُ تعالى من أموركم أمراً ، ولا تُقَرَّبُوا مِنَ الْفِتْنَةِ جَمْرًا ، ولا تُدْخِلُوا فِي الْخِلافِ زَيْدًا وَلَا عَمْرًا ، وعليكم بالصدق فهو شعارُ المؤمنين ، وَأَمَّ مَا أَضْرَى^(٣) عَلَيْهِ الْآبَاءُ ألسنة البنين ، وأكرم منسوب إلى مذهبه ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَهُوَ الْعَوْرَةُ الَّتِي لَا تُؤَارَى ، وَالسَّوْءَةَ الَّتِي لَا يُرْتَابُ فِي عَارِهَا وَلَا يُتَمَارَى . وأقل عقوبات الكذاب ، بين يَدَيِّ مَا أَعَدَّ اللهُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ ، أَنْ لَا يُقْبَلَ صِدْقُهُ إِذَا صَدَّقَ ، وَلَا يَعُولَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ بِالْحَقِّ نَطَقَ ، وعليكم بالأمانة فالخيانة لوم ، وفي وجه الديانة كلُّوم^(٤) ، ومن الشريعة التي لا يُعْذَرُ بِجَهْلِهَا ، أداء الأمانات إلى أهلها ، وحافظوا على الْحِشْمَةِ وَالصِّيَانَةِ ، ولا تُجْزُوا مَنْ أَقْرَضَكُمْ دِينَ الْحَيَاةِ ، ولا توجدوا للْعَدْرِ قَبُولًا وَلَا تُقَرِّوْا عَلَيْهِ طَبْعًا مَجْبُولًا ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مَسْئُولًا ، ولا تستأثروا بِكَنْزٍ وَلَا حَزْنٍ ، ولا تَدْهَبُوا لِغَيْرِ مَنَاصِحَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي سَهْلٍ وَلَا حَزْنٍ ، ولا تَبَخَّسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ فِي كَيْلٍ أَوْ وَزْنٍ ، وَاللَّهُ اللهُ أَنْ تُعِينُوا فِي سَفْكِ الدَّمَاءِ وَلَوْ بِالْإِشَارَةِ أَوْ الْكَلَامِ ، أَوْ مَا يَرْجِعُ إِلَى وَظِيفَةِ الْأَقْلَامِ ، واعلموا أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي فُسْحَةٍ مَمْتَدَّةٍ ،

مطلب القدماء في القول بأوهية بعض الكواكب : فنزله المنصور من قضاء قرطبة ، ثم عفا عنه ، واستفعاها إلى مراکش ، ولم يطل مقامه بها ، فات سنة ٥٩٥ هـ ، وقد ترجم أكثر كتبه إلى اللغات الأجنبية ، وعليها عول الأوروبيون في نهضتهم الحديثة .

(١) الجام : إناء من فضة . (٢) جمع ضربة بالتحريك : وهي الجفرة والناز ، وسجر القصور : أحام

(٣) ضرى بالشيء ككتب : اعتاده وأولع به ، ويعدى بالهضم والتضميف ، فيقال : أضريته وضريته :

أي أغريته به . (٤) للكلوم جمع كلم بالفتح وهو الجرح .

وَسُبُّ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرُ مُنْسَدَّةٍ ، مَا لَمْ يَنْبِذْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَمَانِهِ ، وَيَمَسَّ الدَّمَ الحَرَامَ بِيَدٍ أَوْ لِسَانِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ : الَّذِي هَدَى بِهِ سَنَنًا قَوِيماً ، وَجَلَّى مِنَ الجَهْلِ وَالضَّلَالِ لَيْلًا بَهِيماً : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا . وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَكَرِهَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً » . واجتناب الزنا وما تعلق به ، مِنْ أَخْلَاقٍ مَنْ كَرُمَتْ طِبَاعُهُ ، وامتد في سبيل السعادة باعُهُ ، لو لم تتلق نورَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَهْدِ شِعَاعُهُ ، فَالْحَلَالُ لَمْ تَضِيقْ عَنِ الشَّهَوَاتِ أَنْوَاعَهُ ، وَلَا عُدِمَ إِقْنَاعُهُ ، وَمَنْ غَلَبَتْ غَرَاثُ جَهْلِهِ . فَلْيَنْظُرْ : هل يجب أن يُزَنَى بِأَهْلِهِ ؟ وَاللَّهُ قَدْ أَعَدَّ لِلزَّانِي عَذَاباً وَبِيلاً . وَقَالَ : « وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً » . وَالْمُحْرَمَاتُ الكَبَائِرُ . ومفتاح الجرائم والجرائر^(١) . وَاللَّهُ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهَ فِي الحَيَاةِ شَرْطاً . وَالْمُحْرَمُ قَدْ أَعْنَى عَنْهُ بِالْحَلَالِ الَّذِي سَوَّغَ وَأَعْطَى . وَقَدْ تَرَكَهَا فِي الجَاهِلِيَّةِ أَقْوَامٌ لَمْ يَرْضَوْا لِعُقُوبِهِمُ بِالْفَسَادِ . وَلَا لِنُفُوسِهِمُ بِالْمُضَرَّةِ فِي مَرَضَاتِ الأَجْسَادِ . وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَعَلَهَا رِجْساً مُحْرَماً عَلَى العِبَادِ : وَقَرَنَهَا بِالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ فِي مُبَايَنَةِ السَّدَادِ^(٢) . وَلَا تَقْرَبُوا الرَّبَّ . فَإِنَّهُ مِنْ مَنَاهِى الدِّينِ . وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : « وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرَّبِّ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . وَقَالَ : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَادْنُوا بِمُحَرَّبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » فِي الكِتَابِ المَبِينِ . وَلَا تَأْكُلُوا مَالَ أَحَدٍ بِغَيْرِ حَقٍّ يُبِيحُهُ . وَانزِعُوا الطَّعْمَ^(٣) عَنْ ذَلِكَ حَتَّى تَذْهَبَ رِيحُهُ . وَالتَّمَسُّوا الحَلَالَ يَسْعَى فِيهِ أَحَدُكُمْ عَلَى قَدَمِهِ . وَلَا يَكِلُ خِيَارَهُ إِلَّا لِلنَّفَقَةِ مِنْ خَدَمِهِ . وَلَا تَلَجُّنَا إِلَى المِثْشَابِ إِلَّا عِنْدَ عَدَمِهِ . فَهُوَ فِي الشُّلُوكِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَضْلُ مَشْرُوطٍ . وَالْحَافِظُ عَلَيْهِ مَغْبُوطٌ . وَإِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ . فَالظُّلْمُ مَمْقُوتٌ بِكُلِّ لِسَانٍ

(١) الحرائر جمع جريرة : وهي الجريمة .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ

وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

(٣) الطعم : الشهوة .

مُجَاهِدِ اللَّهِ تَعَالَى بِصَرْحِ الْعَصِيَّانِ ، « وَالظُّلْمُ ظُلَمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » كما ورد في الصَّحاحِ الْحَسَنِ ، والنَّمِيمَةُ فَسَادٌ وَشَتَاتٌ ، لا يَبْقَى عَلَيْهِ مُتَاتٌ ^(١) ، وفي الحديث : « لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ ^(٢) » وَأَطْرَحُوا الْحَسَدَ ، فَاسَادَ حَسُودٌ ، وَإِيَّاكُمْ وَالنِّبْيَةَ فَبَابِ الْخَيْرِ مَعَهَا مَسْدُودٌ ، وَالْبَخْلُ ، فَارْتُئِيَ الْبَخِيلُ وَهُوَ مُودُودٌ ، وَإِيَّاكُمْ وَمَا يُعْتَدَّرُ مِنْهُ ، فَمَوَاقِعُ الْخَزْيِ لَا تُسْتَقَالُ عَثْرَاتُهَا ، وَمَظَنَّاتُ الْفَضَائِحِ لَا تُؤْمَنُ عَمْرَاتُهَا ، وَتَفْقَدُوا أَنْفُسَكُمْ مَعَ السَّاعَاتِ وَأَنْفُسُوا السَّلَامَ فِي الطَّرْفَاتِ وَالْجَمَاعَاتِ ، وَرِقُّوا عَلَى ذَوِي الرِّمَانَاتِ ^(٣) وَالْعَاهَاتِ ، وَتَاجِرُوا مَعَ اللَّهِ بِالصَّدَقَةِ يُرِيحُكُمْ فِي الْبِضَاعَاتِ ، وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ وَحْدَهُ فِي الشَّدَائِدِ ، وَاذْكُرُوا الْمَسَاكِينَ إِذَا نَصَبْتُمْ الْمَوَائِدَ ، وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالْيَسِيرِ مِنْ مَالِهِ . وَاعْلَمُوا أَنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيْهِ الْمُحْتَاطُ لِعِيَالِهِ ، وَارْعَوْا حَقُوقَ الْجَارِ ، وَاذْكُرُوا مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْآثَارِ ، وَتَعَاهَدُوا أَوْلَى الْأَرْحَامِ ، وَالْوَشَائِحِ ^(٤) الْبَادِيَةَ الْإِلْتِمَامَ ، وَاحْذَرُوا شَهَادَةَ الزُّورِ : فَإِنَّهَا تَقْطَعُ الظَّهْرَ ، وَتُقْسِدُ السَّرَّ وَالْجَهْرَ ، وَالرُّشَا ، فَإِنَّهَا تَحْطُّ الْأَقْدَارَ ، وَتَسْتَدْعِي الْمَذَلَّةَ وَالصَّغَارَ ، وَلا تَسَاحَوْا فِي لُغْبَةِ قَمَرٍ ^(٥) ، وَلا تَشَارِكُوا أَهْلَ الْبَطَالَةِ فِي أَمْرِ ، وَصَوْنُوا الْمَوَاعِيدَ مِنَ الْإِخْلَافِ ، وَالْأَيْمَانَ مِنْ حِنْثِ الْأَوْعَادِ وَالْأَجْلَافِ ، وَحَقُوقَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْأَزْدِرَاءِ وَالْإِعْتِسَافِ ، وَلا تَلَهَجُوا بِالْأَمَالِ الْعِجَافِ ^(٦) وَلا تَكْلَفُوا بِالْكُهَانَةِ وَالْأَرْجَافِ ، وَاجْعَلُوا الْعَمْرَ بَيْنَ مَعَاشٍ وَمَعَادٍ ، وَخُصُوصِيَّةَ وَابْتِعَادٍ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ بِالْمِرْصَادِ ، وَأَنَّ الْخَلْقَ بَيْنَ زَرْعٍ وَحَصَادٍ ، وَأَقْلُوا بَغِيرَ الْحَالَةِ الْبَاقِيَةِ الْمَهْمُومَ ، وَاحْذَرُوا الْقَوَاطِعَ عَنِ السَّعَادَةِ كَمَا تُحَذِّرُ السُّمُومَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْخَيْرَ أَوْ الشَّرَّ فِي الدُّنْيَا مُحَالٌ أَنْ يَدُومَ ، وَقَابِلُوا بِالصَّبْرِ أَذِيَّةَ الْمُؤَذِّنِ ، وَلا تَعَارِضُوا مَقَالَاتِ الظَّالِمِينَ ، فَاللَّهُ لِمَنْ بَغِيَ عَلَيْهِ خَيْرٌ النَّاصِرِينَ ، وَلا تَسْتَظْمُوا

(١) المتئات : ما يمت به أى يتوصل .

(٢) الرمانات : العاهات .

(٤) اللوشائح جمع وشيحة : وهى اشتباك القرابة .

(٥) قمره : غلبه فى لعب القمار .

(٦) العجاف جمع عجفاء : وهى المهزولة .

(٣) القنات : التمام .

حوادث الأيام كما نزلت ، ولا تَضَجُّوا للأمراض إذا أَعْضَلَتْ ، فكلُّ مُنْقَرِضٍ حقير ، وكلُّ مُنْقَاضٍ وإن طال قصير ، وانتظروا الفرج ، وانتشِقُوا من جَبَابِ اللَّهِ تعالى الأَرَجِ (١) ، وأوسِعُوا بالرجاء الجوانح ، واجنَحُوا إلى الخوف من الله تعالى فَطُوبَى لِعَبْدٍ إليه جانح ، وتضرَّعوا إلى الله تعالى بالدعاء ، والجنُّوا إليه في البأساء والضراء ، وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذي يقيد به الشارد ، وَيَعْدُبُ الوارد ، وَأَسْهِمُوا (٢) منها للساكين وأفضِلوا عليهم ، وعينُوا الحظوظ منها لديهم ؛ فمن الآثام : « يا عائشة أحسني جوارِ نعم الله ، فإنها قلَّه أزلت عن قوم فعادت إليهم » ، ولا تظنَّوا في النعم وتقصِّروا عن شكرها ، وتقابِكُمْ (٣) الجهالة بِسُكْرِها ، وتوهوا أن سعيكم جلبها ، وَجِدَّكُمْ حَلَبها ، فالله خير الرازقين ، والعاقبة للمتقين ، ولا فِعل إلا لله إذا نُظِرَ بعين اليقين ، والله لا تَنسُوا الفضلَ بينكم ، ولا تُذهَبوا بذهابِ زِينِكُمْ ، وليلتزم كل منكم لأخيه ، ما يشتد به توأخيه ، بما أمكنه من إخلاص وبرٍّ ، ومراعاةٍ في علانية وسرٍّ ، وللإنسان مزية لا تُجْهَل ، وحق لا يهْمَل ، وأظهروا التعاضد والتناصر ، ووصلوا التَّعَاهِدَ والتزاور ، تُرْغَمُوا بذلك الأعداء ، وتستكثروا الأوداء ، ولا تَتَنَافَسُوا في الحظوظ السَّخِيفَةِ ، ولا تتهارشوا تهاش السباع على الجيفة . واعلموا أن المعروف يَكْدُرُ بالامتنان ، وطاعة النساء شرٌّ ما أفسد بين الإخوان ، فإذا أسديتم معروفاً فلا تذكروه ، وإذا برز قبيح فاستروه ، وإذا أعظم النساء أمراً فاحقروه ، والله الله لا تَنسُوا مُقَارَضَةَ سَجَلِي (٤) ، وَبَرُّوا أهل مودتي من أجلي ، ومن رزقي منكم مالاً بهذا الوطن القَلِقِ المهاد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العَقَارِ ، فيصبح عُرضة للملَّة والاحتقار ، وساعياً لنفسه - إن تغلب العدو على بلده -

(١) الأرج : توهج ريح الطيب . (٢) أسهموا : أعطاه سبهاً .

(٣) في الأصل : • وتلقبكم • ، وأراه محرفاً عن • وتغلبكم • .

(٤) السجل : التصيب . والمعنى : إنكم مدينون لي بما قدمت لكم من معروفي ، فلا تنسوا أن تردوه

في الافتضاح والافتقار ، ومعوقاً عن الانتقال ، أمام النَّوْبِ الثَّقَالِ ، وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالإجمال في الطلب أولى ، وازهدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدنيا فغيرها لا يقوم بشرها ، ونفعها لا يقوم بضرها ، وأعقاب من تقدم شاهدة ، والتواريخ لهذه الدعوى عاضدة ، ومن بلي بها منكم فيستظهر بسعة الاحتمال ، والتقلل من المال ، وليحذر مُعادة الرجال ، وَمَزَلَّاتِ الأَدْلَالِ ، وفساد الخيال ، ومداخلة العيال ، وإفشاء السر ، وسُكْرُ الاغترار ، فإنه دَابُّ الغرِّ ، وَلَيْسُنِ الدَيَانَةِ ، وَيُؤْثِرُ الصَّمْتِ ويلازم الأمانة ، وَيَسِرُّ من رضا الله على أوضح الطرق ، ومهما اشتبه عليه أمرانِ قَصَدَ أَقْرَبَهُمَا إلى الحقِّ ، وَلَيْقِفْ في التماس أسباب الجلال دون الكمال غير النقصان ، والزعارعُ تسالم اللدن^(١) اللطيف من الأغصان ، وإياكم وطلب الولايات رغبةً واستجلاباً ، واستظهاراً على الخطوب وغلاباً ، فذلك ضرر بالروءات والأقدار ، داخ إلى الفضيحة والعار ، ومن أمتحن بها منكم اختياراً ، أو جبر عليه إكراهاً وإشاراً ، فليتلق وظائفها بسعة صدره ، ويبدل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره ، فالولايات فننة ومحنة ، وأسرُّ وإحنة ، وهي بين إخطاء سعادة . وإخلال بعبادة وتوقع عزل . وإدالة^(٢) بإزاء بيع جدد بهزل ، ومزلة قدم ، واستتباع ندم . ومآل العمر كله موت ومعاد ، واقتراب من الله وابتعاد . جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتنبيه ومن لا ينقطع بسببه عملُ أبيه . هذه - أسعدكم الله - وصيتي التي أصدرتها . وتجارتى التي لربحكم أدرتها . فتلقوها بالقبول لنصحها . والاهتداء بضوء صباحها . وبقدر ما أمضيت من فروعها . واستغشيت من دروعها . اقتنيت من المناقب الفاخرة . وحصلت على سعادة الدنيا والآخرة . وبقدر ما أضعت لآلئها النفيسة القيم . استكثرتم من بواعث الندم . ومهما ستمم إطالتيها . واستغزرتهم مقاتلتها ، فاعلموا أن تقوى الله فذلك^(٣) الحسب ، وضابط هذا الباب . كان الله خليفتي عليكم في كل حال . فالدنيا

(١) اللدن : اللبن .

(٢) الإدالة : الغلبة .

(٣) فذلك حسابه كحرج : أمهات وقرغ منه ، محترمة من قوله إذا أجل حسابه : فذلك كذا وكذا .

مُنَاحِ ارْتِحَالٍ ، وَتَأْمِيلِ الْإِقَامَةِ فَرَضٌ مُحَالٌ . فَالْمَوْعِدُ لِلانْتِقَاءِ دَارِ الْبَقَاءِ . جَمَلَ اللهُ مِنْ وَرَاءِ خُطَّتِهِ الْبِنَاءَ ، وَنَفَقَ بَضَاعَتَهَا الْمَرْجَاةَ^(١) . بِلَطَائِفِهِ الْمَرْتَجَاةَ . وَالسَّلَامَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَبِيبِكُمُ الْمَوْدِعِ . وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يُبَلِّغُهُ^(٢) حَيْثُ شَاءَ مِنْ شَمَلٍ مُتَصَدِّعٍ . وَاللَّحْمَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ . (نفع الطيب ٤ : ٤١٩)

١٨ - خطبة وعظية له

وَصَدَرَ عَنْهُ عَلَى لِسَانٍ وَاعِظٍ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَلِيِّ الْحَمِيدِ . الْمُبْدِيِّ الْمَعِيدِ . الْبَعِيدِ فِي قُرْبِهِ مِنَ الْعَبِيدِ . الْقَرِيبِ فِي بَعْدِهِ وَهُوَ أَقْرَبُ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ^(٣) . مُخْبِي رُبُوعِ الْعَارِفِينَ بِتَحِيَّاتِ حَيَاةِ التَّوْحِيدِ . وَمُفْنِي نَفُوسِ الزَّاهِدِينَ بِكُنُوزِ احْتِقَارِ الْاِفْتِقَارِ إِلَى الْعَرَضِ الزَّهِيدِ . وَمُخَلِّصِ خَوَاطِرِ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ سَجُونِ دُجُونِ^(٤) التَّقْيِيدِ . إِلَى فُسْحِ التَّجْرِيدِ . نَحْمَدُهُ وَلَهُ الْحَمْدُ الْمُنْتَظِمَةُ دُرَّرَهُ فِي سُلُوكِ الدَّوَامِ . وَسُمُوطِ^(٥) التَّأْيِيدِ . حَمْدٌ مِنْ نَزْوَةِ أَحْكَامِ وَحْدَانِيَّتِهِ . وَأَعْلَامِ فَرْدَانِيَّتِهِ ، عَنْ مَرَابِطِ التَّقْيِيدِ ، وَمَخَابِطِ الطَّبَعِ الْبَلِيدِ ، وَنَشْكُرُهُ شُكْرَ مَنْ افْتَتَحَ بِشُكْرِهِ أَبْوَابَ الْمَزِيدِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ شَهَادَةً تَنْخَطِي بِهَا مَعَالِمَ الْخَلْقِ ، إِلَى حَضْرَةِ الْحَقِّ ، عَلَى كَيْدِ التَّفَرِيدِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ قِلَادَةَ الْجِيدِ الْمَصِيدِ ، وَهَلَالَ الْعِيدِ ، وَفَذَلِكَ الْحَسَابِ وَبَيْتِ الْقَصِيدِ ، الْخُصُوصِ بِمَنْشُورِ الْإِدْلَالِ^(٦) ، وَإِقْطَاعِ الْكَمَالِ ، بَيْنَ مَقَامِ الْمُرَادِ وَمَقَامِ الْمُرِيدِ ، الَّذِي جَعَلَهُ السَّبَبَ الْأَوْصَلَ فِي نَجَاةِ النَّاجِي وَسَعَادَةِ السَّعِيدِ ، وَخَاطِبِ الْخَلَائِقِ عَلَى لِسَانِهِ الصَّادِقِ بِحُجَّتِي الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، فَكَانَ مِمَّا أَوْحَى بِهِ إِلَيْهِ ، وَأَنْزَلَ الْمَلَكُ بِهِ عَلَيْهِ ، مِنَ الذِّكْرِ الْحَمِيدِ ، لِيَأْخُذَ

(١) بَضَاعَةُ مَرْجَاةٍ : رَدِيئَةٌ أَوْ قَلِيلَةٌ يَرُدُّهَا وَيُدْفَعُهَا مِنْ رَأْمَا رَغْبَةً عَنْهَا ، وَنَفَقٌ لِلسَّلْمَةِ تَنْفِيْقًا :

رُوحَهَا . (٢) لَامُ الْجَرْحِ وَالصَّدْعِ كَقَطْعٍ ، وَالْأَمَةُ : سَدَةٌ .

(٣) مَرْقٌ فِي الْمَنْقِ . (٤) أَيْ ظِلَامٌ لِلتَّقْيِيدِ ، وَالذُّجُونُ جَمْعُ دَجْنٍ بِالْفَتْحِ : وَهُوَ الْبَاسُ التَّيْمُ الْأَرْضِ

وَأَقْطَارِ السَّمَاءِ . (٥) سُمُوطٌ جَمْعُ سَمَطٍ بِالسُّكُونِ : وَهُوَ خَيْطٌ مُنْتَظِمٌ . (٦) أَدْلٌ عَلَيْهِ : وَثَقٌ بِمَجْهَعِهِ .

بِالْحَجْرِ^(١) وَالْأَطْوَاقِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تَوْسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ. إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ. وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ. وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة تقوم ببعض حقه الأكيد ، وتُسرى إلى تربيته الزكية من ظهور المواجه الجائية على البريد :

قعدتُ لتذكير ، ولو كنتُ منصفاً لذكرتُ نفسى فى أحوجُ للذكرى
إذا لم يكن منى لنفسى واعظُ فياليت شعرى كيف أفل فى الأخرى؟
آه ، أى وعظ بعد وعظ الله تعالى يا أحبائنا يُسمع ، وفى ماذا - وقد تبين الرشدُ
من العى - يُطمع؟ يا من يُعطى ويمنع ، إذا لم تُقم الصنعة فماذا نضع؟ أجمعنا بقلوبنا
يا من يُفرق ويجمع ، ولين حديدها بنار خشيتك ، فقد استعاذ نبيك صلى الله عليه وسلم
من قلب لا يخشع ، ومن عين لا تندمع : اعلموا رحمكم الله أن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها
من الأقوال والأحوال ، ومن الجماد والحيوان ، وما أملاه الملوآن^(٢) ، فإن الحق نور
لا يضره أن صدر من الحامل ، ولا يقصر بمحموله احتقارُ الحامل ، وأتم تدرن أنكم
فى أطوار سقر لا تستقر لها دون الغاية رحلة ، ولا تتأنى معها إقامة ولا مهلة ، من
الأصلاب إلى الأرحام إلى الوجود ، إلى القبور إلى الشور إلى إحدى دارى البقاء ،
أفى الله شك؟ فلو أبصرتم مسافراً فى البرية بينى ويفرش ، ويُمهد ويعرش ، ألم تكونوا
تضعكون من جهله ، وتعجبون من ركاكة عقله؟ ووالله ما أموالكم ولا أولادكم ،
وشواغلكم عن الله ، التى فيها اجتهادكم ، إلا بقاء سقر^(٣) فى قفر ، أو إعراس

(١) العجز جمع حجرة كفرصة : وفى معقذ الإزار ، ومن المراديل موضع للشكة .

(٢) الملوآن : الليل والنهار .

(٣) السفر : جماعة المسافرين .

في ليلة نَفَر^(١) ، كأنكم بها مُطْرَحَةٌ تَمُوبُ فيها المواشي ، وتنبو العيونُ عن خبرها للتلاشي « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » ما بعد المِيقِلِ إلا الرِّحِيلِ ، ولا بعد الرِّحِيلِ إلا المَنْزِلُ الكَرِيمِ ، أو المَنْزِلُ الوَبِيلِ ، وإنكم تَسْتَقْبِلُونَ أهوالا ، سَكَرَاتُ المَوْتِ بَوَاكِرُ حَسَابِهَا ، وَعَتَبُ أُوْبَابِهَا ، فلو كَشَفَ النِّظَاءُ عن ذَرَّةٍ مِنْهَا لَذَهَبَتِ العُقُولُ وطاشت الألبابُ ، وما كلُّ حَقِيقَةٍ يشرحها الكلامُ ، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ » أفلا أعددتُم لهذه الوَرْطَةِ حِيَلَةٍ ، وأظهرتُم للاهْتِمَامِ بِهَا مَخِيلَةَ^(٢) ! أتعوِلا على عَفْوِهِ مع المِقاطعة؟ وهو القائلُ في مقام التَهْدِيدِ : « إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » ، أَمَّنَّا مِنْ مَكْرِهِ مع المِنايذة؟ « وَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » أطمعًا في رِحمته مع المِخالفة؟ وهو يقول : « فَسَاءَ كُتُبُهَا لِلَّذِينَ يَنْتَقُونَ » ، أَمْشاقَةٌ وَمَعَانِدَةٌ؟ « وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » ، أَشكَّا في الله؟ فتعالَوْا نُعيدُ الحِسابَ ، وَنُقِرِّرِ العَقْدَ ، وَنَتَصِّفَ بَدْعُوَةَ الحَقِّ (أَوْ غَيْرَهَا) مِنْ اليَوْمِ ، يُفْقَدُ عَقْدُ العَقَائِدِ عند التِساهلِ بالوعيد^(٣) ، فالعائِي يَدْمِي الأَصْبَعِ الوَجِعةَ ، والعارِفُ يَضْمُدُ لها مَبْدَأَ العَصَبِ :

هكذا هكذا يكون التَّعَامِي هكذا هكذا يكون الغُرُورُ
« يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ »
وما عدا ما بدا ، ورسولُكم الحَرِيصُ عَلَيْكُمْ الرِّعُوفُ الرَّحِيمُ يقولُ لَكُمْ : « الْكَيْسُ مِنْ دَانَ نَفْسِهِ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ ؛ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الأَمَانِي » فَعَلَامَ بَعْدَ هَذَا المَعْوَلِ ، وماذا يَتَأَوَّلُ ؟ اتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى فِي نَفْسِكُمْ وَأَنْصَحُواهَا وَاغْتَنِمُوا فُرْصَ الحَيَاةِ وَارْتَجِّئُوهَا ، « أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ

(١) أعرس القوم وعرسوا : نزلوا في آخر الليل للاستراحة ، ونفر الحاج من منى كضرب نفرأ ونفورا .

(٢) الخيلة : اللان . (٣) أى أن المرء إذا لم يحسب لوعيد الله حسابا ، واستعمل في اتقاف المعاصي والموهبات ، أفضى به ذلك إلى زلزلة العقيدة ، ولو أنه كان خالص الإيمان لارعى عما نهى عنه .

فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّاحِرِينَ ، وتنادى أخرى : « هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » ، وتستغيث أخرى : « يَا لَيْدِنَا نُرُدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » ، وتقول أخرى : « رَبِّ أَرْجِعُونِي » ، فَرَجِمَ اللَّهُ مِنْ نَظَرِ لِنَفْسِهِ ، قَبْلَ غُرُوبِ شَمْسِهِ وَقَدَّمَ لِفَعْدِهِ مِنْ أَمْسِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْحَيَاةَ تَجْرُؤُ إِلَى الْمَوْتِ ، وَالغَفْلَةَ تَقُودُ إِلَى الْقَوْتِ ، وَالصَّحَّةَ مَرَكَبَ الْأَلَمِ ، وَالشَّبِيهَةَ سَفِينَةَ تَقْطَعُ إِلَى سَاحِلِ الْمَهْرَمِ .

وإن شاء قال بعد الخطبة :

« إخواني ، ما هذا التواني ؟ والكلفُ بالوجود الغاني ، عن الدائم الباقي ، والدهر يقطع الأمانى ، وهادِمُ اللذات قد شرع في نقض المباني ، ألا معتبر في عالم هذه المعاني ، ألا مرتحل عن معانٍ هذه المعاني ^(١) ؟

أَلَا أُذُنٌ تُصْنِي إِلَى سَمِيعةٍ أَحَدْتَهَا بِالصَّدْقِ مَا صَنَعَ الْمَوْتُ
مَدَدْتُ لَكُمْ صَوْتِي فَأَوَّاهُ حَسْرَةً عَلَى مَا بَدَأَ مِنْكُمْ فَلَمْ يُسْمَعْ الصَّوْتُ
هُوَ الْقَدَرُ الْآتِي عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ فَتُوبُوا سِرَاعًا قَبْلَ أَنْ يَقَعَ الْفَوْتُ

يَا كَلِيفًا بِمَا لَا يَدُومُ ، يَا مَفْتُونًا بِغُرُورِ الْوُجُودِ الْمَدُومِ ، يَا صَرِيحَ جِدَارِ الْأَجْلِ الْمَهْدُومِ ، يَا مُشْتَفِلًا بَيْنِيانِ الطَّرِيقِ قَدْ ظَهَرَ الْمُنَاخُ وَقَرَّبَ الْقُدُومَ ، يَا غَرِيبًا فِي بَحَارِ الْأَمْلِ بِأَعْسَاكَ تَعُومُ ! يَا مُعَلَّلَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَلَمَعَ السَّرَابِ ^(٢) ، لَا بَدَّ أَنْ تَهْجُرَ الْمَشْرُوبَ وَتَتْرَكَ الْمَطْعُومَ ، دَخَلَ سَارِقُ الْأَجْلِ بَيْتَ عَمْرِكَ فَسَلَبَ النِّشَاطَ وَأَنْتَ تَنْظُرُ ، وَطَوَى الْبَسَاطَ وَأَنْتَ تُسْكِرَبُ ^(٣) ، وَاقْتَلَعَ جِوَاهِرَ الْجَوَارِحِ ، وَقَدْ وَقَعَ بِكَ النَّهْبُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ الْوَسَادَةَ عَلَى أَنْفِكَ وَيَقْعُدَ :

لَوْ خُفِّفَ الْوَجْدُ عَنِّي دَعَوْتُ طَالِبَ ثَارِي

« كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا » ، كَيْفَ التَّرَاخِي وَالْفَوْتُ مَعَ الْأَنْفَاسِ يُنْتَظَرُ ،

(١) المعاني : جمع معنى وهو المنزل .

(٢) السراب : ما يرى وسط النهار كأنه ماء . (٣) كربه لدم كمنصر : اشتد عليه .

كيف الأمان وهاجم الموت لا يُبقي ولا يذر ، كيف الركون إلى الطمع الفاضح وقد صحَّ الخبر؟ من فكر في كَرْبِ الخُمار^(١) تنفَّصت عنده لذةُ النيذ ، من أحسَّ بِلَفْظِ^(٢) الحريق فوق جِدَّاره ، لم يُصغِر بصوته لِنِعْمَةِ العود ، من تيقنَ بِذُلِّ العُرلة ، هان عليه ترك الولاية .

ما قامَ خيرُك يا زمانُ بشرِّه أُولَى لنا ما قلَّ منك وما كفى
أوحى الله سبحانه إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه : أن ضع يدك على متنِ ثور
فبِعَدَدِ ما حاذتَه من شعره تعيش سنين ، فقال: يارب وبعد ذلك؟ قال : تموت ، قال :
يارب فالآن .

رأى الأمرُ يُفِضِي إلى آخرِ فصيرَ آخره أُولَى
إذا شعرت نفسك بالليل إلى شيء فأعرض عليها غصّة فراقه « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ
عَنْ بَيْنَتِهِ ، وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَتِهِ » فالفروح به هو المحزون عليه ، أين الأحباب
مرثوا؟ فياليت شعري أين استقروا؟ استكانوا والله واضطربوا ، واستغاثوا من
سَبَقِكَ^(٣) بأوليائهم فقرثوا ، وليتهم إذ لم ينفعوا ما ضرثوا ، فالنازل من بعدهم خالية
خاوية ، والعروش ذابلة زاوية ، والعظام من بعد التفاصيل متشابهة متساوية ، والمساكن
تندب في أطلالها الذئاب العاوية .

صحتُ بالربيع فلم يستجيبوا ليت شعري أين يمضي الغريب؟
ويجنّب الدار قبره جديده منه يستسقى المكان الجديب
غاض قلبى فيه عند التماحي قلت : هذا القبر فيه الحبيب^(٤)
لأنسل عن رجعتى كيف كانت إن يوم البين يوم عصيب

(١) الخمار: سماع النحر وأذاها . (٢) أى برميهِ . (٣) هكذا فى الأصل ، وكان يمكن أن يقول : « واستغاث من سبقك بأوليائهم » إلا أن يخرج حل أن « من » مبتدأ مؤخر كما فى قوله تعالى : « مُثَمَّمٌ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ » وقوله : « وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » أو « من » بدل من وار الجماعه . (٤) لمح والله والتمحه : إذا أبصره بنظر خفيف .

باقتراب الموت علَّتْ نفسى بعدِ إني ، كلُّ آتٍ قريبٌ

أين المعمّر الخالد ، أين الولد أين الوالد ، أين الطارف أين التالد ، أين المجادل
أين المجادل؟ « هل تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرَاءً؟ » (١) وجوه علاهِنَّ
الترى ، وصحائفُ تفضّ ، وأعمال على الله تُعرَض ، بَحَثَ الزُّهَّادِ وَالْعُبَّادِ ، والعارفون
والأوتاد ، والأنبياء الذين يُهْدَى بِهِم العباد ، عن سبب الشقاء الذى لا سعادة بعده ،
فلم يجدوا إلا البعدَ عن الله تعالى ، وسببه حُبُّ الدنيا ، « لن تجتمع أمتى
على ضلالة » .

هَجَرْتُ حَبَائِي مِنْ أَجْلِ لَيْلِي فَمَا لِي بَعْدَ لَيْلِي مِنْ حَبِيبِ

وَمَاذَا أُرْتَجِي مِنْ وَصْلِ لَيْلِي سَتَجَزِي بِالْقَطِيعَةِ عَنْ قَرِيبِ

وقالوا: ما أوردَ النفسَ الموارِد ، وَفَتَحَ عَلَيْهَا بَابَ الْحَتْفِ إِلَّا الْأَمْلَ ، كما
قَوَّمَهَا مِثَاقِ الْخُدُودِ ، فَتَحَ لَهَا أَرْكَانَ الرَّخِصِ . كما عَقَدَتْ صَوْمَ الْعَزِيمَةِ ،
أهداها طَرْفَ الْغُرُورِ فِي أَطْبَاقٍ « حَتَّى وَإِذَا وَلَكِنْ وَرُبَّمَا » فأفرط القلبُ فى تَقْلِيْبِهَا
حتى أَفْطَرَ :

مَا أُوْبِقَ الْأَنْفَسَ إِلَّا الْأَمْلُ وَهُوَ غُرُورٌ مَا عَلَيْهِ عَمَلٌ

يَفْرُضُ مِنْهُ الشَّخْصُ وَهَمَّا مَالَهُ حَالٌ ، وَلَا مَاضٍ ، وَلَا مُسْتَقْبَلٌ

مَا فَوْقَ وَجْهِ الْأَرْضِ نَفْسٌ حَيَّةٌ إِلَّا قَدْ انْقَضَ عَلَيْهَا الْأَجَلُ

لَوْ أَنَّهُمْ مِنْ غَيْرِهَا قَدْ كَوَّنُوا لَأَمْتَلَأَ السَّهْلُ بِهِمْ وَالْجَبَلُ

مَا نَمَّمَ إِلَّا لَقَمٌ قَدْ هَيَّئَتْ لِمَوْتِ ، وَهُوَ الْأَكْلُ الْمُسْتَعَجِلُ

وَالْوَعْدُ حَقٌّ ، وَالْوَرَى فِي غَفْلَةٍ قَدْ خُودِعُوا بِعَاجِلٍ وَضَلُّوا

أَيْنَ الَّذِينَ شِيدُوا وَاغْتَرَسُوا وَمَهَّدُوا وَافْتَرَسُوا وَظَلُّوا؟

أين ذوو الراحات زادت حسرة
لم تدفع الأحبابُ عنهم غيرَ أن
الله في نفسك أولى من له
لا تتركنها في عمى وخبيرة
حقر لها الفاني، وحاول زهداها
وفد إلى الله بها مضطرةً
هو الفناء، والبقاء بعده
يا قرّة العين ويا حسرتها
إذ جنبوا إلى الثرى وانقلوا^(١)
بكوا على فراقهم وأعولوا
ذخرت نصحا وعتابا يقبل^(٢)
عن هول ما بين يديها تفعل
وشوقها إلى الذي تستقبل
حتى ترى السير عليها يسهل^(٣)
والله عن حكيمته لا يسأل
يوم يوفى الناس ما قد عملوا

يا طرد^(٤) المخالفة، إنكم مدرّكون، قاستبقوا باب التوبة، فإن ربّ تلك الدار
يُجير ولا يُجار عليه « فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا هَدَاكُمْ »، ياطفئلية الهمة،
دُشوا أنفسكم بزمر التائبين، وقد دُعوا إلى الله دعوة الخبيب، فإن لم يكن أكل فلا
أقلّ من طيب الولية، قال بعض العارفين: إذا عقد التائبون الصلح مع الله تعالى،
انتشرت رعايا الطاعة في عمالة الأعمال، « وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا. وَوُضِعَ
الْكِتَابُ » معاني هذا المجلس والله تسميم سحر، إذ استنشقه خمور الغفلة أفاق،
سعوط^(٥) هذا الوعظ ينقض^(٦) إن شاء الله زكمة البطالة، إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء،
إكسير^(٧) هذا الكتاب يلقب بحكمة جابر^(٨)، القلوب المنكسرة عين من كان له قلب

(١) جنبه: دفعه. (٢) أي اتق الله في نفسك التي هي أولى... الخ.
(٣) فد: أمر من وفد أي أقدم. (٤) الطريدة: ما طردت من صيد أو غيره.
(٥) في الأصل « سوط » وأراه محرفا من « سعوط » كما يدل عليه سياق الكلام، والصعوط: الدواء.
يصب في الأنف. (٦) في الأصل « يبخض » وأراه « ينقض » أي يذهب.
(٧) الإكسير: الكيمياء.

(٨) يريد جابر بن حيان. قال ابن القفطي في تاريخ الحكماء في ترجمته « هو جابر بن حيان الصوفي
السكراني، وكان متقدما في العلوم الطبيعية، وفي صناعة الكيمياء... الخ » وذكره ابن زيدون في
رسالته الهزلية، فقال: « وأظهرت جابر بن حيان حل سر الكيمياء » قال ابن نباتة في شرح للعيون:
« وأما جابر بن حيان المذكور فلا أعرف له ترجمة صحيحة في كتاب يعتمد عليه، وهذا دليل على قول =

« إِمَّا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ » إلهي دُلْنَا من حَيْرَةٍ يَضِلُّ فيها - إلا إن هَدَيْتَ - الدليلُ ، وَأَجْرِنَا من غَمْرَةٍ (١) وكيف - إلا يَاغَاثَتِكَ - السبيلُ ، نفوسٌ صَدِيٌّ من مرَّ الأزمان منها الصَّقِيلُ ، وَنَبَأٌ بِجُنُوبِهَا عن الحقِّ القَلِيلُ - وآذَانٌ أَنهَضَهَا القول الثَقِيلُ ، وَعَثَرَاتٌ لَا يَقْبَلُهَا إلا أنت يَا مُقِيلَ العَثَرَاتِ يَا مُقِيلَ ، أنت حَسْبُنَا ونعم (٢) الوكيلُ . (نفع الطيب ٤ : ٨٥)

١٩ - وصية موسى بن سعيد العنسي (٣) لابنه

قال أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي :
لما أردت النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة ، أول وصولي إلى الإسكندرية
رأى أبي أن يكتب لي وصية أجعلها إماماً في الغربية ، فبقى فيها أياماً إلى أن كتبتها
عنه ، وهي هذه :

أودِعَكَ الرَّحْمَنَ فِي غُرْبَتِكَ مُرْتَقِباً رُحْمَاهُ فِي أَوْبَتِكَ

= أكثر الناس إنه اسم موضوع وضمه المصنفون في هذا الفن : وزعموا أنه كان في زمن جعفر الصادق ،
وأنه إذا قل في كتبه : قال لي سيدي ، وسمعت من سيدي ، فإنه يعني به جعفر الصادق ، وقد قدمنا لك
أن جعفر الصادق توفي سنة ١٤٨ هـ

(١) الغمرة : الشدة . (٢) أورد المقرئ في نفع الطيب لسان الدين عقب ذلك كلاماً آخر في الوعظ
وهو على نمط ما أوردناه لك فانظره هناك إن شئت .

(٣) هو السكاكيت الشهير أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي ، من سلالة
عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه ، وقد نوه به ابن هود ملك الأندلس ، وولاد الجزيرة الخضراء ، وهو
من رحل من علماء الأندلس إلى المشرق ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٦٤١ هـ عن ٦٧ عاماً . وكان أبوه
محمد وزيراً جليلاً يعبد الصيت ، عالي الذكر ، رفيع الهمة ، كثير الأموال ، وكان ذا حظوة لدى الموحدين ،
وولى لهم أعمالاً كثيرة بمراكش وإشبيلية وغرناطة ، واتصلت ولايته على أعمال غرناطة ، وكان من
شيوخها وأعيانها .

وكان جده عبد الملك بن سعيد صاحب قلعة بني سعيد تحت طاعة علي بن يوسف بن تاشفين ملك البربر ،
إلى أن استبد بها سنة ٥٣٩ هـ .

وابنه أبو الحسن علي هو متمم كتاب : « المغرب في أخبار المغرب » ، وكان السبب في تأليفه هو
جده عبد الملك بن سعيد ، ثم عمه ابنه محمد بن عبد الملك ، ثم عمه ما بقى منه ابنه موسى بن محمد ،
ثم أربى حل الجميع في إتمامه علي بن موسى ، وقد ذكر في خطبته أنه بلغ في سنه ٥٣٠ هـ ،
ومنتهاه إلى غرة سنة ٦٤١ هـ ، وكان مولد أبي الحسن بغرناطة سنة ٦١٠ هـ ، ووفاته بمونس سنة ٦٨٥ هـ

وما اختياري كان طَوَّعَ النَّوَى
فلا تَطْلُ حَبْلَ النَّوَى ، إِنِّي
من كان مفتوناً بأبنائه
فاختصرِ التوديعَ أَخْذاً ، فما
واجعل وصاى تُصَبَّ عَيْنٌ ، ولا
خُلَاصَةَ العَمْرِ التي حُنَّكَتْ
فللتجاريبِ أُمُورٌ إِذَا
فلا تَسْمُ عَنْ وَعَيْهَا سَاعَةٌ
وكلَّ ما كابدته في النَّوَى
فليس يَدْرِي أَصْلُ ذِي غُرْبَةٍ
وكل ما يُفْضِي لِمُدْرٍ فلا
ولا تجالسُ مَنْ فَشَأَ جِهْلُهُ
ولا تجادلُ أَبداً حاسِداً
وامشِ المَؤَيَّنِي مُظَهِّراً عِفَّةً
أَفْشِ التَّحِيَّاتِ إِلَى أَهْلِهَا
وَأَنْطِقِ بِحَيْثُ العِيُ مُسْتَبَحٌّ
ولا تَزَلْ مُجْتَمِعاً طَالِباً
وكلما أَبْصَرْتَهَا أَمْكَنْتْ
وَلِجْ عَلَى رِزْقِكَ مِنْ بَابِهِ

لكنني أَجْرِي عَلَى بُغْيَتِكَ^(١)
واللهِ أَشْتاقُ إِلَى طَلْعَتِكَ
فإِنِّي أَمَعَنْتُ فِي خَيْرَتِكَ
لِي نَاطِرٌ يَقْوَى عَلَى فُرْقَتِكَ
تَبْرَحُ مَدَى الأَيامِ مِنْ فِكْرَتِكَ
فِي سَاعَةٍ زَفَّتْ إِلَى فِطْنَتِكَ^(٢)
طالعتها تَشْحَدُ مِنْ غَفْلَتِكَ
فإنها عَوْنٌ إِلَى يَقْظَتِكَ^(٣)
إياكُ أَنْ يَكْسِرَ مِنْ هِمَّتِكَ
وإنما تُعَرِّفُ مِنْ شِمَّتِكَ
تَجْمَلُهُ فِي الغُرْبَةِ مِنْ إِرْبَتِكَ^(٤)
وَأَقْصِدْ لِمَنْ يَرِغِبُ فِي صِنْعَتِكَ
فإنه أَدْعَى إِلَى هَيْبَتِكَ
وَأَبْغِ رِضا الأَعْيُنِ عَنْ هَيْبَتِكَ
وَنَبِّهِ النَّاسَ عَلَى رُبَّتِكَ
وَأصْمِتْ بِحَيْثُ الخَيْرُ فِي سَكْتَتِكَ
من دَهْرِكَ الفُرْصَةَ فِي وَثْبَتِكَ
ثِبْ وَاثِقاً بِاللَّهِ فِي مَكْنَتِكَ^(٥)
وَأَقْصِدْ لَهُ مَاعِشَتَ فِي بُكْرَتِكَ

(١) النوى : اللبنة . (٢) حنكت : أحكت . (٣) الليقظة بالحريك وسكنه الشعر .

(٤) الإربة : الحاجة .

(٥) المكنة بفتح فكسر : التمكن والقدرة ، وسكنه الشعر .

وَأَيَّاسٌ مِنَ الْوَدِّ لَدَى حَاسِدٍ .
وَوَفَّرَ الْجَهْدَ ، فَمَنْ قَصَدُهُ
وَوَفَّ كَلًّا حَقَّهُ ، وَلَتَكُنْ
وَلَا تَكُنْ تَحْقِرُ ذَا رُبِّيَّةٍ
وَحِينًا خِيَمْتَ فَأَقْصِدْ إِلَى
وَلِلرَّزَايَا وَثِيَّةٌ ، مَا لَهَا
وَلَا تَقُلْ : (أَسْلَمَ لِي وَحَدَّثِي)
وَالْتَزِمِ الْأَحْوَالَ وَزَنًّا وَلَا
وَلتَجْعَلِ الْعَقْلَ مَحْكَاً ، وَخَذْ
وَاعْتَبِرِ النَّاسَ بِالْفَاظِهِمْ
بَعْدَ اخْتِبَارِ مَنْكَ يَقْضِي بِمَا
كَمْ مِنْ صَدِيقٍ مُظْهِرٍ نُصَحَهُ
إِيَّاكَ أَنْ تَقْرَبَهُ ، إِنَّهُ
وَاقْنَعْ إِذَا مَا لَمْ تَجِدْ مَطْمَعًا
وَأَنْتُمْ نَمُوَ النَّبْتُ قَدْ زَارَهُ
وَإِنْ نَبَا دَهْرٌ فَوْطُنٌ لَهُ
فَكُلْ ذِي أَمْرٍ لَهُ دَوْلَةٌ
وَلَا تُضَيِّعْ زَمَانًا مُمَكِّنًا
وَالشَّرَّ مَهْمَا اسْتَطَعْتَ لَا تَأْتِهِ

ضِدُّ ، وَنَافِسُهُ عَلَى خُطَّتِكَ (١)
قَصْدُكَ لَا تَعْتَبِهِ فِي بَعْضَتِكَ
تَكْسِيرٌ عِنْدَ الْفَخْرِ مِنْ حَدَّثِكَ
فِيهِ أَنْفَعٌ فِي غُرْبَتِكَ
صُحْبَةٌ مِنْ تَرْجُوهُ فِي نُصْرَتِكَ
إِلَّا الَّذِي تَذْخُرُ مِنْ عُدَّتِكَ
فَقَدْ تَقَاسَى الذَّلَّ فِي وَحَدَّتِكَ
تَرْجِعْ إِلَى مَا قَامَ فِي شَهْوَتِكَ
كُلًّا بَمَا يَظْهَرُ فِي نَقْدَتِكَ
وَأَضْحَبْ أَخَا يَرْغَبُ فِي صُحْبَتِكَ
يُحْسِنُ فِي الْآخِذِ مِنْ خِلْطَتِكَ (٢)
وَفِكْرُهُ وَقَفَّ عَلَى عَشْرَتِكَ
عَوْنٌ مَعَ الدَّهْرِ عَلَى كُرْبَتِكَ
وَأَطْمَعْ إِذَا أَنْعَشْتَ مِنْ عُسْرَتِكَ
غَيْبُ النَّدَى ، وَأَسْمُ إِلَى قَدْرَتِكَ
جَاشَكَ ، وَانظُرْهُ إِلَى مُدَّتِكَ
فَوْفٌ مَا وَافَاكَ فِي دَوْلَتِكَ
تَذْكَارُهُ يَذْ كِي لَطَى حَسْرَتِكَ
فِيهِ حَوْزٌ عَلَى مَهْجَتِكَ (٣)

* * *

- (١) في الأصل « وأس من الورد » وقد أصلحته وإيأسه « وبه يستقيم المعنى .
(٢) الخبطة مثل العشرة وزنا ومعنى ، والخبطة بالضم : اسم من الاختلاط ، مثل الفارقة من الافتراق .
(٣) حازه حوزا : جمعه وضهه وامتلكه كاحتازه احتيازاً ، والمعنى : أنك إن أتيت الشر استحوذ على

نفسك وتملكك .

يا بُنَيَّ الذي لا ناصح له مثلى ، ولا منصوح لي مثله ، قد قدمت لك في هذا النظم ما إن أخطرتَه بخاطرك في كل أوان ، رجوتُ لك حسن العاقبة إن شاء الله تعالى ، وإن أخفَّ منه للحفاظ ، وأعلقَ بالفكر ، وأحقَّ بالتقدم قول الأول :

يَزِينُ الْغَرِيبَ إِذَا مَا اغْتَرَبَ ثَلَاثٌ ، فَمَنْ : حُسْنُ الْأَدَبِ
وَتَانِيَةٌ : حُسْنُ أَخْلَاقِهِ وَثَالِثَةٌ : اجْتِنَابُ الرَّيْبِ

وإذا اعتبرت هذه الثلاثة ، ولزمتها في الغربة ، رأيتها جامعة نافعة ، لا يكحكك إن شاء الله مع استعمالها ندم ، ولا يفارقك بر ولا كرم ، والله درُّ القائل :

يَعُدُّ رَفِيعَ الْقَوْمِ مَنْ كَانَ عَاقِلًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي قَوْمِهِ بِحَسِيبِ
إِذَا حَلَّ أَرْضًا عَاشَ فِيهَا بِعَقْلِهِ وَمَا عَاقِلٌ فِي بِلَدَةٍ بِغَرِيبِ
وَمَا قَصَّرَ الْقَائِلُ حَيْثُ قَالَ :

وَأَصْبِرْ عَلَى خَلْقِ مَنْ تُعَاشِرُهُ وَدَارِهِ ، فَالْيَبِ مِنْ دَارِي
وَاتَّخِذِ النَّاسَ كُلَّهُمْ سَكَنًا وَمِثْلَ الْأَرْضِ كُلَّهَا دَارًا
وَأَصْغُرْ يَا بُنَيَّ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ يَتِيمَةُ الدَّهْرِ^(١) ، وَسَلِّمِ الْكِرْمَ وَالصَّبْرَ :

وَلَوْ أَنَّ أَوْطَانَ الدِّيَارِ نَبَتْ بِكُمْ لَسَكَنْتُمْ الْأَخْلَاقَ وَالْآدَابَ^(٢)

إذ حُسنُ الخلقِ أكرم نزيل ، والأدبُ أرحب منزل ، ولتكن كما قال بعضهم في أديب متغرب : « وكان كلما طرأ^(٣) على ملك ، فكأنه معه ولد ، وإليه قصد ، غير مُستريب بدهره ، ولا مُنسكر شيئاً من أمره » ، وإذا دعاك قلبك إلى صحبة مَنْ أخذ بمجامع هواه^(٤) ، فاجعل التكلف له سأمًا ، وهبَّ في روض أخلاقه هبوبَ النسيم ، وحلَّ بطرفه حلولَ الوسن^(٥) وأنزل بقلبه نزولَ المسرة ، حتى يتمكن لك ودأده ، ويخلص فيك اعتقاده ، وطهر من الوقوع فيه لسانك ، وأغلق سمعك ، ولا ترخص

(١) يقال : درة يتيمة : أي لا نظير لها ، وكل شيء مفرد يميز نظيره فهو يتيم .

(٢) نابه منزله : إذا لم يرافقه . (٣) طرأ عليهم كنع : أتاهم من مكان ، أو خرج عليهم منه فجأة .

(٤) الضير فيه يعود له قلبك . . (٥) الوسن : النعاس .

في جانبه لحسودٍ لك منه ، يريد إبعادك عنه لمنفعتك ، أو حسود له يَفَارُ لتجمله بصحبتك
وَمَعَ هذا فلا تَغْتَرَّ بطول صحبته ، ولا تتمهّد بدوام رَقَدته ، فقد ينهيه الزمان ، ويُغَيِّرُ
منه القلبَ واللِّسانَ ، ولذا قيل : « إذا أَحْبَبْتَ فَأَحْبِبْ هَوْنًا مَّا ، ففي الممكن أن ينقلب
الصديق عدوًّا ، والعدو صديقًا » وإنما العاقل من جعل عقله مِغْيَارًا ، وكان كالمرآة
يَلْتَقِي كلَّ وجه بمثاله ، وجعل نُصْبَ ناظره قول أبي الطيّب :

ولما صار ودّ الناس خِيًّا جزيّتُ على ابتسامِ بابتسام^(١)

وفي أمثال العامة : « من سَبَقَكَ بيوم فقد سَبَقَكَ بِعَقْلٍ » ، فاحْتَدِ بِأَمْثَلِهِ من جَرَبٍ ،
واستمعْ إلى ما خَلَدَ الماضون بعد جَهْدِهِم وتَعَبِهِم من الأقوال ، فإنها خُلَاصَةُ عَمَرِهِم ،
وزُبْدَةُ تِجَارِهِم ، ولا تَسْكِلْ على عقلك ، فإن النظر فيما تَعِبَ فيه الناس طول أعمارهم ،
وابتاعوه غاليًا بتجاربههم ، يُرْحِكُ ويقع عليك رخيصًا ، وإن رأيت مَنْ له مِرْوَةٌ
وعقل وتجربة ، فاستفد منه ، ولا تضيع قوله ولا فعله ، فإن فيما تلقاه تلقيحًا لعقلك ،
وحنًا لك واهتداء .

وإياك أن تعمل بهذا البيت في كلِّ موضع : وَالْحُرُّ يُخَدِّعُ بِالْكَلَامِ الطَّيِّبِ :
فقد قال أحدهم : ما قيل أضرُّ من هذا البيت على أهل التجمل ، وليس كل ما تسمع من
أقوال الشعراء يحسنُ بك أن تتبعه حتى تتدبره ، فإن كان موافقًا لعقلك ، مُصْلِحًا
لحالك ، فراعِ ذلك عندك : وإلا فأنبذْه نَبْذَ النَوَاةِ ، فليس لكل أحد يُتَبَسَّمُ ، ولا كل
شخص يُكَلِّمُ ، ولا الجود مما يُعْمُ به ، ولا حُسْنُ الظنِّ وطيب النفس مما يعامل به كل
أحد ، والله درّ القائل :

ومالي لا أوفى البرية قسطها على قدر ما يعطى وعقلي ميزان

وإياك أن تُعْطِيَ من نُسْكَ إلا بِقَدْرٍ ، فلا تعاملِ الدُّونَ بمعاملة الكفاء ، ولا

السكف بمعاملة الأعلى ، ولانضيق عرك فيمن يمالك بالمطامع ، وَيُنِيْبِك على مصلحة
حاضرة عاجلة ، بغائبة آجلة ، واسمع قول الأول :

وَبِعْ أَجْلاً مِنْكَ بِالْعَاجِلِ : وَأَقْلِلْ مِنْ زِيَارَةِ النَّاسِ مَا اسْتَطَعْتَ ، وَلَا تَجْفَمْهُمْ
بِالْجَلَّةِ ، وَالْكَنْ يَكُونُ ذَلِكَ بِمَيْتٍ لَا يَلْحَقُ مِنْهُ مَالٌ وَلَا ضَجْرٌ وَلَا جَفَاءٌ ، وَلَا تَقُلْ
أَيْضاً : أَعْمُدُ فِي كِسْرِ يَدِي ، وَلَا أَرَى أَحَدًا ، وَأَسْتَرِيحُ مِنَ النَّاسِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَسَلٌ دَائِعٌ
إِلَى الذِّلِّ وَالْمَهَانَةِ ، وَإِذَا عِلِمَ عَدُوُّكَ أَوْ صَدِيقُكَ مِنْكَ ذَلِكَ ، عَامِلًا بِحَسَبِهِ ، فَازْدِرَاكُ
الصَّدِيقِ ، وَجَسْرَ عَلَيْهِ الْعَدُوِّ ، وَإِيَّاكَ أَنْ يَفْرُكَ صَاحِبُكَ عَنْ أَنْ تَدَّخِرَ غَيْرَهُ لِلزَّمَانِ ،
وَتَطِيْعُهُ فِي عِدَاوَةِ سِوَاهُ ، فَمَنْ الْمُمْكِنُ أَنْ يَتَغَيَّرَ عَلَيْكَ ، فَتَطْلُبُ إِعَانَةَ غَيْرِهِ ، أَوْ اسْتِغْنَاءَ
عَنْهُ ، فَلَا تَجِدُ ذَخِيرَةَ قَدَمَتَيْهَا ، وَكَانَ هُوَ فِي أَوْسَعِ حَالٍ ، وَأَعْلَى رَأْيٍ ، بِمَا دَبَّرَهُ بِحِيلَتِهِ
فِي انْقِطَاعِكَ عَنْ غَيْرِهِ ، فَلَوْ اتَّفَقَ لَكَ أَنْ تَصْحَبَ مِنْ كُلِّ صِنَاعَةٍ وَرِيَاةٍ ، مَنْ يَكُونُ
لَكَ عُدَّةً ، لَكَانَ ذَلِكَ أَوْلَى وَأَصَوَّبَ ، وَسَلِّني فَإِنِّي خَيْرٌ ، طَال - وَاللَّهِ - مَا صَحَبْتُ
الشَّخْصَ أَكْثَرَ عَمْرِي ، لَا أَعْتَمِدُ عَلَى سِوَاهُ ، وَلَا أَعْتَدُ إِلَّا إِيَّاهُ ، مِنْخَدَعًا بِسِرَّابِهِ ،
مُوْتَوْقًا فِي جِبَائِلِ خِطَابِهِ ، إِلَى أَنْ لَا يَحْصُلَ لِي مِنْهُ غَيْرُ الْعَضِّ عَلَى الْبَنَانِ ، وَقَوْلٌ : لَوْ كَانَ
وَلَوْ كَانَ ! وَلَا يَحْمِلَنَّكَ أَيْضًا هَذَا الْقَوْلُ أَنْ تَنْظَنَّهُ فِي كُلِّ أَحَدٍ ، وَتَمَجِّلَ الْمَكَافَاةَ ،
وَلَيْسَ حَسَنُ الظَّنِّ بِمَقْدَارٍ مَا ، وَالْفَيْطَانُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مَحَابِلُ الْأَحْوَالِ ، وَفِي الْوُجُوهِ
دَلَالَاتٌ وَعَلَامَاتٌ ، وَأَصْفَرُ إِلَى الْقَائِلِ :

لَيْسَ ذَا وَجْهِ مَنْ يَضِيفُ وَلَا يَقْدِرُ سَرِيًّا وَلَا يَدْفَعُ الْأَذَى عَنْ حَرِيمٍ ^(١)
فَمَنْ يَكُنْ لَهُ وَجْهٌ مِثْلُ هَذَا الْوَجْهِ قَوْلٌ وَجْهَكَ عَنْهُ قَبِيلَةٌ تَرْضَاهَا ، وَلْتَحْرَسْ جِهْدَكَ
عَلَى أَنْ لَا تَصْحَبَ أَوْ تَحْدُمَ إِلَّا رَبَّ حِشْمَةٍ وَنِعْمَةٍ ، وَمَنْ نَشَأَ فِي رِفَاهِيَةِ وَمُرُوءَةٍ ،
فَإِنَّكَ تَنَامُ مَعَهُ فِي مِهَادِ الْعَافِيَةِ ، وَإِنْ الْجِيَادُ عَلَى أَعْرَاقِهَا ^(٢) تَجْرِي ، وَأَهْلُ الْأَحْسَابِ

(١) ضافه يضيفه : نزل به ضيفاً ، وقرى للضيف كرمي : أحسن إليه .

(٢) الأعراق : جمع عرق بالكسر وهو الأصل .

والمروءات يتركون منافهم متى كانت عليهم فيها وَصْبَةٌ ، وقد قيل في مجلس عبد الملك ابن مروان: أَشْرَبَ مُصْعَبُ الْخَمْرِ؟ فقال عبد الملك - وهو عدو له محارب له على الملك - : لو علم مُصْعَبُ أن الماء يُفسد مروءته ما شربه ؛ وَالْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ .

يابنى ، وقد علمت أن الدنيا دار مفارقة وَتَغْيِيرٍ ، وقد قيل : « أَصْحَبٌ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ » فمتى فارقت أحداً فَعَلَيْ حُسْنِي فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، فإنك لا تدري : هل أنت راجع إليه ؟ فلذلك قال الأوَّل :

« وَلَمَّا مَضَى سَلْمٌ بِكَيْتٍ عَلَى سَلْمٍ » ، وَإِيَّاكَ وَالْبَيْتَ السَّائِرَ :

وَكَنتَ إِذَا حَلَلْتَ بَدَارَ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخَزِيئَةٍ وَتَرَكَتَ عَارَا
وَاحْرَصْ عَلَى مَا جَمَعَ قَوْلَ الْقَائِلِ : « ثَلَاثَةٌ تُبْسِقُ لَكَ الْوَدَّ فِي صَدْرِ أَخِيكَ : أَنْ تَبْدَأَهُ بِالسَّلَامِ ، وَتَوْسِعَ لَهُ فِي الْجُلُوسِ ، وَتَدْعُوهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ » ، واحذر كل ما بينه لك القائل : « كُلُّ مَا تَعْرِسُهُ تَجْنِيهِ إِلَّا ابْنَ آدَمَ ، فَإِنَّكَ إِذَا غَرَسْتَهُ يَقْلَعُكَ » وقول الآخر : « ابْنُ آدَمَ يَتَمَسَّكُنُ حَتَّى يَتِمَّ كُنَّ » وقول الآخر : « ابْنُ آدَمَ ذَنْبٌ مَعَ الضَّعْفِ ، أَسَدٌ مَعَ الْقُوَّةِ » .

وإياك أن تثبت على صُحْبَةِ أَحَدٍ قَبْلَ أَنْ تُطِيلَ اخْتِبَارَهُ ، فيحكى أن ابن المقفع خطب من الخليل صُحْبَتَهُ ، فجأوبه : « إِنْ الصُّحْبَةُ رِيقٌ ، وَلَا أَضْعُ رِيقٌ فِي يَدِكَ حَتَّى أَعْرِفَ كَيْفَ مَلَكَتُكَ ^(١) » ، وَأَسْتَمَلِ ^(٢) مِنْ عَيْنِ مَنْ تَعَاشَرَهُ ، وَتَفَقَّدْ فِي فَلَتَاتِ الْأَلْسُنِ وَصَفَحَاتِ الْأَوْجِهَةِ ، وَلَا يَحْمِلُكَ الْحَيَاءُ عَلَى السَّكُوتِ عَمَا يَضْرُكُ أَنْ لَا تَبَيَّنَهُ ، فَإِنَّ الْكَلَامَ سِلَاحَ السَّلْمِ ، وَبِالْأَنْبِيَاءِ يُعْرَفُ أَلْمُ الْجُرْحِ ، وَاجْعَلِ الْكُلَّ أَمْرًا أَخَذْتَ فِيهِ غَايَةَ تَجْعَلُهَا نِهَايَةَ لَكَ .

(١) ملكه ملكة بالتحريك ، وملكها ملك الميم ، وملكها ملك اللام : احتواء قادراً على الاستعداد به .

(٢) من استملته الكتاب : سأله أن يمليه على ، والمعنى : استرشد وتبين من نظرات عينه أحبيب

وَأَكْذُبُ مَا أَوْصِيكَ بِهِ أَنْ تَطْرَحَ الْأَفْكَارَ ، وَتَسَلِّمَ لِلْأَقْدَارِ .

وَأَقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ مَنْ قَرَّرَ عَيْنًا بِعَيْشِهِ نَفْعَهُ

إِذَا الْأَفْكَارَ تَجَلَّبَبَ الِهْمُومُ ، وَتَضَاعَفَ الْغُمُومُ ، وَمَلَازِمَةُ الْقُطُوبِ ، عُنْوَانُ الْمَصَائِبِ
وَالْخُطُوبِ ، يَسْتَرِيبُ بِهِ الصَّاحِبُ ، وَيَشْمَتُ الْعَدُوُّ الْمُجَانِبُ ، وَلَا تَضُرُّ بِالْوَسَاوِسِ إِلَّا
نَفْسُكَ ، لِأَنَّكَ تَنْصَرِبُ بِهَا الدَّهْرَ عَلَيْكَ ، وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ :

إِذَا مَا كُنْتَ لِلْأَحْزَانِ عَوْنًا عَلَيْكَ مَعَ الزَّمَانِ فَمَنْ تَلُومُ

مَعَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْفَائِتَ الْحَزْنَ ، وَلَا يَرْعَى بِطُولِ عَتَبِكَ الزَّمْنَ ، وَلَقَدْ
شَاهَدْتُ بَعْرَ نَاطَةِ شَخْصًا قَدْ أَلْفَتَهُ الِهْمُومُ ، وَعَشِقْتَهُ الْغُمُومُ ، مِنْ صَفْرِهِ إِلَى كِبَرِهِ ، لَا تَرَاهُ
أَبْدًا خَلِيًّا مِنْ فِكْرِهِ ، حَتَّى لُقِّبَ بِصَدْرِ الِهْمِ ، وَمَنْ أَعْجَبَ مَا رَأَيْتَهُ مِنْهُ أَنَّهُ يَتَنَكَّدُ
فِي الشَّدَةِ ، وَلَا يَتَعَلَّلُ بِأَنْ يَكُونَ بَعْدَهَا فَرْجٌ ، وَيَتَنَكَّدُ فِي الرِّخَاءِ خَوْفًا مِنْ أَنْ لَا يَدُومَ .
وَيُنْشِدُ : تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ ، وَيُنْشِدُ : وَعِنْدَ التَّنَاهَى يَقْضُرُ الْمُتَطَاوِلُ .

وَلَهُ مِنَ الْحِكَايَاتِ فِي هَذَا الشَّانِ عَجَائِبُ ، وَمِثْلُ هَذَا عُمرُهُ مَحْشُورٌ يَمُرُّ ضِيَاعًا .

وَمَتَى رَفَعْتَ الزَّمَانَ إِلَى قَوْمٍ يَذْمُونَ مِنَ الْعِلْمِ مَا تُحْسِنُهُ حَسَدًا لَكَ ، وَقَصْدًا لِتَصْغِيرِ
قَدْرِكَ عِنْدَكَ ، وَتَزْهِيدًا لَكَ فِيهِ ، فَلَا يَحْمِلُكَ ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَزْهَدَ فِي عِلْمِكَ ، وَتَرَكَنَ إِلَى
الْعِلْمِ الَّذِي مَدَحُوهُ ، فَتَكُونَ مِثْلَ الْغُرَابِ الَّذِي أَعْجَبَهُ مَشْيُ الْحَجَلَةِ (١) فَرَامَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ
فَصَعِبَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَشْيِهِ فَنَسِيَهُ ، فَبَقِيَ مُخْبَلِّبَ الْمَشْيِ ، كَمَا قِيلَ :

إِنَّ الْغُرَابَ (وَكَانَ يَمْشِي مِشْيَةً فِيمَا مَضَى مِنْ سَالِفِ الْأَجْيَالِ) (٢)

حَسَدَ الْقَطَا ، وَأَرَادَ يَمْشِي مِشْيَهَا فَأَصَابَهُ ضَرْبٌ مِنَ الْعُقَالِ (٣)

(١) الحجل بالتحريك : طائر على قدر الحمام كالقطا أحر المنقار والرجلين ، والواحدة حجلة واسم جمعه
حجل بكسر فسكون ففتح ولا نظير له سوى ظربي (ومفرده ظربان يفتح فكسر وهو دويبة منتنة الريح)
(٢) هذا البيت ليس مثبتاً في الأصل ، ونجدته أوردته الدميري مع البيهقي بمسده في حياة الحيوان
الكبرى ٢ : ٢٤٤ . (٣) العقال : داء في رجل الدابة إذا مشى ظلع ساعة ثم انبسط .

فَأَضَلَّ مِشِيَّتَهُ ، وَأَخْطَأَ مَشِيئَتَهَا فَلِذَلِكَ سَمَّوْهُ أَبَا مِرْزَالٍ^(١)
 وَلَا يُفْسِدُ خَاطِرَكَ مَنْ جَعَلَ يَدُومَ الزَّمَانِ وَأَهْلَهُ ، وَيَقُولُ : « مَا بَقِيَ فِي الدُّنْيَا
 كَرِيمٌ وَلَا فَاضِلٌ ، وَلَا مَكَانٌ يُرْتَأَى فِيهِ » ، فَإِنَّ الَّذِينَ تَرَاهُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ ، أَكْثَرُ
 مَا يَكُونُونَ مِنْ صَحْبِهِ الْحَرَمَانِ ، وَاسْتَحَقَّتْ طَلْعَتُهُ لِهَوَانِ ، وَأَبْرَمُوا^(٢) عَلَى النَّاسِ
 بِالسُّؤَالِ فَفَتَنُوهُمْ ، وَعَجَزُوا عَنْ طَلَبِ الْأُمُورِ مِنْ وَجْهِهَا ، فَاسْتَرَا حُوا إِلَى الْوُقُوعِ
 فِي النَّاسِ ، وَإِقَامَةِ الْأَعْذَارِ لِأَنْفُسِهِمْ بِقَطْعِ أَسْبَابِهِمْ ، وَتَعْذِيرِ أُمُورِهِمْ ، وَلَا تُزَلُّ هَذِينَ
 الْبَيْتَيْنِ مِنْ فِكْرِكَ :

لِنْ إِذَا مَا نِلْتَ عِزًّا فَأَخُو الْعِزِّ يَلِينُ
 فَإِذَا نَابَكَ دَهْرٌ فَكَمَا كُنْتَ تَكُونُ

وَقَوْلِ الْآخِرِ :

تَهْ وَارْتَفِعْ إِنْ قِيلَ أَقْتَرُ ، وَانْخَفِضْ إِنْ قِيلَ أَثْرَى^(٣)
 كَالْفِصْنِ يَسْفُلُ مَا أَكْتَسَى ثَمَرًا ، وَيَعْلُو مَا تَعَرَّى

وَلَا قَوْلِ الْآخِرِ :

الْخَيْرُ يَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادٍ
 وَاعْتَقِدْ فِي النَّاسِ مَا قَالَهُ الْقَائِلُ :

وَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسَ أَمْرَهُ وَمَنْ يَفُو لَّا يَعْدَمُ عَلَى الْعَيْ لَأَمَّا
 وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُ الْقَائِلِ :

بِقَدْرِ الصُّعُودِ يَكُونُ الْمَبْطُوعُ فَيَايَاكَ وَالرُّتَبَ الْعَالِيَةَ
 وَكُنْ فِي مَكَانٍ إِذَا مَا سَقَطَتْ تَقَوْمٌ وَرَجَلَاكَ فِي عَافِيَةٍ
 وَتَحْفَظُ بِمَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُ الْآخِرِ :

(١) مَنْ أَرَقَّتِ الدَّابَّةُ : إِذَا أَسْرَعَتْ . (٢) أَوْرَدَ لِلْعَمَلِ لِأَنَّهُ لَازِمًا وَهَرَمْتَهُ ، جَاءَ فِي كِتَابِ الْفَرَسِ :
 « أَبْرَمَهُ فَبَرَمَ كَفَرَحَ وَتَبَرَمَ : أَسْلَمَ قَلَّ » . (٣) أَقْتَرُ : انْقَطَرَ .

ومن دعا الناس إلى ذمِّه ذمُّوه بالحقِّ وبالباطلِ

وللهِ در القائل :

ما كلُّ ما فوق البسيطة كافيًا فإذا قنعت فكلَّ شيءٍ كافي
والأمثال يضرِّبها لدى اللبِّ الحكيم ، وذو البصر يمشي على الصراط المستقيم ،
والفطن يفتن بالقليل ، ويستدلّ باليسير ، والله سبحانه خليفتي عليك ، لا ربَّ سواه .
(فتح الطيب ١ : ٤٩٣)

٢٠ - خطبة ابن الزيات المنزوعة الألف (توفي سنة ٧٢٨ هـ)

وخطب أحمد بن الحسن بن عليّ بن الزيات^(١) خطبة ألفت من حروفها على
كثرة ترددها في الكلام ، وهي :

« حَمِدْتُ رَبِّي جَلًّا مِنْ كَرِيمٍ مَحْمُودٍ ، وَشَكَرْتُهُ عَزًّا مِنْ عَظِيمٍ مَعْبُودٍ ، وَرَزَّاهُ
عَنْ جَهْلٍ كُلِّ مُلْحِدٍ كَفُورٍ ، وَقَدَّسْتُهُ عَنْ قَوْلِ كُلِّ مُفْسِدٍ غَرُورٍ . كَبِيرٌ لَوْ تَقَوَّمَ
فِي فَهْمٍ مُلْحِدٌ^(١) ، قَدِيرٌ لَوْ تَصَوَّرَ فِي رَسْمٍ مُلْحِدٌ^(٢) ، لَوْ عَرَّتَهُ^(٣) فِكْرَةٌ تَصَوَّرَ لَتَصَوَّرَ
وَلَوْ حَدَّثَتْهُ فِكْرَةٌ لَتَقَدَّرَ^(٤) ، وَلَوْ فَهِمَتْ لَهُ كَيْفِيَةٌ لَبَطَلَ قَدَمُهُ ، وَلَوْ عَلِمَتْ لَهُ كَيْفِيَةٌ
لَحْصَلَّ عَدَمُهُ ، وَلَوْ حَصَرَ فِي ظَرْفٍ لَقُطِعَ بَتَجَسُّمِهِ ، وَلَوْ قَهَرَ وَصَفَ لَصُدِعَ^(٥)
بَتَقْسُّمِهِ ، وَلَوْ فَرَضَ لَهُ شَبَحَ لَرَهَقَهُ^(٦) كَيْفٌ . عَظِيمٌ مِنْ غَيْرِ تَرْكِيْبٍ قَطْرٌ ، عَلِيمٌ مِنْ

(١) هو أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات الخطيب المتصوف ، من أهل بلش ما لقة وله سنة ٧٤٩ هـ ،
وتوفى سنة ٧٢٨ هـ . قال فيه لسان الدين بن الخطيب : « كان يفتح مجالسه أكثر الأحيان بخطب غريبة ،
يطبق بها مفاسل الأغراض التي يشرع فيها ، وينظم الشعر دائما في مراجعته ومحاطبته وإجازته من غير
أن ولا روية ، حتى اعتاده ملكة ، واستعمل في السفارات بين الملوك لدحض السخام ، وإصلاح الأمور ،
فكانوا يوجبون حقه ، ويلتمسون بركته ودعاه » وله تصانيف كثيرة ذكرها ابن الخطيب .

(١) أي لعرف ، من الحد : وهو التعريف . (٢) من التحديد ، أي لصارت له ذات محددة ،
ولو أنه قال : « قديم » بدل « قدير » لناسب أن يقول بعده : « لجد » بالجيم المفتوحة أي لصار
جديداً حادثاً . (٣) عرته : أي اصترته وتناوكت ، وفي الأصل « عدته » بالبدال وأراه محرفاً ،
وتصور أي تمثل في صورة ، يقال : صورته فتصور . (٤) لتقدر : أي صار له قدر مجسم ، وفي
الأصل « لتذر » وأراه محرفاً . (٥) صدع به : جهر . (٦) رهقه : غشيه ولحقه .

غير ترتيب فكر، موجود من غير شيء يُمسكه، معبود من غير وهم يدركه، كريم من غير عوض يلحقه، حكيم من غير عرض يلحقه^(١)، قوى من غير سبب يجمعه، على من غير سبب يرفعه، لو وجد له جنس لعرض في قيوميته^(٢)، ولو ثبت له حس لنوزع في ديموميته^(٣).

ومنها: تقدس وعز فعله، وتنزه عز اسمه وفضله، جل قاهر قدرته، وعز باهر عزته، وعظمت صفته، وكثرت منته، فتق ورتق، وصور وخلق، وقطع ووصل، ونصر وخذل، حمدته حمد من عرف ربه، ورهب ذنبه، وصفت حقيقة يقينه قلبه، وزكك^(٤) بصيرة دينه لبه، ربط سلك سلوكه وشده^(٥)، وهدم صرح عتوه وهده، وحرس معقل عقله وحد، وطرده غرور غرته^(٦) ورذله^(٧)، علم علم تحقيق فنحاحوه، نقر له عز وجل بثبوت ربوبيته وقدمه، ونعتقد صدور كل جوهر وعرض عن جوده وكرمه، ونشهد بتبليغ محمد صلى ربه وسلم عليه، رسوله وخير خاتمه، ونعلن بنهوضه في تبين فرضه، وتبليغ شرعه، ضرب قبة شرعه فنسخت كل شرع، وجدد عزيمته فقمع عدوه خير قمع، قوم كل مقوم بقويم سنته، وكريم هديه، وبين لقومه كيف يره كنون^(٨)، ففازوا بقصده وسديد سعيه، بشر مطيعه فظفر برحمته، وحذر عاصيه فشقق بنقمته.

وبعد: فقد نصحتكم لو كنتم تعقلون، وهديتكم لو كنتم تعلمون، بصرتم لو كنتم تبصرون، وذكركم لو كنتم تذكرون، ظهرت لكم حقيقة نشركم،

(١) يلحقه الأول: أي يناله ويأخذه، ويلحقه الثاني بمعنى يتصف به.

(٢) القيوم: من أسماءه تعالى، أي الذي لا نلد له. (٣) الديمومة: الدوام.

(٤) زكت: طهرت.

(٥) في الأصل « وشيد » وأراه محرفاً عن « شد » إذ هي التي تلائم قوله قبلها « وربط ».

(٦) الغرة: الغفلة. (٧) رذله وأرذله: عده رذلاً.

(٨) ركن إلى الشيء: ركنا: مال إليه واطمان، أي بين لهم كيف يركنون إلى الحق والصواب،

وقد كانوا من قبله يعمهون في ضلالهم ويخطون.

وبرزت لكم حقيقة حشركم ، فكم تركضون في طلق^(١) غفلتكم ، وتفعلون عن يوم بعثكم ، وللموت عايكم سيف مسلول ، وحكم عزم غير معلول ، فكيف بكم يوم يؤخذ كل بذنبه ، ويخبر بجميع كسبه ، ويفرق بينه وبين صحبه ، ويعدم نصرة حزبه ، ويشغل بهمة وكرهه ، عن صديقه وتربه ، وتلشر له رُقعة ، وتمين له بُقعة ؟ فرج عبد نظر وهو في مهل لنفسه ، وترسل في رضى عمل جنة لجلول رمسه^(٢) وكسر صنم شهوته ، ليقر في مجبوحة^(٣) قدسه .

ومنها : فتلبه - ويحك - من سنتك ونومك ، وتفكر فيمن هلك من محبتك وقومك ، هتف بهم من تعلم ، وشب عايهم منه حرق^(٤) مظلم ، فخربت بصيخته ربوعهم ، وتفرقت لهوله جموعهم ، وذل عزيزهم ، وخسى ربيعهم ، وصم سميعهم ، فخرج كل منهم عن قصره ، ورمي غير مؤسد في قبره ، فهم بين سعيد في روضة مقرب ، وبين شقي في حفرة معدب ، فستوهب منه عز وجل عصمة من كل خطيئة ، وخصوصية تقى من كل نفس جريئة^(٥) .

(الإحاطة ، في أخبار غرناطة ١ : ١٥٤)

٢١ - خطبة القاضي عياض التي ضمنها سور القرآن

وخطب القاضي أبو الفضل عياض^(٦) خطبة ضمنها سور القرآن ، فقال :
« الحمد لله الذى افتتح بالحمد كلامه ، وبيّن فى سورة البقرة أحكامه ، ومدد

(١) يقال : جرى الفرس طلقاً أو طلقين : أى شوطاً أو شوطين . (٢) الرسم : القبر .

(٣) مجبوحة المكان : وسطه . (٤) الحرق : النار ولهبها .

(٥) يلاحظ أن فى الخطبة خمس كلمات فيها ألف وهمى : قاهر . باهر . عاصيه . ففازوا . فنحا

(٦) هو القاضى أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض ولد سنة ٤٧٦ هـ ، بسبته - بلد براكش على الساحل الشمالى ودخل الأندلس طالباً لعلم ، فأخذ بقرطبة عن جماعة ، وجمع من الحديث كثيراً ، وكان له به كبير عناية ، وكان إمام وقته فيه ، وفى النحو واللغة ، واستفضى ببلده سبته ، ثم نقل منها إلى قضاء غرناطة ، وتوفى ببراكش سنة ٥٤٤ هـ ، قال المقرئ بعد أن أورد هذه الخطبة : « وفى نفسى من نصبتها له شيء ، لأن نفس القاضى فى البلاغة أهل من هذه الخطبة ، وانه تعالى أعلمه .

في آلِ عِمْرَانَ والنساءِ مائدةَ الأنعامِ لِيُتِمَّ إنعامه ، وجعل في الأعرافِ أُنفالَ تَوْبَةٍ
يونسَ والرِّ كِتَابُ أَحْكَمَتِ آيَاتُهُ ، بمجاورة يوسف الصِّدِّيقِ في دار الكرامة ،
وسَبَّحَ الرعدُ بحمده ، وجعل النارَ بَرْدًا وسلامًا على إبراهيم ، لِيُؤْمِنَ أَهْلُ الحِجْرِ^(١)
أنه إذا أتى أمرُ اللهِ سبحانه فلا كَهْفَ ولا ملجأَ إلا إليه ، ولا يُظْلَمُونَ قَلَامَةً ، وجعل
في حروف كَهَيْعَصَ سِرًّا مكنونًا ، قدَّم بسببه طه صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء
ليُظْهَرَ إجلاله وإعظامه ، وأوضح الأمرَ حتى حَجَّ المؤمنونَ بِنورِ الفُرْقَانِ ، والشعراءُ
صاروا كالنملِ ذُلًّا وَصَغَارًا لِعَظَمَتِهِ ، وظهرت قَصَصَ العنكبوتِ فآمنَ به الرومُ ،
وأيقنوا أنه كلامُ الحَيِّ القَيُّومِ ، نزل به الرُّوحُ الأمينُ على زَيْنِ مَنْ وَاتَى يَوْمَ القِيَامَةِ ،
وأوضح لقمانَ الحِكْمَةَ بالأمرِ بالسجودِ لربِّ الأحزابِ ، فَسَبَّأَ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ أَهْلَ
الطَّاغُوتِ ، وَأَكْسَبَهُمْ ذِلًّا وَخِزْيًا وَحَسْرَةً وَندامةً ، وأمدَّ يسَ صلى الله عليه وسلم
بتأييدِ الصَّافَّاتِ^(٢) ، فصادَ الرُّمَّ يومَ بَدْرِهِ ، وأوقعَ بهم ما أوقعَ صناديدَهُم في القَلْبِ^(٣)
مكدوس ومكبوب ، حينَ شَأَلَتْ بهم النَّعَامَةُ^(٤) ، وغفرَ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ
للبدريِّينَ رضَى اللهُ عنهم ما تقدم وما تأخر حينَ فُصِّلَتْ كَلِمَاتُ اللهِ ، فذلَّ مَنْ حَقَّتْ عليه
كَلِمَةُ العَذَابِ وَأَيْسَ مِنَ السَّلَامَةِ ، ذلِكَ بِأَنَّ أَمْرَهُم سُورَى بَيْنَهُمْ ، وشَغَلَهُمْ زُخْرُفُ
الآخِرَةِ عَن دُخَانِ الدُّنْيَا ، فحَثُّوا أَمَامَ الأَحْقَافِ^(٥) لقتالِ أعداءِ محمد صلى الله عليه وسلم
يَمِينَهُ وَشِمَالَهُ وَخَلْفَهُ وَأَمَامَهُ ، فَأَعْطُوا الفَتْحَ وَبَوَّؤُوا حُجْرَاتِ الجِنَانِ ، وَحِينَ تَلَّوْا :
قَ وَالْقُرْآنِ المَجِيدِ ، وَتَدَبَّرُوا جَوَابَ قَسَمِ الدَّارِيَّاتِ^(٦) والطورِ ، لاحَ لهم نَجْمُ الحَقِيقَةِ
وَاشتَقَّ لَهُمُ قَمَرِ اليَقِينِ ، فَنافَرُوا السَّامَةَ ، ذلِكَ بِأَنَّهم أَمَّنْهم الرَّحْمَنُ إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ ،

(١) واد بين المهينة والشام ، وهو منازل نمود .

(٢) الملائكة تصف نفوسها لعبادة . (٣) القلب : البئر .

(٤) شالت نعماتهم : خفت منازلهم منهم ، أو تفرقت كلمتهم ، أو ذهب عزهم .

(٥) واد باليمن به منازل هاد . (٦) الداريات : للرياح تذر والتراب وغيره .

واعترف بالضعف لهم الحديد ، وهزَمَ المجادلون ، وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْخُسْرِ ،
يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ، حين نافرُوا السلامة .

أحمدَه حمدًا من امتحنته صفوفُ الجموع في نَفَقِ التَغَابُنِ ، فطَلَقَ الْحُرْمَاتِ حين
اعتبرَ الْمَلِكُ وعامه ، وَقَدِ سَمِعَ صَرِيْفَ الْقَلَمِ وكأَنَّهُ بِالْحَاقَّةِ^(١) والمعارج يمينه وَشِمَالَهُ وخلفه
وأمامه ، وقد نأح نوح الجن قزَمَل^(٢) وتدنَّرَ فَرَقًا من يوم القيامة ، وَأَنَسَ بُرْسَلَاتِ
النَّبَأِ ، فزِعَ الْعُبُوسَ من تحت كُورِ العامة ، وظهر له بالانفطار التطفيفُ ، فانشَقَّتْ
بُرُوجُ الطارق بتسبيح الملك الأعلى . وَغَشِيَتْهُ الشَّهَامَةُ ، فوربَّ الفجر والبلد والشمس
والليل والضحي ، لقد انشِرت صدور المتقين ، حين تَلَّوْا سورة التين ، وَعَلِقَ الْإِيمَانَ
بقلوبهم ، فكلُّ على قدر مقامه يُبين ، ولم يكونوا بمنفكين دهرهم ، ليله ونهاره
وصيامه وقيامه ، إذا ذكروا الزَّلْزَلَةَ رَكَبُوا العاديات^(٣) ليطفئوا نور القارعة ، ولم
يُلْهِهِمُ التكاثر حين تلاوا سورة العصر والمهمزة ، وتمثلوا بأصحاب الفيل فليعبُدُوا رَبَّ
هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ . أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ جَعَلُوا عَلَى
رِعْوَسِهِمْ مِنَ الْكُورِ عِمَامَةً ؟ فالكوثر^(٤) مكتوب لهم ، والكافرون خذلوا ، وهم
نُصِرُوا ، وَعَدِلَ بِهِمْ عن لَهَبِ الطَّامَّةِ ، وبسورة الإخلاص قرئوا وَسَعِدُوا ، ورب
الفلق^(٥) والنَّاسُ ، استعاذوا فأعينوا من كل حُزْنٍ وهمَّ وغمَّ وندامة ، وأشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، شَهَادَةً تُنَالُ بِهَا
مَنَازِلُ الْكِرَامَةِ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه ما غرَّدتْ في الْأَيْكِ حَمَامَةٌ .

(نفع الطيب ٤ : ٢٩١)

(١) الحاقَّة : القيامة التي فيها يحق ما أنكر من البعث والجزاء .

(٢) قزَمَل بشيابه : تلفف بها ، وكذا تدنَّر .

(٣) الخليل تمدو في الغزو ، والقارعة التي تفرغ القلوب بأهوالها .

(٤) الكوثر : نهر في الجنة . (٥) الفلق : الصبح .

٢٢ - خطبة سعيد بن أحمد المقرئ التي ضمنها سور القرآن

وخطب سعيد بن أحمد المقرئ^(١) خطبة على هذا النمط نصها:

« الحمد لله الذي افتتح بفتح الكتاب سورة البقرة، ليصطفى من آل عمران رجالا ونساء، وفضلهم تفضيلا، ومدَّ مائدة إنعامه ورزقه، ليعرف أعراف أنفال كرمه حقه على أهل التوبة، وجعل ليونس في بطن الحوت سبيلا، ونجى هوداً من كربه وحزنه، كما خلص يوسف من جبه وسجنه، وسبح الرعد بحمده ويمنه، واتخذ الله إبراهيم خيلا، الذي جعل في حجر الحجر من النحل شراباً نوع باختلاف ألوانه، وأوحى إليه بحفي لطفه سبحانه، واتخذ منه كهفاً قد شيد بنيانه، وأرسل روحه إلى مريم فتمثل لها تمثيلا، وفضل طه على جميع الأنبياء، فأتى بالحج والكتاب المكنون، حيث دعا إلى الإسلام قد أفلح المؤمنون، إذ جعل نور الفرقان دليلا، وصدق محمداً صلى الله عليه وسلم الذي تجزت الشعراء في صدق نعته، وشهدت النمل بصدق بعثه، وبيّن قصص الأنبياء في مدّة مكثه، ونسج العنكبوت عليه في الغار سترًا مسدولاً، ومليت قلوب الروم رعباً من هيئته، وتعلم لقمان الحكمة من حكيمته، وهدى أهل السجدة للإيمان بدعوته، وهزّم الأحزاب وسبّاهم وأخدم أخذاً وبيلا، فلقبه فاطر السموات والأرض بيس، كما نفذ حكمه في الصافات وبيّن صدقه بإظهار المعجزات، وفرق زمر المشركين، وصبر على أقوالهم وهجرهم هجراً جميلاً، ففقر له غافر الذنب ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وفصلت رقاب المشركين إذ لم يكن أمرهم شورى بينهم، وزخرف منار الإسلام، وخفي دخان الشرك، وخرت المشركون جاثية، كما أنذر أهل الأحقاف فلا يهتدون سبيلا، وأذلّ الذين كفروا شدة القتال،

(١) هو سعيد بن أحمد المقرئ صاحب نفع الطيب .

وجاء الفتح للمؤمنين والنصر العزيز، وحجرت الحجارَات الحريز، وبقي القدرة قُتِلَ
الخرّاصون^(١) تفتيلاً، كلم موسى على جبل الطور، فارتقى نجم محمد صلى الله عليه وسلم،
فاقتربت بطاعته مبادئ السرور، وأوقع الرحمن واقعة الصبح على بساط النور،
فتمجج الحديد من قوته، وكثرة المجادلة في أمته، إلى أن أُعيد في الحشر بأحسن مقيلاً
أمتحنه في صفّ الأنبياء وصلى بهم إماماً، وفي تلك الجمعة مُلئت قلوبُ المنافقين من
التغابُن حُسراً وإرغاماً، فطلق وحرم، تبارك الذي أعطاه الملك، وعلم بالقلم، ورتل
القرآن ترتيلاً، وعن علم الحاقّة كم سأل سائل فسأل الإيمان، ودعا به نوح فجاهد الله تعالى
من الطوفان، وأتت إليه طائفة الجن يستمعون القرآن، فأُنزل عليه: «يَأَيُّهَا الْمُزْمَلُ
قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا»، فكم من مدثر يوم القيامة شفقة على الإنسان إذا أرسل
مُرسلات الدمع، فعمّ يتساءلون أهل الكتاب، وما تقبل من نازعات المشركين
إذا عبس عليهم مالك وتولاهم بالعذاب، وكوّرت الشمس وانفطرت السماء،
وكانت الجبال كثيباً مهيباً، فويلٌ للمطففين» إذا انشقت السماء بالغمام، وطويت
ذات البروج، وطرق طارق الصور بالنفخ للقيام، وعز اسم ربك الأعلى لغاشية الفجر،
فيومئذ لا بلد ولا شمس ولا ليل طويلاً، فطوبى للمصاين الضحى عند انشراح
صدورهم، إذا عابنوا التين والزيتون وأشجار الجنة، فسجدوا باقراً اسم ربك الذي
خلق هذا النعيم الأكبر لأهل هذه الدار ما أحيوا ليلة القدر، وتبتلوا تبتيلاً، ولم يكن
للذين كفروا من أهل الكتاب من أهل الزلزلة من صديق ولا حميم، وتسوقهم
كالعاديات إلى سواء^(٢) الحجيم، وزلزلت بهم قارعة العقاب، وقيل لهم: ألهأكم
التكاثر، هذا عصر العقاب الأليم، وحشر الهمة وأصحاب الفيل إلى النار فلا يظلمون
فتيلاً، وقالت قريش ما أمتم من هول الحشر، رأيت الذي يكذب بالدين كيف

طُرِدَ عن الكوثر؟ وَسِيقَ الكافرون إلى النار، وجاء نصر الله والفتح، فَتَبَّتْ بَدَا
أَبِي كَلْبٍ : إذ لَا يَجِدُ إلى سورة الإِخْلَاصِ سَبِيلًا ، فنَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ،
ونَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي فَسَقَ ،
وتُوبُ إلىهِ وتَتَوَكَّلُ عَلَيهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا . (نفع الطيب ٤ : ٢٩٢)

٢٣ — خطبة الكفعمي التي ضمنها سور القرآن أيضا

وخطب الكفعمي^(١) خطبة على هذا النمط أيضا نصها :

« الحمد لله الذي شَرَّفَ النبي العربي بالسبع المثاني وخواتيم البقرة من بين الأنام ،
وفضَّلَ آلَ عمرانَ على الرجال والنساء ، بما وهب لهم من مائدة الأنعام ، ومنحهم
بأعراف الأنفال ، وكتب لهم بَرَاءةً من الآثام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، الذي نَجَّى يونسَ وهو دأً ويوسفَ من قومهم ، برَعَدِ الانتقام ، وغَدَى
إبراهيمَ في الحجرِ بأعابِ النحلِ ذاتِ الإسرار ، فضاهى كهفَ مريمَ عليها السلام ،
وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي هو طه الأنبياء ، وحجج المؤمنين ، ونور فرقان
الملك العلام ، فالشعراء والنمل بفضلِه تُخْبِر ، واقصص العنكبوت الروم تذكُر ،
ولقمان في سجدته يَشْكُر ، والأحزاب كأيدى سبأ تُقَهَّر ، وفاطرس لصفاته يُنصَّر ،
وصادمقلة زُمَره تنظر الأعلام ، فآل حمّ بقتال فتحه في حجرات قافه قد ظَهَرَت ،
وذاريات طوره ونجمه وقرمه قد عَطِرَت ، وبالرحمن واقعة حديده يوم المجادلة قد نُصِرَت
وأبصار معانديه في الحشر يوم الامتحان حَسَرَت^(٢) ، وَصَفَّ جمعته فائز إذ أجساد
المنافقين بالتغابن استعرت ، وله الطلاق والتحرير ومَقَامِ الْمَلِكِ والقلم ، فناهيك به من

(١) قال صاحب نفع الطيب في ترجمته: « هو إبراهيم بن علي بن حسن بن محمد بن صالح نسبة إلى كافر
حما قرية من قرى أعمال سفند كما نقول في النسبة إلى بني عبد اللدار عبدي ، وإلى حسن كيفا : حصكن .
(٢) حشر البصر كضرب : كل فهو حسير .

مقام ، وفي الحاقة ، أَعْلَى اللهُ له المعارج نوح المطهر ، وخصه من بين الإنس والجن بِبَيِّئِهَا الزَّمَلُ ، وَيَأْيِهَا المَدَّثَرُ ، وشفعه في القيامة إذا دموع الإنسان مُرْسَلَات كالماء المتفجر ، ووجهه عند نيا النزاعات وقد عبس الوجه كاهلال المتنور ، ويوم التكوير والانفطار وهلاك المطففين وانشقاق ذات البروج بشفاعته غير متضجر ، وقد حُرِست لمولده السماء بالطارق الأعلى ، وتمت غاشية العذاب إلى الفجر على المرَدّة اللثام ، فهو البلد الأمين ، وشمس الليل والضحي المخصوص بانسراح الصدر ، والمفضلّ بالتين والزيتون ، المستخرج من أمشاج^(١) العَلَق ، الطاهر العليّ القدر ، شجاع البرية يوم الزلزال ، إذ عاديات القارعة تدوس أهل التكائر ومشركي العصر ، أهلك الله به الهمة وأصحاب الفيل إذ مَكَّرُوا بقريش ولم يتواصوا بالحق ولم يتواصوا بالصبر ، المخصوص بالدين الحنيفي والكوثر السَّلسال ، والمؤيد على أهل الجحد بالنصر ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما تَبَّتْ يَدَا مُعَادِيهِ ، وَنَعَمَ بالتوحيد مُوَالِيهِ ، وما أفصح فلقُ الصبح بين الناس وامتد الظلام .

(فتح الطيب ٤ : ٢٩٥)

(١) مشج بينهما كضرب : خلط ، والنشء مشيج ، والجمع أمشاج كيتيم وأيتام .

الباب الثاني

في

خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها

١ - خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة

لما وَلى أبو بكر بن عبد الله المدينة^(١) وطال مُكثهُ عليها ، كان يبلغهُ عن قوم من أهلها أنهم ينالون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَإِسْعَافٌ من آخرين لهم على ذلك ، فأمر أهل البيوتاتِ وَوَجوه الناس في يوم جمعة أن يقربوا من المنبر ، فلما فرغ من خطبة الجمعة قال :

« أيها الناس : إني قائلٌ قولاً ، فمن وعاه وأدّاه فعلى الله جزاؤه ، ومن لم يعه فلا

(١) لا أعرف صاحب هذا الاسم والياً على المدينة، وإنما الذي قرأته في تاريخ الطبري أن أبا بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم الأنصاري ولي المدينة من سنة ٩٦ إلى سنة ١٠٠ في خلافة سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز « انظر تاريخ الطبري ، الجزء الثامن ، حوادث السنين من ٩٦ إلى ١٠٠ » وذكر أيضاً القلقشندي في صبح الأمشي « ج ٤ : ص ٢٩٦ » أن أبا بكر بن محمد هذا ولي المدينة أيام سليمان بن عبد الملك ، والظاهر أنه صاحب هذه الخطبة ، وإني لأستأنس في ذلك بقوله : « وطال مكثه عليها » فقد تولاهما خمس سنين ، وبالفرض الذي قبلت فيه الخطبة ، وأنت تذكر ما كان في العهد الأموي من اتساع دائرة الاختلاف الحزبي ، والفضال السيامي البعيد المدى ، وربما كان « عبد الله » اسماً آخر لأبيه محمد ، تسمى به تواضعاً ، وكان ذلك من عادة السلف الصالح رضوان الله عليهم كثيراً ، انظر مثلاً كتاب عمر في صلح أهل إيليا « هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان » . (الطبري ٤ : ١٥٩) .

يَعُدُّ مِنْ ذِمَامِهَا^(١) إِنْ قَصَّرْتُمْ عَنْ تَفْصِيلِهِ ، فَلَنْ تَعْجَزُوا عَنْ تَحْصِيلِهِ ، فَأَرْعُوهُ أَبْصَارَكُمْ ، وَأَوْعُوهُ أَسْمَاعَكُمْ ، وَأَشْعِرُوهُ^(٢) قُلُوبَكُمْ ، فَالْمَوْعِظَةُ حَيَاةٌ ، وَالْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ « وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ^(٣) السَّبِيلِ » ، « وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » فَأَتُوا الْهَدَى تَهْتَدُوا ، وَاجْتَنِبُوا الْغَى تَرْشُدُوا ، « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ، وَاللَّهُ جَلَّ ثَنَاوَهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، أَمْرُكُمْ بِالْجَمَاعَةِ ، وَرَضِيهَا لَكُمْ ، وَنَهَاكُمْ عَنِ الْفُرْقَةِ ، وَسَخَطَهَا مِنْكُمْ ، فِ « سَأْتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ^(٤) وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَتْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَاصْبِرْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا^(٥) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » ، جَعَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ مِنْ تَبِعِ رِضْوَانِهِ ، وَتَجَنَّبِ سَخَطَهُ ، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِهِ وَلَهُ .

وَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالدِّينِ ، وَاخْتَارَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَاخْتَارَ لَهُ أَصْحَابًا عَلَى الْحَقِّ ، وَوَزَّرَ أَدْوَانَ الْخَلْقِ اخْتَصَمَهُمْ بِهِ ، وَانْتَجَبَهُمْ لَهُ ، فَصَدَّقُوهُ وَنَصَرُوهُ ، وَعَزَّرُوهُ^(٦) وَوَقَّرُوهُ ، فَلَمْ يُقَدِّمُوا إِلَّا بِأَمْرِهِ ، وَلَمْ يُحْجِمُوا إِلَّا عَنِ رَأْيِهِ ، وَكَانُوا أَعْوَانَهُ بَعْدَهُ ، وَخُلَفَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَوْصَفَهُمْ فَأَحْسَنَ صِفَتَهُمْ ، وَذَكَرَهُمْ فَأَثْنَى عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ - وَقَوْلُهُ الْحَقُّ - : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ، يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيَاهُهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ . ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ^(٧) ، كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ

- (١) أى فلا يخرج عن حرمتها ، وتأنيث الضمير في « ذمامها » باعتبار الموعظة أو المقالة .
 (٢) أى الزقوه به . (٣) المقصد : استقامة الطريق ، أى بيان الطريق المستقيم الموصل إلى الحق .
 (٤) التقاة : التقوى ، وجمعها تقى كرطبة ورطب ، وأصلها وقية قلبت واوها المضمومة تاء كما في وثودة وتخمّة ، والياء ألفاً . (٥) الشفا : حرف كل شيء .
 (٦) التقزير : التبخيم والتنظيم وهو أيضاً أشد الضرب . ضد .
 (٧) أى ذلك مثلهم في الكتاب ، والشط : فراخ الزرع ، فأزره أى فقواه ، فاستوى على سوقه : أى فاستقام على أصواته وسبقاته .

فَازَرَهُ ، فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ ، يُعْجِبُ الزَّرْعَ ، لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » ، فمن غاظه كفر وخاب، وفجر وخسر، وقال الله عز وجل: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ^(١) ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » فمن خالف شريطة الله عليه لهم ، وأمره بإياه فيهم ، فلا حق له في الشيء ولا سهم له في الإسلام ، في آي كثيرة من القرآن .

فمرقت مارقة من الدين ، وفارقوا المسلمين ، وجعلوهم عِضِينَ^(٢) ، وتشعبوا أحزابا ، أشابات وأوشابا^(٣) ، فخالفوا كتاب الله فيهم ، وثنأه عليهم ، وآذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ، فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة « ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » . « أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ؟ » مالى أرى عيوننا خُزْرًا^(٤) ، ورقابا صُعْرًا^(٥) وبطونًا بَجْرًا^(٦) شَجًّا لَا يُسِيغُهُ الْمَاءُ^(٧) ، وداء لا يُشْرَبُ فِيهِ الدَّوَاءُ « أَفَنْضِرِبُ عَنْكُمْ الدَّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ؟ » كلا والله ، بل هو الهناء^(٨) وَالطَّلَاءُ ، حتى يظهر العُذْرُ ، وَيَبُوحُ السَّرُّ ، وَيَضْحَعُ الْغَيْبُ ،

(١) يؤثرون : يفضلون ويقدمون والخصاصة : الحاجة والفقير .

(٢) جمع عضة كعدة : وهى الفرقة والقطعة . (٣) أشابات جمع أشابة : وهى الأخلاط ، وأشبه كضربه : خلطه ، والأوشاب جمع وشب كحمل ، والأوباش جمع وبش كسبب : الأخلاط والسفلة .

(٤) جمع خزره مؤنث أخزر وصف من الخزر بالتحريك ، وهو النظر فى أحد الشقين

(٥) الصعر بالتحريك : ميل فى الوجه ، أو فى أحد الشقين ، أو داء فى البعير يلوى عنقه منه ، صعر

كفرح فهو أصعر . (٦) بجر بطنه كفرح أيضا فهو بجر : عظم ، والجمع بجر كحمر .

(٧) الشجا : ما اعترض فى الخلق من عظم ونهوه ، لا يسيفه : أى لا يجعله سائغا سهل المدخل فى الخلق .

(٨) الهناء : القطران ، يريد أنه يعالجهم كما تطفى الإبل الجربى بالقطران لمدواتها .

وَيُسَوِّسُ الْجُنُبَ^(١) ، فَإِنَّكُمْ لَمْ تُخَلِّقُوا عَبَثًا ، وَلَمْ تُتْرَكُوا سُدَى ، وَيُحْكَم ! إِنْ لَسْتَ
 أَتَاوِيًّا^(٢) أَعْلَمَ ، وَلَا بَدْوِيًّا أَفْهَمَ ، قَدْ حَلَبْتُمْكُمْ أَشْطَرًا^(٣) ، وَقَلَّبْتُمْكُمْ أَبْطَنًا وَأَظْهَرًا ،
 فَعَرَفْتُمْ أَهْوَاءَكُمْ وَأَهْوَاءَكُمْ ، وَعَلِمْتُمْ أَنَّ قَوْمًا أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ بِالسُّنَنِمْ ، وَأَسْرَرُوا الْكُفْرَ
 فِي قُلُوبِهِمْ ، فَضَرَبُوا بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضُ ، وَوَلَدُوا الرِّوَايَاتِ
 فِيهِمْ ، وَضَرَبُوا الْأَمْثَالَ ، وَوَجَدُوا عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ مِنْ أَبْنَائِهِمْ أَعْوَانًا
 يَأْذُنُونَ لَهُمْ^(٤) ، وَيُصْغُونَ إِلَيْهِمْ ، مَهْلًا مَهْلًا قَبْلَ وَقُوعِ الْقَوَارِعِ^(٥) ، وَطُولِ الرِّوَايَاتِ ،
 هَذَا لِهَذَا وَمَعَ هَذَا^(٦) ، فَلَسْتُ أَعْتَنُّشِ^(٧) آتِيًّا وَلَا تَائِبًا ، « عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَكَفَ وَمَنْ
 عَادَ قَيْنَتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ » ، فَأَسْرَرُوا خَيْرًا وَأَظْهَرُوا ، وَأَجْهَرُوا
 بِهِ وَأَخْلَصُوا ، فَطَالَا مَشِيَّتِمُ الْقَهْقَرَى نَا كِصِينِ ، وَتَلَعِمَ مِنْ أَدْبَرٍ وَأَصْرًا أَنَّهَا مَوْعِظَةٌ
 بَيْنَ يَدَيِ نِقْمَةٍ ، وَلَسْتُ أَدْعُوكُمْ إِلَى أَهْوَاءِ تَتَّبَعُ ، وَلَا إِلَى رَأْيٍ يُبْتَدَعُ ، إِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَى
 الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى ، الَّتِي فِيهَا خَيْرٌ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ، فَمَنْ أَجَابَ فإِلَى رَشْدِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَنِ
 قَصْدِهِ ، فَهَلُمَّ إِلَى الشَّرَائِعِ الْجَدَائِعِ^(٨) ، وَلَا تُؤَلُّوا عَنْ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَسْتَبْدِلُوا

(١) وإح السر : ظهر ، وباح بسره : أظهره ووضع ويضح ويضع واحد ، ويسوس : أي يروض
 ويدال : مضغف ساسه يسوسه . يقال : سوست له أمرًا إذا روضته وذلكه ، والجنب : الصعب الذي
 لا يتقاد . (٢) الأتاوى : الغريب عن القوم . (٣) اقتبسه من المثل المشهور : « حلب الدهر
 أشطره » وللناقة شطران ، قدامان وآخران ، فكل خلفين شطر بفتح الشين — والحلف للناقة كالضرع
 لبقرة — وأشطره منصوب على البدل ، فكأنه قال : حلب أشطر الدهر ، والمعنى : اختر الدهر وعرف
 خيره وشره . (٤) أذن له وإليه كفرح : استمع . (٥) القوارع جمع قازعة : وهى الداهية
 المفاجئة ، والروائع جمع رائعة ، وهى المفزعة . (٦) أى هذا الذى أتهدكم به من القوارع والروائع ،
 لهذا الذى تخوضون فيه ، ومقرون به .

(٧) اعتنشه : ظلمه .

(٨) الذى فى كتب اللغة : « جداع كسحاب وقطام : السنة الشديدة تجدع بالمال وتذهب به » وهذه
 الكلمة هى التى يسوغ أن يجمع على جدائع ، ولكنها لا تناسب المقام هنا ، فلعل الأصل « الجوادع »
 جمع جادة : وهى القاطمة ، يريد الشرائع الصحيحة الحقة لأنها تقطع الباطل وترهقه كأنه يقول : اتبعوا
 الخطة الحاسمة ، أو الجدائع جمع جدوع كعجوز صيغة مبالغة من جادة ، وفى التعلوق على نهاية الأرب
 « ولعله الجوامع : أى التى يجمع الناس على اتباعها ، كما يدل عليه ما بعده » .

الذى هو أدنى^(١) بالذى هو خير « بئسَ للظالمينَ بدلاً » .

إياكم وبنيات^(٢) الطريق ، فعندها التزنيق والرهب^(٣) ، وعليكم بالجادة ، فهي أسد^(٤) وأورد ، ودعوا الأمانى فقد أردت من كان قبلكم ، وليس للإنسان إلا ماسعى ، والله الآخرة والأولى ، و « لا تقفروا على الله كذباً فيسحقكم^(٥) بعداب وقد خاب من أفترى » . « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٥٦ ؛ وصحح الأضنى ١ : ٢٢٠)

٢ - وصية أعمى من الأزدي لشاب يقوده

عن هشام بن محمد بن السائب عن أبيه قال : رأيت ببيشة^(٦) رجلاً من أزدي السراة أعمى ، يقوده شاب جميل ، وهو يقول له : « يا سمي ، لا يعرّئك أن فسح الشاب خطوك ، وخلى سربك ، وأرّفة وردك^(٧) ، فكأنك بالكبير قد أرب ظوفك ، وأثقل أوقك ، وأوهن طوفك^(٨) ، وأتعب سوك ، فهدجت بعد الهملجة ، ودججت بعد الدعلجة^(٩) ، نخذ من أيام الترفيه لأيام الأزعاج ، ومن ساعات المهملة لساعة

(١) أى أخس وأدون قدراً ، وأصل لدنو : القرب فى المكافاة استعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة ، أو هو مهمل من أدنا من اللدناة ، وقد قرئ فى الآية الكريمة : « أتستبدلون الذى هو أدنا بالذى هو خير » . (٢) بنيات الطريق : الترهات (جمع ترهة كقبرة وهى الطريق

الصغيرة المشعبة من الجادة ، أى اسلكوا الطريق العام طريق الجماعة ، ولا تخرجوا فى سواه . (٣) التزنيق : الضعف فى الأمر « وفى البصر والبدن أيضاً » ، والرهب : السفه والحق والخفة ، وركوب الشر والغلم ، وغشيان المارم . (٤) أفعل ، من السداد . (٥) أسحت : استأصله . (٦) ببيشة : واد بطريق اليمامة . (٧) المرب : الطريق والوجه ، ورفعت الإبل كنع : وردت للماء من شامت ، وقد أرفعتها ورفعتها بالتشديد . (٨) أرب العقدة : شدة ، والأربة بالضم : العقدة ، موظف للبعير يظوفه : إذا دافى بين قينيه ، والقينان يفتح الثنايا موضعاً القيد من الوظيف ، والأرق : الثقل ، والطروق : الوسع والطاقة . (٩) الهدجان كخفتان وغراب : مشية الشيخ ، هذج كضرب ، والهملجة : سرعة فى المشى ، وذج كضرب دجيجاً ، مرمرأ ضميمياً ، والدعلجة : ضرب من المشى ، والتردد فى الذعاب والحجى ، والدرجعة .

الإعجال^(١) ، يابن أخى : إن اغترارك بالشباب ، كالتذاذك بِسَمَادِير^(٢) الأحلام ، ثم تنقشع فلا تتمسك منها إلا بالحسرة عليها ، ثم تُعَرِّى راحِلَةَ الصَّبَا ، وتشرب سَلْوَةَ^(٣) عن الهوى . واعلم أن أغنى الناس يوم الفقر من قَدَّمَ ذخيرة ، وأشدَّهم اغتباطاً يوم الحسرة من أحسنُ سَرِيرَةً . « (الأمال : ٢١٦)

٣ - وصية رجل لآخر وقد أراد سفراً

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت رجلا يوصى آخر وأراد سفراً ، فقال : « آثِرِ بَعْمَلِكِ مَعَادِكِ ، وَلَا تَدْعُ لَشَهْوَتِكَ رَشَادِكِ ، وَلِيَكُنْ عَقْلُكَ وَزِيرُكَ الَّذِي يَدْعُوكَ إِلَى الْهُدَى ، وَيَعْصِيكَ مِنَ الرَّدَى ، أَلْجِمِ هَوَاكَ عَنِ الْفَوَاحِشِ ، وَأَطْلِقْهُ فِي الْمَكَارِمِ ، فَإِنَّكَ تَبْرَهُ بِذَلِكَ سَلَفَكَ ، وَتَشِيدُ شَرَفَكَ » . (الأمال : ١ : ٢٠٠)

٤ - وصية رجل لابنه وقد أراد الزواج

وقال بعضهم لولده وقد أراد الزواج :

« يَا بَنِي : لَا تَتَّخِذْهَا حَنَانَةً ، وَلَا أُنَانَةً ، وَلَا مَتَانَةً^(٤) ، وَلَا عُشْبَةَ الدَّارِ^(٥) ،

(١) رفه عيشه ككرم فهو رفيه ورافه : مستريح متنعم ، وأرفهه الله ورفهه ترفهها ، ومن ساعات المهملة أى الدنيا المهملة : أى التى ستهملها وتغادرها ، وربما كانت « المهملة »
(٢) السمادير : ما يترامى للإنسان فى نومه من الأباطيل ، وما يتراماه للسكران فى سكره .
(٣) السلوة : اسم السلوان . قال الأصمعى : يقول الرجل لصاحبه : « سقيني سلوة (بالفتح) وسلوانا (بالضم) أى طيب نفسى هنك ، وذكروا أيضاً أن السلوة والسلوانة : خرزة شماعة تدفن فى الرمل فتسود فيبحث عنها ، ويسقاها الإنسان فتسليه .

(٤) الحنانة : التى لها ولد من سواه فهى تحن عليهم . والأنانة : التى مات عنها زوجها ، فهى إذا رأت الزوج الثانى أنت ، وقالت : رحم الله فلانا ، لزوجها الأول . والماناة : التى لها مال ، فهى تمن على زوجها ، كلما أهوى إلى شئ من ماله . (٥) عشبة الدار : يريد المهجينة ، وعشبة الدار : التى تثبت فى دمنة الدار ، وحوطها عشب فى بياض الأرض ، فهى أفخم منه وأصخم ، لأنها غذتها الدمنة ، وذلك (أى العشب) أطيب للأكل رطباً وبيساً ، لأنه نبت فى أرض طيبة ، وهذه نبتت فى دمنة ، فهى مبتنة رطبة ، وإذا يبست صارت حتاناً (بالضم) وذهب قفها فى الدمنة فلم يمكن جمعه ، وذلك يجمع قفه لأنه فى أرض طيبة (والقف بالضم : ما ييس من البقل ، وسقط على الأرض فى موضع نباته) .

وَلَا كِبَةَ الْقَفَا^(١) . (الأمالي ٢ : ٢٦)

٥ - وصية بعض العلماء لابنه

وأوصى بعض العلماء ابنه فقال :

« أوصيك بتقوى الله ، وَلَيْسَعَكَ بَيْتُكَ ، وَأَمْلِكُ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَأَبُكَ

على خطيئتك » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦١)

٦ - وصية لبعض الحكماء

وقال بعض الحكماء :

« لَا يَكُونَنَّ مِنْكُمْ الْمُحَدَّثُ وَلَا يُنصَتُ لَهُ ، وَالِدَاخِلُ فِي سِرِّ اثْنَيْنِ لَمْ يَدْخُلَاهُ ،
وَلَا آتَى الدَّعْوَةَ لَمْ يُدْعَ إِلَيْهَا ، وَلَا الْجَالِسُ الْمَجْلِسَ لَا يَسْتَحِقُّهُ ، وَلَا الطَّالِبُ الْفَضْلَ
مِنْ أَيْدِي النَّاسِ ، وَلَا الْمُتَعَرِّضُ لِلْخَيْرِ مِنْ عِنْدِ عَدُوِّهِ ، وَلَا الْمُتَحَمِّقُ فِي الدَّالَّةِ^(٢) » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٨)

٧ - وصية أخرى

وقال بعض الحكماء :

« إِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ ، فَإِنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَكْنِيهَا : أُمُّ النَّدَامَةِ » لأنَّ صَاحِبَهَا يَقُولُ
قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ ، وَيُجِيبُ قَبْلَ أَنْ يَفْهَمَ ، وَيَعْزِمُ قَبْلَ أَنْ يَفْكُرَ ، وَيَقْطَعُ قَبْلَ أَنْ يُقَدَّرَ ،
وَيَحْمَدُ قَبْلَ أَنْ يُجَرَّبَ ، وَيَذِمُّ قَبْلَ أَنْ يُخْبَرَ ، وَلَنْ يَصْحَبَ هَذِهِ الصِّفَةَ أَحَدٌ إِلَّا صَحِبَ
النَّدَامَةَ ، وَاعْتَزَلَ السَّلَامَةَ » . (زهر الآداب ٣ : ١٩٧)

(١) كبة القفا : هي التي يأتي زوجها أو ابنتها القوم ، فإذا انصرف من عندهم ، قال رجل من جنات القوم : قدرافه كان بيني وبين امرأة هذا المولى أر أمه أمر .
(٢) الدالة : ما تدل به على حبيبتك .

٨ - وصية أخرى

وقال ابن دُرَيْدٍ : أوصى بعض الحكماء رجلاً ، فقال :
« أَمْرُكَ بِمُجَاهِدَةِ هَوَاكَ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : إِنَّ الْهَوَى مِفْتَاحُ السِّئَاتِ ، وَخَصِيمُ الْحَسَنَاتِ
وَكَلُّ أَهْوَاؤِكَ لَكَ عَدُوٌّ ، وَأَهْوَاؤُهَا ^(١) هَوَى يَكْتُمُكَ فِي نَفْسِهِ ، وَأَعْدَاؤُهَا هَوَى يَمْتَلِكُ لَكَ
الْإِثْمَ فِي صُورَةِ التَّقْوَى ، وَلَنْ تَفْصَلَ بَيْنَ هَذِهِ الْخُصُومِ إِذَا تَنَاظَرْتَ لَدَيْكَ إِلَّا بِحَزْمٍ
لَا يَشُوبُهُ وَهَنٌ ، وَصِدْقٍ لَا يَطْمَعُ فِيهِ تَكْذِيبٌ ، وَمَضَاءٌ لَا يَقَارِبُهُ التَّثَبُّطُ ^(٢) ، وَصَبْرٍ
لَا يَغْتَالُهُ جَزَعٌ ، وَنِيَّةٍ لَا يَتَقَسَّمُهَا التَّضْيِيعُ » .
(زهر الآداب ٣ : ١٢٩)

٩ - عظة لبعض الحكماء

عن الأصمعي قال : بلغني أن بعض الحكماء كان يقول :
« إِنِّي لَأَعْظِمُكُمْ ، وَإِنِّي لَكثير الذنوب مُسْرِفٌ عَلَى نَفْسِي ، غَيْرُ حَامِدٍ لَهَا ،
وَلَا حَامِلِهَا عَلَى الْمَكْرُوهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، قَدْ بَلَوْتَهَا فَلَمْ أَجِدْ لَهَا شُكْرًا فِي الرَّخَاءِ
وَلَا صَبْرًا عَلَى الْبَلَاءِ ، وَلَوْ أَنَّ الْمَرْءَ لَا يَعْظُ أَخَاهُ حَتَّى يُحْكِمَ أَمْرَ نَفْسِهِ ، لَتُرِكَ الْأَمْرُ
بِالْخَيْرِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَكِنْ مُحَادَثَةُ الْإِخْوَانِ حَيَاةٌ لِلْقُلُوبِ ، وَجِلَاءٌ لِلنَّفُوسِ ،
وَتَذْكَيرٌ مِنَ النِّسْيَانِ . وَاعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا سُرُورُهَا أَحْزَانٌ ، وَإِقْبَالُهَا إِدْبَارٌ ، وَآخِرُ حَيَاتِهَا
الْمَوْتُ ، فَكَمْ مِنْ مُسْتَقْبَلٍ يَوْمًا لَا يَسْتَكْمِلُهُ ، وَمُنْتَهَى غَدًا لَا يَبْلُغُهُ ، وَلَوْ تَنْظُرُونَ
إِلَى الْأَجَلِ وَمَسِيرِهِ ، لَأَبْفَضْتُمْ الْأَمَلَ وَغَرُّورَهُ » .
(الامال ٢ : ٥٧)

١٠ - نصيحة لبعض الحكماء

وَحَدَّرَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ صَدِيقًا لَهُ صَاحِبَهُ رَجُلًا فَقَالَ :

« اخذر فلاناً ، فإنه كثير المسألة ، حسن البحث ، لطيف الاستدراج ، يحفظ أول كلامك على آخره ، ويعتبر ما أخرت بما قدمت ، فلا تظهرن له الخافة ، فيرى أنك قد تحررت . واعلم أن من يقظة الفطنة إظهار الغفلة مع شدة الخدر ، فبأنه مباتة الآمن ، وتحفظ منه تحفظ الخائف ، فإن البحث يُظهر الخفي الباطن ، وَيُبْدِي الْمُسْتَكِنَ الْكَاْمِنَ » .

(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

١١ - كلمات شتى لبعض الحكماء

عن الأصمعي قال : قال بعض الحكماء :

« من كانت فيه سبع خصال لم يعدم سبعا : من كان جواداً لم يعدم الشرف ، ومن كان ذا وفاء لم يعدم المقة ، ومن كان صدوقاً لم يعدم القبول ، ومن كان شكوراً لم يعدم الزيادة ، ومن كان ذا رعاية للحقوق لم يعدم السؤدد ، ومن كان منصفاً لم يعدم العافية ، ومن كان متواضعاً لم يعدم الكرامة » .

(الآمال ٢ : ٣٩)

وقيل لبعض الحكماء : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخَلِّقُ الْأَبْدَانَ ، وَيُجَدِّدُ الْأَمَالَ ، وَيُقَرِّبُ الْأَجَالَ ، قيل له : فما حال أهله ؟ قال : من ظفر به نصب ، ومن فاته حزن ، قيل : فأى الأصحاب أبر ؟ قال : العمل الصالح ، قيل : فأيهم أضر ؟ قال : النفس والهوى ، قيل : فقيم المخرج ، قال : في قطع الراحة وبذل المجهود .

(الآمال ٢ : ٥٩)

وأخبر عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت رجلاً يقول :

« الحسد ماحقُ الحُسنات ، والزَّهو جالبٌ لِمَقْتِ اللَّهِ ومقتِ الصالحين ، والعُجبُ صَافٍ عن الازدياد من العلم ، داعٍ إلى التَّخَمُّطِ^(١) والجهل ، والبخلُ أذمُّ الأخلاق ، وأجلبُها لسوءُ الأُحدوثِ » .
(الأمال ١ : ٢٠٠)

وقال : قال بعض العرب :

« أَوْلَى النَّاسِ بِالْفَضْلِ أَعْوَدُهُمْ بِفَضْلِهِ ، وَأَعْوَنُ الْأَشْيَاءِ عَلَى تَذْكِيَةِ الْعَقْلِ التَّعَلُّمُ ، وَأَدْلُ الْأَشْيَاءِ عَلَى عَقْلِ الْعَاقِلِ حَسَنُ التَّيْدِيرِ » .
(الأمال ١ : ٢١٧)

وقال الأصمعي : العرب تقول :

« لَا ثَنَاءَ مَعَ الْكِبَرِ ، وَلَا صَدِيقَ لَذَى الْحَسَدِ ، وَلَا شَرَفَ لِسَيِّئِ الْأَدَبِ » .
قال : وكان يقال : « شَرَّ خِصَالِ الْمَلُوكِ الْجُبْنُ عَنِ الْأَعْدَاءِ ، وَالْقَسْوَةُ عَلَى الضَّعْفَاءِ ، وَالْبَخْلُ عِنْدَ الْإِعْطَاءِ » .
(الأمال ١ : ٢٠١)

وقال أبو عليّ القالي ، وأملى علينا أبو عبد الله قال : من كلام العرب ووصاياها :
« جَالِسُ أَهْلِ الْعِلْمِ ، فَإِنْ جَهِلْتَ عَمَّوكَ ، وَإِنْ زَلَلْتَ قَوْمَكَ ، وَإِنْ أَخْطَأْتَ لَمْ يُفَنِّدُوكَ^(١) ، وَإِنْ صَحَّبتَ زَانُوكَ ، وَإِنْ غَبَّتَ تَفَقَّدُوكَ . وَلَا تَجَالِسْ أَهْلَ الْجَهْلِ ، فَإِنَّكَ إِنْ جَهِلْتَ عَنَّفُوكَ ، وَإِنْ زَلَلْتَ لَمْ يَقَوْمُوكَ ، وَإِنْ أَخْطَأْتَ لَمْ يَثْبُتُوكَ » .
(الأمال ٢ : ٧٢)

١٢ — رجل من العرب والحجاج

سأل الحجاج رجلاً من العرب عن عشيرته قال : أيُّ عشيرتك أفضل ؟ قال :
أتقاهم لله ، بالرَّغبة في الآخرة ، والزهد في الدنيا ، قال : فأيهم أسود ؟ قال : أرزَنهم
حِلْمًا حين يُسْتَجْهَل ، وأسخاهم حين يُسأل ، قال : فأيهم أدهى ؟ قال : من كتم سرَّه

(١) تخمط : تكبر وغضب . (٢) فنده : ضمف رأيه وخطاه .

من أحبَّ ، مخافةً أن يُشَارَه يوماً ، قال : فأيهم أكيس ؟ قال : من يُصْلِح ماله
ويقتصد في معيشته ، قال : فأيهم أرفق ؟ قال : من يعطى بِشْرَ وجهه أصدقاه ،
ويتلطف في مسأله ، ويتعاهد حقوق إخوانه ، في إجابة دَعَوَاتِهِمْ ، وعبادة مَرْضَاهُمْ ،
والتسليم عليهم ، والمشى مع جنازتهم ، والنصح لهم بالغيب ، قال : فأيهم أفطن ؟ قال :
من عَرَف ما يوافق الرجال من الحديث حين يجالسهم ، قال : فأيهم أصْلَب ؟ قال : من اشتدت
عَارِضَتُهُ^(١) في اليقين ، وَحَزْمُ في التوكل ، ومنع جاره من الظلم . (مجمع الأمثال ٢ : ١٧٨)

١٣ — أحد الوافدين على عمر بن عبد العزيز

ووفد وافد على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فقال له : كيف تركت الناس ؟
فقال :

« تركت غنيهم موفوراً ، وفقيرهم محبوراً ، وظالمهم مقهوراً ، ومظلومهم منصوراً »
فقال : « الحمد لله ، لو لم تتم واحدة من هذه الخصال إلا بعضو من أعضائي ،
لكان يسيراً » . (الأمال ٢ : ٣٩)

١٤ — كاتب وأمير

ودخل بعض الكتاب على أمير بعد نكبة نابتته ، فرأى من الأمير بعض الازدراء
فقال له :

« لا يَصْغِي عندك نُحُولُ النَّبَوَةِ ، وزوالُ الثروة ، فإن السيف العتيق إذا مَسَّه
كثيرُ الصَّدِّإِ استغنى بقليل الجلاء ، حتى يعود حدّه ، ويظهر فرِنْدُه ، ولم أصف نفسي
عُجْباً ، لكن شكراً ، قال صلى الله عليه وسلم : أنا أشرف ولد آدم ولا نخر .
فجهر بالشكر ، وترك الاستطالة بالكبر » . (زهر الآداب ٣ : ٩١)

١٥ - وصف الهلجاجة

من أمثال العرب : « أعجز من هِلْجَاةٍ » وهو التَّثْمُومُ الكسلان العَطْلُ^(١) الجافي ، وقد سار في وصف الهلجاجة فصل لبعض الأعراب المتفصِّحين ، وفصل آخر لبعض الحضريين ، فأما وصف الأعرابي ، فقد سئل ابن أبي كَبْشَةَ بن القَبَعَرِي عن فقال : « الهِلْجَاةُ : الضعيف العاجز ، الأخرق الأحمق ، الجِلْفُ^(٢) الكسلان ، الساقط لأمعنى فيه ، ولا غناء^(٣) عنده ، ولا كفاية معه ، ولا عمل لديه . »

وأما وصف الحضري فإن بعض بلغاء الأمصار سئل عن الهلجاجة فقال :

« هو الذي لا يَرَعُو لِمَدَلِّ العاذل ، ولا يُصْنَعِي إلى وعظ الواعظ ، ينظر بعين حَسُودٍ ، وَيُعْرِضُ إِعْرَاضَ حَقُودٍ ، إِنْ سَأَلَ أَخْلَفَ^(٤) ، وَإِنْ سُئِلَ سَوَّفَ ، وَإِنْ حَدَّثَ حَلَفَ ، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِنْ زَجَرَ عَنَّفَ ، وَإِنْ قَدَّرَ عَسَفَ^(٥) ، وَإِنْ احْتَمَلَ أَسَفَ^(٦) ، وَإِنْ اسْتَعْفَى بَطِرَ ، وَإِنْ افْتَقَرَ قَنِطَ ، وَإِنْ فَرِحَ أَشِرَ^(٧) ، وَإِنْ حَزِنَ يَثَسَ ، وَإِنْ ضَحِكَ زَارَ ، وَإِنْ بَكَى جَارَ^(٨) ، وَإِنْ حَكَمَ جَارَ ، وَإِنْ قَدَّمْتَهُ تَأَخَّرَ ، وَإِنْ أَخَّرْتَهُ تَقَدَّمَ ، وَإِنْ أَعْطَاكَ مَنَّ عَلَيْكَ ، وَإِنْ أَعْطَيْتَهُ لَمْ يَشْكُرْكَ ، وَإِنْ أَسْرَرْتَ إِلَيْهِ خَانَكَ ، وَإِنْ أَسَرَّ إِلَيْكَ اتَّهَمَكَ ، وَإِنْ صَارَ فَوْقَكَ قَهَرَكَ ، وَإِنْ صَارَ دُونَكَ حَسَدَكَ ، وَإِنْ وَثِقْتَ بِهِ خَانَكَ ، وَإِنْ انْبَسَطَتْ إِلَيْهِ شَانُكَ ، وَإِنْ أَكْرَمْتَهُ أَهَانَكَ ، وَإِنْ غَابَ عَنْهُ الصَّدِيقَ سَلَّاهُ ، وَإِنْ حَضَرَه قَلَّاهُ^(٩) ، وَإِنْ فَاتَحَهُ لَمْ يُجِبْهُ ، وَإِنْ أَمْسَكَ عَنْهُ لَمْ يَبْدَأْهُ ، وَإِنْ بَدَأَ بِالوَدِّ هَجَرَ ، وَإِنْ بَدَأَ بِالبرِّ جَفَا ، وَإِنْ تَكَلَّمَ فَضَحَّه العَيْشُ ، وَإِنْ عَمِلَ قَصَّرَ بِهِ

(١) عطل كفرج : عظم بدنه ، ومن المال والأدب : خلا فهو عطل كقفل وعتق .

(٢) الجافي . (٣) لاغناء : لا كفاية .

(٤) الخ . (٥) ظلم . (٦) من أسف الطائر : دنا من الأرض في طيرانه ، أى لم يستطيع

النهوض بما حمل . (٧) أشر : مرح . (٨) صاح واستغاث .

(٩) أبغضه وكرهه غاية الكراهة .

الجهل ، وإن أوْثَمِنَ غَدْرَ ، وإن أجاز أخْفَرَ^(١) ، وإن عاهد نَكَثَ ، وإن حَلَفَ حَنَثَ
لَا يَصْدُرُ عَنْهُ الْآمِلُ إِلَّا بِنَجِيَّةٍ ، وَلَا يَضْطُرُّ إِلَيْهِ حُرٌّ إِلَّا بِمِخْنَةٍ .

قال خلف الأحمر : سألت أعرابياً عن الهلباجة ، فقال : « هو الأحمق الضخم
القدم^(٢) الأكل الذي والذي ... ثم جعل يلتقاني بعد ذلك ، ويزيد في التفسير
كل مرة شيئاً ، ثم قال لي بعد حين - وأراد الخروج - هو الذي جمع كل شر » .
(مجمع الأمثال ١ : ٢٢٦)

١٦ - بعض البلغاء يصف رجلاً

ووصف بعض البلغاء رجلاً فقال :

« إنه بَسِيطٌ^(٣) الكف ، رَحْبُ الصدر ، مُوْطَأٌ الأكناف ، سَهْلُ الخلق ،
كَرِيمُ الطَّبَاعِ ، غَيْثٌ مُغَوِّثٌ^(٤) ، وَبِحُرِّ زَخُورٍ ، ضَحُوكُ السن ، بَشِيرُ الوجه ،
بَادِي الْقَبُولِ^(٥) غير عبوس ، يَسْتَقْبَلُكَ بِطَلَّاقَةٍ ، وَيُحْيِيكَ بِبِشْرٍ ، وَيَسْتَدْبِرُكَ بِكْرَمِ
غَيْثٍ ، وَجَمِيلِ بَشْرٍ ، تُبْهَجُكَ طَلَّاقَتُهُ ، وَيَرْضِيكَ بِشْرُهُ ، ضَحَّاكٌ عَلَى مَا نَدَيْتَهُ ، عَبْدٌ
لِضَيْفَانِهِ ، غَيْرٌ مَلَا حَظٌ لِأَكِيلِهِ ، بَطِينٌ^(٦) مِنَ الْعَقْلِ ، خَمِيصٌ^(٧) مِنَ الْجَهْلِ ، رَاجِحٌ
الْحَلْمِ ، نَاقِبُ الرَّأْيِ ، طَيِّبُ الْخَلْقِ ، مُحْصَنُ الضَّرْبِيَّةِ^(٨) مِعْطَاةً غَيْرَ سَأَلٍ ، كَاسٍ^(٩)
مِنْ كُلِّ مَسْكَرُومَةٍ ، عَارٍ مِنْ كُلِّ مَلَأْمَةٍ ، إِنْ سئِلَ بِذَلِّ ، وَإِنْ قَالَ فَعَلَ » .
(زهر الآداب ٢ : ٢٠٥)

(١) أخفره وخفربه : نقض ههده وغدره . (٢) القدم : العيسى عن الكلام في ثقل ورخاوة ،
ورقة فهم ، والغايظ : الأحمق الجاني .
(٣) أي ببسوط الكف سخي . (٤) غوث تغويثاً : قال واغوثاه .
(٥) لقبول بالفتح وقد يضم : الحسن . (٦) أي يمتلئ وأصله : عظيم البطن .
(٧) خميص : خال ، وأصله : الجانح . (٨) الضربية : الطبيعة ، ومحسن : صف .
(٩) أي مكسو .

١٧ - خمس جوار من العرب يصفن خيل آبائهن

عن ابن الكلبي عن أبيه قال :

اجتمع خمسُ جَوَارٍ من العرب ، فقلن : هَلْمُنْ نَصِفِ خَيْلَ آبَائِنَا .
فقالَت الأولى :

« فرسُ أبي وَرْدَةَ ، وما وردة ؟ ذات كفَلٍ مُزْحَلِقٍ ، وَمَمْنٍ أَخْلَقٍ ، وَجَوْفٍ
أَخْوَقٍ ^(١) ، وَنَفْسٍ مَرُوحٍ ، وَعَيْنٍ طَرُوحٍ ، وَرِجْلٍ ضُرُوحٍ ، وَيَدٍ سَبُوحٍ ^(٢) ،
بُدَاهَتَهَا إِهْدَابٌ ، وَعَقَبُهَا غِلَابٌ ^(٣) » .

وقالت الثانية :

« فرسُ أبي اللَّعَابِ ، وما اللَّعَابُ ؟ غَمْبِيَّةٌ سَحَابٌ ، واضطرامُّ غَابٍ ، مُتْرَصٌ
الأَوْصَالِ ، أَشْمٌ الْقَدَالُ ، مُلَا حَكُّ الْمَحَالِ ^(٤) ، فارسُهُ مُجِيدٌ ، وَصَيْدُهُ عَمِيدٌ ، إن أقبِل
فَظَبِّي مَعَّاجٌ ، وإن أدبر فظَلِيمٌ هَدَّاجٌ ، وإن أَحْضَرَ فَعَلِجٌ هَرَّاجٌ ^(٥) » .

وقالت الثالثة :

« فرسُ أُمى حُدَمَةَ ، وما حُدَمَةَ ؟ إن أقبِلتُ فَمَقَانَةٌ مُقَوِّمَةٌ ، وإن أدبرتُ فَأَثْفِيَّةٌ

(١) : المزحلق : الملمس الذي كأنه زحلوقة (بالضم) وهي آثار تزيج الصبيان من فوق إلى أسفل ،
والأخلق : الأملس ، وأخوق : واسع . (٢) مروح : كثيرة المرح ، طروح بعيدة موقع النظر ،
ضروح : دفوع ، يريد أنها تضرح الحجارة برجليها إذا عدت ، سبوح : كأنها تسمج في عدوها
من سرعتها . (٣) بداهتها : فجاءتها ، واليداهة واليديهة واحد ، والإهداب : السرعة ، والعقب :
جرى بمد جرى ، وغلاب مصدر ، غالبته مغالبة وغلابا ، كأنها تغالب الجرى .

(٤) الغمبية : الدفمة من المطر . والغاب جمع غابة : وهي الأجمة ، مترص : محكم ، أترصت الشيء : أحكته
أشم : مرتفع ، القدال : معقد المذار (والمذار من اللجام ككفاب : ما سأل على خد الفرس) . ملاحك
مداخل (بفتح الخاء) كأنه دخل بفضه في بعض ، والمحال جمع محالة : وهي فقار الظهر (كسحاب) جمع
فقارة وذكر الأصمى أنه رأى فقار فرس ميت ، فإذا ثلاث فقر من عظم واحد ، وكذا تكون العراب
فيما ذكروا . (٥) مجيد : صاحب جواد . هتيد : حاضر ، معج في سيره ومعج : إذا أسرع ،
والهدج كشمس : المشي اللويذ ويكون المرعب . والمعلج : حمار الوحش السمين القوى ، وهرج الفرس
: كضرب إذا كان كبير الجرى .

مُلمَلمةً ، وإن أعرَضتْ فذئبةٌ مُعْجِرةٌ^(١) ، أرساغها مُترَصّةٌ ، وفصوصها مُمَحَّصّةٌ ،
جرِيهاً أنثَرارٌ ، وتَقَرِّيها انكِدارٌ^(٢) .

وقالت الرابعة :

« فرسُ أبي خَيْفَق ، وما خَيْفَق ؟ ذاتُ ناهِقٍ مُعَرِّقٍ ، وَشِدْقٍ أَشْدَقٍ ، وأديمٍ
مُملَقٍ^(٣) ، لها خَلْقٌ أَشْدَفٌ ، وَدَسِيعٌ مُنْفَنَفٌ ، وَتَلِيلٌ مُسِيفٌ^(٤) وَثَّابَةٌ زُلُوجٌ ،
خَيْفَانَةٌ رَهْجٌ ، تَقَرِّيها إِهْمَاجٌ ، وَحَضْرُها ارْتِعاَجٌ^(٥) . »

وقالت الخامسة :

« فرسُ أبي هُدُلُولٍ ، وما هُدُلُولٌ ؟ طَرِيدُهُ مَحْبُولٌ ، وَطَالِيهٌ مُشْكُولٌ ، رَقِيقٌ
المَلَّاعِمِ ، أَمِينُ المَعَاقِمِ^(٦) ، عَبَلُ المَحْزَمِ ، مَخْدٌ مِرْجَمٌ^(٧) ، مُنِفُ الحَارِكِ ، أَشْمٌ

(١) حذمة : فملة من الحلم وهو السرعة أو القطع ، فقتاة مقومة تريد أنها دقيقة المقدم ، وهو مدح
في الإناث ، والألفية : الحجر توضع عليه القدر ، ملمامة : مجتمة ، تريد أنها مدورة المؤخر ، لأن الأثافي
تختار مدورة ، معجرة بكسر الراء اسم فاعل من المعجرة ، وهي إسراع في مقاربة غطو . قال الشاعر :

أَمَّا إِذَا يَعْدُو فَتَعْلَبُ جَرِيَّةٌ أَوْ ذئبٌ عاديةٌ يعجم عجرمه

ويقال ناقة معجرة بفتح الراء : أي شديدة . (٢) محصّة : قليلة اللحم قليلة الشعر ! محص الجمله
كفرح ، إذا سقط شعره وإلا . انثرار : انصباب ، كأنه يثره ثرا ، والتقريب : ضرب من العدو
أو أن يرفع يديه معاً ويضمهما معاً ، وانكدر : أسرع وانقض . وانكدر عليه القوم : انصبوا .

(٣) خيفق : يفعل من الخفق كشمس : وهو السرعة . اللتامقان : العظمان الشاخصان في خدى الفرس
معرق : قليل اللحم . أشدق : واسع الشدق . ملق : ملمس . (٤) الأشدق : العظيم للشخص .
والشدق محرقة : الشخص . الدسيع : مغرز العنق في الكاهل . منفن : واسع من التنف من كجعفر :
وهو الهواء بين السماء والأرض . التليل : العنق . مسيف : كأنه سيف .

(٥) زلوج : سريعة . الزليج والزلحان بالتحريك : السرعة . الخيفانة : الجراة التي فيها نطق سود
تخالف سائر لونها . وإنما قيل للفرس : خيفانة لسرعتها لأن الجراة إذا ظهر فيها تلك للنقط كان أسرع
لطيرانها . رهوج : كثيرة الرج . (والرهج بالتحريك : القيار) أميج الفرس إهماجا : إذا اجتهد
في عدوه . والحضر : ارتفاع الفرس في عدوه . الارتعاج : كثرة العرق وتتابه .

(٦) محبول : في حباله . مشكول : موقوف في شكال (الشكال كتاب : الحبل تشد به قوائم الدابة)
الملاغم من الإنسان : ماحول الفم . أرادت هاهنا الجحافل (والجحافل جمع جحفاة بالفتح بمغزلة الشفة للخيال
البغال والحمير) والمعاقم ، المناصل . (٧) عبلة : غليظ . والحزم موضع الحزام . مخد : يخذ الأرض
أي يجعل فيها أخاديد (والأخاديد : الشقوق جمع أخدود) . مرجم : يرمج الحجر بالحجر . أو يرمج
الأرض بجوافره .

السَّنَابِكُ ، مَجْدُولُ الْخِصَائِلِ ، سَبَطُ الْفَلَاتِلِ^(١) ، غَوْجُ التَّلِيلِ ، صَلْصَالُ الصَّهِيلِ ،
أَدِيمُهُ صَافٍ ، وَسَيَّبِيهِ صَافٍ^(٢) ، وَعَقْفُوهُ كَافٍ . (الأمالي : ١٩٠)

١٨ - رجل من العرب يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

سئل رجل من العرب عن مطر كان بعد جذب فقال :

« نَشَأَ حَمَلًا^(٣) سُدًّا مَتَقَاذِفَ الْأَحْضَانِ ، مَحْمُومِي الْأَرْكَانِ ، لَمَّاعِ الْأَقْرَابِ ،
مُكْفَهَرِ الرَّيَّابِ ، تَحْنِ رُعودُهُ حَنِينَ اضْطِرَابِ ، وَتَرْجُجُ زَجْجَةَ اللَّيْثِ الْفِضَابِ ،
لِبُورِقِهِ التَّهَابِ ، وَرِوَاعِدِهِ اضْطِرَابِ ، فِجَاحَتِ^(٤) صُدُورِهِ الشَّعَافِ ، وَرَكِبَتْ
أَعْجَازُهُ الْفِغَافَ ، ثُمَّ أَلْقَى أَعْبَاءَهُ ، وَحَطَّ أَثْقَالَهُ ، فَتَأَلَّقَ وَأَصْعَقَ^(٥) ، وَانْبَجَسَ وَانْبَعَقَ ،
ثُمَّ أَنْجَمَ فَانطَلَقَ ، فَنَادَرَ النَّهَاءَ^(٦) مُتْرَعَةً ، وَالغَيْطَانَ مُمْرَعَةً ، حَبَاءً لِلْبِلَادِ ، وَرِزْقًا لِلْعِبَادِ .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٠)

(١) منيف : مرتفع ، والحارك : منبت أذن العرف إلى الظهر الذي يأخذ به من يركبه ، والسنايك :
أطراف الحوافر جمع سنيك كقنفذ : مجدول : مفتول ، الخصائل : جمع خصيلة وهي كل قطعة من اللحم
مستطيلة أو مجتمعة ، الفليل : الشعر المجتمع ، ويقال للقطعة من الشعر : الفليلة ، سبط : مسترسل .
(٢) الفروج : اللين المعطف ، والصلصلة صوت الحديد ، وكل صوت حاد ، والسبيب : شعر
الناصية : صاف : صابغ .

(٣) الحمل : السحاب الكثير الماء ، والسد : الذي قد سد الأفق ، احومي : اسود ، والأقرب جمع
قرب كقنفذ وهو الحفاصة ، والرياب : السحاب الأبيض . (٤) جاحفه : زاحه ودافاه ،
والشعاف جمع شفة كرقبة : وهي رأس الجبل ، والقفاف جمع قف بالضم وهو ما غلظ من الأرض وارتفع
لم يبلغ أن يكون جبلا . (٥) صمقهم السماء وأصمقهم : ألقت عليهم صاعقة ، وانجس : انفجر بالأماء
وانبعق السحاب : انبعج بالمطر واندفع ، والانهاق : أن يتدفع عليك الشيء فجأة وأنت لا تشمر ، وانجمت
السماء : أسرع مطرها . (٦) النهاء جمع نهى بالكسر والفتح : القدير ، ومترعة : مملوءة ، والغيطان
جمع غائط : وهو المظلم الواسع من الأرض ، ممرعة : مخصبة ، حباء : عطاء .

الباب الثالث

في

نثر الأعراب

قولهم في الوعظ والتوصية

١ - مقام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك

قام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك ، فقال :

« إني مُكَلِّمٌ يا أمير المؤمنين بكلامٍ فيه بعض الغِلظة ، فاحتمله إن كرهته ، فإن وراءه ما تُحبه إن قبلته » ، قال : هاتِ يا أعرابي : إنا نجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نُصحه ، ولا نأمن غشه ، وأرجو أن تكون الناصحَ جَيِّباً ، المأمونَ غَيِّباً ، قال : « يا أمير المؤمنين أما إذ أمنتِ بادرَةَ غضبك ، فإنني سأطلق لسانِي بما خَرَسَتْ عنه الألسُن من عِظَتِكَ ، تأديةً لحقِّ الله وحقِّ إمامتِكَ . إنه قد اكتنَفَكَ رجالٌ أساءوا الاختيار لأنفسهم ، فابتاعوا دنياكَ بدينهم ، ورضاك بسُخطِ ربهم ، خافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيكَ ، فهم حربٌ للأخرة ، سلِّمٌ للدنيا ، فلا تأتمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، فإنهم لا يألونكَ^(١) خَبالاً ، والأمانةَ تضييعاً ، والأمةَ عَسفاً وخَسفاً^(٢) ، وأنتَ مسئولٌ عما اجترحوا^(٣) ، وليسوا مسئولين عما اجترحتَ ، فلا تُصلحِ دنياهم بفسادِ آخرتك ، فإن أخسرَ الناسَ صَفقةً يومَ القيامةِ ، وأعظمهم غَبناً من باعَ آخرته بدنياً غيره »

(١) ألا يألوا : قصر وأبطأ ، والخيال : الفساد .

(٢) العسف : الظلم ، والخسف : الذل .

(٣) اكتسبوا ، وفي رواية : « اجترموا » .

قال سليمان : « أمّا أنت يا أعرابي ، فقد سلّت لسانك ، وهو أقطع سيفيك » ، فقال :
« أجل يا أمير المؤمنين لك لا عليك » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٧ ، والمعقد الفريد ١ : ٣٠٧ ، ومروج الذهب ٢ : ١٦٤ -
وزهر الآداب ١ : ٢٧٧)

٢ - أعرابي يعظ هشام بن عبد الملك

ودخل أعرابي على هشام بن عبد الملك ، فقال له : عِظْنِي يَا أَعْرَابِي ، فقال :
« كفى بالقرآن واعظاً ، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ،
بسم الله الرحمن الرحيم : « وَيَلِّ لِّلطَّافِينَ ^(١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ،
يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » ، ثم قال « يا أمير المؤمنين ، هذا جزاء من يُطْلَفُ
في السكيل والميزان ، فما ظنك بمن أخذه كله ^(٢) ؟ » . (المعقد الفريد ٢ : ٨٤)

٣ - خطبة أعرابي ^(٣)

وولّى جعفر بن سليمان ^(٤) أعرابياً بعض مياهم ^(٥) فخطبهم يوم الجمعة فقال :
« الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ،
أما بعد : فإن الدنيا دارٌ بلاغ ^(٦) ، والآخرة دار قرار ، فخذوا لمقرّكم من ممرّكم ،
ولا تهتكموا أستاركم عند من لا تحقّ عليه أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم ،

(١) طلف : نقص الحكيال . (٢) وروى صاحب المعقد أيضاً هذه العظة (ج ١ ص ٣٠٦)
وذكر أنها لابن المبارك وعظ بها الرشيد .

(٣) قدمنا في الجزء الثاني ص ٤٨٢ أن هذه الخطبة متنازع فيها ، فهي ترمز تارة إلى الإمام علي
كرم الله وجهه ، وأخرى إلى سعيان وائل ، وثالثة إلى أعرابي . (٤) هو ابن عم أبي جعفر
المنصور ، وكان ولياً على المدينة سنة ١٤٦ - ١٥٠ هـ . (٥) في مجمع الأمثال : « عن الأصمعي
قال : حدثني شيخ من أهل العلم قال : شهدت الجمعة بالضرية « ضرية كغنية : قرية بين البصرة ومكة »
وأمرها رجل من الأعراب ، فخرج وخطب ، ولف ثيابه على رأسه ، وبه قوس فقال . . . وأورد
هذه الخطبة » ، وفي السكامل للبرد : « قال الأصمعي فيما بلغني خطبتنا أعرابي بالبادية فحمد الله . . .
(٦) وفي رواية الميداني ، و« عيون الأخبار » « بلاء » وفي رواية المعقد « دار عمر والآخرة دار مقر »

قبل أن تخرج منها أبدانكم ، فيها حبيبتكم ، ولغيرها خلقتكم ، اليوم عملٌ بلا حساب ،
وغداً حسابٌ بلا عمل ، إن الرجل إذا هلك ، قال الناس ما ترك؟ وقالت الملائكة :
ما قدم؟ فله آباؤكم اقدموا بفضاً ، يكون لكم قرضاً ، ولا تخلفوا كلاً ، يكون
عليكم كلاً^(١) ، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ، والحمد لله ، والمصلّى
عليه محمد ، والمدعو له الخليفة ، ثم إمامكم جعفر بن سليمان ، قوموا إلى صلاتكم .

(الأمالي : ١ : ٧٤٨ ، والعقد الفريد : ٢ : ١٦٤ ، وتهذيب الكمال : ١ : ٢٨ وبجمع الأمثال
١ : ٣١٨ ، وميون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٣ ، وزهر الآداب ٢ : ٤) .

٤ — خطبة أخرى

وخطب أعرابي فقال :

« الحمد لله الحميد المستحمد ، وصلى الله على النبي محمد .

أما بعد : فإن التعمق في ارتجال الخطب لم يكن ، والكلام لا ينشئ حتى يُنشئ عنه ،
والله تبارك وتعالى لا يدرك واصفٌ كنهه صفة ، ولا يبلغ خطيبٌ منتهى مدحته ، له
الحمد كما مدح نفسه ، فانهضوا إلى صلاتكم » ثم نزل فصلي . (العقد الفريد ٢ : ١٦٤)

٥ — خطبة أخرى

وخطب أعرابي قومه فقال :

« الحمد لله ، وصلى الله على النبي المصطفى وعلى جميع الأنبياء ، ما أقبح بمنلى أن ينهى
عن أمرٍ ويرتكبه ، ويأمر بشيءٍ ويحْتَنِبُه ، وقد قال الأول :

وَدَعَّ مَا لُمْتَ صَاحِبَهُ عَلَيْهِ فَذَمُّهُ أَنْ يَلُومَكَ مَنْ تَلُومُ

ألهمنا الله وإياكم تقواه ، والعمل برضاه . (العقد الفريد ٢ : ١٦٤)

٦ — أعرابية توصي ابنها وقد أراد السفر

قال أبان بن تغلب — وكان عبداً من عبّاد أهل البصرة توفي سنة ١٤١ هـ —
شهدت أعرابية وهي توصي ولداً لها يريد سفرأ وهي تقول له :

« أَيُّ بُنَىٰ اجاسِ أَمَنَحَكَ وصيتي ، وبالله توفيقك ، فإن الوصية أَجَدَىٰ (١) عليك من كثير عقلت ، أَيُّ بُنَىٰ . إياك والنسيمة فإنها تزرع الضغينة ، وتفرق بين المحبين ، وإياك والتعرض للميوب فتتخذ غرضاً (٢) ، وخَلِيقُ أَنْ لَا يَثْبُتَ الغرضُ على كثرة السهام ، ولما اعتورت (٣) السهام غرضاً إلا كَلَمَتَهُ (٤) حتى يَهَى (٥) ما اشتد من قوته ، وإياك والجودَ بدينك ، والبخلَ بمالك ، وإذا هزرت فأهزُرْ كريماً يابن لهزرتك ، ولا تهزُرْ اللثيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها ، ومثَّلَ لنفسك مثالَ ما استحسنت من غيرك فأعملْ به ، وما استقبحتَ من غيرك فاجتنبه ، فإن المرء لا يرى عيبَ نفسه ، ومن كانت مودتُهُ بِشِرِّهِ ، وخالفَ ذلك منه فعلهُ ، كان صديقهُ منه على مثلِ الرِّيحِ في تصرفها » ثم أمسكت ، فدنوتُ منها ، فقلت : بالله يا أعرابيةُ إلا زِدْتِ في الوصية ، فقلت : أَوَقدَ أُعجبك كلامَ العرب يا عراقى ؟ قلت : نعم ، قالت : والغدْرُ أقبِحُ ما تعاملُ به الناسُ بينهم ، ومن جمع الحِلْمَ والسَّخَاءَ فقد أجاد الحِلَّةَ (٦) : رَبطَها وَسِرَّ بِأَهلِها .

(الأمال : ٢ : ٨١ ، والمعقد للفريد ٢ : ٨٥ ، وبلاغات النساء ص ٥٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٢٢١) .

٧ - أعرابية توصي ابنها

وقالت أعرابية لابنها :

« يا بُنَىٰ ، إن سؤَالَكَ الناسَ ما في أيديهم من أشدِّ الافتقار إليهم ، ومن افتقرت إليه هُنتَ عليه ، ولا تزال تُحفظ وتُكْرَم ، حتى تَسْأَلَ وتَرْغَب ، فإذا ألحَّت عليك الحاجةُ ، ولزِمَكَ سؤهُ الحَالِ ، فأجعل سؤَالَكَ إلى من إليه حاجةُ السائلِ والمسئولِ ، فإنه يُعطى السائلِ » .

(المعقد للفريد ٢ : ٨٥)

(١) أنفع (٢) هدفاً . (٣) تداولت . (٤) جرحته . وحطته .

(٥) وهى هسى : ضف .

(٦) الحلة لا تكون إلا من لوبين إزار ورداء ، والربطة ؛ الملاحة كلها فسيج واحد وقطعة واحدة ،

والسربال : القميص .

٨ - أعرابي يوصي ابنه

ووصى أعرابي ابنه فقال :

« ابذل المودَّةَ الصادقةَ تستفدُ إخواناً ، وتتخذُ أعواناً ، فإن العداوة موجودة عتيّدة ، والصدّاقةُ مُستعْرِزةٌ^(١) بعيدة ، جنب كرامتك اللثام ، فإنهم إن أحسنت إليهم لم يشكروا ، وإن نزلت شديدة لم يصبروا » . (الامال ١ : ٢٠١)

٩ - أعرابي ينصح لابنه

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول لابنه :

« لَا يَفْرَتَكَ مَا تَرَى مِنْ خَفْضِ الْعَيْشِ ، وَلَيْنَ الرَّيَاشِ^(٢) ، وَلَكِنْ فَانظُرْ إِلَى سَوْءِ الظَّنِّ ، وَسَوْءِ الْمُتَقَلِّبِ » . (الامال ٢ : ٥٩)

١٠ - أعرابي ينصح لابنه

وقال : سمعت أعرابياً يقول لابنه :

« كُنْ لِلْعَاقِلِ الْمُدْبِرِ أَرْجَى مِنْكَ لِلْأَحْمَقِ الْمُقْبِلِ » ، ثُمَّ أَنْشَدَ :
عَدُوُّكَ ذُو الْحِلْمِ أَبْقَى عَلَيْكَ وَأَرْعَى مِنَ الْوَأَمِقِ الْأَحْمَقِ^(٣)
(ذيل الأمال - ص ٣٤)

١١ - أعرابي ينصح لأخيه

ونصح أعرابي لأخيه ، فقال :

« اعلم أن الناصح لك ، المشفق عليك ، من طالع لك ما وراء العواقب برويته ونظره ، ومثل لك الأحوال المخوفة عليك ، وحاط الوعر بالسهل من كلامه ومشورته ليكون خوفك كفاءً^(٤) رجائك ، وشكرك إزاء النعمة عليك ، وأن العاش لك ،

(١) مستعززة : منقبضة شديدة .

(٢) الرياش : الحصب والمعاش .

(٣) مكافئاً .

(٤) الوامق : المحب .

والخاطب^(١) عليك، مَنْ مَدَّ لَكَ فِي الْاِغْتِرَارِ ، وَوَطَّأَ لَكَ مِهَادَ^(٢) الظَّمِّ، تَابِعاً لِمَرْضَاتِكَ
مَنْقَداً لِهَوَاكَ .
(الأمال ١ : ١٩٨)

١٢ - أعرابي يعظ أخاه

ووعظ أعرابي أخاه أفسد ماله في الشراب، فقال :
« لا الدهرُ يعظُك ، ولا الأيلم تُنذِرُك ، ولا الشَّيْبُ يَزْجُرُك ، والساعاتُ تحصى
عليك ، والأنفاسُ تُعدُّ منك ، والمنايا تُقاد إليك ، أحبُّ الأمور إليك ، أعودُها
بالمضرة عليك . »

(العقد الفريد ٢ : ٨٥ ، والأمال ١ : ١٩٨ ، وزهر الآداب ٣ : ١١٥)

١٣ - أعرابي يعظ صاحبه

وقال أعرابي لصاحبه :
« والله لئن هملجت^(٣) إلى الباطل ، إنك لقطوف^(٤) عن الحق ، ولئن أبطأت
ليسر عن بك ، وقد خسر أقوام وهم يظنون أنهم راجحون ، فلا تغرنك الدنيا ، فإن
الآخرة من ورائك . »
(البيان والتبيين ٢ : ١٥٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٦)

١٤ - أعرابي يعظ أخاه

وقال أعرابي لأخيه :
« يا أخي : أنت طالب ومطلوب ، يطلبُك مالا تقوته ، وتطلبُ ما قد كُفيتَه ،
فكان ماغاب عنك ، قد كُشِفَ لك ، وما أنت فيه قد نُقِلت عنه ، فامهد^(٥) لنفسك ،
وأعد ذلك ، وخذ في جهازك . »
(العقد الفريد ٢ : ٨٤)

(١) هو مخاطب ليل : أي مخاطب في كلامه . (٢) المهاد : الفرائس .

(٣) من هجاج البرذون : مشى مشية سهلة في سرعة .

(٤) من قطفت الدابة كنصر وضرب : ضاق مشيها ، فهي قطوف .

(٥) أي مهد وأعد .

١٥ - أعرابي يعظ رجلا

وقال أعرابي لرجل :

« أَيْ أَخِي : إِنْ يَسَّارَ النَّفْسِ أَفْضَلُ مِنْ يَسَّارِ الْمَالِ ، فَإِنْ لَمْ تُرْزَقْ غِنَى فَلَائِحُ حَرَمٍ تَقْوَى ، فَرُبَّ شَبَعَانَ مِنَ النَّعَمِ ، عُرْيَانَ مِنَ الْكِرَمِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُؤْمِنَ عَلَى خَيْرٍ : تُرَحَّبُ بِهِ الْأَرْضُ ، وَتَسْتَبْشِرُ بِهِ السَّمَاءُ ، وَلَنْ يُسَاءَ إِلَيْهِ فِي بَطْنِهَا ، وَقَدْ أَحْسَنَ عَلَى ظَهْرِهَا . »
(المعقده الفريديه ٢ : ٨٥)

١٦ - أعرابي يعظ رجلا

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يعظ رجلا وهو يقول :

« وَيَحْكُ ! إِنْ فَلَانًا وَإِنْ ضَحِكَ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ يَضْحَكُ مِنْكَ ، وَلَئِنْ أَظْهَرَ الشَّفَقَةَ عَلَيْكَ ، إِنْ عَقَّارَهُ لَتَسْرِي إِلَيْكَ ، فَإِنْ لَمْ تَتَّخِذْهُ عَدُوًّا فِي عِلَانِيَتِكَ ، فَلَا تَجْعَلْهُ صَدِيقًا فِي سِرِّيَتِكَ . »
(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

١٧ - أعرابي يعظ رجلا

وسمع أعرابي رجلا يقع في السلطان ، فقال :

« إِنَّكَ غُفْلٌ لَمْ تَسْمَعْ التَّجَارِبُ ، وَفِي النَّصِيحِ لَسَعُ الْعُقَابِ ، كَأَنِّي بِالضَّاحِكِ إِلَيْكَ ، وَهُوَ بِالكَ عَلَيْكَ . »
(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

١٨ - كلام أعرابي لابن عمه

وشاور أعرابي ابن عم له ، فأشار عليه برأى ، فقال :

« قَدْ قُلْتُ بِمَا يَقُولُ بِهِ النَّاصِحُ الشَّفِيقُ الَّذِي يَخَاطُبُ حُلُوْ كَلَامِهِ بِمُرَّةٍ ، وَحَزَنَتُهُ بِسَمْنَانٍ وَيَنْحَرُّكَ الْإِشْفَاقُ مِنْهُ مَا هُوَ سَاكِنٌ مِنْ غَيْرِهِ ، وَقَدْ وَعَيْتُ النَّصِيحَ مِنْهُ وَقَبِلْتَهُ ، إِذْ كَانَ مَصْدَرُهُ مِنْ عِنْدِ مَنْ لَا شَكَّ فِي مُوَدَّتِهِ ، وَصَافِي غَيْبِهِ ، وَمَا زَلَّتْ بِحَمْدِ اللَّهِ إِلَى الْخَيْرِ مَتَهَجًا وَاضِحًا ، وَطَرِيقًا مَهِيغًا ^(١) . »
(الأمل ٢ : ٨٢)

(١) طريق مهيع : بين راضع .

١٩ - كلمات حكيمة للأعراب

قيل لأعرابي : مَالَك لا تشرب التَّبِيدَ ؟ قال : « لثلاثِ خِلَالٍ فِيهِ : لِأَنَّهُ مُتَلَفٌ لِلْمَالِ ، مُذْهَبٌ لِلْعَقْلِ ، مُسْقِطٌ لِلْمَرْوَةِ » .

وقال أعرابي : « الدِّرَاهِمُ مَيَاسِمٌ ^(١) ، تَسِيمٌ حَمْدًا وَذَمًّا ، فَمَنْ حَبَسَهَا كَانَ لَهَا ، وَمَنْ أَنْفَقَهَا كَانَتْ لَهُ ، وَمَا كُلُّ مَنْ أُعْطِيَ مَالًا أُعْطِيَ حَمْدًا ، وَلَا كُلُّ عَدِيمٍ ذَمِيمٌ » .

وقال أعرابي لأخيه له : « يَا أَخِي إِنْ مَالِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ كُنْتَ لَهُ ، وَإِنْ لَمْ تُفْنِهِ أَنْفَاكَ ، فَكُلُّهُ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَكَ » .

وقال أعرابي : « إِنْ الْمَوْفِقُ مَنْ تَرَكَ أَرْقَى الْحَالَاتِ بِهِ ، لِأَصَاحِبِهَا لَدِينِهِ ، نَظْرًا لِنَفْسِهِ ، إِذَا لَمْ تَنْظُرْ نَفْسُهُ لَهَا » .

وقال أعرابي : « إِنْ اللَّهُ مُخْلِيفٌ مَا أَتَلَفَ النَّاسُ ، وَالدهرُ مُتَلِفٌ مَا أَخْلَقُوا ، وَكَمْ مِنْ مَيِّتَةٍ عَلَيْهَا طَلَبَ الْحَيَاةَ ، وَكَمْ مِنْ حَيَاةٍ سَبَبَهَا التَّعَرُّضُ لِلْمَوْتِ » .

وقال أعرابي : « إِنْ الْأَمَالَ قَطَعْتَ أَعْنَاقَ الرَّجَالِ ، كَالسَّرَابِ غَرَّ مَنْ رَأَاهُ ، وَأَخْلَفَ مِنْ رَجَاهُ » .

وقال أعرابي لصاحب له : « أَصْحَبَ مِنْ يَتَنَاسَى مَعْرُوفَةَ عَلَيْكَ ، وَيَتَذَكَّرُ حَقُوقَكَ عَلَيْهِ » .

وقال أعرابي : « لَا تَسْأَلْ مَنْ يَفِرُّ مِنْ أَنْ تَسْأَلَهُ ، وَلَكِنْ سَلْ مَنْ أَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ ، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى » .

وقال أعرابي : « مَا بَقَاءُ عُمرٍ تَقْطَعُهُ السَّاعَاتُ ، وَسَلَامَةُ بَدَنِ مُعَرَّضٍ لِلآفَاتِ ؟ وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنَ الْمُؤْمِنِ ! كَيْفَ يَكْرَهُ الْمَوْتَ ؟ وَهُوَ يَنْقُلُهُ إِلَى الثَّوَابِ الَّذِي أَحْيَاهُ لَهُ لِيَلَّهُ وَأَظْمَأَ لَهُ نَهَارَهُ » .

(١) مياسم جمع ميسم بالكسر : وهو المكروء .

وذُكِرَ أهلُ السلطان عند أعرابي فقال: «أما والله لئن عَزَّوَأني الدنيا بالجور ، لقد ذَلَّوْا في الآخرة بالعدل ، ولقد رضُوا بقبائلٍ فانٍ ، عِوَضًا عن كثيرٍ باقٍ ، وإنما تزلُّ القدمُ حيث لا ينفَعُ الندمُ » .

وقال أعرابي : « من كانت مطيته الليل والنهار ، سارا به وإن لم يسِرْ ، وبلغا به وإن لم يبلغ » .

وقال أعرابي : « الزهادة في الدنيا مفتاح الرغبة في الآخرة ، والزهادة في الآخرة مفتاح الرغبة في الدنيا » .

وقيل لأعرابي وقد مرض : إنك تموت ! قال : « وإذا مُتُّ فإلى أين يُذهَبُ بي ؟ » قالوا : « إلى الله تعالى » ، قال : « فما كراحتي أن يُذهَبَ بي إلى من لم أوالخير إلا منه ؟ » .

وقال أعرابي : « من خاف الموتَ بادر الموتَ ، ومن لم يُنَحِّ النفسَ عن الشهوات ، أسرعت به إلى الهلكات ، والجنة والنار أمانك » .

وقال أعرابي : « خيرٌ لك من الحياة ما إذا فقدته أبغضتَ له الحياة ، وشرٌّ من الموت ما إذا نزل بك أحببتَ له الموت » .

وقيل لأعرابي : من أحقُّ الناس بالرحمة ؟ قال : « الكريمُ يُسلِّطُ عليه اللئيمُ ، والعاقلُ يُسلِّطُ عليه الجاهلُ » .

وقيل له : أيُّ الداعين أحقُّ بالإجابة ؟ قال : المظلوم ، وقيل له : فأى الناس أغنى عن الناس ؟ قال : « من أفرد الله بحاجته » .

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « إذا أشكل عليك أمران ، فانظر أيهما أقرب من هواك فخالفه ، فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى » .

وقال أعرابي : « الشرُّ عاجله للذيذ ، وآجله وخيم » .

وقال أعرابي : « من ولد الخير أنتج له فراخاً تطير بأجنحة السرور ، ومن غرس الشر أنبت له نباتاً مرّاً مذاقهُ ، وقضبانهُ العيظُ ، وثمرته الندم » .

وقال أعرابي : « من كساء الحلياء ثوبه ، حَفِيَ على الناس عيبه » وقال : « بئس الزاد ، التَعَدَّى على العباد » ، وقال : « التاطف بالحيلة ، أنفع من الوسيلة » ، وقال : « من نَقَلَ على صديقه ، خَفَّ على عدوه » ، ومن أسرع إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه مالا يعلمون » .

وقال أعرابي : « أعجزُ الناس مَنْ قَصَّرَ في طلب الإخوان ، وأعجز منه مَنْ ضَيَّعَ من ظَفِرٍ به منهم » .

وقال أعرابي لابنه : « لا يسرك أن تغلب بالشرِّ ، فإن الغالب بالشرِّ هو المغلوب » .
وقال أعرابي لأخ له : « قد نهيتك أن تُريق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه ، فإن حَظَّكَ من عطيتِهِ السؤالُ » .

وقال أعرابي : « إن حبَّ الخير خير وإن عجزتُ عنه المقدرة ، وبفض الشرِّ خير وإن فعلت أكرهه » .

وقال أعرابي : « والله لولا أن البروءة تَقِيلُ مَحْمَلِهَا^(١) ، شديدة مؤتمتها ، ما ترك النائم للكرام شيئاً » .

واحتضر أعرابي ، فقال له بنوه : عِظْنَا يَا أَبَتِ ، فقال : « عاشروا الناس معاشرَةً ، إن غيبتم حننوا إليكم ، وإن تمَّ بكموا عليكم » .

ودخل أعرابي على بعض الملوك في شملة^(٢) شعر ، فلما رآه أعرض عنه ، فقال له : « إن الشملة لا تكلمك ، وإنما يكلمك مَنْ هو فيها » .

وقال أعرابي : « رَبَّ رجلٍ سرُّهُ منشور على لسانه ، وآخر قد التحفَ عليه قلبه التحافَ الجناح على الخواصِ » .

(١) الحمل في الأصل : شقان على البعير يحمل فيهما الديلان . (٢) كساء دون التطيفة وشعليه .

وقيل لأعرابي : كيف كتبناك للسرّ ؟ قال : « ما جوفى له إلا قَبْرٌ » .
ومرّ أعرابيان برجل صلبه بعض الخلفاء ، فقال أحدهما : أَنْبَتَتْهُ الطّاعَةُ ، وَحَصَدَتْهُ
المعصية ، وقال الآخر : « من طَلَّقَ الدنيا فالآخرة صَاحِبَتُهُ ، ومن فارق الحق
فالجُدُّعُ راحلتُهُ » .

وقال أعرابي : « إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ، ودوامَ عهده ، فانظر إلى حينه
إلى أوطانه ، وشوقه إلى إخوانه ، وبكائه على ما مضى من زمانه » .
وقال أعرابي : « إذا كان الرأى عند من لا يُقبل منه ، والسلاح عند من لا يستعمله ،
والمال عند من لا ينفقه ، ضاعت الأمور » . (المقدم الفريد ٢ : ٨٥ - ٨٧)

وقال أعرابي : « إن الدنيا تنطق بغير لسان ، فتخبّر عما يكون بما قد كان » .
(المقدم الفريد ٢ : ٨٥)

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « غَفَلْنَا ولم يقفل الدهر عنا ، فلم ننعظ
بغيرنا ، حتى وُعِظَ غيرُنا بنا ، فقد أدركت السعادة مَنْ تَبَّهَ ، وأدركت الشقاوة من
غَفَلَ ، وكفى بالتجربة واعظاً » . (زهر الآداب ٢ : ٥)

وقال أعرابي لرجل : « اشكُرْ للمنعِمِ عليك ، وَأَنْعِمِ على الشاكر لك ، تستوجبُ
من ربك زيادته ، ومن أخيك مُناصحتَهُ » . (زهر الآداب ٢ : ٦)

وتذاكر قوم صلّة الرّحِمِ ، وأعرابيٌّ جالس ، فقال : « مَنْسَأَةٌ^(١) في العمر ، مرّضَةٌ
للربِّ ، محبّة في الأهل » . (الأمال ١ : ٢١٧)

وقال أعرابي : « لا أعرف ضُرّاً أوُصِلَ إلى نياط القلب ، من الحاجة إلى من لم
تثِقْ بإسعافه ، ولا تأمن رَدَّهُ ، وأكلمُ المصائبَ فقد خليل لا عِوَضَ منه » .

وقيل لأعرابي : أى شيء أمتع ؟ فقال : « مُمازحةُ المُحبِّ ، ومحادثة الصديق ،
وأمانى تقطع بها أيامك » .

وقال أعرابي : « من لم يرضَ عن صديقه إلا بإيثاره على نفسه ، دام سَخَطُهُ ،
وَمَنْ عَاتَبَ عَلَى كُلِّ ذَنْبٍ كَثُرَ عَدُوُّهُ ، وَمَنْ لَمْ يُوَاطِحْ مِنَ الْإِخْوَانِ إِلَّا مَنْ لَا عَيْبَ
فِيهِ قَلَّ صَدِيقُهُ . » (الأمال ١ : ٢١٨)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : قلت لأعرابي ما تقول في المرء ؟ قال : « ما عسى
أن أقول في شيء يُفْسِدُ الصِّدْقَةَ الْقَدِيمَةَ ، وَيَحُلُّ الْعُقْدَةَ الْوَثِيقَةَ ، أَقَلُّ مَا فِيهِ أَنْ يَكُونَ
دُرْبَةً لِلْمَغَالِبَةِ ، وَالْمَغَالِبَةُ مِنْ أُمَّتِنِ أَسْبَابُ الْفِتْنَةِ . » (الأمال ١ : ٢٥٨)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول : « لا يوجد العَجُولُ محموداً ،
ولا العَفْصُوبُ مَسْروراً ، ولا المَلُولُ ذا إخوان ، ولا الحرُّ حريصاً ، ولا الشرُّ غنياً . »
وقال : سمعت أعرابياً يقول : « صنُّ عقلك بالحلم ، ومُروءتك بالعفاف ، ونجدتك
بتجانبة الخيلاء ، وخلتكت^(١) بالإجمال في الطلب » (الأمال ٢ : ٢٢)

وقال : سمعت أعرابياً يقول : « أفتحُ أعمالُ المتقدرين الانتقام ، وما استنبطَ
الصوابُ بمثل المشاورة ، ولا حُصِّلَتِ النعم بمثل المواساة ، ولا اكتسبتُ البغضاء
بمثل الكبر . » (الأمال ٢ : ٢٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٣)

وقال أعرابي : « خير الإخوان من يُنِيلُ عُرفاً ، أو يدفعُ ضراً . »

(الأمال ٢ : ٤١)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول : « العاقلُ حقيقٌ أن يُسَخِّيَ
بنفسه عن الدنيا ، لعله أن لا ينال أحد فيها شيئاً إلا قَلَّ إمتاعُهُ به ، أو كَثُرَ عَنَاؤُهُ
فيه ، واشتدت مرزنتُهُ^(٢) عليه عند فراقه ، وَعَظُمَتِ التَّبِعَةُ فِيهِ بَعْدَهُ . »

(الأمال ٢ : ٤١)

وقال أعرابي : « خَصَلْتانِ مِنَ الْكَرَمِ : إِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ ، وَمَوَاسَاةُ
الْإِخْوَانِ . » (الأمال ٢ : ٧٣)

وقال أعرابي : « ما عُيِّنَتْ قَطُّ حَتَّى يُغَيَّبَنَّ قَوْمِي » ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال :
« لا أفعل شيئاً حتى أشاورهم » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦١)

وقال أعرابي لرجل مَطَّلَه في حاجة : « إن مثل الظفر بالحاجة تمجيل اليأس منها ،
إذا عَسِرَ قضاؤها ، وإن الطالب وإن قَلَّ ، أعظمُ قدرًا من الحاجة وإن عَظُمَتْ ، والمطلُّ
من غير عُسْرِ آفةُ الجود » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢١)

وقال أعرابي : « وَعَدَّ السَّكْرِيمِ نَقْدًا وَتَمَجِيلًا ، وَوَعَدَ اللَّثِيمَ مَطْلًا وَتَعْلِيلًا » ..
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١)

وقال أعرابي : « اعتذارٌ من مَنَع ، أَجْمَلُ من وَعَدٍ مَمْطُول » .
(الآمال ٢ : ١٩٨)

وقال أعرابي : « عَوْدُ لِسَانِكَ الْخَيْرَ ، تَسْلَمُ من أَهْلِ الشَّرِّ » .
(ذيل الآمال ص ٢٩)

وقال أعرابي : « خرجت ليلة حين انحدرت أيدي النجوم ، وشالت^(١) أرجلها ،
فازلت أصدع الليل حتى انصدع الفجر ، فإذا بجارية كأنها علم ، فحملت أغازلها ، فقالت :
يا هذا : أَمَّا لَكَ نَاهٍ من كَرَمٍ ، إن لم يكن لك زاجرٌ من عقل ؟ قال : والله ما يراني إلا
الكوكب ! قالت : فأين مُكْوُ كِبِهَا ؟ » .

(المقدم الفرید ٢ : ٩٤ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥١ ، وزهر الآداب ٢ : ٦)

أجوبة الأعراب

٢٠ - مجاوبة أعرابي للحجاج

خرج الحجاج ذات يوم فأصْحَرَ^(٢) ، وحضر غداؤه ، فقال : اطلبوا من يتعدى
معي ، فطلبوا ، فإذا أعرابي في شميلة : فَأَتَى به ، فقال السلام عليكم ، قال : هَلُمَّ أيها
الأعرابي ، قال : قد دعاني من هو أكرم منك فأجبتُه ، قال : ومن هو ؟ قال : دعاني

(١) ارتفعت : من شالت الناقة بذنها وأشالته : رفعته ، فشال هو .

(٢) أصعر : برز في الصحراء .

الله ربِّي إلى الصوم ، فأنا صائم ، قال : وصومٌ في مثل هذا اليوم الحارّ ؟ قال : صمت ليومٍ هو أحرُّ منه ، قال : فأفطر اليومَ وصُمتُ غدًا ، قال : وَيَضْمَنَ لِي الْأَمِيرُ أَنِّي أُعِيشُ إِلَى غَدٍ ؟ قال : ليس ذلك إليه ، قال : فكيف تسألني عاجلاً بأجلٍ ، ليس إليه سبيل ؟ قال : إنه طعام طيب ، قال : والله ما طيبه حَبَّازُكَ وَلَا طَبَّاحُكَ ، قال : فَمَنْ طَيَّبَهُ ؟ قال : العافية ، قال الحجاج : تالله إن رأيت كالليوم ! أخرجوه عني .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٤ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٧)

٢١ - مسألة الحجاج أعرابياً فصيحاً

وقال الحجاج لأعرابي كلمه فوجده فصيحاً : كيف تركت الناس وراءك ؟ فقال : « تركتهم - أصلح الله الأمير - حين تفرقوا في الغيطان ، وأخذوا النيران ، وتَشَكَّتْ النساء ، وعَرَضَ الشاء ، ومات الكلبُ » ، فقال الحجاج لجلسائه : « أُخِصَبًا نَعَتَ أَمِ جَدِّبًا ؟ قالوا : بل جدبًا ، قال : بل خِصَبًا ، قوله : تفرقوا في الغيطان ^(١) ، معناه : أنها أعشبت ، فإبليهم وغنمهم ترعى ، وأخذوا النيران ، معناه : استغنوا باللبن عن أن يشتروا لحوم إبلهم وغنمهم ويأكلوها ، وتَشَكَّتْ النساء أعضاءهن ، من كثرة ما يَمَخَّضُن ^(٢) الألبان ، وعَرَضَ الشاء : استن ^(٣) من كثرة العُشْبِ والمرعى ، ومات الكلب : لم تَمِتْ أَعْنَامُهُمْ وإبليهم فياً كل جيفها » . (ذيل الامال ص ٨٧)

٢٢ - مجاوبة أعرابي لعبد الملك بن مروان

ودخل أعرابي على عبد الملك بن مروان ، فقال له : يا أعرابي صف الخمر ، فقال : شمولٌ إذا شَجَّتْ ، وفي الكأس مُزَّةٌ لها في عظام الشاربين دَبِيبٌ ^(٤)

(١) جمع غائظ : وهو الملمئن الواسع من الأرض . (٢) مخض اللبن من باب قطع ونصر وضرب أخط زبده . (٣) استن : سمن ، من الإبل كنصر : إذا رعاها فأصنمها . (٤) الشمول : الخمر أو الباردة منها ، لأنها تشمل برميها للناس ، أو لأن لها عصفة كعصفة الشمال ، وشيخ الشراب : مزجه .

تُرِيكَ الْقَدَى مِنْ دُونِهَا وَهِيَ دُونَهُ لَوْجَهُ أَخِيهَا فِي الْإِنَاءِ قُطُوبٌ^(١)
قال : ويحك يا أعرابي ! لقد أتهمك عندي حُسْنُ صَفَتِكَ لَهَا ، قال : « يا أمير
المؤمنين ، وأتهمك عندي معرفتك بحسن صفتي لها » .

(ميون الأخبار ٢ م : ص ٢١٥)

٢٣ - مجاوبة أعرابي لخالد بن عبد الله القسري

وخطب خالد بن عبد الله القسري فقال :

« يَا هَلِ الْبَادِيَةِ : مَا أَحْسَنَ بِلَدِّكُمْ ، وَأَغْلَطَ مَعَاشِكُمْ ، وَأَجْحَى أَخْلَاقَكُمْ ،
لَا تَشْهَدُونَ جُمُعَةَ ، وَلَا تَجَالِسُونَ عَلَمَاً ، قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْهُمْ دَمِيمٌ ، قَالَ :
« أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ خَشْوَةِ بِلَدِّنَا ، وَغِلْظِ طَعَامِنَا ، فَهِيَ كَذَلِكَ ، وَلَسْنَا مَعَشَرَ
أَهْلِ الْخَضِرِ ، فِيكُمْ ثَلَاثُ خِصَالٍ ، هِيَ شَرٌّ مِنْ كُلِّ مَا ذَكَرْتَ » ، قَالَ لَهُ خَالِدٌ :
وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : « تَنْقُبُونَ الدُّورَ ، وَتَنْبُشُونَ الْقُبُورَ ، وَتَنْكِحُونَ الذَّكَورَ » ، قَالَ :
« قَبَّحَكَ اللَّهُ ، وَقَبَّحَ مَا جِئْتَ بِهِ » .

(المقد الفريده ٢ : ١٢٧)

٢٤ - أجوبة شتى

وَقَدَّمَ أَعْرَابِي إِلَى السُّلْطَانِ ، فَقَالَ لَهُ : قُلِ الْحَقَّ ، وَإِلَّا أَوْجَعْتُكَ ضَرْبًا ،
قَالَ لَهُ : « وَأَنْتَ فَاعْمَلْ بِهِ ، فَوَاللَّهِ مَا أَوْعَدَكَ اللَّهُ عَلَى تَرْكِهِ ، أَعْظَمَ مِمَّا تُوعِدُنِي بِهِ » .
وَنَظَرَ عُمَانٌ إِلَى أَعْرَابِي فِي سَمَلَةٍ ، غَاثِرِ الْعَيْنَيْنِ ، مُشْرِفِ الْحَاجِبِينَ ، نَاطِي الْجُبْهَةِ ،
فَقَالَ لَهُ : أَيْنَ رَبِّكَ ؟ قَالَ : بِالْمِرْصَادِ !

وقيل لأعرابي : إنك تُحْسِنُ الشَّارَةَ^(٢) ، قال : « ذَلِكَ عُنوان نعمة الله عندي » .

(١) القدي : ما يقع في الشراب ، تطيب كضرب قلباً وقطوباً : زوى ما بين عينيه وكلح ، وأخوها :
هو نبيذ الزبيب ، والمعنى : أن الشارين يفضلونها عليه فتهربونها دونه ، فهو يقطب من أجل ذلك ، وق
أخيها يقول للشاعر :

دع الخمر يشربها الفواة فإنني رأيت أخاها مغنياً بكانها
فلا يكنها أو تسكت فإنه أخوها غده أمه بلبانها

(٢) الشارة : اللباس والهيئة والزينة .

وقيل لأعرابي : « كيف أنت في دينك ؟ قال : أخرقه بالمعاصي ، وأرقمه بالاستغفار » .

وسئل أعرابي عن القدر فقال : « الناظر في قدر الله كالناظر في عين الشمس ، يعرف ضوءها ، ولا يقف على حدودها » .

وسئل آخر عن القدر ، فقال : « علم اختصمت فيه العقول ، وتناول فيه المختلفون ، وحق علينا أن يرد إلينا ما التبس علينا من حكمه ، إلى ما سبق علينا من علمه » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٦ - ٨٧)

وقيل لأعرابي : من أبلغ الناس ؟ قال : « أحسنهم لفظاً وأسرعهم بديهة » .
وقيل لأعرابي : مالك لا تطيل الهجاء ؟ قال : « يكفيك من القلادة ما أحاط بالعتق » .

وقال معاوية لأعرابية : هل من قرى ؟ قالت : نعم ، قال : وما هو ؟ قالت : « خبزٌ خخير ، ولبن فطير ، وماء نيم ^(١) » .

وقيل لأعرابي : فيم كنتم ؟ قال : « كنا بين قدر نفور ، وكأس تدور ، وحديث لا يحور ^(٢) » .

وقيل لأعرابي : ما أعددت للبرد ؟ قال : « شدة الرعدة ، وقرفصاء القعدة ، وذرب المعدة ^(٣) » .

وقيل لأعرابي : « ما لك من الولد ؟ قال : قليلٌ خبيثٌ » قيل له : ما معناه ؟ قال : « إنه لا أقل من واحد ، ولا أخبث من أثنى » .

وقيل لأعرابي - وقد أدخل ناقته في السوق ليبيعها - صف لنا ناقتك ، قال :

(١) الخيمر : الذي اختمر ، وماء نيم : ناعم ، عذبا كان أو غير عذب .
(٢) أي لا ينقص ، وربما كان لا يحور بالجم . (٣) القرفصاء : أن يجلس على أليته ، ويلصق فخذه ببطنه ، ويحتسب بيديه يضمهما على ساقيه ، أو يجلس على ركبتيه منكبا ، ويلصق بطنه بفخذه ، ويتأبط كفيه ، والذرب : الحدة ، والمعدة ككلمة وكسرة .

مَا طَلَبْتُ عَلَيْهَا قَطُّ إِلَّا أَدْرَكْتُ ، وَلَا طُلِبْتُ إِلَّا فُتُّ ، وَقِيلَ لَهُ : فَلِمَ تَبِعِيهَا ؟
قال : لتقول الشاعر :

وقد تُخْرِجُ الْحَاجَاتُ يَا أُمَّ عَامِرٍ كِرَامًا مِنْ رَبِّ بَهَنٍ ضَنِينَ
وقيل لأعرابي : ما عندكم في البادية طيب ؟ قال : « حُرُّ الْوَحْشِ لِمُتَحَاجِ
إِلَى بَيْطَارٍ » .

وقيل لِشَرِيحِ الْقَاضِي : هَلْ كَلِمَكَ أَحَدٌ قَطُّ فَلَمْ تُطِقْ لَهُ جَوَابًا ؟ قال : مَا أَعْلَمُهُ
إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَعْرَابِيًّا ، خَاصِمٌ عِنْدِي وَهُوَ يَشِيرُ بِيَدَيْهِ ، قَلَّتْ لَهُ : أَمْسِكَ ، فَإِنْ
لَسَانِكَ أَطْوَلُ مِنْ يَدِكَ ، قال : « أَسَامِرِيٌّ أَنْتَ لَا تَمْسُ ؟ ^(١) » .

(العقد الفريد ٢ : ٩٧)

وقيل لأعرابي : أَيُّ الْأَلْوَانِ أَحْسَنُ ؟ قال : « قُصُورٌ بَيْضٌ » ، فِي حَدَائِقِ
خُضْرٍ .

وقيل لآخر : أَيُّ الْأَلْوَانِ أَحْسَنُ ؟ قال : « بَيْضَةٌ ^(٢) » ، فِي رَوْضَةٍ ، عَنِ غِيبِ
سَارِيَةٍ ، وَالشَّمْسِ مُكَبَّدَةٍ .

(١) يشير إلى قوله تعالى : « قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ، قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ
يَبْصُرُوا بِهِ ، فَاقْتَبَسْتُ قَبْصَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ، وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ،
قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ » .

والسامري : هو موسى بن ظفر السامري نسبة إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها : السامرة ، وكان
من قوم يعبدون البقر ، وقع في مصر ، فدخل في بني إسرائيل ، وآمن بموسى ، وكان منافقاً لا يزال في قابه
عبادة البقر ، فلما ذهب موسى لمناجاة ربه فتن بني إسرائيل ، وكانوا حين خرجوا من مصر حملوا معهم من
حل القبط التي أخذوها منهم رهائن على ما يقرضونهم من المال - فاتخذ لهم منها عجلاً جسداً له خوار . . .
إلى آخر ما هو معروف في القصة ، من أثر الرسول : أي من أثر حافر الرسول وهو جبريل ، والأثر :
التراب الذي تحت حافره ، والمساس مصدر ماس ، وهو نفي أريه به النهي ، أي لا تمسني ولا أمسك .

(٢) البيضة : ساحة القوم ومجتمعهم ، والسارية : السحابة تسمى ليلاً ، وكبدت الشمس السماء : صارت
في كبدها أي وسطها ، وفي الأصل « مكيدة » بالياء وهو تصعيف .

وخطب أعرابي إلى قوم فقالوا : ما تبذل من الصداق ؟ وارتنع السجف^(١)
فأرى شيئاً كرهه فقال : « والله ما عندي نقد ، وإني لأكره أن يكون علي دين » .
(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٠٠)

وقيل لأعرابية مات ابنها : « ما أحسن عزاءك عن ابنك ! » ، قالت :
« إن مصيبتته آمنتني من المصائب بعده » .

وقال محمد بن حرب الهاللي : قلت لأعرابي : « إني لك لو أدت » ، قال : « وإن لك
من قلبي لرائداً » . (البيان والتبيين ١ : ١٤٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ٩٢)

وقال الأصمعي : رأيت أعرابياً أمامه شاء ، فقلت لمن هذه الشاء ؟ قال :
« هي لله عندي » . (العقد الفريد ٢ : ٨٦ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢٠٩)

قولهم في الاستمناح والاستجداء

٢٥ — أعرابي يجتدي عتبة بن أبي سفيان

اعترض أعرابي لعتبة بن أبي سفيان ، وهو على مكة ، فقال : أيها الخليفة ، فقال :
لستُ به ، ولم تُبعِد ، قال : يا أخاه ، قال : أسمعُ فقل ، قال :

« شيخ من بني عامر يتقرب إليك بالعمومة ، ويختص بأخثولة ، ويشكو إليك
كثرة العيال ، ووطأة الزمان ، وشدة فقر ، وترادف ضرر ، وعندك ما يسعه ويصرف
عنه بؤسه » قال : « أستغفر الله منك ، وأستعينه عليك ، قد أمرت لك بغناك ،
فليت إسراعنا إليك ، يقوم بإبطائنا عنك » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٠ ، والعقد الفريد ٢ : ٨١)

٢٦ - أعرابي يجتدى عمر بن عبد العزيز

وأتى أعرابي عمر بن عبد العزيز ، فقال :

« رجل من أهل البادية ، ساقته إليك الحاجة ، وبلغت به الغاية ، والله سائلك عن مقامي غداً ، فقال عمر : « والله ما سمعتُ كلمةً أبلغ من قائل ، ولا أوعظُ لمقولٍ له منها » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٣ ، والأمال ٢ : ١٧٤ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١) .

٢٧ - خطبة أعرابي بين يدي هشام بن عبد الملك

وكانت الأعراب تنجِّع هشام بن عبد الملك بألُطَب كل عام ، فتقدَّم إليهم الحاجب يأمرهم بالإيجاز ، فقام أعرابي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أمير المؤمنين ، إن الله تبارك وتعالى جعل العطاء حَبَّةً ، والمنع مَبْغَضَةً ،
فَلَا نَحْبِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ نُبَغِضَكَ^(١) ، فأعطاه وأجزل له . (العقد الفريد ٢ : ٨٣)

٢٨ - مقام أعرابي بين يدي هشام

وقام أعرابي بين يدي هشام فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أتت على الناس ثلاث سِنين ، أمَّا الأولى : فَدَجَّتِ^(٢) اللحم ،
وأما الثانية : فَأَكَلَتِ الشَّحْمَ ، وأما الثالثة : فهاضت^(٣) العظم ، وعندكم فُضُولُ
أموالٍ ، فإن كانت لله فاقسِموها بين عباده ، وإن كانت لهم ففِيمَ تحظَر^(٤) عنهم ؟
وإن كانت لكم فتصدَّقوا عليهم بها ، إن الله يجزِي المتصدقين ، قال هشام : هل من
حاجة غير هذه يا أعرابي ؟ قال : « ما ضربتُ إليك أكبادَ الإبل ، أدَّرِعُ الهَجِيرَ ،
وأخوضُ الدُّجَى نِخاصًّ دون عام » ، فأمر هشام بمال ، فقسَّم بين الناس ، وأمر

(١) يروى هذا لمحمد بن أبي الجهم المدري ، قاله في حضرة هشام أيضاً . انظر الجزء الثاني ص ٤٢٢ .

(٢) من لحا الشجرة : أخذ لحاءها (بالسكر) وهو قشرها . (٣) هاض العظم : كمره بعد

الجبور فهو مهيب ، وفي رواية : « دعام أتق العظم » أي وصل إلى نقيه (بالسكر) وهو مخ العظم .

(٤) تحجب وتمنع .

للأعرابي بمال ، فقال « أكلُّ المسلمين له مثل هذا ؟ » قالوا : « لا ، ولا يقوم بذلك بيتُ مال المسلمين » ، قال : « فلا حاجة لي فيما يَبْعَثُ لأئمةَ الناس على أمير المؤمنين •
(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٨ وللمقد الفريد ٢ : ٨٢)

٢٩ - أعرابي يستجدي عبيد الله بن زياد

وقال العُتبيّ : وقف أعرابي بباب عُبَيْدِ اللهِ بن زياد فقال :
« بأهل الغُضارة^(١) ، حَقَبِ^(٢) السَّحابُ ، وانقشعَ الرَّبابُ ، واستأسَدَتِ الذَّنابُ
وَرُدِمَ التَّمَدُّ^(٣) ، وَقَلَّ الحَفْدُ^(٤) ، ومات الولدُ ، وكنت كثير الغفَاةِ^(٥) ، صَخِبِ^(٦)
الشُّقَاةِ ، عَظِيمِ الدَّلَاةِ^(٧) لانصال الزمان ، وَغَفَلَ^(٨) الحِذْثَانُ ، حَى حِلَالِ^(٩) ، وعدد
ومال ، فَتَفَرَّقْنَا أَيْدِي سَبَا^(١٠) ، بين فقد الأبناء والآباء وكنت حَسَنَ الشَّارَةِ^(١١) ،
خَصِيْبِ الدَّارَةِ^(١٢) سليم الجارة^(١٣) ، وكان مَحَلِّي حَمِي ، وقومي أُسَى^(١٤) ، وعزى جَدًّا^(١٥)

(١) الغضارة : النعمة والسمة والخصب ، وفي الأصل : « الغضاضة » وهو تحريف - والغضاضة للذلة والمنقصة - . (٢) حقب المطر وغيره : احتبس ، والرباب : السحاب الأبيض .
(٣) التمدد كشمس وسبب : الماء القليل لامادة له . (٤) الحفد : الأعوان جمع حافد .
(٥) الغفاة جمع غاف : وهو الوارد والضيف ، وكل طالب فضل أو رزق .
(٦) وصف من الصخب بالتحريك وهو شدة الصوت ، والشقاة جمع ساق كقاض ، وفي الأصل « صخب السفاء » وأراه محرفا . (٧) في الأصل : « عظيم للزلات » وأراه محرفا عن « الدلاة » ، والدلاة كقضاة جمع دال كقاض ، وهو النازع في الدلو المستبق به الماء من البئر . يقال : أدليت للدلو ودأيتها : إذا أرسلتها في البئر . ودأوتها أدلوها فأنا دال ، إذا أخرجتها . (٨) الغفل بالتحريك : الغفلة ، والحذثان : نوب الدر وحوادثه ، وفي الأصل : « ولا أعقل الحذثان » وأراه محرفا ، وربما كان الأصل « ولاغفال الحذثان » يتكرر لام الجر . (٩) الحلة بالكسر : تقوم النالون ، والجمع حلال وحلل ككتاب وعنب ، وتطلق الحلة على البيوت مجازاً تسمية للمحل باسم الحال ، وهي مائة بيت فا فوقها .
(١٠) يقال : ذهبوا أيدي سبا ، وتفرقوا أيدي سبا ، وأيادي سبا : أي تيددوا ، شهبوا بأهل سبا لما مزقهم الله في الأرض كل مزق ، فأخذ كل طائفة منهم طريقاً على حدة ، واليد : الطريق . يقال ، أخذ القوم يد بحر ، فقبل القوم إذا تفرقوا في جهات مختلفة : ذهبوا أيدي سبا : أي فرتهم طرقهم التي سلكوها كما تفرق أهل سبأ في مذاهب شتى والعرب لا تهمز سبأ في هذا الموضع ، لأنه كثر في كلامهم فاستنقلوا فيه الهزمة وإن كان أصله هموزا ، وقد بنوا أيدي سبا ، وأيادي سبا على السكون لسكونه مركباً تركيب خمسة عشر .

(١١) للشارة : الهيئة والملباس والزينة والجمال . (١٢) الدارة : الدار .

(١٣) الجارة ، من معانيها : للزوجة . (١٤) الأسي جمع أسوة : وهي القدوة .

(١٥) الجندا : العطية ، والمطر الذي لا يعرف أنفصاه .

قضى الله - ولا رُجَعَانَ لما قَضَى - بِسَوَافٍ^(١) المال ، وَشَتَاتِ الرجال ، وَتَغْيِيرِ الحال
فَاعِينُوا مَنْ شَخَّصَهُ شَاهِدُهُ ، وَلِسَانُهُ وَافِدُهُ ، وَفَقْرُهُ سَائِقُهُ وَقَائِدُهُ .
(زهر الآداب ٣ : ٢٠٧)

٣٠ - أعرابية تستجدي عبد الله بن أبي بكرة

ودخلت أعرابية على عبد الله بن أبي بكرة بالبصرة ، فوفقت بين السَّاطِينِ^(٢)
فَقَالَتْ :

« أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ وَأَمْتَعَ بِهِ ، حَدَرْنَا إِلَيْكَ سَنَةً اشْتَدَّ بِلَاؤُهَا ، وَانْكَشَفَ
غِطَاءُهَا ، أَقْوَدُ صَبِيَّةً صَغَارًا ، وَآخِرِينَ كِبَارًا ، فِي بِلْدَةِ شَاسِعَةٍ ، تَخْفِضُنَا خَافِضَةً ،
وَتَرْفَعُنَا رَافِعَةً ، لِمِائَاتٍ مِنَ الدَّهْرِ ، بَرِيْنٍ عَظْمِي ، وَأَذْهَبِينَ لِحِي ، وَتَرْكَبْنِي وَالهَةَ ،
أُدُورَ بِالْحَضِيضِ ، وَقَدْ ضَاقَ بِي البَلَدُ العَرِيضُ ، فَسَأَلْتُ فِي أَحْيَاءِ العَرَبِ : مَنْ الكَامِلَةُ
فَضَائِلُهُ ، المُعْطَى سَائِلُهُ ، المَكْفِي نَائِلُهُ ؟ فَدَلَّيْتُ عَلَيْكَ - أَصَاحِبَ اللهِ تَعَالَى - وَأَنَا امْرَأَةٌ
مِنْ هَوَازِنَ ، قَدْ مَاتَ الوَالِدُ ، وَغَابَ الرَّافِدُ ، وَأَنْتَ بَعْدَ اللهِ غِيَاثِي ، وَمُنْتَهَى أَمَلِي ، فَافْعَلْ
بِي إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ : إِمَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى بَلَدِي ، أَوْ تُخَسِّنَ صَفْدِي^(٣) ، أَوْ تَقِيمَ أَوْدِي
فَقَالَ : بَلْ أَجْمَعُهُنَّ لَكَ ، فَلَمْ يَنْزِلْ يُجْرِي عَلَيْهَا كَمَا يُجْرِي عَلَى عِيَالِهِ حَتَّى مَاتَتْ .

(زهر الآداب ٣ : ٣٠٦)

* * *

وروى صاحب العقد قال :

قال الأصمعي : وقفت أعرابية على عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى
عنه فقالت :

« إِنِّي أَتَيْتُ مِنْ أَرْضِ شَاسِعَةٍ ، تَخْفِضُنِي خَافِضَةً ، وَتَرْفَعُنِي رَافِعَةً ، فِي بَوَادِي

(١) السواف بالضم وبفتح: مرض الإبل، وساف المال يسوف ويساف: هلك، أو وقع فيه السواف .

(٢) الساطان من الناس: الجانيان . (٣) الصفد: العطاء .

بَرِّينَ لِحْمِي ، وَهَضُنْ (١) عَظْمِي ، وَتَرَكَنِي وَآلِهَةً ، قَدْ ضَاقَ بِي الْبَلَدُ ، بَعْدَ الْأَهْلِ وَالْوَالِدِ ،
 وَكَثْرَةَ مِنَ الْعَدَدِ ، لَا قَرَابَةَ تُؤْوِينِي ، وَلَا عَشِيرَةَ تَحْمِينِي ، فَسَأَلْتُ أَحْيَاءَ الْعَرَبِ ،
 مَنِ الْمُرْتَجَى سَبِيهِ (٢) ، الْمَأْمُونُ عَيْبُهُ ، الْكَثِيرُ نَائِلُهُ ، الْمَكْفِيُّ سَائِلُهُ ، فَدَلَّلْتُ عَلَيْكَ ،
 وَأَنَا امْرَأَةٌ مِنْ هَوَازِنَ ، فَقَدْتُ الْوَالِدَ وَالْوَالِدَ ، فَاصْنَعْ فِي أَمْرِي وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثَ : إِمَّا أَنْ
 تُحْسِنَ صَفْدِي ، وَإِمَّا أَنْ تَقِيمَ أَوْدِي ، وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى بَلَدِي « : قَالَ : بَلِ أَجْمَعِينَ
 لَكَ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهَا . (العقد الفريد ٢ : ٨٢)

٣١ — أعرابي يستجدي خالد بن عبد الله القسري

وَدَخَلَ أَعْرَابِي عَلَى خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ ، فَقَالَ :
 « أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ : شَيْخٌ كَبِيرٌ ، حَدَّثَنِي إِلَيْكَ بَارِيَةَ الْعِظَامِ (٣) ، وَمُورَثَةَ
 الْأَسْقَامِ ، وَمُطَوَّلَةَ الْأَعْوَامِ ، فَذَهَبَتْ أَمْوَالُهُ ، وَذُعِدَعَتْ (٤) آبَالُهُ ، وَتَغَيَّرَتْ أَحْوَالُهُ ،
 فَإِنْ رَأَى الْأَمِيرُ أَنْ يَجْبُرَهُ بِفَضْلِهِ ، وَيَنْعَشُهُ بِسِجْلِهِ (٥) ، وَيُرِدَّهُ إِلَى أَهْلِهِ ! » فَقَالَ :
 كُلُّ ذَلِكَ ، وَأَمْرُهُ بِعَشْرَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ . (الأمال ٢ : ٤٩)

٣٢ — أعرابي يستجدي معن بن زائدة

وَقَدِمَ أَعْرَابِي مِنْ بَنِي كِنَانَةَ عَلَى مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ وَهُوَ بِالْيَمَنِ فَقَالَ :
 « إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَعْرِفُ سَبَبًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ وَالرَّحِمِ ، أَقْوَى مِنْ رِحْلَةٍ مِثْلِي مِنْ أَهْلِ
 السِّنِّ وَالْحَسَبِ إِلَيْكَ مِنْ بِلَادِهِ ، بِلَا سَبَبٍ وَلَا وَسِيلَةٍ ، إِلَّا دَعَاكَ إِلَى الْمَسْكَرِمْ ،
 وَرَغَبَتِكَ فِي الْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَضَعَنِي مِنْ نَفْسِكَ بِحَيْثُ وَضَعْتَ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ
 فَافْعَلْ » فَوَصَلَهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ . (العقد الفريد ٢ : ٨٠)

(١) هاضن العظم : كسره بعد الجوز . (٢) السبب : العطاء .
 (٣) حدته : ساقته ، وبارية العظام : أي النكبات التي تبرى العظام ، مورثة : مهيجة ، من التاروث
 وهو إيقاد النار .
 (٤) ذعدت : فرقت ، وآبال جمع إبل . (٥) السجل في الأصل : الدلو العظيمة مأوأة .

٣٣ - خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام

عن أبي زيد قال : بيننا أنا في المسجد الحرام إذ وقف علينا أعرابي فقال :

« يا مسلمون ، إن الحمد لله ، والصلاة على نبيه ، إني امرؤ من أهل هذا المَلْطَاطِ
الشَّرِيقِ المُوَاصِيِ أَسِيافَ تِهَامَةَ ^(١) ، عَكَفْتُ عَلَى سِنُونِ مَحْشٍ ^(٢) ، فَاجْتَبَيْتِ الذَّرَى ،
وَهَشَمْتُ العُرَى ^(٣) ، وَجَمَشْتُ النَّجْمَ ، وَأَعَجَبْتُ البُهْمَ ^(٤) ، وَهَمَّتِ الشَّحْمَ ، وَالتَّعَبْتُ
اللَّحْمَ ، وَأَحْجَنْتِ العَظْمَ ^(٥) ، وَغَادَرْتُ التَّرَابَ مَوْرَأً ، وَالمَاءَ غَوْرَأً ، وَالنَّاسَ أَوْزَاعاً ^(٦) ،
وَالنَّبْطَ قُوعاً ، وَالضَّهْلَ جُزَاعاً ، وَالمَقَامَ جَعْجَاعاً ^(٧) ، يُصَبِّحُنَا المَآوَى ، وَيَطْرُقُنَا
العَاوَى ^(٨) ، نَفْرَجْتُ لَا أَتَلْفَعُ بَوْصِيدَةً ، وَلَا أَتَفَوْتُ هَبِيدَةً ^(٩) ، فَالْبَخْصَاتُ وَقِعَةٌ ،
وَالرُّكْبَاتُ زَلِيعَةٌ ، وَالأَطْرَافُ قَفِيعَةٌ ^(١٠) ، وَالجِسْمُ مُسْلِمُهُمْ ، وَالنَّظَرُ مُذْرَمُهُمْ ^(١١) ، أَعْشُو
فَأَغْطِشُ ، وَأُضْحِي فَأُخْفِشُ ^(١٢) ، أَسْهَلُ ظَالِعاً ، وَأُحْزِنُ رَاكِعاً ^(١٣) فَهَلْ مِنْ أَمْرٍ

- (١) المَلْطَاطِ : كل شفير نهر أو واد ، والموَاصِيِ والمواصل واحد ، يقال تواصى التبت : إذا اتصل
بعضه ببعض ، وأسياف جمع سيف بالكسر : وهو ساحل البحر . (٢) عَكَفْتُ : أقامت ، والسِنُونِ
الجدوب ، ومحش جمع محوش كصبور ، وهي التي تمحش (بضم الخاء) الكلاب أي تحرقه .
(٣) اجْتَبَيْتِ : قطعت واستأصلت ، وهشمت : كسرت ، والعُرَى جمع عروة ، والعروة : القطعة من
الشجر لا يزال باقياً على الجذع ترعاه أمولهم . (٤) جَمَشْتُ : احتلقت ، والنجم : ما نجم ولم يستقل
على ساق ، وأعجبت : أي جعلها عجاباً ، والمعجى : السبيء للغذاء المهزول .
(٥) هَمْتُ : أذابت ، والعرب تقول : وهك ما أهك ، أي أذابتك ما أحزنتك ، والتعبت اللحم : أي
عرقته من العظم ، وأحجنت العظم : أي عوجته فصيرته كالمحجن . (٦) مار مورا : اضطرب وماج ،
والغور : الغائر ، أوزاع : فرق . (٧) النبط : الماء الذي يستخرج من البئر أول ما تحفر ، والقمع
الماء الملح المر : والفهل : التقليل من الماء ، والجزاع : أشد المياه مرارة ، والجمعاع : المكان الذي
لا يطمئن من قعد عليه . (٨) المآوى : الجراد ، والعواوى : الذئب .
(٩) التلطف : الاشتغال ، واللوصيدة : كل نصيجة ، والهبيدة : حب الحنظل يعالج حتى يطيب فيختبز .
(١٠) البخصات جمع بخصه ، وهي لحم باطن القدم ، ووقعة : من قولهم : وقع الرجل كفروح إذا اشتكى
لحم باطن قدمه ، وزلعه : متشققة ، وقعدة ومقعدة واحد : وهي التي قد تقبضت ويبست .
(١١) المسلمم : للضامر المتغير ، والمدرهم : الضعيف للبصر الذي قد ضعف بصره من جوع أو مرض .
(١٢) أعشو : أنظر : فأغطش : أصغر غطشاً (بكسر الطاء) والغطش محرمة : ضعف في البصر ، وضحي
للشمس كفروح وسى : برز لها ، والخفش بالتحريك : ضعف البصر خلقة ، أو فساد في الجفون بلا وجع
أو أن يبصر بالليل دون النهار . (١٣) أسهل ظالماً : أي إذا مشيت في السهول ظلمت ، وظلع كنع :
غز في مشيه ، وأحزن راكعاً : أي إذا حلوت الجزن ركمت أي كبوت لوجسى .

مَمْبُورٍ^(١) ، أو داع بخير ؟ وقاكم الله سَطَوَةَ القَادِرِ ، وَمَلَكَ الكَاهِرِ^(٢) ، وسوء الموارِدِ ، وَفُضُوْحَ المَصَادِرِ « ، قال : فأعطيته ديناراً وكتبت كلامه ، واستفسرته ما لم أعرفه . (الأمالي ١ : ١١٣)

٣٤ - خطبة الأعرابي السائل في المسجد الجامع بالبصرة

وروى الجاحظ قال :

قال أبو الحسن : سمعت أعرابياً في المسجد الجامع بالبصرة بعد العصر سنة ثلاث وخمسين ومائة : وهو يقول :

« أما بعد : فإننا أبناء سبيل ، وأنضاء^(٣) طريق ، وفَلَّ^(٤) سَنَةٍ ، تصدَّقوا علينا ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت ، أما والله إننا لنقوم هذا المقام ، وفي الصدر حَزَاةٌ^(٥) ، وفي القاب غُصَّةٌ « . (البيان والبيِّن ٢ : ٤٦)

٣٥ - صورة أخرى

وروى أبو عليّ القالي هذه الخطبة بصورة أخرى ، وهما كها :

عن يونس قال : وقف أعرابي في المسجد الجامع في البصرة فقال :

« قَلَّ التَّيْلُ ، وَنَقَصَ الكَيْلُ ، وَعَجِفَتِ^(٦) الخَيْلُ ، والله ما أصبحنا ننفخ في وَضَحٍ^(٧) ، وما لنا في الديوان وَشْمَةٌ^(٨) ، وإنا لعِيَالٌ جَرَبَةٌ^(٩) ، فهل من مُعِين ، أعانه الله ، يُعِين ابن سبيل ، وَنِضْوَ طريق ، وفَلَّ سَنَةٍ ؟ فلا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت « . (الأمالي ٢ : ١٩٧)

(١) المبر : العلية ، من قولهم : مارهم يعرهم مبراً . (٢) السكاهم والقاهر : واحد ، وقد قرأ بعضهم (فَأَمَّا الَّتِي تَمَّ فَلَا تَكْهَرُ) .

(٣) أنضاء جمع نضو كقرود : وهو المهزول ، أي قد هزلنا وأضننا ساوك الماريق .

(٤) السنة : الجلبد والقحط ، وقوم قل : منهزمون ، والجمع فلول وأفلال ، أي هزمتنا القحط .

(٥) الحزاة : وجع في القلب من غيظ ونحوه . (٦) هزلت . (٧) للوضوح : اللبن ، سمي

وضوحاً لبياضه . (٨) اللوشمة : مثل الوشم في الذراع ، يريد الخط .

(٩) الجربة : السكير ، أو لعِيَالٌ يأكلون ولا ينفعون .

٣٦ - صورة أخرى

ورواها صاحب العقد فقال : وقف أعرابي على حلقة يونس فقال :

« الحمد لله ، وأعوذ بالله ، أن أذكر به وأنساه ، إنا أناس قَدِمْنَا المدينة ثلاثون رجلاً لا ندفن ميتاً ولا نتحول من منزل وإن كرهناه ، فرحم الله عبداً تصدق على ابن سبيل ، ونضو طريق ، وفَلَّ سَنَةً ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت ، يقول الله عزَّ وجلَّ : (مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قرضاً حسناً) إن الله لا يستقرض من عوزٍ ، ولكن ليبلو خيار عباده . » (العقد الفريد ٢ : ٨٢)

٣٧ - أعرابي يستجدي

وقال المدائني : سمعت أعرابياً يسأل وهو يقول :

« رحم الله امرأ لم تتمج أذناه كلامي ، وقدم لنفسه معاذة^(١) من سوء مقامي ، فإن البلاد مُجْدِبَةٌ ، والدار مُضَيِّعَةٌ ، والحال سيئة^(٢) ، والحياء زاجر ينهي عن كلامكم ، والعُدْمُ عاذرٌ يحملي على إخباركم ، والدعاة إحدى الصدقتين ، فرحم الله امرأ أمرَ بِمَيْرٍ^(٣) ، أو دعا بخير » ، فقال له بعض القوم : ممن الرجل ؟ فقال : « ممن لا تنفَعكم معرفته ، ولا تضرَّكم جهالته ، ذلُّ الاكتساب ، يمنع من عزِّ الانتساب . »

(البيان والتبيين ٣ : ٢١٧ ، والعقد الفريد ٢ : ٨١ ، والأمال ١ : ١٣٨)

٣٨ - أعرابي يستجدي

وقال الأصمعي : أصابت الأعراب أعوام جَدْبَةٌ وشدة وجهد ، فدخلت طائفة منهم البصرة وبين يديهم أعرابي وهو يقول :

« أيها الناس ، إخوانكم في الدين ، وشركاؤكم في الإسلام ، غابرو سبيل ،

(١) المعاذة والمعاذ والعياذ : الالتجاء . (٢) وفي الأمال : « والحال مسغبة : أي مجيبة .

(٣) ما رعاياه ميراً : جلب لهم الميرة (بالكسر) وهي الطعام ، وفي العقد : « فرحم الله امرأ ميراً ،

وداعياً بمير . »

وأفلال بؤس ، وصَرَعى جَدْب ، تتابعت عاينا سنون ثلاثة^(١) ، غَبَرَتِ^(٢) النَّعَم ، وأهلكت النَّعَم ، فأكلنا ما بقي من جلودها فوق عظامها ، فلم نزل نعلل بذلك أنفسنا ، وَنَمَّتْ بِالغَيْثِ قلوبنا ، حتى عادُ مُخْنَأَ عِظَامًا ، وعاد إشرافنا ظلامًا ، وأقبلنا إليكم يَصْرَعَنَا الوَعْر ، وَيَكِنِّنَا^(٣) السَّهْل ، وهذه آثار مصائبنا لأمة في سماننا ، فرحم الله متصدقًا من كثير ، وموأسياً من قليل ، فلقد عظمت الحاجة ، وكسفت البال ، وبلغ المجهود ، والله يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ .

٣٩ - أعرابي يستجلى

وقال الأصمعي : كنت في حَاقَّةٍ بالبصرة إذ وقف علينا أعرابي سائلاً ، فقال : « أيها الناس ، إن الفقر يهتك الحجاب ، وَيُبْرِزُ الكَعَابَ^(٤) ، وقد حملتنا سنونو المصائب ، وَنَكَبَاتِ الدهور ، على مركبها الوَعْر ، فواسوا أبا أيتام ، وَنِضْوِ زمان ، وَطَرِيدِ فاقَةٍ ، وَطَرِيحِ هَلَكَةٍ ، رَحِمَكُمُ اللهُ . »

٤٠ - أعرابي يستجلى

وقال الأصمعي : وقف أعرابي علينا فقال : « يا قوم : تتابعت عاينا سنون بتغير وانتقاص ، فارتكت لنا هُبَعًا ولا رَبَعًا^(٥) ، ولا عافطة ، ولا نَافِطَةَ^(٥) ، ولا نَائِغِيَّةً ولا رَاغِبَةً ، فأماتت الزرع ، وقتلت الصَّرْع ، وعندكم من مال الله فضلُ نِعْمَةٍ ، فأعينوني من عطية ما آتاكم الله ، وارحموا أبا أيتام ، وَنِضْوِ زمان ، فلقد خلقت أقبواً يمرضون ولا يكفنون مبيتهم ، ولا ينتقلون من منزل ، وإن كرهوه ، ولقد مشيتُ حتى انتعلتُ الدَّماءَ ، وَجَعْتُ حتى أكلتُ التَّرَى . »

(١) غبره لاطخه بالغيار : أو هي «غبرت» بالياء . (٢) أي يسترنا . (٣) جارية كعاب : نهذ ثديها .

(٤) الطبع : الفصيل ينتج في آخر الشتاء ، والربيع : الفصيل ينتج في الربيع ، وهو أول النتاج .

(٥) النافطة : النعجة ، من العفط : وهو الضرط ، هفطت كضرب : شرطت فهي عافطة ، والعفط

أيضاً : نثير الضأن تنثر بأثوقها كما ينثر الحمار ، والنافطة : العنز ، من النفظ ، نفظت العنز كضرب : نثرت

بأنفها أو عطست فهي نافطة ، أو لأنها تنفظ بيولها : أي تدفمه دفماً ، أو النافطة إنجاع للعافطة ، أو

العافطة : الأمة الراعية ، والنافطة : الشاة .

٤١ - أعرابية تستجدي

وقال الأصمعي : وقفت أعرابية فقالت :

« يا قوم سنّة جرّدت ، وأيدٍ جمّدت ، وحال جهّدت ^(١) ، فهل من فاعلٍ لخير ،
وأميرٍ بمخير ؟ رَحِمَ اللهُ من رَحِمَ ، فأقرَضَ من لا يظلم . »

(المعقد الفريد ٢ : ٨٠ - ٨٤)

٤٢ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي بقوم فقال :

« أشكو إليكم أيها الملأ زماناً ، كَلَحَ في وجهه ، وأناخ على بَكَالِكَلَه ، بعد
نعمة من المال ، وثروة من المآل ، وَغَيْبَطَةَ من الحال ، اعتورتني جدّانده ^(٢) ، بَنَبِلِ
مصائبه ، عن قسيّ نوائبه ، فما تركألى ثاغية ^(٣) أجتدي ضرعها ، ولا رَاغِيَةً أرتجى
نعمها ، فهل فيكم من مُعِينٍ على صَرْفَه ، أو مُعَدِّ ^(٤) على حَتَفَه ؟ » ، فرد القوم عليه ،
ولم يُنِيلُوهُ شيئاً ، فأنشأ يقول :

قد ضاع من يأكل من أمثالكم جوداً ، وليس الجود من فعالكم

لا بارك الله لكم في مالكم ولا أراح السوء عن عيالكم

فالفقر خيرٌ من صلاح حالكم

٤٣ - أعرابي يستجدي

وسَمِعَ عَدِيَّ بن حاتم رجلاً من الأعراب وهو يقول :

« يا قوم تصدّقوا على شيخ مُعِيلٍ ، وعابر سبيل ، شهِدَ له ظاهره ، وسَمِعَ شكواه

(١) جهده المرض كنع : هزله .

(٢) سنة جداء : محلة مجذبة ، والجداء من كل حلوبة : الذاهبة اللبن من عيب ، والحدودة :

التقلية اللبن من غير عيب ، والجمع جدائد وجداد . (٣) اللثاغية : الشاة من اللثاء بالضم ، وهي صوت
الغنم ، والرأغية : الناقة ، من الرغاء ، وهو صوت الإبل .

(٤) ميين ، أهداه عليه : نصره وأعلمه وقواه .

خالقه ، بَدَنُهُ مطلوب ، وثوبه مسلوب » ، فقال له : من أنت ؟ قال : رجل من بني سعد في دِيَةِ لَزِمَتِي ، قال : فكَمْ هي ؟ قال : مائة بعير ، قال : دُونَكَمَا فِي بطن الوادي .
(العقد الفريد ٢ : ٨٢٠ - ٨٢٣)

٤٤ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي على قوم فقال :
« إِنَّا - رَحِمَكُمُ اللهُ - أبناء سبيل ، وَأَنْضَاءُ طريق وقاسية^(١) ، رحم الله امرأ
أعطى من سعة ، ووَاسَى من كفاف » .
فأعطاه رجل درهما فقال : « آجَرَكَ اللهُ من غير أن يَبْتَلِيكَ » .

٤٥ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي بقوم فقال :
« يا قوم : تتابعت علينا سِنُونَ جَمَادٍ^(٢) شِدَاد ، لم يكن للسماء فيها رَجْع^(٣) ،
ولا للأرض فيها صَدْع^(٤) ، فَنَضَبَ العِدُّ^(٥) ، وَنَشَفَ الوَشْلُ ، وَأَمْحَلَ الخِصْبُ ،
وَكَلَّحَ الجُدْبُ ، وَشَفَّ^(٦) المال ، وَكَدَفَ البَال ، وَشَطَفَ المعاش ، وذهب الرياشُ ،
وطرحتني الأيام إليكم غريبَ الدار ، نَأَى المَحَلِّ ، ليس لي مالٌ أرجع إليه ، ولا
عشيرة أُلْحِقُ بها ، فَرَحِمَ اللهُ امرأ رَحِمَ اغترابي ، وجعل المعروف جوازي » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٠٠)

(١) أي وحال قاسية ، وربما كان الأصل « وفل سنة » . (٢) الجهاد : السنة التي لامطر فيها .
(٣) الرجوع : المطر ، لعوده كل حين (٤) أي انشقاق عن النبات ، اقتبسه من الآية الكريمة :
(وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ)
(٥) العد : الماء الجاري الذي له مادة لاتنقطع كماء العين ، ونضب الماء : غار ، والوشل : الماء القليل
يتحلب من جبل أو صخرة ، ولا يتصل قطره ، ونشف الماء في الأرض : ذهب ، ونشف الخوض الماء
شربه ، وأمحل : أجاب .
(٦) شف : رق ، والشطف بالتحريك : يبس العيش وشده ، والرياش : المال والخصب والمعاش

٤٦ - أعرابية تستجدى

وخرج المهدي يطوف بعد هدأة^(١) من الليل ، فسمع أعرابية من جانب المسجد ، وهي تقول :

« قوم متظاهون ، نبت^(٢) عنهم العيون ، وفدحتهم الديون ، وعصتتهم السنون ، بادت رجالهم ، وزهبت أموالهم ، وكثر عيالهم ، أبناء سبيل ، وأنضاء طريق ، وصية الله ووصية الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فهل من امرئ يجير ؟ كلاًه الله في سقره ، وخلفه في أهله . »

فامر نصيراً الخادم ، فدفع إليها خمسمائة درهم .

(العقد الفريد ٢ : ٨٠ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

٤٧ - أعرابي يستجدى

ووقف أعرابي في شهر رمضان على قوم فقال :

« يا قوم : لقد ختمت هذه الفريضة على أفواهنا من صُبح أمس ، ومعى بنتان لى ، والله ما علمتُهما تحللتا بجلال ، فهل رجل كريم يرّحم اليوم مقامنا ، ويرد حُشاشتنا^(٣) ؟ منعه الله أن يقوم مقامه ، فإنه مقام ذل وعار وصغار . »

فافترق القوم ولم يعطوه شيئاً ، فالتفت إليهم حتى تأملهم جميعاً ، ثم قال :

« أشدّ والله على من سوء حالى وفاقتى ، توهمى فيكم المواساة ، أنتعأوا الطريق ،

(العقد الفريد ٢ : ٨٢)

لا صحبكم الله ! » .

(١) أى حين هدأ الليل ، أو هو أول الليل إلى ثلثه .

(٢) اقتحمهم وازدرتهم ، وفدحتهم : أثقلتهم .

(٣) الحشاشة : بقية الروح في المريض ، والصغار : الذل .

٤٨ - أعرابي يستجدي

وقام أعرابي ليسأل فقال :

« أين الوجوه الصُّباح^(١) ، والعقول الصُّحاح ، والألسُنُ الفِصاح ، والأنساب الصُّراح^(٢) ، والمكارم الرِّياح ، والصدور الفِساسح ؟ تُعيذني من مَقَامِي هذا . »
(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٢)

٤٩ - أعرابي يستجدي

ودعا أعرابي في طريق مكة فقال :

« هل من عائدٍ بفضْل ، أو مؤاسٍ من كفاف^(٣) ؟ » ، فأُمسِك عنه فقال :
« اللهم لا تكلِّنا إلى أنفسنا فنعجز ، ولا إلى الناس فنضيع . »
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٤)

٥٠ - أعرابي يستجدي

وقف أعرابي فسأل قوماً فقالوا له : عليك بالصَّيارفة ، قال : هُنَاك واللهِ قرارةُ اللُّؤم !
(البيان والتبيين ٢ : ٤٨)

٥١ - أعرابي يستجدي

وسأل أعرابي ناساً فقال : « جعل الله حظَّكم في الخير ، ولا جعل حظَّ السائل منكم عِدرة^(٤) صادقة . »
(البيان والتبيين ١ : ٢١٥)

٥٢ - أعرابي يستجدي

وسأل أعرابي ، فقال له صبي من جوف الدار : « بُورِك فيك ، فقال : قَبَّحَ اللهُ هذا القَم ، لقد تعلم الشرَّ صغيراً . »
(البيان والتبيين ٣ : ١٣٦)

(١) جمع صبيحة: وهي الجميلة من الصياحة كفصاحة أى الجمال . (٢) جمع صريحة: وهي المحضة الخالصة.
(٣) الكفاف من الرزق : ما كف عن الناس وأغنى . (٤) العِدرة : اسم من العذر .

٥٣ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي على قوم فنموه ، فقال :

« اللهم اشغَلْنَا بِذِكْرِكَ ، وَأَعِدْنَا مِنْ سُخْطِكَ ، وَأُولِجْنَا إِلَى عَفْوِكَ ، فَقَدْ ضَنَّ
خَلْقُكَ بِرِزْقِكَ ، فَلَا تَشغَلْنَا بِمَا عِنْدَ مَنْ عَنِ طَلَبِ مَا عِنْدَكَ ، وَأَتِنَا مِنَ الدُّنْيَا
الْقُنَمَانَ ^(١) ، وَإِنْ كَانَ كَثِيرًا يُسْخِطُكَ ، فَلَا خَيْرَ فِيمَا يُسْخِطُكَ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٤)

٥٤ - أعرابي يستجدي

وقال أبو الحسن : وقف علينا أعرابي فقال :

« أَخْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، وَجَارٍ فِي بِلَادِ اللَّهِ ، وَطَالِبٍ خَيْرٍ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ ، فَهَلْ فِيكُمْ
مَنْ مُوَأَسَّ فِي اللَّهِ » .

وسأل أعرابي رجلا ، فاعتلَّ عليه فقال : « إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا ، فْجَعَلَكَ اللَّهُ صَادِقًا » .

(المقدم الفريد ٢ : ٨٤)

٥٥ - أعرابي يسأل رجلا حاجة له

أتى أعرابي رجلا (لم تكن بينه وبينه حرمة) في حاجة له ، فقال :

« إِنِّي امْتَطَيْتُ إِلَيْكَ الرَّجَاءَ ، وَسِرَّتْ عَلَيَّ الْأَمَلُ ، وَوَفَدْتُ بِالشُّكْرِ ، وَتَوَسَّلْتُ
بِحَسَنِ الظَّنِّ ، فَحَقَّقْتُ الْأَمَلُ ، وَأَحْسِنِ الْمَثُوبَةَ ، وَأَكْرِمِ الْقَصْدَ ، وَأَتِمِّمِ الْوَدَّ ،

وَعَجِّلِ الْمُرَادَ » . (المقدم الفريد ٢ : ٨٢ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦٥)

قولهم في بكاء الموتي

٥٦ - أعرابية تبكي ابنها

وَحَجَّتْ أَعْرَابِيَّةٌ وَمَعَهَا ابْنٌ لَهَا فَأَصَابَتْ بِهِ ، فَلَمَّا دُفِنَ قَامَتْ عَلَى قَبْرِهِ وَهِيَ وَجِعَةٌ
فَقَالَتْ :

« وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ لَقَدْ غَدَوْتُكَ رَضِيعًا ، وَقَفَدْتُكَ سَرِيعًا ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَالِيْنَ
مُدَّةً أَلْتَدُّ بِعَيْشِكَ فِيهَا ، فَأَصْبَحْتَ بَعْدَ النَّضَارَةِ وَالْعَضَارَةِ ^(١) ، وَرَوْنَقِ الْحَيَاةِ ،
وَالْتَنَسُّمِ فِي طَيْبِ رَوَائِحِهَا ، تَحْتَ أَطْبَاقِ التَّرِيِّ جَسَدًا هَامِدًا ، وَرُفَاتًا سَحِيحًا ،
وَصَعِيدًا جُرْزًا ^(٢) .

أَيُّ بُنَيَّ لَقَدْ سَحَبْتَ الدُّنْيَا عَلَيْكَ أَذْيَالَ الْفَنَاءِ ، وَأَسْكَنْتَكَ دَارَ الْبَلِيِّ ، وَرَمَيْتَنِي
بِعِدِّكَ نَسْكَبَةَ الرَّدَى ، أَيُّ بُنَيَّ لَقَدْ أَسْفَرَ لِي عَنْ وَجْهِ الدُّنْيَا صَبَاحُ دَاجٍ ظَلَامُهُ ^(٣) ،
ثُمَّ قَالَتْ :

أَيُّ رَبِّ ، وَمِنْكَ الْعَدْلُ ، وَمِنْ خَلْقِكَ الْجُورُ ، وَهَبْتَهُ لِي قُرَّةَ عَيْنٍ ، فَلَمْ
تَمْتَعْنِي بِهِ كَثِيرًا ، بَلْ سَلَبْتَنِيهِ وَشِيكَ ^(٤) ، ثُمَّ أَمَرْتَنِي بِالصَّبْرِ ، وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهِ الْأَجْرَ ،
فَصَدَّقْتُ وَعْدَكَ ، وَرَضَيْتُ قَضَاءَكَ ، فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ تَرَحَّمَ عَلَيَّ مِنْ أَسْتَوْدَعْتَهُ
الرِّدْمَ ^(٥) ، وَوَسَدَّتْهُ التَّرِيُّ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ غُرْبَتَهُ ، وَأَنْسِ وَحْشَتَهُ ، وَأَسْتُرْ عَوْرَتَهُ ،
يَوْمَ تَنْكَشِفُ الْهَنَاتُ ^(٦) وَالسَّوَاءَاتُ .

(١) النضارة : النعمة والحسن والفضى ، والغضارة أيضاً : النعمة والسعة والخصب :

(٢) أطباق جمع طبق : وهو وجه الأرض ، والرقات : الحطام ، وسحيقاً : مسجوقاً ، والصعيد :
التراب ، أو وجه الأرض وأرض جرز : لانبتت ، أو أكل نباتها ، أو لم يصيبها مطر .

(٣) أسفر الصبح وسفر كضرب : أضاء وأشرف ، داج : قال الأصمعي : دجا الليل ، إنما هو ألبس
كل شيء ، وليس هو من الظلمة ، قال : ومنه قولهم : دجا الإسلام أى قوى ، وألبس كل شيء .

(٤) سريعاً . (٥) الردم ، السد ، وما يسقط من الجدار المنهدم . (٦) السيئات .

فلما أرادت الرجوع إلى أهلها وقتت على قبره فقالت :

أى بنى : إني قد تزوّدت لسفري ، فليت شعري ، ما زادك لبعد طريقك ،
ويوم معادك ! اللهم إني أسألك له الرضا برضاي عنه ، ثم قالت :

استودعتك من استودعنيك في أحشائي جنيئاً ، وائسكل الوالدات !
ما أمض^(١) حرارة قلوبهن ، وأقلق مضاجعهن ، وأطول ليلهن ، وأقصر نهارهن ،
وأقل أنسهن ، وأشدّ وحشتهن ، وأبعدهن من السرور ، وأقربهن من الأحزان .
فلم تزل تقول هذا ونحوه ، حتى أبكت كل من سمعها ، وحمدت الله عز وجل ،
وأسترجت وصلت ركعات عند قبره وانطلقت . (زمر الآداب : ٢ : ٧)

٥٧ - حديث امرأة سكنت البادية قريباً من قبور أهلها

وروى أبو علي القالي : عن عبد الرحمن عن عمه قال :

« دَفَعْتُ يَوْمًا فِي تَهْمَسِي بِالْبَادِيَةِ إِلَى وَادٍ خَلَاءٍ لَا أُنِيسَ بِهِ إِلَّا بَيْتٌ مُعْتَمِرٌ^(٢) ،
بِفَنَائِهِ أَعَزُّ ، وَقَدْ ظَمِئْتُ فَيَمَّمْتُهُ ، فَسَلَّمْتُ فَإِذَا عَجُوزٌ قَدْ بَرَزَتْ ، كَأَنَّهَا نِعَامَةٌ
رَاحِمٌ^(٣) ، فَقَالَتْ : هَلْ مِنْ مَاءٍ ؟ فَقَالَتْ : أَوْ لَبَنٍ ، فَقُلْتُ : مَا كَانَتْ بُعِيْتِي إِلَّا الْمَاءُ ،
فَإِذَا يَسَّرَ اللَّهُ اللَّبَنَ فَإِنِّي إِلَيْهِ فَقِيرٌ ، فَقَامَتْ إِلَى قَعْبٍ^(٤) فَأَفْرَغَتْ فِيهِ مَاءً ، وَنَظَّفَتْ
غَسَلَهُ ، ثُمَّ جَاءَتْ إِلَى الْأَعْزُ ، فَتَغَبَّرَ^(٥) حَتَّى احْتَلَبْتُ قُرَابَ^(٦) مِلءِ الْقَعْبِ ،
ثُمَّ أَفْرَغْتُ عَلَيْهِ مَاءً حَتَّى رَغَا وَطَفَّتْ مُمَالَتَهُ^(١) ، كَأَنَّهَا غَمَامَةٌ بِيضَاءُ ، ثُمَّ نَاوَلْتَنِي إِيَّاهُ ،
فَشَرِبْتُ حَتَّى تَحَبَّبْتُ^(٢) رِيًّا وَاطْمَأْنَنْتُ ، فَقَالَتْ :

(١) مضه الشيء : بلغ من قلبه الحزن به كأنضه .

(٢) منفرد . (٣) الراحم : التي تحضن بيضها ، أرخت الدجاجة على بيضها ورخته ، ورخت عليه فهي مرخم وراخم . (٤) القعب : قدح إلى الصفر ، ويشبه به الحانف .

(٥) أي احتلبت القبر (كقفل) : وهي بقية اللبن في الفرج ، وجمعه أغبار .

(٦) قراب وقریب واحد ، مثل كبار وكبير وجسام وجسيم .

(١) المثالة : للرضوة وهي مثلكه الراء . (٢) امتلات .

إلى أراك معتزة في هذا الوادي الموحش ، وَالْحَلَّةُ^(١) منك قريب ، فلو انضمت
إلى جنابهم فَأَنْسِتِ بِهِمْ ! فقالت :

« يابن أخي ، إني لَأَنْسُ بِالْوَحْشَةِ ، وأستريح إلى الأوحدة ، ويطمنن قلبي إلى هذا
الوادي الموحش ، فأتذكر من عهدتُ ، فكأنني أخاطب أعيانهم ، وأترأى أشباحهم^(٢)
وَتَتَخَيَّلُ لِي أُنْدِيَةَ رِجَالِهِمْ ، وَمَلَاعِبُ وَلَدَانِهِمْ ، وَمُنْدَى^(٣) أموالهم ، والله يابن أخي
لقد رأيت هذا الوادي بَشِعَ اللَّيْدِينَ^(٤) بأهل أدواح وقباب ، وَنَعَمَ كَالهَضَابِ ،
وخيل كالذئاب ، وفتيان كالرماح ، يبارون الرياح ، وَيَحْمُونَ الصَّبَاحَ^(٥) فأحال عليهم
الجللاء قَسَا بَغْرَفَةٍ^(٦) فأصبحت الآثار دَارِسَةً ، وَالْحَالُ طَامِسَةً ، وكذلك سيرة
الدهر فيمن وثق به » .

ثم قالت : ارم بعينك في هذا الملا المتباطن^(٧) ، فَفَنظَرْتُ فَإِذَا قُبُورٌ نَحْوَ أَرْبَعِينَ
أَوْ خَمْسِينَ ، فقالت : ألا ترى تلك الأجداث ؟ قات نعم ، قالت : ما انطوت إلا على
أخٍ أو ابن أخٍ ، أو عمٍّ أو ابن عمٍّ ، فأصبحوا قد أَلْمَأَتْ^(٨) عليهم الأرض ،
وأنا أترب ما غلهم ، انصرف راشداً رَحِمَكَ اللهُ . (الامال ٢ : ٧)

٥٨ - حديث امرأة مات ابنها بين يديها

عن عبد الرحمن عن عمه قال : دخلتُ على امرأة من العرب بأعلى الأرض
في خيائها لها ، وبين يديها بُنْيٌ لها ، قد نزل به الموت ، فقادت إليه فأغضته وَعَصَبَتْهُ
وَسَجَّتَهُ^(٩) ، ثم قالت :

(١) الحلة : جماعة بيوت الناس والجمع حلال ككتاب . (٢) أشخاصهم جمع شبح كشمس وسبب .
(٣) الغندية : أن يورد الرجل إبله ، ثم يرعاها ، ثم يوردها ، ثم يرعاها ، والمندى : المكان الذي
يندى فيه المال . (٤) بشع : ملاك ، اللديان : الحانبان ، والدوحة : الشجرة العظيمة .
(٥) الصباح جمع صبيحة : وهي الجميلة من الصباحة كحجابه : الجمال .
(٦) قم البيت قا : كنهه والمقمة : المسكنة ، والقامة : الكناية عن الغرفة الواحدة من
الغرف : وهي ضرب من الشجر . (٧) الملا : الفضاء ، والمتباطن : المتطامن .
(٨) أَلْمَأَتْ أي احتوت عليهم ، وغلهم : أهلكتهم . (٩) تسجية الميت : قنطية .

« يا بن أخي ، قلت : ما تشائين ؟ قالت : ما أحقَّ من ألبسِ النعمة ، وأطيلت له النظرة^(١) ، أن لا يدعَ التوثق من نفسه ، قبل حلِّ عُقدته^(٢) ، والحلولِ بِمَقْوَمِهِ^(٣) ، وللمحالِّ بينه وبين نفسه » ، قال : وما يَقَطُرُ من عينها قطرةٌ صبراً واحتساباً ، ثم نظرت إليه فقالت : والله ما كان مالك لبطنك ، ولا أمرك لمرزبك^(٤) ، ثم أنشدت تقول :
 رَحِيبُ الذراعِ بالتي لا تشينهُ وإن كانتِ الفحشاءُ ضاقَ بها ذرعاً^(٥)
 (الأمال ٢ : ٢٨٢ ، والبيان والبيان ٣ : ٢٣١)

قولهم في الشكوى

٥٩ - أعرابي يشكو حاله

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

« قَدِمَ علينا البصرة رجل من أهل البادية شيخ كبير ، فقصدته فوجدته يَحْضِبُ لحيته ، فقال : ما حاجتك ؟ فقالت : بلغني ما خصَّك الله به ، فحُثِّتْكَ أَقْبَسَ من علمك ، فقال : أُنَيْتِنِي وأنا أخضِبُ ، وإن الخضاب لمن علامات الكِبَرِ ، وطال والله ما غَدَوْتُ على صيد الوحوش ، ومشيتُ أمامَ الجيوش ، واختلَّتْ بالرِّداءِ ، وهَوَّتْ^(٦) بالنساء ، وقَرَيْتُ الضيفَ ، وأرويتُ السيفَ ، وشربتُ الرِّاحَ ، ونادمتُ الجحجَاحَ^(٧) ، فاليوم قد حنَّاني الكِبَرُ ، وَضَعُفَ مني البصرُ ، وجاء بعد الصفو الكدرُ ، ثم قبض على لحيته ، وأنشأ يقول :

شَيْبٌ تُعَيِّبُهُ كَيْمًا تَقَرُّ بِهِ كَبَيْعِكَ الثَّوْبَ مَطْوِيًّا عَلَى حَرَقِ
 قَد كُنْتُ كَالْفُصْنِ تَرْتاحُ الرِّياحُ لَهُ فَصِرْتُ عُوْدًا بِلا ماءٍ ولا وَرَقِ

(١) النظرة : الإمهال . (٢) كناية عن الموت .

(٣) المقومة : الخلة ، أى بقبره . (٤) العرس : امرأة الرجل .

(٥) ضاق بالأمر ذرعاً : ضعفت طاقته ، ولم يجد من المكره فيه مخلصاً .

(٦) هوت به : فرحت به . (٧) الجحجج : السيد .

صبراً على الدهر ، إن الدهر ذو غيرٍ وأهلُه منه بين الصفر والرنق^(١)
(الأمال ٢ : ٩٤)

٦٠ - كلمات شتى في الشكوى

قيل لأعرابية أصيبت بابنها : ما أحسنَ عَزَاكَ ! قالت : « إن فَقْدِي إياه أَمَنِّي
كلَّ فَقْدٍ سِوَاهُ ، وإن مصيبتِي به هَوَّنتَ عَلَيَّ المصَائِبَ بعده » ، ثم أنشأت تقول :

مَنْ شَاءَ بِمَدَّكَ فَلَيَمُتْ فَعَلَيْكَ كُنْتُ أَحَاذِرُ
لَيْتَ المَنَازِلَ وَالدِّيَا رَ حَفَاثِرُ وَمَقَابِرُ

* * *

وقيل لأعرابي : كيف حزنك على ولدك ؟ قال « ماترك همَّ الغدَاءِ والعِشَاءِ
لي حُزْنًا » .

* * *

وقيل لأعرابي : ما أمحلَّ جِسْمَكَ ؟ قال : « سِوَاهُ الغِدَاءِ ، وَجُدُوبَةِ المُرْعَى ،
واختلاف المِمْوَمِ في صَدْرِي » ، ثم أنشأ يقول :

المِمْ مَالِمٌ تَمَضِيهِ لِسَبِيلِهِ دَالِمٌ تَضَمَّنَهُ الضَّلُوعُ عَظِيمُ
ولربما استيأستُ ثم أقول : لا إن الذي ضمن النجاحَ كَرِيمُ

* * *

وقيل لأعرابي قد أخذ به السنُّ : كيف أصبحت ؟ قال : « أصبحتُ تقيِّدُنِي
الشعْرَةَ ، وَأَعَثَّرُنِي البَعْرَةَ ، قد أقام الدهرُ صَعْرِي ، بعد أن أقتُ صَعْرَهُ » .

* * *

وقال أعرابي: « لقد كنتُ أنكرُ البيضاء ، فصيرتُ أنكرُ السوداء ، فيا خير مبدول ، ويا شرَّ بَدَل ! » .

* * *

وذكر أعرابي منزلاً بادَ أهله فقال : « مَنزِلٌ وَاللَّهِ رَحَلَتْ عَنْهُ رَبَّاتُ الْخُدُورِ ، وَأَقَامَتْ فِيهِ رَوَاحِلُ^(١) الْقُدُورِ ، وَقَدْ اكَتَسَى بِالنَّبَاتِ كَأَنَّمَا أَلْبَسَ الْخُلَلَّ ، وَكَانَ أَهْلُهُ يَعْفُونَ^(٢) فِيهِ آثَارَ الرِّيحِ ، وَأَصْبَحَتْ الرِّيحُ تَعْفُو آثَارَهُمْ ، فَالْمَهْدُ قَرِيبٌ ، وَالْمَلْتَقَى بَعِيدٌ » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً تغيرت أحوالهم فقال : « أَعْيُنُ وَاللَّهِ كُحِلَّتْ بِالْمَعْبَرَةِ بَعْدَ الْحَبْرَةِ^(٣) ، وَأَنْفُسٌ لَبَسَتْ الْحَزْنَ بَعْدَ السُّرُورِ » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً تغيرت حالهم فقال : « كَانُوا وَاللَّهِ فِي عَيْشٍ رَقِيقِ الْحَوَاشِي ، فَظَلُّوا الدَّهْرَ بَعْدَ سَعَةِ ، حَتَّى لَبَسُوا أَيْدِيَهُمْ مِنَ الْقُرْ^(٤) ، وَلَمْ أَرَّ صَاحِبًا أَعْرَى مِنَ الدُّنْيَا ، وَلَا ظَالِمًا أَعْشَمَ^(٥) مِنَ الْمَوْتِ ، وَمَنْ عَصَفَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَرْدِيَاهُ^(٦) ، وَمَنْ وَكَّلَ بِهِ الْمَوْتَ أَفْنَاهُ » .

* * *

ووقف أعرابي على دارٍ قد بادَ أهلها فقال : « دَارٌ وَاللَّهِ مُعْتَصِرَةٌ لِلدَّمُوعِ ، حَطَّتْ بِهَا السَّحَابُ أَثْقَالَهَا ، وَجَرَّتْ بِهَا الرِّيحُ أَذْيَالَهَا » .

* * *

(١) الرواحل جمع راحلة : وهي في الأصل : الناقة الصالحة لأن ترحل ، والمراد هنا الحوامل التي تحمل القدور ، أي الأثافي . (٢) عفا المنزل : درس ، وعفته الريح ، ويعمدى ويلزم ، وبإيهما عدا ، وعفته للريح أيضاً بالتشديد للمبالغة . (٣) الحبرة : السرور . (٤) القر مثلث القاف : البرد . (٥) أظلم . (٦) أهلكناه .

وذكر أعرابي رجلاً تغيرت حاله فقال : « طُوِيَتْ صِحْفَتُهُ ، وَذَهَبَ رِزْقُهُ ، فَابْلَاءُ مُسْرِعٍ إِلَيْهِ ، وَالْعَيْشُ عَنْهُ قَابِضٌ كَفَيْهِ » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً ضاق عيشه بعد سعة فقال : « كَانَ وَاللَّهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ مَمْدُودٍ ، فَقَدِحَتْ عَلَيْهِ مِنَ الدَّهْرِ زَنْدٌ غَيْرُ كَابِيَّةٍ ^(١) » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ - ٨٠)

* * *

وذكر أعرابي مصيبة نالته ، فقال : « مُصِيبَةٌ وَاللَّهِ تَرَكْتُ سُودَ الرُّعُوسِ بِيضًا ، وَبِيضَ الْوُجُوهِ سُودًا ، وَهَوَّنتَ الْمَصَائِبَ بَعْدَهَا » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٥)

* * *

وذكر أعرابي قطيعة بعض إخوانه فقال : « صَفِرَتْ عِيَابٌ ^(٢) الْوُدَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ بَعْدَ امْتِلَائِهَا ، وَأَقْفَرَتْ وَجُوهُ كَانَتْ بِمَائِهَا ، فَأَدْبَرَ مَا كَانَ مُقْبِلًا ، وَأَقْبَلَ مَا كَانَ مَدْبِرًا » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٤)

* * *

وقيل لأعرابي : ما أذهب شبابك ؟ قال : « مِنْ طَالَ أَمْدُهُ ، وَكَثُرَ وُلْدُهُ ، وَوَدَّفَ عَدَدُهُ ، وَوَدَّهَبَ جَلْدُهُ ذَهَبَ شَبَابِهِ » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، والبيان والعبين ٢ : ٥٧)

* * *

وسئل أعرابي عن سفر أكدى ^(٣) فيه ، فقال : « مَا غَنِمْنَا إِلَّا مَا قَصَرْنَا فِي صَلَاتِنَا ، فَأَمَّا مَا أَكَلْتَهُ الْهَوَاجِرِ ^(٤) ، وَلَقَيْتَهُ مِنَ الْأَبَاعِرِ ، فَأَمْرٌ اسْتَخَفَّنَاهُ لِمَا أَمَلْنَا » .

(١) الزند : العود الذي يقدح به النار ، وكينا الزند : لم يخرج ناره ، وفي الأصل « زند عين كابية » وهو تحريف . (٢) صفرت : خلت ، وعياب جمع هبة بالفتح : ما يجعل فيه العياب . (٣) أصله من « حفر فأكدى » أى صادف السكدية - والسكدية كفرصة : الأرض المليظة ، و« سفانة المنظمة الشديدة » . (٤) الهواجر جمع هاجرة ، وهى شدة الحر .

وقالت امرأة من الأعراب : « أصبحنا ما يرقد لنا فرس ، وما ينام لنا حرس » .
(البيان والتهيين ٢ : ٨٢)

* * *

وقال أعرابي « مضى لنا سلفٌ أهل تَوَاضُل ، اعتقدوا^(١) مِنَّنَا ، واتخذوا الأيادي
ذخيرةً لمن بعدهم ، يَرَوْنَ اصطناعَ المعروف عليهم فَرَضًا لازماً ، وإظهارَ البرِّ واجباً ، ثم
جاء الزمان بينين ، اتخذوا مِنْتَهُم بضاعة ، وَبَرَّهم مُرَابِحَةً^(٢) ، وأياديهم تجارة ، واصطناعَ
المعروف مَقَارِضَةً ، كَنَقْدٍ ، خُذْ مني وهاتِ » .

* * *

وقيل لأعرابي في مرضه : ما تشككي ؟ قال : « تمام العِدَّة ، وانقضاء المدة » .

* * *

ونظر أعرابي إلى رجل يشكو ما هو فيه من الضيق والضرِّ فقال : « يا هذا :
أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ؟ » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٥)

* * *

ووصف أعرابي الدنيا فقال : « هي رَنَقَةٌ^(٣) المشارب ، جَمَّةُ المصائب ، لا تُمْتَمَك
الدهرَ بصاحب » .

* * *

وقال أعرابي : « حَسْبُكَ من فساد الدنيا أنك ترى أَسِنَّةً^(٤) تُوضَع ، وأخفافاً
تُرْفَع ، والخير يُطَلَب عند غير أهله ، والفقير قد حلَّ غير محله » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٦)

* * *

(١) من اعتقد مالا ؛ اقتناه . (٢) راجع على الملحة : أعطاه رجلاً .
(٣) كدرة . (٤) جمع سنام ، والمراد ما كان مالياً .

وقيل لأعرابي : كيف ابنك - وكان به عاقاً - قال : « عذابٌ لا يقاومه الصبر »
وقائدة لا يجب فيها الشكر ، فليتنى قد استودعته القبر » . (المعتمد الفريد ٢ : ٩٧)

* * *

عن الأصمعي قال : قيل لأعرابي قديم الحضرة^(١) ، ما أقدمك ؟ قال : « الحنين^(٢) ،
الذي يُغَطِّي العَيْن » . (الأمل ١ : ٢٠٢)

* * *

وأصيب أعرابي بابن له ، فقال وقد قيل له أُصبر : « أعلَى الله أتجلد ، أم في مصيبتى
أتبلد ؟ والله للجزع من أمره أحبُّ إلى الآن من الصبر ، لأن الجزع استكثارة ، والضبر
قساوة ، ولئن لم أجزع من النقص لم أفرح بالمزيد » . (زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

* * *

وقيل لأعرابي : لم لا تضرب في الأرض ؟ فقال : « ينعنى من ذلك ، طفل
بأرك ، ولصّ سانك ، ثم إنى لست بعد ذلك واثقاً بنجح طلبتي ، ولا معتقداً قضاء
حاجتي ، ولا راجياً عطف قرابتي ، لأنى أقدم على قوم أطغاهم الشيطان ، واستألمهم
الساطان ، وساعدهم الزمان ، وأسكروهم حدائثة الأسنان » .
(زهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

* * *

وقال بعض الأعراب : « نالنا ونسبنا^(٣) ، وخلفه وليّ ، فالأرض كأنها وشى^(٤) »

(١) الحضرة : خلاف البادية كالحضر بالحريك . (٢) الهلاك .

(٣) الوسمى : مطر للربيع الأول ، والوهم : المطر الذي يأتي بعد المطر .

(٤) الوشى : نقش الثوب ، والعبقري : المنتقع النظير ، نسبة إلى عبقر ، موضع زعم العرب أنه من

أرض الجن ، ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من خلقه ، أو جودة صنعه .

عَبْقَرِيٌّ ، ثم أتتنا غيومُ جَرَادٍ ، بمناجِلِ حَوَادٍ^(١) ، نغزبت البلاد ، وأهلكت
العباد ، فسبحان من يُهَيِّئُ القويَّ الأَكُولَ ، بالضعيفِ المَأْكُولِ .

(زهر الآداب ٣ : ٢٤٦)

٦١ - قولهم في العتاب والاعتذار

عاتب أعرابيُّ أباه فقال : « يا أبت ، إن عظيمَ حَقِّكَ عليَّ لا يذهب صغيرَ حَقِّي
عليك ، والذي تَمَّتْ به^(٢) إلى ، أُمَّتٌ مِثْلُهُ إِلَيْكَ ، ولستُ أُرْزِعُ أَنَا سِوَاكَ ، ولكني
أقول : لا يَحِلُّ لَكَ الاعتداء . »

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، زهر الآداب ٣ : ١٠٠)

* * *

وقال أعرابي لصديق استبطأه فَلَامَهُ : « كانت بي إليك زَلَّةٌ يَمْنَعُنِي مِنْ ذِكْرِهَا
مَا أَمَلْتُ مِنْ تَجَاوُزِكَ عَنْهَا ، وليس أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنْهَا إِلَّا بِالْإِقْلَاعِ عَنْهَا . »

* * *

وقال آخر لابن عمِّ له : « والله ما أَعْرِفُ تَقْصِيرًا فَأُقْلِعُ ، ولا ذَنْبًا فَأَعْتِبُ ،
ولست أقول إنك كذبت ، ولا إنني أذنبت . » (زهر الآداب ٣ : ١٦٣)

* * *

وقال آخر لابن عمِّ له : « سَأْتَحْطَى ذَنْبَكَ إِلَى عُنْدِكَ ، وإن كنتُ من أحدهما
على يقين ، ومن الآخر على شكٍّ ، ولكن لَيْتِمَ المَعْرُوفُ مِنِّي إِلَيْكَ ، وتقومَ الحُجَّةُ
لي عليك . » (زهر الآداب ٣ : ١٦٤ ، والمعتمد للفريد ٢ : ٨٥)

وَعَدَلَتْ أعرابية أباهَا فِي الجُودِ وَإِتْلَافِ مَالِهِ ، فقالت : « حَبَسُ المَالِ ، أنفع
للعيال ، مِنْ بَدَلِ الوجهِ فِي السُّؤالِ ، فقد قَلَّ النِوَالِ ، وكثرَ البُخَالِ ، وقد أَتَلَفَتْ

(١) المناجل جمع منجل كبير : حديدة يقضب بها الزرع . وحواد جمع حادة : أى قاطعة ، وفي الأصل
« حراد » وأراه محرفا . (٢) تتوسل .

الطارف والتلاد ، وبقيت تطابُ ما في أيدي العباد ، ومن لم يحفظ ما ينفعه ، أوشك
أن يسعى فيما يضره . (زهر الآداب ٢ : ٢٤٦)

٦٢ - قولهم في المدح

دخل أعرابي على بعض الملوك فقال : « رأيتني فيما أتماطى من مدحك ، كالمخبر
عن ضوء النهار الباهر ، والقمر الزاهر ، الذي لا يخفى على الناظر ، وأيقنت أني حيث
انتهى بي القول ، منسوبٌ إلى العجز ، مقصّر عن الغاية ، فانصرفت عن الثناء عليك ،
إلى الدعاء لك ، ووكلتُ الإخبار عنك ، إلى علم الناس بك » . (الأماك ٢ : ٧٣)

* * *

وأثنى أعرابي على رجل فقال : « إن خيرك لسريح^(١) ، وإن منعمك لمريح ، وإن
رفدك لربيع » . (البيان والتبيين ٢ : ١٠٥)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً من بني كلاب يذكر رجلاً فقال :
« كان والله الفهم منه ذا أدنين ، والجوابُ ذا لسانين ، لم أر أحداً كان أرتقَ خلل
رأى منه ، ولا أبعَدَ مسافةً رويةً ، ومُراد^(٢) طرف ، إنما يرمى بهمته حيث أشار إليه
للكرم ، وما زال والله يتحصى مرارة أخلاق الإخوان ، ويسقيهم عذوبة أخلاقه » .
(الأماك ٢ : ١٦ ، والمعقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢)

* * *

وقال : سمعت أعرابياً ذكر رجلاً فقال : « كان والله للإخاء وضولاً ، وللسال
بذولاً ، وكان الوفاء بهما عليه كفيلاً ، ومن فاضله كان مفضولاً » .

(الأماك ١ : ١١٦ ، والمعقد الفريد ٢ : ٨٩)

* * *

(١) أى مطاء بلا مطال ولا إبطاء ، ومريح : أى من كد الطلب .
(٢) ريادة الإبل : اختلافها في المرعى مقبلة ومدبرة ، والموضع مراد ومستتراد .

ووصف أعرابي رجلاً فقال : « ذاك والله من ينفع سِلْمَه ، وَيَتَوَاصَفُ حِلْمَه ،
ولا يُسْتَمَرُّ^(١) ظُلْمَه ، إن قال فعل ، وإن ولي عدل . »

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢)

* * *

وذكر أعرابي قوماً فقال : « أدبهم الحكمة ، وأحكمهم التجارب ، ولم تفرهم
السلامة النطوية على الهلكة ، وجانبوا التسويف الذي به قطع الناس مسافة آجالهم ،
فقدت ألسنتهم بالوعد ، وانبسطت أيديهم بالإيجاز ، فأحسنوا المقال ، وشفعوه بالفعال . »

(الأمل ٢ : ٢٢ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٨)

* * *

عن عبد الرحمن عن عمه قال : وصفت أعرابية زوجها بمكارم الأخلاق عند أمها ،
فقلت : « يا أمه ، من نَشَرَ ثوب الثناء ، فقد أدَّى واجبَ الجزاء ، وفي كَيْتَانِ الشكر
جُودٌ لِمَا وجب من الحق ، ودخولٌ في كُفْرِ النعم » ، فقلت لها أمها : « أَيْ بُنيَّة :
أطبت الثناء ، ووقت بالجزاء ، ولم تدعى للذم موضعاً ، إني وجدت من عقل ، لم يعجل
بذم ولا ثناء إلا بعد اختبار » ، فقلت : « يا أمه ، مامدحت حتى اختبرت ،
ولا وصفت حتى عرفت » .

(الأمل ١ : ٢٢٥)

ووصف بعض الأعراب أميراً فقال : « إذا أوعد آخر ، وإذا وعد عجل ،
وعيده غفوة ، ووعدته إيجاز » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢١٧)

* * *

ونعت أعرابي رجلاً فقال : « كأنَّ الألسن والقلوب رِيضَتْ له ، فما تنعقد إلا على
ودّه ، ولا تنطق إلا بحمده » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢)

* * *

(١) لا يستمر ، من استمر الطعام : وجده مريناً أي هنيئاً حميد المنبة .

وذكر رجل عند أعرابي فوقع فيه قوم فقال : « أما والله إنه لا كلُّكم للمأدوم وأعطاكم للمعزوم^(١) ، وأكسبكم للمعدوم ، وأعطفكم على المحروم . »

(الأمال ٢ : ١٦ ، والبيان والتبيين ١ : ١٦٢)

* * *

وأعطى رجل أعرابياً فأكثر له ، فقال له الأعرابي : « إن كنت جاوزت قدرى عند نفسي ، فقد بلغت أملي فيك . »

(الأمال ٢ : ٥٠)

* * *

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « كان والله يُعنى^(٢) في طاب المكارم ، غير ضالٍّ في معارج طرقها ، ولا متشاغل عنها بغيرها . »

(الأمال ٢ : ٥٠ ، والمعقد الفريد ٢ : ٨٩)

* * *

ودخل أعرابي على رجل من الولاة فقال : « أصلح الله الأمير : اجعلني زمماً من أزممتك يُجرِّبها الأعداء ، فأني مسعر حرب^(٣) ، ورَكَّابُ نُجُبٍ ، شديد على الأعداء لئِن على الأصدقاء ، منطوى الحصيلة^(٤) ، قليل التَّمِيلَةِ ، غرمار النوم ، قد غَدَّتني الحرب بأفاويقها^(٥) ، وحَلَبْتُ الدهرَ أَشْطُرَه ، ولا تمنعك مني الدَّمامة^(٦) ، فإن من تحتها شهامة . »

(المعقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٨٠)

* * *

(١) أى للمال المغرور ، فن لزمه غرم حمله عنه . (٢) أى يعجب وينصب .
(٣) أى موقدها ، وللتجرب جمع تجريب . (٤) حصل الشيء تحصيلاً : جمعه ، والاسم الحصيلة ، والمعنى مكنتم السر ، والتَّمِيلَةُ فى الأصل : ما يبقى فى بطن الدابة من العلف والماء ، وما يدخره الإنسان من طعام أو غيره ، وفى حديث عبد الملك قال الحجاج : « أما بعد فقد وليتك المراقين ، فسر إليها منطوى التَّمِيلَةُ » والمعنى فسر إليها مخفاً ، والفرار : التقليل من النون . (٥) الأفاويق جمع أفواق ، وهو جمع فَيْقَة بالكسر ، والفَيْقَة : اسم اللبن يجتمع فى الضرع بين الحلبتين . (٦) الدمامة : قبح المنظر .

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « ذاك والله فسيح الأدب ، مستحْكِم السبب ،
مِنَ أَى أَفْطَارِهِ أُبَيِّنُهُ ، تَنَى عَلَيْهِ بِكَرَمِ فِعَالٍ ، وَحَسُنَ مَقَالٌ » .

(زهر الآداب ٢ : ٦ ، والمقد الفريد ٢ : ٨٩)

* * *

ومدح أعرابي رجلاً فقال « كان والله يَغْسِلُ مِنَ الْعَارِ وَجُوهًا مُسْوَدَّةً ، وَيَفْتَحُ
مِنَ الرَّأْيِ عِيونًا مُنْسَدَّةً » .

(المقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦٥)

* * *

وذكر أعرابي قومًا عبَادًا فقال : « تَرَكُوا وَاللَّهِ النِّعَمَ لِيَتَنَعَّمُوا ، لَمْ عَبَّرَاتٌ
مُتَدَاقِقَةٌ ، وَزَفَرَاتٌ مُتَتَابِعَةٌ ، لِأَتْرَاهُمْ إِلَّا فِي وَجْهِهِ عِنْدَ اللَّهِ » .

* * *

وذكر أعرابي قومًا فقال : « مَا رَأَيْتُ أُسْرِعَ إِلَى دَاخِ بَيْتِي ، عَلَى فَرَسٍ حَسِيبٍ ،
وَجَمَلٍ نَجِيبٍ ^(١) ، ثُمَّ لَا يَنْتَظِرُ الْأَوَّلُ السَّابِقُ ، إِلَّا خِرَ اللَّاحِقَ » .

* * *

وذكر أعرابي قومًا فقال : « جَمَلُوا أَمْوَالَهُمْ مَنَادِيلَ أَعْرَاضِهِمْ ، فَالْخَيْرُ بِهِمْ زَائِدٌ ،
وَالْمَعْرُوفُ لَهُمْ شَاهِدٌ ، يُعْطُونَهَا بِطَبِيبَةٍ أَنْفُسَهُمْ إِذَا طُلِبَتْ إِلَيْهِمْ ، وَيُبَاشِرُونَ الْمَعْرُوفَ
بِأَشْرَاقِ الْوَجْهِ إِذَا بُغِيَ لَدَيْهِمْ » .

* * *

وذكر أعرابي قومًا فقال : « وَاللَّهِ مَا أَنَالُوا شَيْئًا بِأَطْرَافِ أُنَامِيهِمْ إِلَّا وَطِئْنَا
بِأَخْصَاصِ ^(٢) أَقْدَامِنَا ، وَإِنْ أَقْصَى هِمَمِهِمْ لَأَدَّتْ فِعَالِنَا » .

* * *

(١) النجيب : الحمل السريع الخفيف في السير .

(٢) جمع أخصر كأحمر : وهو من باطن القدم ما لم يصب الأرض .

وذكر أعرابي أميراً فقال : « إذا ولي لم يطابق بين جُونه ^(١) ، وأرسل العيونَ على عيونِه ، فهو غائب عنهم ، شاهد معهم ، فالحسن راجٍ ، والمسيء خائف » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً ببراعة المنطق فقال : « كان والله بارع المنطق ، جزل الألفاظ ، عربى اللسان ، فصيح البيان ، رقيق حواشى الكلام ، بليغ الرقيق ، قليل الحركات ، ساكن الإشارات » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « رأيت له حِلماً وأناةً ، يُحدِّثك الحديث على مقاطعه ، ويُنشد الشعر على مدارجِه ^(٢) ، فلا تسمع له لحناً ولا إحالة ^(٣) » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً فقال : « آلت ^(٤) سيوفهم ألا تقضى ديناً عليهم ، ولا تضيع حقاً لهم ، فما أخذ منهم مردوداً إليهم ، وما أخذوا متروكاً لهم »

* * *

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « ما رأيت عيناً قطْ أخرق لظلمة الليل من عينه ، ولحظةً أشبه بلبيب النار من لحظته ، له هزة كهزة السيف إذا طرب ، وجراءة كجراءة الليث إذا غضب » .

* * *

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « كانت ظلمة ليله كضوء نهاره ، أميراً بارتياح ، وناهيًا عن فساد ، لطيب السوء غير منقاد » .

* * *

(١) أى لم ينم عن شئون رعيته ، والعيون : الجواسيس .

(٢) مدارج جمع مدرج ومدرجة : المذهب والمسلك . (٣) أحال الكلام إحالة : إذا أفسده ،

والمحال من الكلام : ما عدل به عن وجهه ، وأحال : أتى بالمحال وتكلم به . (٤) حلفت .

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « اشترى والله عرضَه من الأذى ، فلو كانت الدنيا له قانقها ، لرأى بعدها عليه حقوقاً ، وكان منهاجاً للأمر المشكِّلة إذا تناجز الناسُ باللائمة » .

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « يُفوق^(١) الكلمة على المعنى ، فتمرقُ مرقوق السهم من الرميَّة ، فما أصاب قتل ، وما أخطأ أشوى^(٢) ، وما غطَّظ^(٣) له سهمٌ منذ تحرك لسانه في فيء » .

وذكر أعرابي أخاه فقال : « كان والله ركوباً للأهوال ، غير ألوف للحجبال^(٤) إذا أُرعد^(٥) لقوم من غير قرٍ ، يهين نفساً كريمة على قومها ، غير مُبقية لعدٍ ما في يومها » .

• • •

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « كان والله من شجر لا يُخلف ثمره ، ومن بحر لا يُخاف كدره » .

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « ذاك والله فتى رماه الله بالخير ناشئاً ، فأحسن لبسه ، وزين به نفسه » .

* * *

(١) يسدد ويصوب ، والرمية : ما يرمى . (٢) أشواه : أصاب شواه ، والشوى كعصا : اليدان والرجلان والأطراف وقحف الرأس وما كان غير مقتل . (٣) الغطظة : حكاية صوت القدر في الغليان وما أشبهها ، وقد يكون الأصل « وما غطَّظ » أى ما اضطرب من الغطظة وهو اضطراب موج البحر .
(٤) الحجبال جمع حجلة بالتحريك : اللقبة وموضع يزين بالفهب والستور للمروس ، والمراد النساء .
(٥) أُرعد : أخذته رعدة .

ومدح أعرابي رجلا فقال : « يُصمُّ أذنيه عن استماع الخنا ، وَيُخْرِسُ لسانه عن التكلم به ، فهو الماء الشَّريب^(١) ، وَالْمِصْقَعُ الخطيب » .

وذكر أعرابي رجلا فقال : « ذاك رجل سبق إلىَّ معروفة قبل طلبي إليه ، فالعرض وافر ، والوجه بمائه ، وما أُسْتَقِلَّ^(٢) بنعمة إلا أقفلني بأخرى » .

وذكر أعرابي رجلا فقال : « ذاك رَضِيعُ الجود والمقطومُ به ، عَقِيمٌ عن الفحشاء ، مُعْتَصِمٌ بالتقوى ، إِذَا حَذَفَتْ^(٣) الألسن عن الرأي ، حذف بالصواب ، كما يَحْذِفُ الأرنب ، فإن طالت الغاية ، ولم يكن من دونها نهاية ، تَمَهَّلَ أمام القوم سابقاً » .

وذكر أعرابي رجلا فقال : « إن جلسه لِطِيبِ عِشْرَتِهِ أطربُ من الإبل على الخدَّاء ، وَالرَّمْلُ على الغناء » .

وذكر أعرابي رجلا فقال : « كان له عِلْمٌ لا يخالطه جهل ، وصدق لا يشوبه كذب ، كأنه الوَبْلُ عند المَحَلِّ^(٤) » .

وذكر أعرابي رجلا فقال : « ما رأيتُ أُعْشِقَ للمعروف منه ، وما رأيتُ للمنكر أبغضَ لأحدٍ بُغْضَهُ له » .

(١) الشريب والشرب : ما يشرب . المصقع : البليغ ، أو العالي الصوت ، أو من لا يرتج عليه في كلامه . ولا يتمتع . (٢) أو وما أهل . وأقفلني : أرجفني وردني . (٣) حذفت : رمت . (٤) البدهب .

وقدم أعرابي البادية وقد نال من بنى برمك ، فقيل له كيف رأيتمهم ؟ قال :
« رأيتمهم وقد أنست بهم النعمة ، كأنها من ثيابهم » .

* * *

وذكر أعرابي رجلا فقال : « ما زال يبني المجد ، ويشترى الحمد ، حتى بلغ
منه الجهد » .

* * *

ودخل أعرابي على بعض الملوك فقال : « إن جهلا أن يقول المادح بخلاف
ما يعرف من المدوح ، وإني والله ما رأيت أعشق للكريم في زمان اللؤم منك ،
وأشهد :

مالي أرى أبوابهم مهجورة ؟ وكانَّ بابك كجمع الأسواق
حابوك أم هابوك أم شاموا الندى بيدك فاجتمعوا من الآفاق
إني رأيتك للكريم عاشقا والمكرمات قليلة العشاق
(العقد الفريد ٢ : ٨٨ - ٩٠)

* * *

وضل أعرابي الطريق ليلا ، فلما طلع القمر اهتدى ، فرفع رأسه إليه فقال :
ما أدري ما أقول ؟ أقول : رفعتك الله ؟ فقد رفعتك ، أم أقول : نورك الله ؟ فقد
نورك ، أم أقول : حسنتك الله ؟ فقد حسنتك ، أم أقول : عمرك الله ؟ فقد عمرك ،
ولكني أقول : جعلني الله فداك .
(العقد الفريد ٢ : ٩٧)

* * *

وذكر أعرابي قومه فقال : « كانوا والله إذا اصطفوا تحت القتام^(١) ، حطرت
بينهم السهام^(٢) بوفود الحمام ، وإذا تصالحوا بالسيوف ففرت^(٣) المنايا أفواهما ، قرب

(١) للقتام : الغبار . والحمام : الموت . ورواية العقد : « كانوا إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام »

- سفر بين القوم كضرب ونصر : أصلح . (٢) ففرت : فتمت .

يوم عارم^(١) قد أحسنوا أدبه ، وحرب عبوس قد ضاحكها أسنتهم ، وخطب شز^(٢) قد ذلّوا منا كيبه ، ويوم عماس^(٣) قد كشفوا ظلمته بالصر حتى ينجلي ، إنما كانوا البحر الذي لا ينكش^(٤) غماره ، ولا ينهنه تياره .
(الأمل : ١ : ١٢٩ ، والمقد الفريد ٢ : ٨٨ ، وزهر الآداب ٢ : ٤)

* * *

ووصف أعرابي رجلا فقال : « هو أظهر من الماء ، وأرق طباعاً من الهواء ، وأمضى من السيل ، وأهدى من النجم » .
(زهر الآداب ٢ : ٢)

* * *

ووصف أعرابي قومه فقال : « ليوث حرب ، وليوث جذب ، إن قاتلوا أبلوا ، وإن بذلوا أننوا » .
(زهر الآداب ٢ : ٤)

* * *

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « إذا ثبتت الأصول في القلوب ، نطقت الألسنة بالفروع ، والله يعلم أن قلمي لك شاكر ، ولساني ذا كرم ، ومُحَالٌّ أن يظهر أودّ المستقيم ، من الفؤاد السقيم » .
(زهر الآداب ٢ : ١٦٥)

* * *

وسئل أعرابي عن قومه فقال : « يقتلون الفقر ، عند شدة الفقر^(٥) ، وأرواح^(٦) الشتاء ، وهبوب الجربياء^(٧) ، بأسنمة الجزور ، ومترعات^(٨) القُدور ، تحسن وجوههم عند طلب المعروف ، وتعبس عند لمعان السيوف » .

* * *

(١) العرامة بالفتح والدرام بالضم : الشراسة والأذى ، عرم كنعصر وضرب وكرم وعلم .
(٢) شز : شديد مقلق . (٣) العماس من الليالي : المظلم الشديد ، وأمر لا يقيم له ولا يبتدى لوجهه .
(٤) لا ينكش : لا ينزح ، والعمار جمع غمر كشمس : وهو الماء الكثير ، ونهنه : كفه وزجره . وفي رواية المقه : « إنما قوى البحر ما ألقته للثقم » . ورواية زهر الآداب : « إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام ، وإذا تصانحوا بالسيوف ففره الحمام » .
(٥) القرب بتثنية اللقاف : البرد . (٦) جمع ريح كرياح . (٧) ريح الشمال أو بردها .
(٨) جمع مترعة : وهي الملوثة .

ووصف أعرابي قوماً فقال : « هم جُود كرامٍ اتست أحوالها ، وبأسُ ليوثٍ
تتبعها أشبالها ، وهم ملوكٍ انفسحت أمانها ، ونخرُ صميم آباء شرفت أحوالها » .
(زمر الآداب ٢ : ١٦٧)

٦٣ - قولهم في الذم

وذكر أعرابي قوماً فقال : « أولئك سلخت أقاؤم بالعجاء ، ودُبغت وجوههم
باللؤم ، لبأسهم في الدنيا الملامة ، وزادهم إلى الآخرة الندامة » .

• • •

وذكر أعرابي قوماً فقال : « لهم بيوتٌ تُدخل حَبِوًا ، إلى غير نمارق^(١) ،
ولا وسائد ، فُصْحُ الألسُن برَدِّ السائل ، جماد الأَكْف عن النَّائِل^(٢) » .

• • •

وقال أعرابي : « لقد صَفَّر فلانا في عيني عِظْمُ الدنيا في عينه ، وكانما يَرَى السائل
إذا أتاه ، مَلَك الموتِ إذا رآه » .

• • •

وسئل أعرابي عن رجل فقال : « ما ظنُّكم بِسِكِّيرٍ لا يَفِيق ، يَتَّهَمُ الصديق ،
وَيَعِصِي الشفيق ، لا يكون في موضعٍ إلا حُرِّمَتْ فيه الصلاة ، ولو أفلتت كلُّه سوءٌ
لم تَضِرْ إلا إليه ، ولو نزلت لعنةٌ من السماء لم تقع إلا عليه » .

• • •

(١) النمارق جمع نمرقة (بالضم) : وهي الوسادة الصغيرة . (٢) النَّائِل : العطاء ، وهو جمع النائلين
أو الأنايل (كشمس) : أي يخيل ، وقد جمعوا جمع الشعر على جماد ككتاب كفا في اللسان ، فليكن هذا
مثله ، وقد جاء في الأصل « جمه » بدون ألف ، وأراه محرفاً ، إذ لا يجمع جمع (بالفتح) على جمع بضم
فسكون ، ولا على جمع بضمين .

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « إن فلاناً لِيُعَدِي بِإِثْمِهِ ، مَنْ تَسَمَّى بِاسْمِهِ ، وَلَنْ خَيَّبَنِي فَلَرْبٌ بَاقِيَةٌ قَدْ ضَاعَتْ فِي طَلَبِ رَجُلٍ كَرِيمٍ » .

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « تَعْدُوا إِلَيْهِ مَرَّ كَيْبِ الضَّلَالَةِ ، فَتَرْجِعْ مِنْ عِنْدِهِ بِيَذُورِ الْآثَامِ ، مُعَدِّمٍ مِمَّا تَحِبُّ ، مُكَثَّرٍ مِمَّا تَكْرَهُ ، وَصَاحِبِ السُّوءِ قِطْعَةٍ مِنَ النَّارِ » .

• • •

وقال أعرابي لرجل : « أَنْتَ وَاللَّهِ مِنْ إِذَا سَأَلَ أَحْلَفَ ، وَإِذَا سُئِلَ سَوَّفَ ، وَإِذَا حَدَّثَ حَلَفَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، تَنْظُرُ نَظْرَ حَسُودٍ ، وَتُعْرِضُ إِعْرَاضَ حَقُودٍ » .

• • •

وسافر أعرابي إلى رجل فخرمه ، فقال لَمَّا سُئِلَ عَنْ سَفَرِهِ : « مَا رَبَّحْنَا فِي سَفَرِنَا إِلَّا مَا قَصَرْنَا مِنْ صَلَاتِنَا ، فَأَمَّا الَّذِي لَقِينَا مِنَ الْهَوَاجِرِ ^(١) ، وَلَقَيْتُ مِنْ الْأَبَاعِرِ ، فَمُعْقُوبَةٌ لَنَا فِيهَا أُنْسَدْنَا مِنْ حَسَنِ ظَنُّنَا » ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

رَجَعْنَا سَالِمِينَ كَمَا خَرَجْنَا وَمَا خَابَتْ سَرِيَّةُ سَالِمِينَ

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « كَانَ إِذَا رَأَى قَرَبًا مِنْ حَاجِبٍ حَاجِبًا ، فَأَقُولُ لَهُ : لَا تَقْبَحْ وَجْهَكَ إِلَى قَبْحِهِ ، فَوَاللَّهِ مَا أَتَيْتَكَ لَطَمَعٍ رَاغِبًا ، وَلَا لُخُوفٍ رَاهِبًا » .

• • •

وذم أعرابي رجلاً فقال : « غِبْدُ الْفِعَالِ ، حُرُّ الْمَقَالِ ، عَظِيمُ الرِّوَاقِ ، دَنِيءُ الْأَخْلَاقِ ، الْدَهْرُ يَرْفَعُهُ ، وَنَفْسُهُ تَضَعُهُ » .

• • •

وقال أعرابي : « دَخَاتِ الْبَصْرَةَ ، فَرَأَيْتِ ثِيَابَ أَحْرَارٍ عَلَى أَجْسَادِ عِبِيدٍ ، إِقْبَالُ

(١) الهواجر جمع هاجرة : وهي شدة الحر .

حَظَّهُمْ إِدْبَارُ حَظِّ الْكِرَامِ ، شَجَرُ أَصُولِهِ عِنْدَ فُرُوعِهِ ، شَفَلَهُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ رَغْبَتُهُمْ
فِي الْمَذْكَرِ .

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا قَال : « ذَاكَ سُمُّ الْمَجَالِسِ ، أَعْيَا مَا يَكُونُ عِنْدَ جُلُوسَاتِهِ ،
أَبْلَغُ مَا يَكُونُ عِنْدَ نَفْسِهِ » .

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا قَال : « ذَلِكَ مَنْ يَدَاوِي عَقْلَهُ مِنَ الْجَهْلِ ، أَحْوَجُ مِنْهُ إِلَى
مَنْ يَدَاوِي عَقْلَهُ مِنَ الْمَرَضِ ، إِنَّهُ لَا مَرَضَ أَوْجِعُ مِنْ قِلَّةِ عَقْلِ » .

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا لَمْ يَدْرِكْ بَثْرَهُ قَال : « كَيْفَ يُدْرِكُ بَثْرَهُ مَنْ فِي صَدْرِهِ
مِنَ الْبَلْفَمِ حَشْوُ مُرَقَّةٍ ، لَوْ دُقَّتْ بِوَجْهِهِ الْحَجَارَةُ لَرَضَّهَا (١) ، وَلَوْ خَلَا
بِالْكُمْبَةِ لَسَرَقَهَا » .

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا قَال : « تَسَهَّرَ وَاللَّهِ زَوْجَتَهُ جُوعًا إِذَا سَهَرَ النَّاسَ شَبَعًا ، ثُمَّ
لَا يَخَافُ مَعَ ذَلِكَ عَاجِلَ عَارٍ ، وَلَا آجِلَ نَارٍ ، كَالْبَيْمَةِ أَكَلَتْ مَا جَمَعَتْ ، وَنَسَكَتْ
مَا وَجَدَتْ » .

وَسَمِعَ أَعْرَابِي رَجُلًا يَزْعَقُ قَال : « وَيْحَكَ ! إِنَّمَا يَسْتَجَابُ لِمُؤْمِنٍ أَوْ مَظْلُومٍ ،
وَلَسْتُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا ، وَأَرَاكَ يَخِيفُ عَلَيْكَ ثِقَلُ الذُّنُوبِ ، فَيَحْسُنُ عِنْدَكَ مَقَابِحُ الْعِيُوبِ » .

وذکر أعرابی رجلاً بضعف فقال : « سبي الروية ، قليل التقيّة ، كثير السّعاية ، ضعيف النكايّة » .

* * *

وذکر أعرابی رجلاً فقال : « عليه كلّ يوم من فعله شاهدٌ بنفسه ، وشهادات الأفعال ، أعدل من شهادات الرجال » .

* * *

وذکر أعرابی رجلاً بذلّة فقال : « عاش خاملاً ، ومات مؤثوراً » .

* * *

وقال أعرابی لرجل شريف البيت ، ذى الهمة : « ما أحوجك أن يكون عرضك لمن يصونه ، فتكون فوق ما أنت دونه » .

* * *

وذکر أعرابی رجلاً فقال : « إن حدّثته يسألك إلى ذلك الحديث ، وإن سكت عنه أخذ في الترهات^(١) » .

* * *

وذکر أعرابی رجلاً راكباً هواه فقال : « والله لهو أقصدُ إلى ما يهواه ، من الطُّرقِ إلى المياه ، أفقره ذلك أو أغناه » .

* * *

وقال أعرابی : « ليت فلاناً أقالنى من حسن ظنّى به ، فأختم بصواب إذ بدأت بخطأ ، ولكن من لم تُحكّمه التجارب ، أسرع بالمدح إلى من يستوجب الذم ، وبالذم إلى من يستوجب المدح » .

* * *

(١) الترهات جمع ترعة : وهى الباطل .

وقال أعرابي لرجل : « هل أنت إلا أنت لم تغيّر؟ ولو كنت من حديد مُحْتَمِي
ووضعت على عينٍ لم تدب » .

وقال أعرابي لأخيه : « قد كنت نهيبتك أن تدسّ عرّضك بعرض فلان ، وأعلمك
أنه سمينُ المال ، مهزول المعروف ، من المرزوقين فجأة ، قصيرُ عمر الغني ، طويل
عمر الفقر » .

وقال أعرابي : « لا ترك الله مُحًّا في سُلّامي^(١) ناقةٍ حلّنتني إليك ، وللدّاعي عليها
أحقُّ بالدعاء عليه ، إذ كلفها المسيرَ إليك » .

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « لا يؤنس جاراً ، ولا يؤهل داراً ، ولا يبعث ناراً » .

وذكر أعرابي امرأةً قبيحة فقال : « تُرْخِي ذيلها على عرقوبِي نعاماً ، وتسدلِ خمارها
على وجه كالجمالة^(٢) » .

وقال أعرابي لامرأة : « والله إنك لمُشرّفة الأذنين ، جاحِظَة العينين ، ذات خلقٍ
متضائل : يُعجبك الباطل ، إن شِيعت بطرت ، وإن جُعتِ صخبت^(٣) ، وإن رأيتِ
حسناً دفنته ، وإن رأيتِ سيئاً أذعته ، تكرمين من حقرك ، وتحقّرين من
أكرمك » .

(المعتمد للفريه ٢ : ٩٠ - ٩٣)

(١) السلاحيات : عظام الأصابع .

(٢) الجمالة : خرقه يقول بها القدر .

(٣) الصخب : شدة الصوت .

وسأل أعرابي رجلا فخرمه ، فقال له أخوه : « نزلتَ وَاللَّهِ بِوَادٍ غَيْرِ مَمْطُورٍ ،
وَأَتَيْتَ رَجُلًا بِكَ غَيْرِ مَسْرُورٍ ، فَلَمْ تُدْرِكْ مَا سَأَلْتَ ، وَلَا نَلْتَ مَا أَمَلْتَ ، فَارْتَحِلْ
بِنَدَمٍ ، أَوْ أَقِمْ عَلَى عَدَمٍ » . (المقدم الفرید ٢ : ٩٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٥)

• • •

ودخات أعرابية على مَحْمُودَةَ بنت المهدى ، فلما خرجت سألت فقالت : « وَاللَّهِ
لَقَدْ رَأَيْتَهَا فَمَا رَأَيْتَ طَائِلًا ، كَأَنَّ بَطْنَهَا قِرْبَةٌ ، كَأَنَّ نَدْيَهَا دُبَّةٌ ، كَأَنَّ اسْتَهَا
رُفْعَةٌ ^(١) ، كَأَنَّ وَجْهَهَا وَجْهُ دَيْكٍ قَدْ نَفَسَ عَفْرِيَّتَهُ ^(٢) يِقَاتِلُ دَيْكًا » .
(المقدم الفرید ٢ : ٩٢ ، والأمال ٢ : ١٥٦)

* * *

وذم أعرابي رجلا فقال : « أَفْسَدَ آخِرَتَهُ بِصَلَاحِ دُنْيَا ، فَفَارَقَ مَا أَصْلَحَ غَيْرَ
رَاجِعٍ إِلَيْهِ ، وَقَدِمَ عَلَى مَا أَفْسَدَ غَيْرَ مَنْتَقِلٍ عَنْهُ ، وَلَوْ صَدَّقَ رَجُلٌ نَفْسَهُ مَا كَذَبْتَهُ ، وَلَوْ
أَلْتِي زَمَامَتَهُ أَوْ طَاهَرْتَهُ رَاحِلَتَهُ » . (زهر الآداب ٢ : ٦)

* * *

قال الأصمعي : سمعت أعرابية تقول لرجل تخاصمه : « وَاللَّهِ لَوْ صَوَّرَ الْجَهْلُ لِأَنْظَمِ
مَعَهُ النَّهَارُ ، وَلَوْ صَوَّرَ الْعَقْلُ لِأَضَاءِ مَعَهُ اللَّيْلُ ، وَإِنَّكَ مِنْ أَضْلَاهِمَا لَمُعْدِمٍ نَخَفَ اللَّهُ ،
وَأَعْلَمُ أَنْ مِنْ وَرَائِكَ حَكْمًا لَا يَحْتَاجُ الْمُدَّعَى عِنْدَهُ إِلَى إِحْضَارِ بَيِّنَةٍ » .
(زهر الآداب ٢ : ١٦٢)

* * *

وقال أعرابي يعيب قوماً : « هُمْ أَقْلُ النَّاسِ ذُنُوبًا إِلَى أَعْدَائِهِمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ جُرْمًا
إِلَى أَصْدِقَائِهِمْ ، يَصُومُونَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ، وَيُفْطِرُونَ عَلَى الْفَحْشَاءِ » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٠ ، والمقدم الفرید ٢ : ٩٥)

• • •

(١) شجرة عظيمة . (٢) عفريته اللدك : ريش صنقه .

ووصف أعرابي رجلاً فقال: «صَغِيرُ الْقَدْرِ، قَصِيرُ الشَّيْرِ^(١)، ضَيْقُ الصَّدْرِ، لَيْمُ النَّجْرِ^(٢)، عَظِيمُ الْكَبْرِ، كَثِيرُ الْفَخْرِ» .

(البيان والتبيين : ١ : ١٥٧ ، والمقد الفريد : ٢ : ٩١)

* * *

وذكر أعرابي أميراً فقال: «يَقْضَى بِالْعَشْوَةِ ، وَيَطِيلُ الدَّشْوَةَ ، وَيَقْبَلُ الرِّشْوَةَ^(٣)» .

(البيان والتبيين : ٢ : ٥٠ ، والمقد الفريد : ٢ : ٩١)

* * *

وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أعرابياً يقول : «اللهم اغْفِرْ لَأُمِّ أَوْفَى»
قال : « وَمَنْ أُمُّ أَوْفَى ؟ » ، قال . « امرأتى ، وإنها لحَمَاءُ مِرْغَامَةٍ^(٤) ، أَكُولُ قَامَةً^(٥) لا تَتَّبِقُ لها حَامَةٌ^(٦) ، غير أنها حسناء فلا تُفْرَكُ^(٧) ، وأم غلمان فلا تُتْرَكُ » .

(البيان والتبيين : ٢ : ٤٧)

* * *

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهي تقول :
« والله إن شُرْبِكَ لَأَشْتَفِأ^(٨) ، وإن ضِجِّعَتِكَ لَأَنْجِأ^(٩) ، وإن شِئْتِكَ لَأَلْتَفِأ ،
وإنك لَتَشْبَعُ لَيْلَةً تُضَافُ ، وتنام لَيْلَةً تَخَافُ » ، فقال لها : « والله إنك لَكَرْوَاءُ
السَّاقِينِ^(١٠) ، قَعَوَاءُ الْفَخْذَيْنِ^(١١) ، مَقَاءُ الرَّفْعَيْنِ^(١٢) ، مُفَاضَةٌ الْكَشْحَيْنِ^(١٣) ضَيْفُكَ
جَائِعٌ ، وَشَرُّكَ شَائِعٌ » .

(الأمالي : ١ : ١٠٤)

* * *

(١) الشبر : القد . (٢) النجر : الأصل . (٣) العشوة والنشوة والرشوة بثلاث الفاء في الثلاثة ، العشوة : ركوب الأمر على غير بيان ، والنشوة : السكر ، والرشوة : الجعل والبرطيل « بكسر الباء » . (٤) المرغامة : المغضية ليعلمها . (٥) قامة : اسم فاعل ، من قم : أى أكل ما على الخوان كانه ، وقه : كنهه : (٦) الحامة : الخاصة . (٧) فرك زوجته وفركته كسبع ، وكنصر شاذ : أبغضته ، ورجل مفرك بالتشديد تيفضه إتساء بامرأة مفركة : ييفضها الرجال . (٨) اشتف ماى الإناء : شربه كله . (٩) الانجماء : الانصراع . (١٠) الكرواء : الدقيقة الساقين . (١١) القعواء : الدقيقة ، أو الدقيقة الفخذين ، وقيل : هى المتباعدة ما بين الفخذين (كالفجواء) . (١٢) الرفغ : أصل الفخذ ، والمقاء : الدقيقة الفخذين ، أو الطويلة من المفق بالطويل وهو الطول . (١٣) المفاضة : المسترخية ، والكشحان : الحاصرتان .

عن عبد الرحمن عن عمه قال : مرّ أعرابي برجل يكنى أبا الغمر - وكان ضخماً
جسماً ، وكان بواباً لبعض الملوك - فقال : « أَعينَ الفقيرَ الحسير ، فقال : ما ألحفَ
سائلكم ، وأكثرَ جائعكم ، أراحنا الله منكم » ، فقال له الأعرابي : « لو فرّق
قوتُ جسمك في جسوم عشرة منا ، لكفانا طعامك في يومٍ شهراً ، وإنك اعظم
السرطنة^(١) ، شديد السرطنة ، لو ذرّيتُ بحبقتك بيدراً ، لكفنته ريحُ الجربياء^(٢) » .
(الأمال ١ : ٢٢٦)

٦٤ - قولهم في الغزل

سئل أعرابي عن امرأة فقال : « هي أرقُّ من الهواء ، وأطيبُ من الماء ، وأحسن
من النِّعَماء ، وأبعد من السماء » .
(الأمال ١ : ٢٠١ ، والمقد الفريد ٢ : ٩٤)

وذكر أعرابي امرأة فقال : « لها جِلْدٌ من لؤلؤ ، مع رائحة المسك ، وفي كل عضو
منها شمسٌ طالعة » .

وذكر أعرابي امرأة فقال : « كاد الغزالُ أن يكونها ، لولا ما تمَّ منها
وما نقصَ منه » .

وذكر أعرابي نسوة خرجن متنزهاتٍ فقال : « وجوةٌ كاللدنانير ، وأعناق
كأعناق اليعافير^(٣) ، وأوساطٌ كأوساط الزنابير ، أقبلن إلينا بحجول^(٤) تخفق ،
وأوشحةٌ تُعلّق ، وكم أسيرٍ لهن وكم مُطلقٍ » .

(١) البلمة ، من سرطنة كدسر وفرح : ابتلعه . (٢) الحبقة : السرطنة ، والبيدر : الموضع الذي
تداس فيه الحبوب ، والجربياء : ريح الشمال الباردة . (٣) اليعافير جمع يعفور : وهو وله القوة
الروحانية . (٤) الحجول جمع حجل بالكسر والفتح : وهو الخللخال . والأوشحة جمع وشاح بالضم
والكسر : أديم يرضع بالجوهر ، تشبه المرأة بين عاتقها وكشحيها .

ووصف أعرابي امرأة حسناء فقال : « تَبَسُّمٌ عَنِ خَشِّ (١) اللَّثَاتِ ، كَأَفَاحِي
النَّبَاتِ ، فَالسَّعِيدُ مِنْ ذَاقِهِ ، وَالشَّقِيُّ مِنْ رَاقِهِ » .

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال : « هِيَ السُّقْمُ الَّذِي لِابْتُرَاءِ مِنْهُ ، وَالْبِرُّ الَّذِي لِاسْقَمِ مَعَهُ
وَهِيَ أَقْرَبُ مِنَ الْحَشَاءِ ، وَأَبْعَدُ مِنَ السَّمَا » .

* * *

ووصف أعرابي امرأة فقال : « بِيضَاءُ جَمْدَةٍ (٢) لَا يَمَسُّ الثَّوْبُ مِنْهَا
إِلَّا مُشَاشَةً (٣) كَتَفِيهَا ، وَحَلْمَةٌ تُدْبِيهَا ، وَرَضْفٌ رَكْبَتَيْهَا ، وَرَانِفَتَى أَلْيَتَيْهَا ،
وَأُنْشَدَ :

أَبَتْ الرِّوَادِفُ وَالثَّدْيُ لِقَمُصِهَا مَسَّ البَطُونُ وَأَنْ تَمَسَّ ظُهُورًا
وَإِذَا الرِّيَاحُ مَعَ العَشِيِّ تَنَاحَتْ نَبَّهْنَ حَاسِدَةً وَهَجْنَ غَيُورًا

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال : « تَلَكُ شَمْسٌ بَاهَتْ بِهَا الأَرْضُ شَمْسَ سَمَاهَا ،
وَلَيْسَ لِي شَفِيعٌ فِي اقْتِضَائِهَا (٤) ، وَإِنْ نَفْسِي لَكَتُومٌ لِدَاهَا ، وَلَكِنِّي تَفِيفٌ
عِنْدَ امْتِلَائِهَا » .

* * *

وقال أعرابي في امرأة ودَّعها للمسير : « وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ دَمْعَةً تَرَقَّرُ مِنْ

(١) خدش ، والأفاحي جمع أمحوان بالضم : وهو نبت طيب الريح حواليه ورق أبيض ، ووسطه
صفر ، وراقه : أعجبه .

(٢) الجمدة من الشعر : خلاف السبط ، أو القصير منه ، ورجل جمدة الشعر والأثني جمدة ، والجمدة أيضا
المدج الخلق مجتمع بمضه إلى بعض ، والجمدة إذا ذهب به مذهب الملح فله معنيان مستحيان : أحدهما أن
يكون معصوب الجوارح شديد الأسر والخلق غير مسترخ ولا مضطرب ، والثاني أن يكون شعره جمدا غير
سيط لأن سبوطة الشعر هي الغالبة على شعور المعجم من الروم والفرس ، وجمودة الشعر هي الغالبة على
شعور العرب . (٣) المشاشة : رأس المعظم ، والرضف : عظام في الركبة كالأصابع المضمومة قد أخذ
بعضها بعضها ، والرانفة : أسفل الألية عند القيام .

(٤) اقتضى دينه وتقاضاه بمعنى .

عين بِأَعْيُنٍ^(١) على ديباجة خَدِّ ، أحسن من عِبْرَةٍ أمطرتها عينها ، فأعشت بها قلبي .

* * *

وقال أعرابي : « إن لي قلباً مَرُوعاً^(٢) ، وعيناً دُمُوعاً ، فماذا يصنع كل واحد منهما بصاحبه ، مع أن داءهما دواؤهما ، وسُقمهما شفاؤهما ؟ » .

* * *

وقال أعرابي : « مَا أَشَدَّ جَوَلَةَ الرَّأْيِ عند الهوى ، وَفِطَامَ النَّفْسِ عن الصَّبَا ! ولقد تقطعت كبدى ! لَوْمُ العاذِلِينَ للعاشقين قِرْطَةَ^(٣) في آذانهم ، وَلَوْعَاتِ الحب نيرانٍ في أبدانهم ، مع دموع على المَنَافِي^(٤) ، كغُرُوبِ السَّوَانِي . » .

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال « لقد نَعِمْتَ عَيْنٌ نَظَرَتْ إِلَيْهَا ، وَشَقِيَ قَابٌ تَفَجَّعَ عَلَيْهَا ، ولقد كنت أزورها عند أهلها ، فَيُرْحَبُ بِي طَرْفُهَا ، وَيَتَجَهَّمَنِي لِسَانُهَا » قيل له فما بلغ من حُبِّك لها ؟ قال : « إِنِّي ذَا كِرٍّ لَهَا وَيَنِينِي وَبَيْنَهَا عَدْوَةَ الطَّائِرِ ، فَأَجْدُ لَذِكْرُهَا رِيحَ الْمَسْكِ . » .

* * *

وقال أعرابي : « الهوى هوان ، ولكن غُلِطَ بِاسْمِهِ ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ مَنْ يَقُولُ ، من أَبْكَنَتَهُ الْمَنَازِلُ وَالطَّلُولُ . » .

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال : « إن لساني لِذِكْرُهَا لَذَائِلُ ، وَإِنْ حَبَّهَا لِقَلْبِي لِقَتُولُ ، وَإِنْ قَصِيرَ اللَّيْلِ بِهَا لِيَطُولُ . » .

* * *

(١) الإيتمد : السكحل ، والديباجة : الخد .

(٢) مفزه .

(٣) المنافي جمع مفي : وهو المنزل ، والغروب جمع غرب كشمس : وهو الدلو العظيمة ، والسواني

جمع سانية : وهي النقة يسق عليها ، والغرب وأداته .

ووصف أعرابي نساء ببلاغة وجمال فقال : « كَلَامُهُنَّ أَقْتَلُ مِنَ النَّبْلِ ،
وَأَوْقَعُ بِالْقَلْبِ مِنَ الْوَيْلِ بِالْمَحَلِّ ، فَرَوْعُهُنَّ أَحْسَنُ مِنْ فُرُوعِ النَّخْلِ » .
(العقد الفرید ٢ : ٩٣ - ٩٥)

* * *

وقال أعرابي : « دخلت البصرة ، فرأيت أعيناً دُمجاً^(١) ، وَحَوَاجِبَ زُجَا ،
يَسْحَبِينَ الثِّيَابَ ، وَيَسْلُبِينَ الْأَلْبَابَ » . (العقد الفرید ٢ : ٩٣ ، زهر الآداب ٣ : ١٧)

* * *

وذكر أعرابي نساء فقال : « ظَعَانٌ^(٢) فِي سَوَافِينٍ طَوِيلٍ ، غَيْرَ قَبِيحَاتِ
الْمَطُولِ^(٣) إِذَا مَشَيْنَ أَسْبُلْنَ الذُّيُولَ ، وَإِنْ رَكِبْنَ أَثْقَلْنَ الْحُمُولَ^(٤) » .
(زهر الآداب ٣ : ١٧)

* * *

وقال أعرابي : « لقد رأيت بالبصرة بُرُوداً كَأَنَّهَا صُبِغَتْ بِأَنْوَارِ الرَّبِيعِ ، فَهِيَ
تَرُوعُ^(٥) ، وَاللَّابِسُ لَهَا أَرُوعٌ » . (العقد الفرید ٢ : ٩٦)

* * *

وقال أعرابي : « شَيِّعْنَا الْحَيَّ وَفِيهِمْ أَدْوِيَةُ السَّقَامِ^(٦) ، فَفَرَّأْنَا بِالْحَدَقِ السَّلَامَ ،
وَخَرَسَتْ الْأَلْسُنُ عَنِ الْكَلَامِ » . (الأماك ٢ : ٥٠)

* * *

وسئلت أعرابية عن الهوى فقالت : « لَامُتُّعَ الْهَوَى بِمَلَكِهِ ، وَلَا مُلِيَّ^(٧) »

(١) دمجاً جمع دجاء، وصف من الدهج بالتحريك : وهو سواد العين مع سعتها . وزجاء جمع زجاء من الزجج بالتحريك أيضاً : وهو دقة الحاجبين في طول .

(٢) ظمأن جمع ظمينة : والظمينة في الأصل وصف للدرأة في هودجها ثم سميت بهذا الاسم وإن كانت في بيتها لأنها تصير مظعونة ، وهي فعيلة بمعنى مفعولة لأن زوجهما يظمن بها ، والسوالف جمع سالفة :

وهي ناحية مقدم العنق من لدن . ملق القرط إلى نقرة الترقوة . (٣) عطلت المرأة كفرح عطلا بالتحريك وعطولا : إذا لم يكن عليها حل . (٤) الحمول : الهواجج : أو الإبل عليها الهواجج جمع حمول بالسكر ويفتح . (٥) تعجب .

(٦) أي المحبوبات المداوية للسقام .

(٧) ملاء الله حبيبه تمليية : متمه به وأعاشه معه طويلا .

بسلطانه ، وَقَبَضَ اللهُ يده ، وأوهنَ عَضْدَه ، فإنه جائرٌ لا يُنصِفُ في حكم ، أعمى
لا ينطق بعدل ، ولا يُقَصِّرُ في ظلم ، ولا يعرَى لذم ، ولا ينقاد لحق ، ولا يُبقي
على عقل وفهم . لو ملكَ الهوى وَأَطِيع ، لردَّ الأمور على أدبارها ، والدنيا على أعقابها .

* * *

وسئل أعرابي عن الهوى فقال : « هو داءٌ تُدَاوِي به النفوس الصَّحَّاح ، وَتُسَلُّ منه
الأرواح ، وهو سُقْمٌ مُكْتَمٌ ، وَحَمِيمٌ ^(١) مُضْطَرَمٌ ، فالقلوب له مُنْضَجَةٌ ، والعيون ساكِبَةٌ . »
(زهر الآداب ٣ : ١٨)

* * *

ووصف أعرابي امرأةً يحبها فقال : « هي زينة الحُضُور ، وباب من أبواب
السرور ، وَلَدِ كَرُّها في المغيب ، والبعدِ عن الرقيب ، أشهى إلينا من كل ولد
وَنَسِيب ، وبها عُرِفَ فضل الحُجُور العين ، واشتقِقَ بها إليهن يومَ الدين . »
(زهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

* * *

ووصف أعرابي نساءً فقال :

« يَلْتَمِسْنَ على السَّبَائِكِ ^(٢) ، وَيَتَشَحَّنَ على النَّيَّازِكِ ^(٣) ، وَيَأْتِرْنَ على العَوَانِكِ ^(٤)
وَيَرْتَقِقْنَ على الأَرَائِكِ ^(٥) ، وَيَتَهَادِينَ على الدَّرَانِكِ ^(٦) ، ابتسامهن وميضٌ ،
عن وُلَيْعٍ كالإغْرِيضِ ^(٧) ، وهنَّ إلى الصَّبَا صُورٌ ، وعن أَلْفَا نُورٍ ^(٨) . »
(الأمال ١ : ٤٤ ، وزهر الآداب ٣ : ١٨)

-
- (١) الحميم : الماء الحار . وفي الأصل : « حمى » وأراه محرفاً عن حميم ، ويناسبه قوله بعد :
« والعيون ساكبة » .
- (٢) اللتام على الفم ، والقيام على طرف الأنف ، تلمت المرأة وتلفمت ، والسبائك هنا الأسنان شبهها
لبياضها بالسبائك . (٣) النيازك جمع نيزك كجعفر : وهو الرمح للقصير .
- (٤) العوانك جمع عانك : وهو رمل متعقد يشق فيه الجعير لا يقدر على السير .
- (٥) الأرائك جمع أريكة : وهي السرر أو الفرش ، وارتقت : اتكأ على مرفق يده ، أو على الخدة .
- (٦) يتهادين : يمشين مشياً ضميماً ، والدرانك : الطنافس جمع درنوك كجعفر ، ودونك كزبرج .
- (٧) الويض : العمان الخفي ، والوليع : الطلع ، كأنه نظم اللؤلؤ في شدة بياضه . قال الشاعر يصف
نفر امرأة : وتبسم عن نير كالوليع ، والإغريض : الطلع حين ينشق عنه كافوره ، والبرد (بقرتك للراء) .
- (٨) صور : موائل ، ومنه قيل للمائل للضيق أصور ، ونور : نوافرات من الرية جمع نوار كصحاب .

قولهم في الوصف

٦٥- أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سئل أعرابي عن مطر فقال :

« استقلَّ سُدٌّ مع انتشار الطفل^(١) ، فَشَصَا وَاحْرَأَل^(٢) ، ثم اكْفَهَرَتْ أَرْجَاؤُهُ ،
وَاحْمَوَتْ أَرْحَاؤُهُ ، وَابْدَعَرَتْ فَوَارِقُهُ^(٣) ، وَتَصَاحَكَتْ بَوَارِقُهُ ، وَاسْتَطَارَ وَادِقُهُ ، وَارْتَقَتْ
جُوبُهُ ، وَارْتَعَنَ هَيْدَبُهُ^(٤) ، وَحَشَكَتْ أَخْلَافُهُ ، وَاسْتَقَلَّتْ أَرَادِفُهُ ، وَانْتَشَرَتْ
أَكْنَافُهُ^(٥) ؛ فَالرَّعْدُ مُرْتَجِسٌ ، وَالْبَرْقُ مُخْتَلِسٌ ، وَالمَاءُ مُنْبَجِسٌ^(٦) ، فَاتُّرَعَّ
الْقُدْرُ ، وَانْتَبَثَ الْوَجْرُ^(٧) ، وَخَلَطَ الْأَوْعَالَ بِالْأَجَالَ ، وَقَرَنَ الصَّيْرَانَ بِالرِّثَالِ^(٨) ،

(١) استقل : ارتفع ، والسد : السحاب الذي يمد الأفق : والطفل : العشى إلى حد المغرب .

(٢) شصا : ارتفع ، واحرأل مثله . (٣) المكفهرة من السحاب : الذي يركب بعضه بعضا ،
وأرجاؤه : نواحيه جمع رجا كمصا ، واحموت : اسودت ، وأرجاؤه : أوساطه : جمع رجا كمصا ، وابدعرت
تفرقت : والفوارق جمع فارق ، وهو السحاب الذي ينقطع من معظم السحاب ، وأصله في الإبل ، يقال
ناقة فارق : وهي التي تندعن الإبل عند نتاجها .

(٤) استطار : انتشر ، واللودق الذي يكون فيه الودق (كشمس) وهو المطر العظيم القطر ، وارتقت
الأمات ، وجوبه : فرجه ، وارتعن : استرخى ، والهيدب : الأى يتدل ويدنو من الأرض مثل هذب اللقيفة
(٥) حشكت : امتلأت ، والأخلاف جمع خلف كحمل ، وهو لناقة كالفرع للبقرة ، أردافه : ماخيره
والأكناف : النواحي .

(٦) مرتجس : مصوت من الرجس كحمل وهو الصوت ، مختلس : كأنه يختلس البصر لشدة لمعانه ،
منبجس : منفجر .

(٧) أترع : ملأ والقدر جمع قدر ، والوجر جمع وجار ككتاب وسحاب : وهو جحر الضيق والشلب ،
وانتبث : أخرج نبيتها وهو تراب البئر والقبر ، أى أنه لشدة هدم الوجر حتى أخرج ما بداخلها من التراب

(٨) الأوعال جمع وعل ، (كشمس وكنف ودل) : التيس الجبلي ، والأجبال جمع أجل كحمل وهو
القطيع من البقر أى أنه لشدة جمع بين الوهول - وهي تسكن الجبال - وبين البقر - وهي تسكن للقيمان
والرمال ، والصيران جمع صوار كشجاع ، وصيار ككتاب وهو القطيع من البقر ، والرثال جمع رأل كشمس
فرخ النعام ، فالرثال تسكن الجله (بالتحريك وهي الأرض الصلبة المستوية المنن) والصيران تسكن الرمال
والقيمان ، فقرن بينهما .

فلأودية هدير، وللشراج خريز، وللتللاع زفير^(١)، وحطّ التنبع والنعيم، من القلل
الشم، إلى القيعان الصحم^(٢)، فلم يبق في القلل إلا مضمم مجرنثم، أو داحض
مجرجم^(٣)، وذلك من فضل رب العالمين، على عباده المذنبين « .
(الأمال : ١ : ١٧٣)

٦٦- أعرابي يصف مطراً

عن الأصمعي قال : سمعت أعرابياً من غنيّ يذكر مطراً أصاب^(٤) بلادهم في غيب
جدب قتال :

« تدارك ربك خلقه ، وقد كلبت الأبحال ، وتناصرت الآمال ، وعسكف
الياس ، وكظمت الأنفاس ، وأصبح الماشي مضرمًا^(٥) ، والترب مُعدّما ، وجفيت
الحلائل ، وامتهنت العقائل ، فأنشأ سحاباً ركامًا^(٦) ، كنهوراً سجّاماً ، برُوقه
متألّقة ، ورعوده متتقعة ، فسح ساجياً^(٧) راكداً ، ثلاثاً غير ذى فواق ، ثم أمر
ربك الشمال ، فطحرت^(٨) ركامه ، وفرقت جهامه ، فانثشع محموداً ، وقد أحيا

(١) هدير : أي صوت كهدير الابل ، الشراج جمع شرح كشمس وهو مسيل الماء من الحرة إلى السهل .
والتللاع : مسايل الماء من الجبال حتى ينصب في الوادي . (٢) التبع : شجر يفخذ منه القسي يثبت في
الجبال ، والنعيم : الزيتون الجبل كقفل وعتق ، والقلل : أهال الجبال جمع قلة كفرصة ، والشم : المرتفعة
جمع شماء والقيعان جمع قاع : وهي أرض سهلة مطبنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ، والصحم : التي نطوها
حرة جمع اصحم . (٣) المضمم : الذي قد تمسك بالجبال وامتنع فيها (ويقال للرجل الذي يمسك بعرف فرسه
خوف السقوط : مضمم) مجرنثم : متقبض ، الداحض : الذي يفحص برجليه عند الموت ، والمجرجم : المصروع .
(٤) صاب : جاد ، وكلبت : اشتدت ، والأبحال جمع محل كشمس وهو القمط . وعسكف : أقام .
(٥) الماشي : صاحب الماشية ، مشى الرجل وأمشى : كثرت ماشيته ، والمصرم : المقارب المال المقل ،
والترب لغني الذي له المال مثل التراب كثرة ، يقال : أرب الرجل إذا كثرت ماله (وقل أيضاً : ضه)
وترب كفرح إذا افتقر كأنه لصق بالتراب ، وامتهنت : استخدمت واعملت ، والعقائل جمع عقيلة ، وأنشأ
أحدث ، والنش : للسحاب أول ما يخرج .
(٦) الركام : المترام ، والكنهور من السحاب قطع كأنها الجبال ، أو المترام منه ، واحده كنهورة ،
وسجّام : صباب ، ومتألّقة : لامة ، ومتتقعة : مصوقة .

(٧) سح : صب ، ساجياً : ساكناً ، راكداً : ثابتاً ، والفواق : أن يصب صبة ثم يسكن ، ثم يصب
أخرى ثم يسكن مأخوذ من فواق الناقة وهو ما بين الحلبين ، كأنه يحلب حلبه ثم يسكن ، ثم يحلب أخرى
ثم يسكن . (٨) طحرت : أذهبت وأهدت ، والجهم : السحاب الذي قد هراق ماءه ، تكث : تحصى .

وأعنى ، وجاد فأروى ، والحمد لله الذى لآتكت نعمة ، ولا تنفد قسمة ، ولا يحيب
سائله ، ولا ينزر^(١) نائله .
(الامال : ١ : ١٧٦)

٦٧- أعرابي يصف مطرا

عن الأصمى قال : « سألت أعرابياً من بنى عامر بن صعصعة عن مطر صاب
بلادم فقال :

« نشأ عارضاً^(٢) ، فطلع ناهضاً ، ثم ابتسم واميضاً ، فأعس في الأقطار فأسجأها ، وامتدَّ
في الآفاق فغطاها ، ثم ارتجز^(٣) فهمهم ، ثم دوى فأظلم ، فأرك وادث ، وبفش وطش
ثم قطط^(٤) فأفرط ، ثم ديم فأغط ، ثم ركذ فأنجم ، ثم وبل فسجيم ، وجاد فأنعم ،
فقمس الرباباً^(٥) وأفرط الزبي ، سبغاً تباغاً ، ما يريد انقشاماً ، حتى إذا توت الخزون^(٦)
وتضحضحت المتون ، ساقه ربك إلى حيث شاء ، كما جلبه من حيث شاء .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٤٩)

(١) ينزر : يقل ، ومنه قيل : امرأة زور : إذا كانت قليلة الولد .

(٢) العارض : السحاب المعترض في الأفق ، وومض البرق كوهده ، لمع خفيفاً ، ولم أجد في كتب اللغة
« أعس » وإنما الذى فيها « عمس السحاب : دنا من الأرض » وأسجأها : غطأها ، وق الأصل وأسجأها
بالماء وهو تصحيف . (٣) ارتجز الرعد : صات ، وارتجز السحاب : تحرك بطيئاً لكثرة مائه ،
وههم الرعد : إذا سمعت له دويماً ، والمهممة : كل صوت معه ببح ، وأرك : أتى بالرك (بفتح الراء ويكسر)
وهو المطر القليل أو هو فوق الدث ، والداث بالفتح : المطر الضعيف ، واليشة بالفتح : المطرة الضعيفة
وقد بغشت السماء كنع ، والطنش : المطر الضعيف وهو فوق الرذاذ ، طشت السماء كنصر وضرب .

(٤) القطط بالكسر : المطر المتتابع العظيم القطر ، وقد قططت السماء ، والديمة بالكسر : مطر
يدوم في سكوه بلا رعد وبرق ، أو يوم أياماً ، وقد ديمت السماء . أغط : دام ولازم ، وأنجمت
السماء : أسرع مطرها ودام ، واللويل : المطر الشديد للضخم القطر ، وقد وبلت السماء كوهده : أمطرت ،
وسجم كدخل : سال وانصب . (٥) قس الربابا : كنصر وضرب : غوصها ، وأفرطها : ملاها
حتى فاضت ، والزبي جمع زبية كفرصة ، وهى الراية لا يعلوها الماء ، وحفرة تحفر لصيد الأسد (وهو
المراد هنا) سميت بذلك لأنهم كانوا يحفرونها في موضع عال .

(٦) الخزون جمع حزن كشمس وهو الغليظ من الأرض ، والمتون جمع متن كشمس : وهو ماصلب من
الأرض وارفع ، والضحضح والمنضضح والضحضاح : الماء القليل ، وقيل هو مالا غرق فيه ، وقيل هو
الماء إلى السكبين أو إلى أنصاف السوق - وفي لغة هذيل الكثير - وقد تضحضح الماء ، والتضحضح
أيضاً جرى للسراب ، تضحضح إذا ترقرق .

٦٨ - ثلاثة غلثة من الأعراب يصفون مطرا

عن الأصمعي قال : مررت بـغِلْغِلَة من الأعراب يتماقلون^(١) في غدير ، فقلت لهم : أياكم يصفلي الغَيْث وأعطيه دِرْهما ؟ فخرجوا إلىَّ فقالوا : كلنا ، وهم ثلاثة ، فقلت لهم : صِفُوا ، فأياكم ارتضيت وضمَّه أعطيته الدرهم ، فقال أحدهم :

« عَنَّا لَنَا عَارِضٌ قَصْرًا^(٢) ، تسوقه الصَّبَا ، وتحدوه الجنُوب ، يحبو حَبُو الْمُعْتَنِكِ^(٣) ، حتى إذا اَزَلَّامَتْ^(٤) صدوره ، وانتحت خُصُورُهُ ، وَرَجَّعَ هَدِيرُهُ ، وَصَمَقَ زَيْبُهُ ، واستقل نَشَاصُهُ^(٥) ، وتَلَامَّ خِصَاصُهُ ، وارتعج ارتعاصُهُ ، وأوفدت سِقَابُهُ^(٦) ، وامتدت أطنابُهُ ، تدارك وَذَقَهُ ، وتَأَلَّقَ بَرَقَهُ ، وَحَفَزَتْ تَوَالِيَهُ^(٧) ، وَأَنْسَفَحَتْ عَزَالِيَهُ ، فغادر التَّرِيَّ عَمْدًا^(٨) ، والعَزَازَ تَهْدِيًا ، وَالْحَثَّ عِقْدًا^(٩) ، وَالضَّحَّاضِحَ مُتَوَاصِيَةً ، وَالشَّعَابَ مُتَدَاعِيَةً » .

(١) يتماقلون في الماء . (٢) عن : عرض ، والقصر : العشى ، والصبأ : ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار . (٣) عنك الرمل كنصر : تمعد وارتفع فلم يكن فيه طريق ، ورملة هانك : فيها في تمعد لا يقدر البعير على المشي فيها إلا أن يحبو ، واعتنك البعير واستعنك : حيا في المانك فلم يقدر على السير . وقال رؤبة : أوديت إن لم تحب حبو المعتنك .

(٤) ازلامت : ارتفعت ، والحصور جمع خصر : وهو وهط الإنسان ، والترجيع : ترديد الصوت في الحلق . (٥) النشاص ككتاب وصحاب : السحاب المرتفع ، أو المرتفع بفضه فوق بعض وخصاصه : فرجه ، وأصله الفرج بين الأثافي والثقب الصغير وكل خلل أو خرق في باب ومتخل وبرقع ونحوه ، وارتعج : ارتعد ، وارتعص : تلوى وانفض ، وارتعص الرمح : اشتد اهتزازه .

(٦) أوفدت : أشرفت ، والمعقاب جمع سقب كشمس وهو عود الخباء ، والأطناب جمع طناب كتمنق وهو حبل طويل يشد به الوتد . (٧) حفزه كضربه : دفعه من خلفه ، والتوالي : الأجزاء والمآخير ، والعزالي بكسر اللام وفتحها جمع عزلاء : وهي مصب الماء من الراوية ونحوها ، وانسفحت : انصبت ، من سفح الدم أراقه . (٨) عمد التري كفرج : بلله المطر حتى إذا قبضت عليه تمعد لندوته ، والعزاز : الأرض الصلبة مكان نند : ند من الشاد بالضمريك وهو الندى . (٩) الحث : اليابس الخشن من الرمل ، والمعقد ككتنف وجبل : ماتمعد من الرمل وتراكم ، والضحاضح كجعفر والضحاضح : الماء ليسير ، متواصية : متواصلة ، والشباب : شعبة كفرصة : وهي المسيل في الرمل ، وما عظم من سواق الأودية ، وصدع في الجبل يأوى إليه المطر .

وقال الآخر : « تَرَأَتِ الْمَخَابِلَ ^(١) مِنَ الْأَقْطَارِ ، تَحِنُّ حَيْنَ الْعِشَارِ ، وَتَتَرَامِي بِشُهْبِ النَّارِ ، قَوَاعِدُهَا مِتْلَاحِكَةٌ ^(٢) ، وَبَوَاسِقُهَا مِتْضَاحِكَةٌ ، وَأَرْجَاؤُهَا مِتْقَازِفَةٌ ، وَأَمْجَازُهَا مُتْرَادِفَةٌ ، وَأَرْحَاؤُهَا مُتْرَاصِفَةٌ ، فَوَصَلَتْ الْغَرْبَ بِالشَّرْقِ ، وَالْوَيْلَ بِالْوَدْقِ ، سَحًّا دَرًّا كَأَنَّ ^(٣) ، مُتْتَابِعًا لَكَا كَا ، فَضَحَضَحَتِ الْجَفَاجِفَ ^(٤) ، وَأَنْهَرَتِ الصَّفَافِيفَ ، وَحَوَّضَتِ الْأَصَالِفَ ، ثُمَّ أَقْلَعَتِ مَحْمُودَةَ الْأَثَارِ ، مَوْمُوقَةَ الْخِيَارِ » .

فقال الثالث : وَاللَّهِ مَا خَلَّتْهُ بَلَغٌ خُمْسًا ، فَقَالَ : هَلُمَّ الدَّرْهَمَ أَصْفِيهِ لَكَ ، فَقُلْتُ : لَا ، أَوْ تَقُولُ كَمَا قَالَا ، قَالَ : لِأَبْدَنِيهِمَا ^(٥) وَصَفًا ، وَلَا تُوقِفِنِيهِمَا رَصْفًا ، فَقُلْتُ : هَاتِ لِي أَبُوكَ ، فَقَالَ : « بَيْنَمَا الْحَاضِرُ بَيْنَ الْبَاسِ وَالْإِبْلَاسِ ، قَدْ غَمَّرَ الْإِشْفَاقُ ، رَهْبَةً الْإِمْلَاقِ ، وَقَدْ جَفَّتِ الْأَنْوَاءُ ^(٦) ، وَرَفَرَفَ الْبِلَاءُ ، وَاسْتَوْلَى الْقُنُوطُ عَلَى الْقُلُوبِ ، وَكَثُرَ الْاسْتِغْفَارُ مِنَ الذَّنُوبِ ، ارْتَاحَ رَبِّكَ لِعِبَادِهِ ، فَأَنْشَأَ سَحَابًا مُسْتَجْهِرًا ^(٧) كَنْهَوْرًا مُعْتَوِنِكَا مُخْلَوْلِكَا ، ثُمَّ اسْتَقَلَّ وَاحْزَلَّ ، فَصَارَ كَالسَّمَاءِ دُونَ السَّمَاءِ ،

- (١) مخابيل جمع مخيلة « بضم الميم وكسر الخاء » والمخيلة والمخيلة « بتشديد الياء المكسورة » والسحابة التي تحسبها ماطرة ، والعشار جمع عشراء ككنفساء : وهي الناقة التي مضى حملها عشرة أشهر أو ثمانية ، أو هي كالثفساء من النساء ، والشهب جمع شهاب كككتاب : وهو شعلة من نار ساطعة .
- (٢) قواعدها : أسافلها ، وأصله من قواعد البيت : أي أساسه ، متلاحكة : أي قد اشتد التماسها ، والمتلاحكة : الناقة الشديدة الخلق ، وبواسقها : أعاليها جمع باسقة ، من بسق : أي طال وارتفع ، ومتضاحكة أي يضحك فيها برقها ، متقاذفة : أي يقدف بعضها بعضا بالمطر ، وأرجاؤها : أوساطها ، متراصفة : متراكة قد رصف بعضها فوق بعض . (٣) أي صبا متتابعة ، ولكا كا : متزاها من السكاك ككتاب وهو لاجرام .
- (٤) الجفاجيف جمع جفجف كجفجر : وهي الأرض المرتفعة ليست بالفيلطة ، وضخصتها : جعلت فيها ضخاصح والصفاصيف جمع صففصف كجفجر : وهو المستوى من الأرض ، وأنهر الماء : أساله ، والأصلف والصفلاء : ما صلب من الأرض ، والجمع أصالف ، وحوضت جعلت فيها حياضًا .
- (٥) بذة : فاتته وغلبه ، والحاضر : ساكن الحضر ، والباس : العذاب والشدة ، والإبلاس : التغير واليأس : والإشفاق : الخوف ، والإملاق : الفاقة . (٦) الأنواء جمع نوء : وهو في الأصل سقوط النجم في المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله في ساعته من المشرق ، وكانت العرب تصيف الأمطار والرياح الحار والبرد إليها . (٧) مستجهرًا : لم أجده هذه الكلمة في كتب اللغة ، وربما كان الأصل : مستهراً « من استهبر الشيء إذا اتسع ، والمخلولك : الشديد للسواد ، وقد تقدم معنى اعتنك واستعتك : واعتونك أفعول من هذه المادة ، ولم أجده في كتب اللغة .

وكالأرض المدخوة^(١) في لُوح الهواء ، فأحسب السهول وأتأق الهجول ، وأحيا
الرجاء ، وأمات الضراء ، وذلك من فضل رب العالمين .

قال : فلا والله اليفعُ صدرى ، فأعطيت كل واحدٍ درهما ، وكتبت كلامهم .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٢)

٦٩ — أعرابي يصف مطرا

عن الأصمعي قال : سألت أعرابيا عن مطر صابهم بعد جذب فقال :

« ارتاح لنا ربك بعد ما استولى على الظنون ، وخامر القلب القنوط ، فأنشأ
بنو الجبهة^(٢) قزعة كالفرض من قبل العين ، فاحزأت عند ترجل النهار ،
لإزيم السرار^(٣) ، حتى إذا نهضت في الأفق طالعة ، أمر مسخرها الجنوب
فتنسمت لها ، فانتشرت أحضانها ، وأحموت أركانها ، وبسق عنانها^(٤) ، واكفهرت
رحاها ، وانبعجت كلاًها ، وذمرت أخراها أولها ، ثم استطارت عقائقها ،
وتفققعت صواعقها ، ثم ارتفعت^(٥) جوانبها ، وتداعت سواكبها ، ودرت حوالها
فكانت الأرض طبقا^(٦) سح فهضب ، وعم فأحسب ، قعل القيعان ، وضخضح

(١) الميوسطة ، واللوح : الهواء وأحسبها : أدواها ، من أحسبه إذا أطعمه وسقاه حتى شبع
وروى ، وأتأق : ملأ ، والهجول جمع هجل كشمس : وهو المطمئن من الأرض ، واليفع واليافع :
الشاب .

(٢) الجبهة : منزل للقمرة ، قزعة : قطعة من السحاب ، والفرض : الترس ، والعين : القبلة ، وترجل
النهار : ارتفع .

(٣) الإزيم : لياة من ليالي الخاق — والحاق مثلثة : ثلاث ليالٍ من آخر الشهر ، والسرار :
آخر ليلة من الشهر ، وأحضانها جمع حضان كحمل : وهو جانب الشيء وناحيته ، واحموت : أسودت .

(٤) بسق : ارتفع ، والعنان : السحاب ، رحاها : وسطها ، وانبعجت : انشقت ، والكلية من
السحاب : أسفله — ومن المزادة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة ، وذمرت : حضت — والتدامر :
التحاض على القتال ، عقائقها بروقها المشبهة للعقائق .

(٥) ارتعن المطر : ثبت وجاد . (٦) غيث طبق : هام واسع يطبق الأرض ، وهضب كضرب :

مطر .

النَيْطَان ، وَجَوَّحَ الْأَصْوَاجَ^(١) ، وَأَتْرَعَ الشَّرَاجَ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ كِفَاءً إِسَاءَتَنَا إِحْسَانًا ، وَجَزَاءَ ظَلَمْنَا غُفْرَانًا .
(بلوغ الأرب ٢ : ٢٥٢)

٧- أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابيا من بني عامر بن لؤي بن صعصعة يصف مطراً فقال :

« نَشَأُ عِنْدَ الْقَصْرِ ، بِنَوَى الْعَفْرِ^(٢) ، حَبِيْبًا عَارِضًا ، ضَاحِكًا وَامِضًا ، فَكَلَّا وَلَا^(٣) مَا كَانَ ، حَتَّى شَجَبْتِ بِهِ أَقْطَارُ الْهَوَاءِ ، وَاحْتَجَبَتْ بِهِ السَّمَاءُ ، ثُمَّ أَطْرَقَ^(٤) فَكَفَهَرَ ، وَتَرَكَمْ فَادْلَهَمَ ، وَبَسَقَ فَازْلَامَ ، ثُمَّ حَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ، فَحَنَّ ، فَالْبَرْقُ مَرْتَبِجٌ ، وَالرَّعْدُ مُتَبَوِّجٌ^(٥) ، وَالْخُرْجُ مُتَبَعِّجٌ ، فَأَنْجَمَ ثَلَاثًا ، مُتَحَيِّرًا هَهْنَاءًا^(٦) ، أَخْلَافُهُ حَاشِكَةٌ ، وَدَفَعَهُ مَتَوَاشِكَةٌ ، وَسَوَّامُهُ مَتَعَارِكَةٌ ، ثُمَّ وَدَّعَ مُنْجِمًا^(٧) ، وَأَقْلَعَ مَتَهْمًا ، مَجْمُودَ الْبَلَاءِ ، مُتْرِعَ النَّهَاءِ ، مُشْكُورَ النَّعْمَاءِ ، بِطَوَّلِ^(٨) ذِي الْكِبْرِيَاءِ .

(بلوغ الأرب ٢ : ٢٥٤)

(١) جَوْحُ السَّيْلِ الْوَادِي : إِذَا كَسَرَ جَنْبَيْهِ وَاقْتَلَعَ أَجْرَافَهُ ، وَفِي الْأَصْلِ « جَوْحٌ » وَهُوَ تَصْحِيفٌ . وَالْأَصْوَاجُ جَمْعُ ضَوْجٍ كَشَمْسٍ : وَهُوَ مَنَعَطُ الْوَادِي ، وَالشَّرَاجُ جَمْعُ شَرَجٍ كَشَمْسٍ أَيْضًا : وَهُوَ مَسِيلُ الْمَاءِ مِنَ الْحَرَّةِ (بِفَتْحِ الْحَاءِ) إِلَى الْمَهْلِ .

(٢) الْقَصْرُ : الْعَشِي ، وَالْعَفْرُ : مَنَزَلٌ لِلْقَمَرِ ، وَالْحَبِيْبُ : السَّحَابُ يَشْرَفُ مِنَ الْأَفْقِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَأَوَّلِي يَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ . (٣) قَالَ فِي اللَّسَانِ : « وَالرَّعْبُ إِذَا أَرَادُوا تَقْلِيلَ مَدَّةِ فِعْلٍ أَوْ ظَهُورِ شَيْءٍ خَفِيَ قَالُوا : كَانَ فَعْلُهُ كَلَاهُ وَرَبَّمَا كَرَّرُوا فَقَالُوا كَلَا وَلَا ، قَالَ الشَّاعِرُ : يَكُونُ زَوْلُ الْقَوْمِ فِيهَا كَلَا وَلَا ، » وَالشَّجَا : مَا اعْتَرَضَ فِي الْخَلْقِ مِنْ عَظْمٍ وَنَحْوِهِ ، وَقَدْ شَجِيَ بِهِ كَرَضِي .

(٤) هُوَ مِنْ أَطْرَقَتِ الْإِبِلُ : تَبِعَ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَادْلَهَمَ : اسْوَدَّ .

(٥) التَّبَوُّجُ : الصِّيَاحُ ، وَالْخُرْجُ : السَّحَابُ أَوَّلُ مَا يَنْشَأُ ، مُتَبَعِّجٌ : مُتَشَقِّقٌ .

(٦) الْمَهْمَاتُ : السَّرِيعُ ، حَاشِكَةٌ : كَثِيرَةُ الْمَاءِ ، مَتَوَاشِكَةٌ : يَسَارِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَالسَّوَامُ : الْإِبِلُ الرَّاعِيَةُ .

(٧) أَنْجَمَ الْمَطَرَ وَغَيْرَهُ : أَقْلَعَ ، وَمَتَهْمًا : أَي سَاطِرًا نَحْوَ تَهَامَةٍ ، وَالنَّهَاءُ جَمْعُ نَهْيٍ بِالسَّكْسَرِ وَالْفَتْحِ وَهُوَ الْقَدِيرُ .

(٨) أَي بِفَضْلِهِ وَقُدْرَتِهِ .

٧١ - أعرابي يصف مطرا

عن أبي عبيدة قال : خرج النعمان في بعض أيامه في عَقبِ سماء ، فلقى أعرابياً على ناقة ، فأمر فأتى به ، قال : كيف تركت الأرض ورائك ؟ فقال :

« فِيحٌ رُحَابٌ ^(١) ، منها السهولُ ومنها الصَّعَابُ ، منشوطةٌ بِجِبالِها ، حاملةٌ

لأثقالِها » ، قال : إنما سألتك عن السماء ! قال :

« مُطَلَّةٌ ^(٢) مستَقِلَّةٌ ، على غير سِقَابٍ ولا أَطْنابٍ ، يَخْتَلِفُ عَضْرَها ، ويتعاقب

سِرَاجَها ، قال : ليس عن هذا أسألك ! قال : كَفَسَلٌ ما بَدَا لك ، قال : هل صَابَ الأرضَ غَيْثٌ ؟ قال :

« نعم : أَغْمَطت ^(٣) السماء في أرضنا ثلاثاً رَهْواً ، فَثَرَّتْ وَأَرْزَعَتْ ، وَرَسَعَتْ ،

ثم خرجتُ من أرض قومي أقرؤها ^(٤) ، فإذا هي مُتَوَاصِيَةٌ ، لا خَطِيئَةَ بينها ، حتى هبَّتْ

بِعِشَارٍ ، فتداعى السحابُ من الأقطار ، فجاءنا بالسيلِ الخَرَّارِ ، ففعا ^(٥) الآثَارَ ، وملاً

الجفارَ ، وَقَوَّرَ عَالِيَ الأشجارِ ، فأَجْجَرَ الحُضارَ ، ومنع السُّفارَ ، ثم أَقْلَعَ عن نفع

وإضرار ، فلما اتلَّابَتْ ^(٦) لى الأقيعان ، ووضِحتِ السُّبُلُ في الغيطان ، وفات الأعتانُ ،

من أقطار الأعتان ، فلم أجد وَزراً إلا الغيران ، ففات وِجار الضُّبعِ ، ففادرتُ السهول

(١) فيح جمع فيحاء : واسعة ، وكذا رحاب ، منشوطة : مشدودة ، من نشط الجبل كنصر عقده (وأنشطه : حله) . (٢) مطلة : مرتفعة ، وكذا مستقلة ، والسقاب جمع سقب كشمس : وهو عمود الحباء ،

والمصران : الليل والنهار ، وسراجها : الشمس والقمر . (٣) أى دامت ولازمت ، والرهو : السكون والثرة من العيون : الغزيرة كالثرثرة ، وقد ثرت هى ، والرزغة بالتحريك : الوحل ، وأرزغ المطر الأرض بها ولم تسل ، ورسغ المطر : كثر وثرى الأرض حتى تبلغ يده الحافر عنه إلى أرساغه .

(٤) أتبعها ، والخطيطة : الأرض لم تمطر بين مطورتين ، أو التي مطر بعضها ، وعشار : موضع .

(٥) محاهها وطمسها ، والجفار جمع جفر كشمس : البئر التي لم تطو ، وقورها : قطع من وسطها خرقاً مستديراً ، وأججر ، من أججر الضب : أى أدخله في جحره ، والحضار جمع حاضر وهو المقيم في الحضر ،

والسفار جمع سافر وهو المسافر لا فعل له . (٦) استقامت ، والنعمان : السحاب ، والأعتان من السماء : نواحيها ، والوزر الملقب ، والغيران جمع غار : وهو الكهف في الجبل ، والوجار بالكسر والفتح : جحر الضبع وغيرها .

كالبحار ، تتلاطم بالتيار ، والحزون متلعةً بالفتاء^(١) ، والوحوش مقذوفة على الأرجاء ، فازلت أطماً السماء ، وأخوض الماء ، حتى وطيئت أرضكم .
(بلوغ الأرب ٣: ٢٥٧)

٧٢ - أعرابي يصف مطرا

عن أبي عبيدة قال : وقف أعرابي على قوم من الحجاج فقال :
« يا قومي بدا شأني ، والذي ألفتني^(٢) إلى مسألتكم ، إن الغيث كان قد قوى عناً
نم تكرفاً السحاب ، وشصاً الرباب ، وأدلهم سيقه^(٣) ، فارتجس ريقه ، وقلنا :
هذا عام بكر أوسمي^(٤) ، محمود السعي ، ثم هبت له الشمال ، فأخزأت طخاريره^(٥) ،
وتفرزع كرفنه متباشراً ، ثم تتابع لمعان البرق ، حيث تشيمه الأبصار ، وتجدده النظار ،
ومرت^(٦) الجنوب ماءه ، فقووض الحى مزلثمين نحوه ، فسرحنا المال فيه وكان
ونحماً وخيماً ، فأساف المال ، وأضف الحلال ، فرحم الله امرأ جاد بمير ، أو دل
على خير » .
(بلوغ الأرب ٣: ٢٥٨)

٧٣ - أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال :
قال أبو مجيب - وكان أعرابياً من بني ربيعة بن مالك - : « لقد رأيتنا في أرضٍ

(١) الفتاء : البالي من ورق الشجر المخالط لزبد السيل .
(٢) ألفتني ، وقوى المطر : احتبس ، وتكرفاً : تراكم ، وشصاً : ارتفع ، والرباب : السحاب الأبيض
(٣) ادلم : اسود ، والسيق : السحاب لا ماء فيه ، والريق : تردد الماء على وجه الأرض .
(٤) الوسمى : مطر الربيع الأول ، سمى بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات ، والسمى جمع سماء : وهو المطر
أو المطرة الجيدة . (٥) الطخارير جمع طخروو كمصفور بالخاء والحاء : الطاخ من السحاب ، والكرفه :
السحاب المرتفع المتراكم ، وتفرزع وإنقشع ، وشام البرق : نظر إليه أين يقصه .
(٦) هو من مرى للناقة كرمى : مسح ضرعها لتدر ، مزلثمين : ماضين مرتحلين إليه ، وأساف المال :
أهلكه ، والسواف كجبان وشجاع : الموت في الناس والمال ، ساف سوفاً أى هلك ، وأسافه الله ، ويقال
أيضاً أساف الرجل : وقع في ماله السواف أى الموت : وأضف من الضفف كسبب وهو الضيق والشدة ،
أصابهم من العيش ضفف أى شدة .

عَجْفَاء^(١) ، وزمان أَعْجَفَ ، وشجر أَعْسَمَ ، في قُفٍّ غليظ ، فبينما نحن كذلك ، إذ أنشأ الله تعالى من السماء غيثاً مُسْتَكْفِئاً^(٢) نَشْوَهُ ، مُسَبِّلَةً عَزَالِيَهُ ، ضِخَامًا قَطْرُهُ ، جَوْدًا صَوْبُهُ زَاكِيًا ، أنزله الله تعالى رزقاً لنا ، فَعَيْشَ بِهِ أَمْوَالَنَا ، وَوَصَلَ بِهِ طَرْقَنَا ، وَأَصَابَنَا وَإِنَّا لَبِنَوَطَةٌ^(٣) بَعِيدَةُ الْأَرْجَاءِ ، فَاهْرَمَعَ مَطْرُهَا ، حَتَّى رَأَيْتُنَا وَمَا نَرَى غَيْرَ السَّمَاءِ وَالْمَاءِ وَضَهَوَاتِ الطَّلْحِ^(٤) ، وَضَرَبَ السَّيْلُ النَّجَافَ ، وَمَلَأَ الْأَوْدِيَةَ فَزَعَبَهَا ، فَمَا لَبِثْنَا إِلَّا عَشْرًا ، حَتَّى رَأَيْتَهَا رَوْضَةً تَنْدَى . (بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٩)

٧٤- أعرابي يصف مطرا

ودخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك فقال :

« أصابتك سماءٌ في وجهك يا أعرابي » ، قال : « نعم يا أمير المؤمنين ، غير أنها سَحَاءٌ طَحْنَاءٌ وَطَفَاءٌ^(٥) ، كَأَنَّ هَوَادِيَهَا الدَّلَاءُ ، مُرْجِحَةٌ النَّوَاحِي ، مَوْصُولَةٌ بِالْأَكَامِ تَكَادُ تَمَسُّ هَامَ الرِّجَالِ ، كَثِيرٌ زَجَلُهَا^(٦) ، قَاصِفٌ رَعْدُهَا ، خَاطِفٌ^(٧) بَرَقِهَا ، حَنِيثٌ وَدَقُّهَا ، بَطِيءٌ مَسِيرُهَا ، مُشْعَنْجِرٌ قَطْرُهَا ، مَظْلِمٌ نَوُوءُهَا ، قَدْ لَجِثْتُ الْوَحْشَ إِلَى أَوْطَانِهَا ، تَبْحَثُ عَنْ أَصُولِهَا بِأُظْلَافِهَا ، مَتَجَمِّعَةٌ بَعْدَ شَتَاتِهَا ، فَلَوْلَا اعْتِصَامُنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) ليس بها نبات ، وأصله من العجف بالتحريك وهو الهزال ، وأعسم : يابس ، وأصله من العسم بالتحريك وهو يبس في مفصل اللرسخ تعوج منه اليد والقدم ، والقف ، ما غلظ من الأرض وارتفع ، لم يبلغ أن يكون جبلا ، وأنشأ الله السحاب : رفعه . (٢) مستكفا : مستديرا كالسكفة ، (والسكفة بالسكسر وبضم كل مستدير) ، وصوبه : مطره . (٣) الثنوة : الأرض يكثر بها الطلح (والطلح : شجر عظام) والموضع المرتفع عن الماء ، أو ليس به واد ولا تلمعة بل بين ذلك ، واهرع : كثر وأمرع . (٤) الضهوة : بركة الماء ، والنجاف جمع نجف بالتحريك وبهاء : مكان لا يملوه الماء ، أو هي أرض مستديرة مشرفة على ما حولها ، وزعها : ملاحها .

(٥) سحابة وطفاء : مسترخية لكثرة ماؤها ، أو هي الدائمة للسح الخشبية ، هواديا : أوائلها ومقادمها ، مرجحة : ثقيلة مهتزة (٦) الزجل : الجلبة ورفع الصوت ، مشعجر : سائل منسوب ، ولجا إليه كنع وفرح ، وأظلاف جمع ظلف بالسكسر وهو للبقرة والشاة والظبي وشبهها كالقدم لنا ، والفتن جمع فنة ، وهي قبة الجبل . (٧) زدت هذه الكلمة كي يستقيم بها الكلام والظاهر أنها سقطت من الأصل في الطبع .

بِعِضَاءِ الشَّجَرِ ، وَتَمَلَّقْنَا بُقَيْنَ الْجِبَالِ ، لَكِنَّا جُنَاءٌ^(١) فِي بَعْضِ الْأُودِيَةِ ، وَتَلَمَّمِ الطَّرِيقِ ، فَاطَّلَ اللَّهُ لِلْأُمَّةِ بَقَاءَكَ ، وَنَسَأَ لَهَا فِي أَجَلِكَ بِيَرَكَتِكَ ، وَعَادَ اللَّهُ بِكَ عَلَى رَعِيَّتِكَ ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ .

فَقَالَ سَلِيمَانُ : « لَمَّعَرُ أَيْبِكَ لَنَنْ كَانَتْ بَدِيهَةٌ لَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِنْ كَانَتْ مُحَبَّرَةً لَقَدْ أَجَدْتَ » قَالَ : بَلْ مُحَبَّرَةٌ مَهْدُورَةٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : « يَا غَلَامُ أَعْطِهِ ، فَوَاللَّهِ لَصِدْقُهُ أَعْجَبُ إِلَيْنَا مِنْ صِفَتِهِ » .

(العقد الفريد ٢ : ٩٦)

٧٥- أعرابية تصف مطرا

عَنِ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ : « كَانَ شَيْخٌ مِنَ الْأَعْرَابِ فِي خِيَابِهِ ، وَابْنَةٌ لَهُ بِالْفِئَاءِ^(٢) ، إِذْ سَمِعَ رَعْدًا فَقَالَ : مَا تَرَيْنِ يَا بِنْتِي ؟ قَالَتْ : أَرَاهَا حَوَاءَ قَرَحَاءٍ^(٣) ، كَأَنَّهَا أَقْرَابُ^(٤) أَتَانِ قَرَاءٍ ، ثُمَّ سَمِعَ رَاعِدَةً أُخْرَى فَقَالَ : كَيْفَ تَرِينَهَا ؟ قَالَتْ : أَرَاهَا حَجَّةَ التَّرْجَافِ^(٥) مَتَسَاقِطَةَ الْأَكْنَفِ ، تَتَأَلَّقُ بِالْبُرْقِ الْوَلَّافِ ، قَالَ : هَلُمَّ الْمِعْرَفَةَ ، ائْتِنِي^(٥) نُؤْيَا .

(بلوغ الأرب ٢ : ٢٥١)

٧٦- أعرابية تضيف مطرا

عَنِ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ : كَانَ أَعْرَابِيٌّ ضَرِيرٌ تَقْوَدُهُ ابْنَتُهُ ، وَهِيَ تَرَعِي غُنَيْمَاتِهَا ، فَرَأَتْ سَحَابًا فَقَالَتْ : يَا أَبْتَ جَاءَ تَكُ السَّمَاءِ ، فَقَالَ : كَيْفَ تَرِينَهَا ؟ قَالَتْ : كَأَنَّهَا فَرَسٌ دَهْمَاءٌ^(٦) تَجْرُ جِلَالَهَا ، قَالَ : ارْعَى غُنَيْمَاتِكَ ، فَرَعَتْ مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَتْ : يَا أَبْتَ جَاءَ تَكُ السَّمَاءِ ، قَالَ : كَيْفَ تَرِينَهَا ؟ قَالَتْ : كَأَنَّهَا عَيْنٌ جَمَلٌ طَرِيفٌ^(٧) قَالَ : ارْعَى

(١) الجفَاء : الزبد ، ولقمة الطريق : معظمه ووسطه ، وفي الأصل : ه لغم ه وهو تحريف .
 (٢) للفئاء : ما اتسع أمام الدار . (٣) حواء : وصف من الحوة بالضم وهي حرة إلى السواد ، والقرحة بالضم : وجه الفرس دون الثرة ، والوصف منه أفرح وقرحاء ، والأقرب جمع قرب كقفل وعتق : وهو الحاصرة ، والقمرة بالضم : بواض فيه كدرة ، حمار أقر ، وأتان قرأه .
 (٤) كثيرة الاضطراب ، الولاف : المتتابع ، من ولف البرق كوعده ولفاً وولافاً بالكسر : تتابع .
 (٥) النؤى : الحفير حول الحياء يمنع السيل ، وانتأيه علمته . (٦) سوداء ، والجلال جمع جل بالضم والفتح : ما تلبسه الدابة لتصان به . (٧) الجمال ينتقل من مرعى إلى مرعى .

غَنِيَاتِكَ ، فرعت ملياً ، ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء ، قال : كيف ترينها ؟
قالت : سَطِحتْ وَايَضَّتْ ، قال : أدخلني غنياتك ، قال : فجاءت السماء بشيء شطاً^(١) له
الزرع وأينع ، وَخَصِرَ وَنَصِرُ ، (بلوغ الأرب ٢٦٠٤)

٧٧ - أعرابي يصف أرضاً

ووصف أعرابي أرضاً أحدها فقال :

« خَلَعَ شَيْحُهَا ، وَأَبْقَلَ رِمْتُهَا ، وَخَضَبَ عَرَفَجُهَا^(٢) ، وَأَتَسَّقَ نَبْتُهَا ، وَاخْضَرَّتْ
قَرِيَانُهَا ، وَأَخْوَصَتْ بَطْنَانَهَا^(٣) ، وَأَحْلَسَتْ أَكْمُهَا ، وَاعْتَمَّ نَبْتُ جَرَاثِيمِهَا^(٤) ،
وَأَجَرَتْ بِقَلَّتْهَا وَذُرْقَتَهَا وَحَبَّازَتَهَا^(٥) ، وَأَحْوَرَّتْ خَوَاصِرُ إِبِلِهَا ، وَشَكِرَتْ
حَلُوبَتُهَا ، وَسَمِنَتْ قَتُوبَتَهَا^(٦) ، وَعَمِدَتْ ثَرَاها . وَعَقَدَتْ تَنَاهِيهَا ، وَأَمَاهَتْ ثَمَارُها .
وَوَثِقَ النَّاسُ بِصَاثِرَتِهَا^(٧) . »

(البيان والخبير ٢: ٧٧)

(١) شطأ الزرع : أخرج شطأه ، أي فراخه .

(٢) خلع الشيح : أورق (واخلع من الغضاء الذي لا يسقط ورقه أبداً ، والغضاء ككتاب : كل شجر
له شوك) والرمث . مرعى للإبل ، وشجر يشبه الغضا ، والعرفج : شجر سهل ، وغضب الشجر كضرب
وسمع وعنى : اخضر . (٣) القرىان : مجارى الماء من الربو إلى الرياض جمع قرى كقنى ، وأخوص
العرفج : تفطر بورق ، أخوصت النخلة : أخرجت الخوص ، والبطنان جمع باطن وهو الغامض من الأرض
أى المطنن منها . (٤) أحلس النبت : غطى الأرض بكثرتة ، وأحلست الأرض فهى محلسة : صار
النبات إليها كالحلس كثرة الحلس كحمل كساء على ظهر البعير - والجراثيم جمع جرثومة بالضم ، وجرثومة
الشيء : أصله ، واعتم : أى كأنه ليس عمامة . (٥) أجزت البقلة : صارت لها جراء - وجراء ككتاب
جمع جرو بالثلاثية وهو صغير كل شيء - والذرة واحدة اللزق وهو نبات مثل الكراث الجبلب الدقاق فى
رأسه حب حلو يؤكل رطباً تحبه الرعاة يأتون به أهلهم : والخيازة والخيازي : النبت المعروف .

(٦) أحورت : أبيضت وذلك من الشد على خواصرها لثلاث تحيط (والحيط بالتحريك : انتفاخ بطنها بن
مرعى ترعاه) والحلوبة : الحلوبة ، وشكرت الناقة : امتلأ ضرعها ، والداية : سميت ، والقنوية : الإبل
التي تقتبها (وأقتب الناقة : شد عليها القتب (بالتحريك) وهو إكافر صغير على قدر سننم البعير) .

(٧) عمد الثرى : بلاه المطر حتى إذا قبضت عليه تمقه لندوته ، والتناهى جمع تنهى : وهى مستقر السيل
حيث ينتهى الماء من الوادى ، وعقدت تناهيها : أن يمر السيل مقبلاً حتى إذا انتهى منها دار بالأبطح
حتى يلتقى طرفا السيل ، وأمَاهت ثمارها : أى كثر ماؤها ، والصائرة : المطر والسكالا .

٧٨ - رائد يصف أرضاً جذبة

قال أبو الجيب : وصف رائدٌ أرضاً جذبةً فقال :

« أُعْبِرَتْ جَادَتْهَا^(١) ، وَذَرَعَ مَرْتَمًا ، وَقَضِمَ شَجْرُهَا ، وَرَقَّتْ كَرِشَهَا ، وَخَوَّرَ عَظْمًا . وَالتقى سَرْحَاهَا^(٢) . وَتَمَيَّزَ^(٣) أَهْلُهَا . وَدَخَلَ قُلُوبَهُمُ الْوَهْلُ . وَأَمْوَالُهُمُ الْهَزْلُ » .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٧)

٧٩ - رائد يصف أرضاً

عن محمد بن كُنَاسَةَ قَالَ : أَخْبَرَنِي بَعْضُ فَصْحَاءِ أَعْرَابِ طَيْبٍ قَالَ :

« بَعَثَ قَوْمٌ رَائِدًا . فَقَالُوا : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : عُشْبٌ وَتَعَاشِيبٌ^(٤) ، وَكَغَاةٌ مَتَفَرِّقَةٌ شَيْبٌ ، تَقْلَعُهَا بِأَخْفَافِهَا النَّيْبُ^(٥) » ، قَالُوا : لِمَ تَصْنَعُ شَيْئًا ، هَذَا كَذِبٌ ! فَأَرْسَلُوا آخَرَ ، فَقَالُوا : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : « عُشْبٌ نَادٌ مَادُمُولِي^(٦) وَعَهْدٌ . مَتَدَارِكُ جَعْدٌ^(٧) ، كَأَنْفَازِ نِسَاءِ بَنِي سَعْدِ ، تَشْبَعُ مِنْهُ النَّيْبُ وَهِيَ تُعَدُّ^(٨) » .

(البيان والتبيين ٢ : ٧٩)

(١) الجادة : الطريق إلى الماء ، وذرع المرتع : بعد عن الماء ، وقضم شجرها : تسكمر ، يقال : سيف قضم كفرح : أى طال عليه الدهر فتكمر حده ، وقضم السن : انصدع وثلم ، وإذا لم يكن للجمل مرعى إلا للشجر وحده رقت أكراشه . (٢) يمتزج أى إذا أكل كل ما يحويه ، التقيا عند الماء . (٣) تفرقوا في طلب الكذا ، والوهل : الفزع ، والهزل : موت مواشى الرجل .

(٤) العشب : الكذا للطرب ، والتعاشيب : القطع المتفرقة منه . (٥) النيب جمع ناب : وهو الناقة المستنة . (٦) جاء في اللسان : « قال الأصمعي : قيل لبيص العرب : أصب لنا موضعاً أى أطلب

فقال رائدهم : وجدت مكاناً نبدأ منها (يفتح فكسر) وقال زيد بن كثوة : بعثوا رائداً فجاء وقال : عشب نأد مأد (يفتح فسكون) كأنه أسوق بنى سعد ، وثند النبات كفرح : ندى فهو ثند ، ومأد كنع اهتز وتروى وجرى فيه الماء وتنعم ولان والمأد : الناعم من كل شيء ، والمولى : الذى أصابه الولي (والمولى : المطر الذى يأتي بعد المطر) ، والعهد : أول مطر الوسمى (والوسمى : أول مطر الربيع) .

(٧) من قومه : زيد جمع : أى متراكب مجتمع قد صار بعضهم فوق بعض .

(٨) يمتزج أى أن العشب قد طال وتم ، والنيب تشبع منه وهى تعد : لأنها تتناولوه وهى قائمة لا تبرج مكانها ولا تطأ رأسها .

٨٠ - رائد يصف أرضاً

وبعث رجل أولاده يرتادون في خِصْب . فقال أحدهم : « رأيتُ بَقْلاً . وماء غَيْلاً^(١) . يسيل سَيْلاً . وخُوصه تميل مَيْلاً ، يحسبها الرائد ليلاً » وقال الثاني : « رأيت دَيْمة على دَيْمة ، في عهدا غير قديمة . وَكَلًّا تشبع منه النَّاب قبل الفطيمة » .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٩)

* * *

وروى هذا الوصف عن ابن الكلبي بصورة أخرى قال :
« خطب هند بنه أنحس الإيادية ثلاثة نفر من قومها ، وارتضت أنسابهم وجمالهم ، وأرادت أن تسبر عقولهم ، فقالت لهم : « إني أريد أن ترتادوا لي مرعى ، فلما أتوها قالت لأحدهم : ما رأيت ؟ قال : رأيت بَقْلاً وَبَقَيْلاً ، وماءً غَدَقًا^(٢) سَيْلاً ، يحسبه الجاهل ليلاً ، قالت : أمرعت^(٣) ، قال الآخر : رأيت دَيْمة بعد دَيْمة ، على عهد غير قديمة ، فالناب تشبع قبل الفطيمة ، قال الثالث : رأيت غَيْثًا تُعَدُّ مَعْدًا^(٤) ، متراكماً جَمَدًا ، كأنفاذ نساء بنى سعد ، تشبع منه النَّيب وهي تُعَدُّ » .
(بلوغ الأرب ٢ : ٢٥٦)

٨١ - أعرابي يصف أرضه وماله

عن أبي عمرو بن العلاء قال : لقيت أعرابياً بمكة فقلت له : ممن أنت ؟ قال :
أَسَدِيّ ، قلت : ومن أيهم ؟ قال : نهدي ، قلت : من أى البلاد ؟ قال : من عُمان ،

(١) الغيل : الماء الذى يجرى بين الشجر .

(٢) الغدق : الماء الكثير . (٣) أمرعه أصابه مريماً كخصيب وزنا ومعنى .

(٤) الغيث : المطر والكلأ ، وقيل : الأصل المطر ثم سمي ما ينبت به غيثاً ، والمراد هنا الثاقب ، ويقبل

تعد معد : غرض رطب رخص .

قلت: فَأَتَى لَكَ هَذِهِ الْفَصَاحَةُ؟ قال: «إِنَّا سَكَنَّا قَطْرًا لَا نَسْمَعُ فِيهِ نَاجِحَةَ التِّيَّارِ^(١)»
 قلت: صف لي أرضك، قال: «سَيْفٌ أَفْبِيحٌ، وَفَضَاءٌ صَحْصَحٌ، وَجَبَلٌ صَرْدَحٌ،
 وَرَمْلٌ أَصْبِيحٌ^(٢)»، قلت: فما مالك؟ قال: النخل، قلت: فأين أنت من الإبل؟
 قال: «إِنَّ النُّخْلَ حَمَلُهَا غِذَاءٌ، وَسَعْفُهَا^(٣) ضِيَاءٌ، وَجِدْعُهَا بِنَاءٌ، وَكَرْبُهَا صِلَاءٌ،
 وَلِيْفَهَا رِشَاءٌ، وَخَوْصُهَا وِعَاءٌ، وَقَرَوُوهَا إِئَاءٌ». (ذيل الأمل ص ١٧)

٨٢ - أعرابي يصف بلدا

وذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ بِلْدًا فَقَالَ: «بِلْدٌ كَالْتُرْسِ، مَا تَمْشِي فِيهِ الرِّيحُ إِلَّا عَابِرَاتٍ سَبِيلَ،
 وَلَا يَمُرُّ فِيهِ السَّفَرُ إِلَّا بِأَدَلِّ دَلِيلٍ». (العقد الفريد ٢: ٨٠)
 وقال أعرابي: «مررت ببِلْدٍ أَلْقَى بِهِ الصَّيْفُ^(٤) بِقَاعَهُ، فَمَا ظَهَرَ غَدِيرًا يَقْصُرُ
 الطَّرْفُ عَنْ أَرْجَائِهِ، وَقَدْ نَفَتِ الرِّيحُ الْقُدَى عَنْ مَائِهِ، فَكَأَنَّهُ سِلَاسِلُ دِرْعٍ ذَاتِ
 فُضُولٍ^(٥)». (العقد الفريد ٢: ٩٦)

وسُئِلَ أَعْرَابِيٌّ عَنْ مَسَافَةِ مَا بَيْنَ بَلَدَيْنِ فَقَالَ: «عُمْرُ لَيْلَةٍ، وَأَدِيمٌ^(٦) يَوْمٍ».
 وقال آخر: «سَوَادٌ لَيْلَةٌ، أَوْ بِيَاضٌ يَوْمٌ».

(البيان والتبيين ٢: ٥١، والعقد الفريد ٢: ٩٧)

وقال آخر: «إِنَّ الْمَسَافِرَ وَمَتَاعَهُ لَعَلِّي قَلَّتِ^(٧) إِلَّا مَا وَفَى اللَّهُ».

(العقد الفريد ٢: ٥٢)

الناجحة: الصوت، والتيار: الموج. (٢) السيف: ساحل البحر، وساحل الوادي، أو
 لسكل ساحل سيف، أو إنما يقال ذلك لسيف عمان، وأفبوح: واسع، والصحيح: ما استوى من
 الأرض، والصدوح: الصلب، والأصيح: الذي يماو بياضه حمرة (٣) السعف: جريد النخل أو
 ورقه، والكرب: أصول السعف الغلاظ المرأض، والرشاء: الحبل، والقررو: أسفل النخلة ينتشر
 فينتبد فيه - أي يعضد فيه التبيد -

(٤) الصيف كسيد ويخفف: المطر يهجم في الصيف أو بعد الربيع كالصيف.

(٥) جمع فضول: وهو الزيادة. (٦) أديم النهار: عامته أو بياضه. (٧) القلت: الهلاك.

٨٣ - أعرابي يصف أشد البرد

سئل أعرابي فقيل له : ما أشدُّ البرد ؟ قال : ريحٌ جَرِيْبَاءٌ ، في ظلِّ عَمَاءٍ ،
غِبِّ سَمَاءٍ^(١) . . (البيان والعيين ١ : ١٦٢)

٨٤ - أعرابي يصف إبلا

وقال : سمعت أعرابياً يصف إبلاً فقال :
« إِنِّهَا لَمِعْظَامُ الحَنَاجِرِ ، سِبَاطُ المَشَافِرِ ، كَوْمٌ بِهَازِرٍ^(٢) ، نُكْدٌ خَنَاجِرٍ^(٣) ،
أجوافها رِغَابٌ^(٤) ، وأعطائها رِحَابٌ ، تُنَمَّعُ مِنَ البُهْمِ^(٥) وتُبْدَلُ لِلجَمِّمِ » .
(الأمال ١ : ٥٢)

٨٥ - أعرابي يصف ناقة

ووصف أعرابي ناقة فقال : « إِذَا اكْتَالَتْ عَيْنِيهَا ، وَأَلَّتْ^(٦) أُذُنِيهَا ، وَسَجِحَ^(٧)
خَدُّهَا ، وَهَدَلِ^(٨) مِشْفَرُهَا ، وَاسْتَدَارَتْ جُمَّمَتُهَا ، فَهِيَ الكَرِيمَةُ » .
(الأمال ١ : ٢١٧)

(١) الجربياء : ريح للشمال الباردة ، أو الريح بين الجنوب والصبيا ، وللعماء : السحاب المرتفع : أو
الكثيف ، أو المطر ، في غيب سماء : أي عقب مطر . (٢) الخنجرة والخنجور كمنصور : الحلقوم ،
وجمه حناجر ، والمشافر جمع مشفر كبير : وهو البعير كالشقة للإنسان ، والكوم : العظام الأسنة جمع أكوام
وكوماء والجازر جمع بهزرة كبندة : وهي العظيمة من النوق .

(٣) النكد : الفزيرات اللبن من الإبل (والتي لا لبن لها أيضا ضد) ، والخناجر : الفزيرات اللبن
جمع خنجر كجفمر وجهاء وخنجورة بالضم . (٤) رغاب : واسعة ، وأعطائها : مباركها عند الماء جمع
عطن كسبب . (٥) البهم جمع بهمة كفرصة : وهو الشجاع الذي لا يدرى من أين يؤق ، من شدة
بأسه ، والجمم جمع جمه كقبة ، وهم القوم يسألون في الدييات .

(٦) آل البعير : نصب أذنيه وحدهما . (٧) سجح : سهل وحسن . (٨) هدل : استرخى .

٨٦ - أعرابي يصف خيلاً

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « خرجت علينا خيلٌ مستطيرةٌ النَّعْمُ ^(١) ،
كأن هُوادِيها ^(٢) أعلام ، وآذانها أطرافُ أقلام ، وفُرسانها أسودُ آجامٍ . »

٨٧ - أعرابي يصف خيلاً

وذكر أعرابي خيلاً فقال : « والله ما انحدرتُ في وادٍ إلا ملأتُ بطنه ،
ولا ركبتُ بطن جبلٍ إلا أمهكتُ حزنه ^(٣) . » (العقد الفريد ٢ : ٩٥)

٨٨ - أعرابي يصف خيلاً

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يصف خيلاً فقال : « سباط
الخصائل ^(٤) . ظمَاءُ المفاصل ، شداد الأباجل ^(٥) ، قُبُ الأياطل ، كرام النواجل ^(٦) . »
(الأمال ١ : ٥٢)

٨٩ - أعرابي يصف فرساً

ووصف بعض الأعراب فرساً فقال : « قد انتهى ضموره ، وذبل فريره ^(٧) ،
وظهر حصيره ^(٨) ، وتفلقت غموره ^(٩) ، واسترخت شاكلته ^(١٠) ، يُقبل بزور
الأسد ، ويذبر بعجز الذئب ^(١١) . » (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٣ ، والأمال ٢ : ٢٥٦)

(١) للقباز . (٢) أوائلها . (٣) الخصائل جمع خصيلة : وهي كل قطعة من اللحم مستطيلة أو
مجتمعة ، وقيل : هي ما انماز من لحم الفخذ بعضه من بعض ، وسباط جمع سبط ككف وشمس ، رجل
سبط الجسم إذا كان حسن القد والاستواء : وظماء : ضمير . (٤) الأباجل جمع أبجل : وهو عرق
غليظ في الرجل أو في اليد ، يريد أنها شداد القوائم . (٥) الأياطل جمع أيطل : وهو الخاصرة ،
قب جمع أقب ، وصف من القبب كسبب وهو ذقة الحصر وضمور البطن ، والنواجل جمع ناجلة ، من
نجلته : أي ولدته . (٦) الفرير : موضع الحجة من معرفة الفرس .
(٧) الحصير : عرق يمتد معترضاً على جنب اللدابة إلى ناحية بطنها ، أو لحمه كذلك .
(٨) للفرور : الفضون التي في جلده ، واحدها غر بالفتح . (٩) الشاكلة من الفرس : الجلد بين
عرض الخاصرة والذئبة - والذئبة كفرحة : الركبة - .

٩٠ - أعرابي يصف خاتماً

وقال أعرابي يصف خاتماً : « شَفَّ^(١) تقديرُ حَلَقْتَهُ ، وَدَوَّرَ كَرْسَى فِضْتِهِ ، وَأَحْكَمَ تَرْكِييَهُ ، وَأَتَقَنَ تَدْبِيرَهُ ، فَبِهِ يَتِمُّ الْمَلِكُ ، وَيَنْفَعُ الْأُمْرَ ، وَيَكْرُمُ الْكِتَابُ ، وَيَشْرَفُ الْمَكْتُوبُ إِلَيْهِ » . (العقد الفريد ٢ : ٩٧)

٩١ - أعرابي يصف أطيب الطعام

وقال عبد الملك لأعرابي : « ما أطيبُ الطعام ؟ » ، فقال : « بَكْرَةٌ سِنَمَةٌ^(٢) ، مُعْتَبَلَةٌ غَيْرُ ضَمِينَةٍ ، فِي فُؤُورٍ رَذْمَةٍ^(٣) ، بِشْفَارٍ خَذِمَةٍ^(٤) ، فِي غَدَاةٍ شَبِيمَةٍ^(٥) ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : وَأَبْيَكُ لَقَدْ أَطْيَبْتَ^(٦) . (البيان والتبيين ١ : ١٦٢)

٩٢ - أعرابي يصف السويق

وعاب رجل السويق^(٧) مَحْضَرَةَ أعرابي فقال : « لَا تَعْبَهُ ، فَإِنَّهُ عُدَّةُ الْمَسَافِرِ ، وَطَعَامُ الْعَجَلَانِ ، وَغِذَاءُ الْمُبَكَّرِ ، وَبُلْفَةٌ^(٨) الْمَرِيضِ ، وَيَسْرُو^(٩) فَوَادَ الْحَزِينِ ، وَيَرُدُّ مِنْ نَفْسِ الْحُدُودِ^(١٠) ، وَجِيذٌ فِي التَّسْمِينِ ، وَمَنْعُوتٌ فِي الطَّبِّ ، وَقَفَّارُهُ^(١١) يَحْلُو

(١) رق .

(٢) البكرة : الفتية من الإبل ، والسمنة : العظيمة الصنام ، وفعله كفرح ، عبط الذهبية كضرب واعتبطها : نحرها من غير علة وهي مهيئة فنية ، والضمنة : الزمنة والمبتلاة في جسدتها من السمنة كفرصة وهي المرض . (٣) رذمت القصة كفرح فهي رذمة ورذوم كصبور : امتلأت وتصيببت جوانبها . (٤) شفار جمع شفرة « بالفتح » : وهي للسكين العظيم ، وخذمه كضربه : قطعه ، وسيف خذم ككتف وصبور ومعظم : قاطع . (٥) الغداة : البكرة « بالضم » أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس ، وشبمة : باردة ، وفعلها كفرح . (٦) أطاب الشيء وأطيبه : وجده طيباً .

(٧) السويق : ما يعمل من الخنطة والشمير . (٨) ما يتبلغ به . (٩) يسرو : يكشف ماعليه .

(١٠) الحدود : الذي قد حد أي قد ضرب الحد . (١١) القفار : الذي لم يلت بشيء من آدم ،

لا زيت ولا سمن ولا لبن . يقال طعام قفار .

الْبَلْغَمَ ، وملتوته يُصْقَى الدم ، وإن شئت كان شراباً ، وإن شئت كان طعاماً ، وإن شئت فتريداً ، وإن شئت فخبيصاً^(١) . (الأمال : ٢ : ١٩٧)

٩٣ - أعرابي يصف الجمال

وقيل لأعرابي ما الجمال ؟ قال : « طُول القامة ، وَضَخْمُ^(٢) الهامة ، وَرُحْبُ^(٣) الشَّدْقِ ، وَبُعْدُ الصوت » . وسئل آخر : ما الجمال ؟ قال « غُثُورُ العينين ، وإِشْرَافُ الحاجبين ، وَرُحْبُ الشَّدْقَيْنِ » . (البيان والتبيين : ١ : ٦٧)

٩٤ - أبو المخش يصف ابنه

وسأل جعفر بن سليمان أبا المِخْش عن ابنه المِخْش^(٤) - وكان جزع عليه جزعاً شديداً - قال : صف لي المخش ، فقال : « كان أشدق خُرْطُمَانِيًّا^(٥) ، سائلاً لُعَابَهُ ، كَأَنَّمَا يَنْظُرُ مِنْ قَلْتَيْنِ^(٦) ، كَأَن تَرَفُوتَهُ بُوَانٌ ، أَوْ خَالِفَةٌ ، كَأَن مَنَكِبِهِ كِرْكِرَةٌ جَمَلٍ ثِقَالٍ^(٧) ، فَقَأَ اللهُ عَيْنَيَّ إِنْ كُنْتُ رَأَيْتُ قِبَلَهُ أَوْ بَعْدَهُ مِثْلَهُ » . (البيان والتبيين : ١ : ٦٧)

٩٥ - أعرابي يصف بنيه

عن عبد الرحمن عن عمه قال : قلت لأعرابي بِجَمَعِي الرَّبْدَةَ : أَلَك بَنُونَ ؟ قال : نعم ، وَخَالِقِهِمْ لَمْ تَقُمْ عَنْ مِثْلِهِمْ مُنْجَبَةً^(٨) ، فَقُلْتُ : صِفْهُمْ لِي ، فَقَالَ : « جَهْمٌ ! وَمَا جَهْمٌ ؟

(١) الخبيص : نقي اللدقيق يخلط بالصل .

(٢) ضخم ككرم ضخماً وضخامة فهو ضخم . (٣) رحب ككرم وسم رحباً بالضم ورحابة فهو

رحب بالفتح . (٤) المخش في الأصل : الجري . على العمل في الليل .

(٥) أشدق : واسع الشدقين : خرطمانياً : طويلًا . (٦) القلت : للنفرة في الجبل .

(٧) البوان : عمود للخباء ، والخالفة : عمود من أعمدة البيت في مؤخره ، والكركرة : رحى زور

البعير وبغير ثقال : بطيء .

يُنْضِي الوَهْمَ ، وَيَصُدُّ الدَّهْمَ (١) ، وَيَفْرِي الصُّفُوفَ ، وَيَعْلُ السُّيُوفَ (٢) ، قلت :
 ثم من ؟ قال : « غَشَمَشَم ! وما غَشَمَشَم ؟ مَالَهُ مُقَسَّم ، وَقِرْنُهُ مُجْرَجَم (٣) ، جِذْلُ
 حِكَاكٍ (٤) ، وَمِذْرَةُ لِكَاكَ (٥) » ، قلت : ثم من ؟ قال : « عَشْرَب ! وما عَشْرَب ؟
 لَيْثٌ مُحْرَبٌ ، وَسِمَامٌ مُقَشَّب (٦) ، ذِكْرُهُ بَاهِرٌ ، وَخَصْمُهُ عَاثِرٌ ، وَفِنَاؤُهُ رُحَابٌ (٧) ،
 وَدَاعِيهِ مُجَابٌ » قلت : صف لي نفسك ، فقال : « لَيْثٌ أَبُو رِيَابِل (٨) ، رَكَابٌ مَعَاضِلٌ
 عَسَافٌ (٩) مُجَاهِلٌ ، حَمَالٌ أَعْبَاءٌ ، نَهَاضٌ بِيَزْلَاء (١٠) » . (الأمال : ٢ : ٥٣)

٩٦ - أعرابي يصف أخويه

عن العُتْبِيِّ قال أَخْبَرَنِي أَعْرَابِيٌّ عَنْ إِخْوَةِ ثَلَاثَةٍ ، قَالَ : قُلْتُ لِأَحَدِهِمْ : أَخْبِرْنِي
 عَنْ أَخِيكَ زَيْدٍ فَقَالَ : « أَزَيْدٌ إِنْيَه (١١) ؟ وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أُسْكِنَ فَوْرًا ، وَلَا أَبْعَدَ
 غَوْرًا ، وَلَا آخَذَ لِدَنْبٍ حُجَّةً قَدْ تَقَدَّمَ رَأْسُهَا مِنْ زَيْدٍ » ، فَقُلْتُ : أَخْبِرْنِي عَنْ أَخِيكَ
 زَائِدٍ قَالَ : « كَانَ وَاللَّهِ شَدِيدَ الْعُقْدَةِ ، لَيْنَ الْعُظْفَةِ ، مَا يُرْضِيهِ أَقْلٌ مِمَّا يُسْخِطُهُ ، فَقُلْتُ :
 فَأَخْبِرْنِي عَنْ نَفْسِكَ ، فَقَالَ : « وَاللَّهِ إِنْ أَفْضَلَ مَا فِيَّ لَمْ أَعْرِفْهُ بِفَضْلِهِمَا ، وَإِنِّي مَعَ ذَلِكَ
 لَغَيْرُ مُنْتَشِرٍ (١٢) الرَّأْيِ ، وَلَا مُخَذُّولُ الْعَزْمِ » . (الأمال : ٢ : ١٤)

- (١) ينضي : يهزل ، والوهم : الضخم العظيم من الإبل ، والدهم : العدد الكثير .
 (٢) يفري : يشق ، ويمل : أي يوردها للدماء ثانية ، مأخوذ من الملل في الشرب .
 (٣) المجرجم : المصروع . (٤) الجذل : أصل الشجرة ، وذلك أن الإبل الجرب تحتك به فتعجه
 له لذة ، والمعنى أنه من يستشق به فالأبور بمنزلة ذلك الجذل الذي تستشق به الإبل .
 (٥) المذره : لسان القوم ، والمتكلم عنهم ، والدافع عنهم ، يقال : درهته في ودرأته : أي دفعته ،
 واللكاز : الزحام . (٦) المحرب : المفضب الذي قد اشتد غضبه واحتمد ، وحربت المسكين : إذا
 أحدثته ، ومقشَب : مخلوط . (٧) باهر غالب ، ورحاب : متسع .
 (٨) رهايل جمع ريبال بالكسر يهمز ولا يهمز : وهو الأسود ، والمعاضل : الدواهي .
 (٩) العساف : الذي يركب الطريق على غير هداية ، والأعباء : الأثقال .
 (١٠) البزلاء : الرأي الجليد الذي يهزل (يضم الزاي) عن الصواب : أي يشق منه .
 (١١) قال أبو هريرة : « هذه الزيادة تلحق في الاستفهام في آخر الكلمة إذا أنكرت أن يكون
 رأى المتكلم على ما ذكر ، أو يكون على خلاف ما ذكر » انظر هذا المبحث في الأمال : ٢ : ١٥ .
 (١٢) أي مفرقة .

قولهم في الدعاء

٩٧ - دعاء أعرابي

قال أبو حاتم : أملى علينا أعرابيّ يقال له مرثد :

« اللهم اغفر لي ، والجِلْدُ بارد ، والنفس رَطْبَةٌ ، واللسان منطلق ، والصحفُ منشورة ، والأقلامُ جارية ، والتوبة مقبولة ، والأنفسُ مَرِيحَةٌ^(١) ، والتضرعُ مرجو ، قبل أن يفراق ، وحَشَكِ النفس^(٢) ، وَعَلَزِ الصدر^(٣) ، وتَزِيلُ الأوصال^(٤) ، ونُصُولِ الشعر ، واحتياف^(٥) التراب ، وقبل أن لا أقدر على استغفارك حينَ يَفْنَى العمل ، ويحضر الأجل ، وينقطع الأمل .

أعني على الموت وكُرْبَتِهِ ، وعلى القبر وعمته^(٦) ، وعلى الميزان وخِفَّتِهِ ، وعلى الصراطوزنَّتِهِ ، وعلى يوم القيامة ودَوَعَتِهِ ، اغفر لي مغفرة عَزَمًا ، لا تغادر ذنبًا ، ولا تدع كَرَبًا ، اغفر لي جميع ما افترضت عليّ ولم أؤدّه إليك ، اغفر لي جميع ما تبتُّ إليك منه ثم عدت فيه .

يارب تظاهرت^(٧) عليّ منك النعم ، وتداركت عندك مني الذنوب ، فلك الحمد على النعم التي تظاهرت ، وأستغفرك للذنوب التي تداركت ، وأمست عن عذابي غنيًّا ، وأصبحتُ إلى رحمتك فقيرًا .

(١) مرح كفرح : أشم وبطر ونشط واختال وتبختر فهو مرح ومريح .

(٢) الحشك : شدة النزح . (٣) العلز : قلق وخفة وهلع يصيب المريض والمحتضر .

(٤) تزيلت وتزايلت : تفرقت ، والأوصال : المفاصل . (٥) الاحتياف : افتعال من الحيف وهو الجور ، والمراد أكل تراب القبر الجثة ، والذي في كتب اللغة « التحيف » تحيفت الشيء : إذا تنقصته من حافاته .

(٦) فعله من غم الشيء : أي غطاه فانغم ، أو هي « غمته » بالضم : أي بلائه وكره عذابه .

(٧) من تظاهروا إذا تعاونوا : أي تتابعت .

اللهم إني أسألك نجاح الأمل ، عند انقطاع الأجل ، اللهم اجعل خير عملي ما ولى
أجلى ، اللهم اجعلني من الذين إذا أعطيتهم شكروا ، وإذا ابتليتهم صبروا ، وإذا
أذكرتهم ذكروا ، واجعل لي قلباً تواباً أواباً ، لا فاجراً ولا مرتاباً ، اجعلني من
الذين إذا أحسنوا ازدادوا ، وإذا أساءوا استغفروا .

اللهم لا تحقق عليّ العذاب^(١) ، ولا تقطع بي الأسباب ، واحفظني في كل ما تحيط
به شفقتي ، وتأني من ورائه سبحانه^(٢) ، وتعجز عنه قوتي ، أدعوك دعاء ضعيفٍ عمله ،
متظاهراً ذنوبه ، ضنينٍ على نفسه ، دعاء من بدنه ضعيف ، ومُنْتَه^(٣) عاجزة ، قد
انتهت عدته ، وخلقت^(٤) جدته ، وتمّ ظمؤه . اللهم لا تخيبي وأنا أرجوك ، ولا
تعذبني وأنا أدعوك ، والحمد لله على طول النسيئة^(٥) ، وحسن التباعة^(٦) ، وتشنُّج
العروق ، وإساعة الريق ، وتأخر الشدايد ، والحمد لله على حمله بعد علمه ، وعلى عفوه
بعد قدرته ، والحمد لله الذي لا يودى^(٧) قتيله ، ولا يخيب سؤله ، ولا يرُدّ رسوله ،
اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ومن الذلّ إلا لك ، وأعوذ بك أن أقول
زوراً ، أو أغشى فجوراً ، أو أكون بك مغروراً ، وأعوذ بك من شماتة الأعداء ،
وعُضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمة .

(العقد المفريد ٢ : ٧٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٢٢٤ - ١٢٧ - ١٣٨)

(١) يشير إليه قوله تعالى : « أَفَنُحَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ » .

(٢) فعلة من السبح : وهو الثقلب والانتشار في الأرض ، والإبعاد في السير ، والتصرف في المعاش .

(٣) المنته : القوة .

(٤) خلق الثوب كصبر وكرم وسمع : بلى ، والظلم : ما بين الشريعتين والوردين .

(٥) الإمهال والتأخير . (٦) التباعة مثل التبعة بفتح فسكون . قال الشاعر :

أكلت حنيفة رجاها زمن للتحمم والمجاهة

لم يحدروا من ربهم سوء العواقب والتباعة

• لأنهم كانوا قد اتخذوا إلها من حيس فعبده زمنا ، ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه - والحيس كشمس
تمر يخلط بالسمن والبن الخفيض فيصعب شديداً ، ثم يندر منه نواه .

(٧) ودى للقتيل كوحى : أعطى ديته ، والسول : وهو ما سأله .

٩٨ - دعاء أعرابي

ودعا أعرابي وهو يطوف بالكعبة فقال :

« إِلَهِي مَنْ أَوْلَىٰ بِالتَّقْصِيرِ وَالزَّلَلِ مِنِّي وَأَنْتَ خَلَقْتَنِي ؟ وَمَنْ أَوْلَىٰ بِالْعَفْوِ مِنْكَ عَنِّي وَعِلْمِكَ بِي مَاضٍ ، وَقَضَاؤِكَ بِي مُحِيطٌ ؟ أَطْعَمْتُكَ بِقَوْتِكَ وَالْمِنَّةَ لَكَ ، وَعَصَيْتُكَ بِعِلْمِكَ ، فَاسْأَلُكَ يَا إِلَهِي - بِوَجُوبِ رَحْمَتِكَ وَانْقِطَاعِ حُجَّتِي ، وَافْتِقَارِي إِلَيْكَ وَغِنَاكَ عَنِّي - أَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي .

إِلَهِي لِمَ أَحْسِنَ حَتَّىٰ أُعْطِيْتَنِي ، فَتَجَاوَزَ عَنِ الذُّنُوبِ الَّتِي كَتَبْتَ عَلَيَّ ، اللَّهُمَّ إِنَّا أَطْعَمْنَاكَ فِي أَحَبِّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْكَ : شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحَدَّكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، وَلَمْ نَعْصِكَ فِي أَبْغَضِ الْأَشْيَاءِ إِلَيْكَ : الشَّرْكَ بِكَ ، فَاعْفِرْ لِي مَا بَيْنَ ذَلِكَ .

اللَّهُمَّ إِنَّكَ آتَسُّ الْمُؤْمِنِينَ لِأَوْلِيَانِكَ ، وَأَحْضَرُهُمُ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ ، إِلَهِي أَنْتَ شَاهِدُهُمْ وَغَائِبُهُمْ ، وَالْمَطَّلَعُ عَلَىٰ ضَمَائِهِمْ ، وَسِرِّي لَكَ مَكْشُوفٌ ، وَأَنَا إِلَيْكَ مَلْهُوفٌ ، إِذَا أَوْحَشْتَنِي الْغُرْبَةَ أَنْسَنِي ذِكْرُكَ ، وَإِذَا أَاكَبْتَ عَلَيَّ الْغُمُومُ لَجَأْتُ إِلَىٰ الِاسْتِجَارَةِ بِكَ ، عَلِمًا بِأَنَّ أَرْمَةَ الْأُمُورِ كُلِّهَا بِيَدِكَ ، وَمَصْدَرُهَا عَن قَضَائِكَ ، فَأَقْلِبْ لِي ^(١) إِلَيْكَ مَغْفُورًا لِي ، مَعْصُومًا بِطَاعَتِكَ بِقِيَةِ عَمْرِي ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ » .

٩٩ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : حَبَّجْتَ فَرَأَيْتَ أَعْرَابِيًّا يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَيَقُولُ :

يَا خَيْرَ مَوْفُودٍ سَعَىٰ إِلَيْهِ الْوُفْدُ ^(٢) ، قَدْ ضَعُفَتْ قُوَّتِي ، وَذَهَبَتْ مَنَّتِي ، وَأَنْتَ إِلَيْكَ بِذُنُوبٍ لَا تَغْسِلُهَا الْأَنْهَارُ ، وَلَا تَحْمِلُهَا الْبِحَارُ ، أَسْتَجِيرُ بِرِضَاكَ مِنْ سُخْطِكَ ، وَبِمَفُوكٍ مِنْ عَقُوبَتِكَ ، ثُمَّ التَفْتُ فَقَالَ : « أَيُّهَا الْمَشْفِقُونَ ، ارْحَمُوا مَنْ شَمَلْتَهُ الْخَطَايَا ،

(١) أقله : حله . (٢) وفه إليه وعليه : قدم ، وهم وفود وفود كشمس وركع وأوفاد .

وَعَمَّرْتَهُ الْبِلَايَا ، اَرْحَمُوا مِنْ قَطْعِ الْبِلَادِ ، وَخَلَّفَ مَا مَلَكَ مِنَ التَّلَادِ . اَرْحَمُوا مِنْ وَبَّخْتِهِ
الذَّنُوبِ ، وَظَهَّرْتَ مِنْهُ الْعُيُوبَ ، اَرْحَمُوا أُسِيرَ ضُرٍّ ، وَطَرِيدَ فَقْرٍ ، أَسْأَلُكُمْ بِالَّذِي
أَعْمَلْتُمُ الرِّغْبَةَ إِلَيْهِ ، إِلَّا مَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ أَنْ يَهَبَ لِي عَظِيمَ جُرْمِي » ، ثُمَّ وَضَعَ فِي حَلْقَةٍ
بِالْبَابِ خَدَّهُ وَقَالَ : ضَرَعَ خَدِي لَكَ ، وَذَلَّ مَقَامِي بَيْنَ يَدَيْكَ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

عَظِيمُ الذَّنْبِ مَكْرُوبٌ مِنْ الْخَيْرَاتِ مَسْلُوبٌ
وَقَدْ أَصْبَحْتُ ذَا فَقْرٍ وَمَا عِنْدَكَ مَطْلُوبٌ

١٠٠ - دَعَاءُ أَعْرَابِي

وَسَمِعَ أَعْرَابِي بَعْرَفَاتٍ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ وَهُوَ يَقُولُ :

« اللَّهُمَّ إِنْ هَذِهِ عَشِيَّةٌ مِنْ عَشَايَا مَحَبَّتِكَ ، وَأَحَدُ أَيَّامِ زُلْفَتِكَ ^(١) ، يَا مُؤْمِلٌ فِيهَا مِنْ
لَجَأٍ إِلَيْكَ مِنْ خَلْقِكَ أَنْ لَا يُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا ، بِكُلِّ لِسَانٍ فِيهَا يُدْعَى ، وَلِكُلِّ خَيْرٍ فِيهَا
يُرْجَى ، أَنْتَ الْغُصَاةُ مِنَ الْبِلَادِ السَّحِيقِ ^(٢) ، وَدَعْتِكَ الْعِنَاةُ ^(٣) مِنْ شَعْبِ الْمُضِيقِ ،
رَجَاءً مَا لَا خُلْفَ لَهُ مِنْ وَعْدِكَ ، وَلَا انْقِطَاعَ لَهُ مِنْ جَزِيلِ عَطَائِكَ ، أَبَدْتَ لَكَ وَجُوهَهَا
الْمَصُونَةَ ، صَابِرَةً عَلَى وَهَجِ السَّمَائِمِ ^(٤) ، وَبَرَدَ اللَّيَالِي ، تَرْجُو بِذَلِكَ رِضْوَانَكَ ،
يَا غَفَّارُ ، يَا مُسْتَزَادًا مِنْ نِعْمِهِ ، وَمُسْتَعَادًا مِنْ نِقَمِهِ ، اَرْحَمِ صَوْتَ حَزِينِ دَعَاكَ
بِرَفِيرٍ وَشَهِيْقٍ » .

ثُمَّ بَسَطَ كِلْتَا يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ : « اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ بَسَطْتُ يَدِيَّ إِلَيْكَ دَاعِيًا

(١) الزلقة : القرية . (٢) البعيد . (٣) العناية جمع عان من عنا : أي ذل وخضع ، وفي
رواية الأمازي : « أنتك الضومار من الفج العميق ، وجابت إليك المهارق من شعب المضيق » والضومار
الإبل المهزولة ، والمهارق جمع مهرق (بضم الميم وفتح الراء) : الصحراء الملاء .

(٤) السائم جمع سوم كصبور : وهي الريح الحارة تكون غالباً بالنهار ، وفي رواية الأمازي : « على لفتح
السائم ، وبرد ليل التمام » - وليل التمام (ككعب) وليل تميمي : أطول ليالي الشتاء - وفي رواية
الأمازي : « نعمتك تظاهرها على عند القفلة ، فكيف يأمن منها عند الرجعة » - وأصل القفل
(بالتحريك) : والرجوع من السفر : ويطلق على الابتداء في السفر كما هنا فتأولاً بالرجوع - .

فطالما كَفَيْتَنِي سَاهِيًا ، بنعمتك التي تظاهرتْ عَلَيَّ عِنْدَ الْغَفْلَةِ ، فلا أياسُ بها عند التوبة ، لا تقطعْ رجائيَ منك لما قَدَّمْت من اِقْتِرَافٍ ^(١) آثامك ، وإن كنت لا أصلَ إليك إلا بك ، فهب لي ياربُّ الصِّلاحِ في الولدِ ، والأَمْنِ في البلدِ ، والعافيةِ في الجسدِ وعافِي من شرِّ الحسدِ ، ومن شرِّ الدهرِ النَّكْدِ ^(٢) .

(العقد المفريد ٢ : ٧٧ ، والأمال ٢ : ٢٢٣)

١٠١ - دعاء أعرابي

ودعا أعرابي فقال : « يَا عِمَادَ مَنْ لَا عِمَادَ لَهُ ، وَيَارُ كَنْ مِنْ لَارُ كَنْ لَهُ ، وَيَا بُحَيْرَ الضَّفَى ^(٣) ، وَيَا مُنْقِدَ الْمَلِكِي ، وَيَا عَظِيمَ الرَّجَاءِ ، أَنْتَ الَّذِي سَبَّحَ لَكَ سَوَادُ اللَّيْلِ ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ ، وَضَوْءُ الْقَمَرِ ، وَشُعَاعُ الشَّمْسِ ، وَخَفِيفُ الشَّجَرِ ، وَدَوِيُّ الْمَاءِ ^(٤) يَا مُحْسِنِ ، يَا مُجْمِلِ ، يَا مُفْضِلِ ، لَا أَسْأَلُكَ الْخَيْرَ بِخَيْرِهِمْ عِنْدَكَ ، وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ ، فَاجْعَلِ الْعَافِيَةَ لِي شِعَارًا وَدِنَارًا ^(٥) ، وَجَنَّةَ دُونَ كُلِّ بَلَاءٍ » .

١٠٢ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً في فلاة من الأرض ، وهو يقول في دعائه :

« اللَّهُمَّ إِنِ اسْتِغْفَارِي إِيَّاكَ مَعَ كَثْرَةِ ذُنُوبِي لِلْوَيْمِ ، وَإِنِ تَرَكِي الْاسْتِغْفَارَ مَعَ مَعْرِفَتِي بِسَعَةِ رَحْمَتِكَ لَعَجْزٌ ، إِلَهِي كَمْ تَحَبَّبْتَ إِلَيَّ بِنِعْمَتِكَ ، وَأَنْتَ غَنِيٌّ عَنِّي ، وَكَمْ أَتَبَغَّضَ إِلَيْكَ بِذُنُوبِي ، وَأَنَا فَقِيرٌ إِلَيْكَ ، سَبِّحَانَ مَنْ إِذَا تَوَعَّدَ عَفَا ، وَإِذَا وَعَدَ وَفَى » .

(١) اقتراف الذنب : آثامه وفعله .

(٢) يقال : رجل نكد ككف وسبب وشمس وأنكد : شوم صر .

(٣) الضفَى جمع ضفيف . (٤) المعنى : أن هذه الكائنات تدعو المتأمل فيها إلى تسبيحه جل شأنه .

(٥) الشعار : ما يلبس هل شعر الجسد ، والدنار : ما يلبس فوق الشعار ، والجنة : الرقاية .

١٠٣ - دعاء أعرابي

قال : وسمعت أعرابياً يقول في دعائه : « اللهم إن ذنوبي إليك لا تنزرك ؛ وإن رحمتك إياي لا تنقصك ، فاغفر لي مالا يضرك ، وهب لي مالا ينقصك » .

١٠٤ - دعاء أعرابي

وقال : سمعت أعرابياً وهو يقول في دعائه : « اللهم إني أسألك عمل الخائفين ، وخوف العاملين حتى أتتعم بترك النعم^(٤) طمعاً فيما وعدت . وخوفاً مما أوعدت اللهم أعذني من سطواتك ، وأجرني من نعماتك ، سبقت لي ذنوبٌ ، وأنت تغفر لمن يحب^(٥) ، إليك بك أنوسلُ ، ومنك إليك أفرُّ » .

١٠٥ - دعاء أعرابي

وقال : سمعت أعرابياً يقول : « اللهم إن قوما آمنوا بك بألسنتهم ، ليحققوا دماءهم ، فأدرَكُوا ما أمَلُوا ، وقد آمنَّا بك بقلوبنا ، لتُجيرنا من عذابك ، فأدرِك منا ما أمَلنا » .

١٠٦ - دعاء أعرابي

قال : ورأيت أعرابياً متعلقاً بأستار الكعبة ، رافعاً يديه إلى السماء ، وهو يقول : « ربِّ أتراك معدِّبنا ، وتوحيدك في قلوبنا ؟ وما إخالك تفعل ! ولئن فعلت لَتَجْمَعُنَا مع قوم طالبا أبغضناهم لك » .

١٠٧ - دعاء أعرابي

وقال: سمعت أعرابياً يقول في صلاته : « الحمد لله حمداً لا يبلى جديده ، ولا يُحصَى عديده^(١) . ولا يُبلَّغ حدوده ، اللهم اجعل الموت خيراً غائباً ننظره ، واجعل القبر خيراً بيّت نَعْمُرُه ، واجعل ما بعده خيراً لنا منه . اللهم إن عينيّ قد أَعْرَوْرَقْنَا دموعاً من خشيتك ، فاغفرِ الزَّلَّةَ ، وَعُدْ بِحَمَلِكِ ، على جهل مَنْ لَمْ يَرْجُ غَيْرَكَ » .

١٠٨ - دعاء أعرابي

وقال : رأيت أعرابياً أخذَ بِحَلَقَتِي بَابِ الكعبة وهو يقول :
« سَأَلْتُكَ عِنْدَ بَابِكَ ، ذَهَبْتَ أَيَّامَهُ ، وَبَقِيتَ آثَامَهُ ، وَانْقَطَعَتْ شَهْوَتُهُ ، وَبَقِيتَ تِبَاعَتَهُ ، فَارْضَ عَنْهُ ، وَإِنْ لَمْ تَرْضَ عَنْهُ فَاعْفُ عَنْهُ غَيْرَ رَاضٍ » .

١٠٩ - دعاء أعرابي

قال : ودعا أعرابي عند الكعبة فقال : « اللهم إنه لاشرفَ إلا بفِعَالٍ ، ولا فِعَالٍ إلا بِمَالٍ ، فَاعْطِنِي مَا اسْتَمِينُ بِهِ عَلَى شَرَفِ الدنْيَا وَالْآخِرَةِ » .

١١٠ - دعاء أعرابي

عن طاوُسٍ قال : « بينا أنا بمكة إذ دَفَعْتُ إِلَى الْحِجَابِ بْنِ يَوْسُفَ ، فَتَنَى لِي وَسَاداً فَجَلَسْتُ ، فَمِينَا نَحْنُ نَتَحَدَّثُ إِذْ سَمِعْتُ صَوْتَ أَعْرَابِي فِي الْوَادِي رَافِعاً صَوْتَهُ بِالتَّلْبِيَةِ ،

فقال الحجاج . علىّ بالمسّي . فأُتي به فقال : مَنْ الرَّجُلُ ؟ قال : مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ ^(١) . قال : ليس عن هذا سألتك . قال : نَعَمْ سألتني . قال : من أى البلدان أنت ؟ قال : من أهل اليمن . قال له الحجاج . فكيف خلفت محمد بن يوسف - يعنى أخاه . وكان عامله علىّ اليمن - قال : خلفته عظيماً جسيماً خَرَّاجاً وَلاَ جَابِجاً . قال . ليس عن هذا سألتك ، قال : نَعَمْ سألتني ، قال : كيف خلفت سيرته في الناس ؟ قال : خَلَفْتُهُ ظُلُوماً غَشُوماً ^(٢) ، عاصياً للخالق ، مُطِيعاً للمخلوق ، فازور ^(٣) من ذلك الحجاج ، وقال . ما أقدمك لهذا ، وقد تعلم مكانته مني ! فقال له الأعرابي : أفتراه بمكانة منك أعزّ مني بمكانتي من الله تبارك وتعالى ، وأنا وَافِدٌ بَيْتِهِ ، وَقَاضِي دَيْنِهِ ، وَمُصَدِّقُ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَوَجَمَ ^(٤) لها الحجاج ، ولم يُجِرْ له جواباً ^(٥) ، حتى خرج الرجل بلا إذن .

قال طاوس : فتبعته حتى أتى الملتزم فتعلق بأستار الكعبة ، فقال : بك أعوذ ، وإليك الأوذ ، فاجعل لي في اللّٰهف إلى جوارك ، والرّضا بِضمانك ، مندوحة ^(٦) ، عن منع الباخلين ، وَرَغْنِي عَمَّا فِي أَيْدِي الْمُسْتَأْثِرِينَ ، اللهم عُدْ بِفِرَاجِكَ الْقَرِيبِ ، وَمَعْرُوفِكَ الْقَدِيمِ ، وَعَادَتِكَ الْحَسَنَةِ .

قال طاوس : ثم اختفى في الناس ، فألقيته بعرفات فأثماً على قدميه وهو يقول : « اللهم إن كنت لم تقبل حجّي وَنَصَبِي ^(٧) وَتَعَبِي ، فلا تَحْرِمْنِي أَجْرَ الْمُصَابِ عَلَى مَصِيبَتِهِ ، فلا أعلمُ مَصِيبَةً أَعْظَمَ مِنْ وَرْدِ حَوْضِكَ ، وانصرف محروماً من وجه رغبتك » .

(١) يقال « هو من أفناء الناس » إذا لم يعلم من هو ، واحده فنوكحيل أو فناكمصا .

(٢) ظلوماً . (٣) ازور : انصرف وماال : أى غضب منه . (٤) وجم : سكت على غيظ .

(٥) أى لم يردده . (٦) أى متسماً .

(٧) في الأصل « ونسبى » وأراه محرفاً عن « نصبى » ، ويؤيده قوله بعد « وتعبى » .

١١١ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي . رأيت أعرابياً يطوف بالكعبة وهو يقول :

« إلهي عَجَّتْ^(١) إليك الأصواتُ ، بضروبٍ من اللغات ، يسألونك الحاجات
وحاجتي إليك إلهي أن تذكرني على طول البكاء ، إذا نَسِيتني أهلُ الدنيا ، اللهم هب لي
حَقك ، وأرضِ عني خلقك ، اللهم لا تُعَيِّنِي في طلب ما لم تقدره لي ، وما قدرته لي
فيسره لي » .

١١٢ - دعاء أعرابي

قال : ودعت أعرابية لابن لها وجَّهته إلى حاجة فقالت : « كان الله صاحبك
في أمرك ، وخليفتك في أهلك ، ووَليُّ نُجْحِ طَلِبَتِكَ^(٢) ، امضِ مُصَاحِباً مَكْلُوءاً^(٣) ،
لا أشمت الله بك عدواً ، ولا أرى مُجِبِّيك فيك سوءاً » .

(المقد الفريد ٢ : ٧٦ - ٧٩)

١١٣ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : خرجت أعرابية إلى مِنيّ فَقَطَّعَ بها الطريقُ فقالت :

« يارب . أعطيت وأخذت ، وأنعمت وسلبت ، وكلُّ ذلك منك عدلٌ وفَضْلٌ ،
والذي عَظَّمَّ على الخلائق أمرك ، لا بَسَطْتُ لسانِي بِمَسْأَلَةٍ أَحَدٍ غيرك ، ولا بَدَّلْتُ
رغبتِي إلا إليك ، يا قَرَّةَ أعين السائلين : أَغْنِنِي بِجُودٍ مِنْكَ أَتَجَبِّحُ^(٤) في فَرَادِيسِ

(١) حج يمح بكسر العين وفتحها : صاح ورفع صوته .

(٢) النجح : النجاح ، والطلبية : ما طلبته . (٣) من كَلَاهُ كَنَمَهُ : حرمه .

(٤) تجبجج : تمكن في المقام والحلول ، وتجبجج الدار : توسطها ، والفرايس جمع فردوس

نعمته ، وأتقلب في رِواقِ نَضْرَتِهِ^(١) أَحْمِلُنِي مِنَ الرَّجْلَةِ^(٢) ، وَأَغْنِنِي مِنَ الْعَيْلَةِ ،
وَاسْدُدْ عَلَيَّ سِتْرَكَ الَّذِي لَا تَحْرِقُهُ الرِّيحُ ، وَلَا تُزِيلُهُ الرِّيحُ ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدَّعَاءِ » .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٨ ، والمعقد الفريد ٣ : ١٣٨)

١١٤ - أدعية شتى

ومات ابن لأعرابي فقال : « اللهم إني وهبتُ له ما قَصَّرَ فيه من برِّي ، فهَبْ لي
ما قَصَّرَ فيه من طاعتك ، فإنك أجود وأكرم » .
(المعقد الفريد ٢ : ٧٩ ، والبيان والتبيين ٣ : ١٣٨)

* * *

ووقف أعرابي في بعض المواسم فقال : « اللهم إن لك عَلَيَّ حَقَّوًّا فَتَصَدَّقْ بِهَا عَلَيَّ ،
وَالنَّاسَ تَبِعَاتٍ قَبْلِي فَتَحْمَلْهَا عَنِّي ، وَقَدْ أَوْجِبْتَ لِكُلِّ ضَيْفٍ قَرِيًّا^(٣) ، وَأَنَا ضَيْفُكَ
اللَّيْلَةَ ، فَاجْعَلْ قَرَايَ فِيهَا الْجَنَّةَ » .
(المعقد الفريد ٢ : ٧٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٨)

* * *

وقال سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ : سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ :
« اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنِي خَيْرَ مَا عِنْدَكَ لِشَرِّ مَا عِنْدِي ، وَإِنْ لَمْ تَتَقَبَّلْ نَعْمِي وَنَصِي ،
فَلَا تَحْرِمْنِي أَجْرَ الْمُصَافِ عَلَيَّ مَصِيبَتِهِ » .
(زهر الآداب ٣ : ١٦٣)

* * *

وقال الأصبهاني : سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ لِرَجُلٍ : « أَطْعَمَكَ اللَّهُ الَّذِي أَطْعَمْتَنِي لَهُ ،
فَقَدْ أَحْيَيْتَنِي بِقَتْلِ جُوعِي ، وَدَفَعْتَ عَنِّي سُوءَ ظَنِّي ، فَحَفِظْتَكَ اللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ جَنْبٍ ، وَفَرَّجَ
عَنكَ كُلِّ كَرْبٍ ، وَغَفَرَ لَكَ كُلَّ ذَنْبٍ » .
(المعقد الفريد ٢ : ٨٤)

* * *

(١) في الأصل « راووق » وهو المصفاة ، وأراه محرفاً عن « رواق » وهو الفساطط ، والنضرة :
النعمة والفضي . (٢) رجل كفرج فهو راجل ورجلان : إذا لم يكن له ظهر يركبه ، والرجلة بالفتح
ويكسر : شدة المشي ، والعيلة : الفقر .
(٣) قرى الضيف كرى ، قرى : أحسن إليه ، والقرى أيضا : ما قرى به الضيف .

عن الأصمعي قال : رأيت أعرابيا يصلّي وهو يقول : أسألك الغفيرة^(١) ،
والناقة الغزيرة ، والشرف في العشيرة ، فإنها عليك يسيرة . (الأمال ٢ : ٢٣)

* * *

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يدعو لرجل فقال : «جَنِّمِكَ اللهُ
الأمريّن^(٢) ، وكفأك شرّ الأجوفين^(٣) ، وأذاكك البرّدين^(٤)» .
(الأمال ٢ : ٧٢ ، والبيان والتبيين ٣ : ١٣٧)

* * *

ودعا أعرابي فقال : «اللهم إني أسألك البقاء ، والنماء ، وطيب الإتياء^(٥) ،
وحطّ الأعداء ، ورفع الأولياء» . (البيان والتبيين ١ : ١٦٣)

* * *

وقال أعرابي : «اللهم لا تُنزلني ماء سوء ، فأكون امرأً سوء» وقال أعرابي .
«اللهم فني عثرات الكرام» . (البيان والتبيين ١ : ٢١٥)

* * *

ووهب رجل لأعرابي شيئاً فقال : «جعل الله للمعروف إليك سبيلاً ، وللخير
عليك دليلاً ، وجعل عندك رِفداً^(٦) جزِيلاً ، وأبقاك بقاء طويلاً ، وأبلاك^(٧)
بلاء جميلاً» .

* * *

وقال الأصمعي : سمعت أعرابيا يدعو وهو يقول : اللهم ارزقني مالا أكبت^(٨)
به الأعداء ، وبنين أصول بهم على الأقوياء» . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٤)

(١) الغفيرة : المغفرة . (٢) الأمران : الفقر والحرم ، أو الجوع والعري . (٣) الأجوفان :
البطن والفرج . (٤) البردان : برد العين وبرد العافية . (٥) الإتياء : الرزق ، من أتت الشجرة
أتوا وإتياء : طلع ثمرها ، أو بدأ صلاحها ، أو كثر حملها . (٦) الرfid : العطاء والصلوة .
(٧) الإتياء : الإنعام والإحسان ، أبليت عنده بلاء حسناً ، وأبلاه الله بلاء حسناً .
(٨) كبت : صرعه وأذله ، ورد العدو بغيظه .

ودعت أعرابية على رجل فقالت : « أمكن الله منك عدواً حسوداً ، ونَجِّعْ بك صديقاً ودوداً ، وسلِّطْ عليكَ هما يُضْنِيكَ ، وجاراً يُؤْذِيكَ » .

(المقصد الفريد ٢ : ٩١)

* * *

ودعا أعرابي فقال : « أعوذ بك من الفَوَاقِرِ ^(١) والبواقر ، ومن جارٍ السوء ، في دار المُقَامَةِ وَالظَّعْنِ ، ومما يَنْكُسُ رأس المرء ، وَيُغْرِى به لثام الناس » .

* * *

وقال أعرابي : « أعوذ بك من سَقَمٍ ، وعداوة ذى رَحِمٍ ودَعْوَاهِ ، ومن فاجِرٍ وَجَدَّوَاهِ ^(٢) ، وعملٍ لا ترضاه » .

(البيان والتبيين ٣ : ١٣٦)

* * *

ودعت أعرابية لرجل فقالت : « كَبَّتَ اللهُ كُلَّ عدوك إلا نَفْسَكَ » .

ودعا أعرابي فقال : « اللهم هب لي حَقَّكَ ، وأرض عني خَلْقَكَ » .

وقال أعرابي : « اللهم إنك أمرتنا أن نَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمْنَا ، وقد ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا فاعف عنا » .

(البيان والتبيين ٣ : ١٣٧)

* * *

وقال أعرابي : « منحكم الله مَنجَةَ لَيْسَتْ بِجَدَاءٍ ، ولا نَكَدَاءٍ ، ولا ذات داء » .

وقال أعرابي : « اللهم إنك حَبَسْتَ عَنَا قَطْرَ السَّمَاءِ ، فَذَابَ الشَّحْمُ ، وَذَهَبَ اللَّحْمُ

وَرَقَّ الْعِظْمُ ، فَارْحَمْ أُنَيْنَ الآئَةِ ، وحنين الحائنة ، اللهم ارحم تحيرها في مرَاتعها ، وأنينها في مرَابضها » .

* * *

(١) للفواقِر جمع فاقرة : وهى الداهية ، والبواقر جمع باقرة : وهى الفتنة الصالحة للألفة الشاقة للمصا .

(٢) الجدوى : العطية .

وحج أعرابي فقال : « اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله ، وإن كان في الأرض فأخرجه ، وإن كان نائياً فقرّبه ، وإن كان قريباً فيسرّه » .
(البيان والتبيين ٣ : ١٢٨)

* * *

ومات ولد لرجل من الأعراب فصلى عليه ، فقال : « اللهم إن كنت تعلم أنه كريم الجدين ، سهل الجدين ، فاغفر له وإلا فلا » .
(الأمان ١ : ٢٠٢)

* * *

وقالت أعرابية لرجل : « رماك الله بيلة لا أخت لها » أي لا تمش بعدها .
(الأمان ١ : ٢١٧)

* * *

ودعا أعرابي فقال : « اللهم إني أعوذ بك أن أفتقر في غناك ، أو أضلّ في هداك ، أو أذلّ في عزك ، أو أضامّ في سلطانك ، أو أضطهدّ الأمر إليك » .
(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

* * *

وقال الأعمى : سمعت أعرابية تقول : « اللهم ارزقني عمّل الخائفين ، وخوف العاملين ، حتى أنعم بترك التعم ، رجاء لما وعدت ، وخوفاً مما أوعدت » .
وقال آخر : « اللهم من أراد بنا سوءاً فأحطه به كإحاطة القلائد ، بأعناق الولائد^(١) ، وأرسخه على هامته كرسوخ السجيل^(٢) ، على هام أصحاب الفيل » .
(زهر الآداب ٣ : ٢٤٦)

(١) الولائد جمع وليدة : وهي الصبية . (٢) السجيل : طين مطبوخ ، يشير إلى قوله تعالى :

« وَأَرْسَلْ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ » وأبابل أي جماعات .

١١٥ - نوادر وملح لبعض الأعراب

«غزا أعرابي مع النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له : ما رأيتَ مع رسولِ الله
في غزاتك هذه ؟ قال : وَضَعْنَا نِصْفَ الصَّلَاةِ^(١) ، وَأَرْجُو فِي الْغَزَاةِ الْآخَرَى أَنْ يَضَعَ
النِّصْفَ الْبَاقِي .»

* * *

وَدَخَلَ أَعْرَابِي الْمَسْجِدَ ، وَالنَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا ، فَقَامَ يَصَلِّي ، فَلَمَّا فَرَغَ ،
قَالَ : اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمَحَمَّدًا ، وَلَا تَرْحَمْ مَعْنَا أَحَدًا ، « فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :
لَقَدْ تَحَجَّرَتْ^(٢) وَاسِعًا يَا أَعْرَابِي .»

* * *

وَخَرَجَ الْحِجَابُ مَتَّصِدًا بِالْمَدِينَةِ ، فَوَقَفَ عَلَى أَعْرَابِي يَرْعَى إِبْلَاءً لَهُ ، فَقَالَ لَهُ :
يَا أَعْرَابِي ، كَيْفَ رَأَيْتَ سِيرَةَ أَمِيرِكُمُ الْحِجَابِ ؟ قَالَ لَهُ الْأَعْرَابِيُّ : غَشُومٌ ظَلُومٌ ،
لَا حَيَاةَ لِلَّهِ ، فَقَالَ : فَلِمَ لَا تَشْكُوهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ الْمَلِكِ ؟ قَالَ : فَأَظْلَمُ
وَأَعْشَمُ ! فَيُنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا حَاطَتْ بِهِ الْخَيْلُ ، فَأَوْمَأَ الْحِجَابُ إِلَى الْأَعْرَابِيِّ ، فَأَخَذَ
وَحَلَّ ، فَلَمَّا صَارَ مَعَهُ ، قَالَ : مِنْ هَذَا ؟ قَالُوا لَهُ : الْحِجَابُ ، فَحَرَّكَ دَابَّتَهُ حَتَّى صَارَ
بِالْقُرْبِ مِنْهُ ، ثُمَّ نَادَاهُ يَا حِجَابُ ، قَالَ : مَا تَشَاءُ يَا أَعْرَابِي ؟ قَالَ : السِّرَّ الَّذِي بَيْنِي
وَبَيْنَكَ أَحِبُّ أَنْ يَكُونَ مَكْتُومًا ، فَضَحِكَ الْحِجَابُ ، وَأَمَرَ بِتَخْلِيَةِ سَبِيلِهِ .

* * *

« وَخَرَجَ أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَاحُ مَتَنَزِّهًا بِالْأَنْبَارِ ، فَأَمْعَنَ فِي نَزْهَتِهِ ، وَانْتَبَذَ مِنْ أَصْحَابِهِ ،
فَوَافِي خِبَاءٍ لِأَعْرَابِي ، فَقَالَ لَهُ الْأَعْرَابِيُّ : مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟ قَالَ : مِنْ كِنَانَةَ ، قَالَ : مِنْ أَى
كِنَانَةَ ؟ قَالَ : مِنْ أَبْغَضِ كِنَانَةَ إِلَى كِنَانَةَ ، قَالَ : فَأَنْتَ إِذْنُ مِنْ قَرِيشٍ ؟ قَالَ :

(١) يعني صلاة الفجر . (٢) أي ضيقت ما وسعه الله وخصصت به نفسك دون غيرك .

نعم ، قال : فمن أى قريش ؟ قال : من أبغض قريش إلى قريش ، قال : فأنت إذن من ولد عبد المطلب ؟ قال : نعم ، قال : فمن أى ولد عبد المطلب ؟ قال : من أبغض ولد عبد المطلب إلى ولد عبد المطلب ، قال : فأنت إذن أمير المؤمنين ، السلام عليك يا أمير المؤمنين ، ووثب إليه ، فاستحسن ما رأى منه ، وأمر له بمجازة .

* * *

وولّى يوسف بن عمر الثَّقَفِيَّ صاحب العراق أعرابياً على عمل له ، فأصاب عليه خيانة فعزله ، فلما قدم عليه ، قال له : يا عدوّ الله ، أكلت مال الله ، قال الأعرابي : فقال مَنْ آكُلُ إِذَا لَمْ آكُلْ مَالَ اللَّهِ ؟ لقد راودتُ إبليس أن يُعطيني فلساً واحداً فما فعل ، فضحك منه وخلّى سبيله .

* * *

وأخذ الحجاج أعرابياً لصاً بالمدينة فأمر بضربه ، فلما قرعه بسوط قال : يارب شكراً ، حتى ضربه سبعمائة سوط ، فلقىهُ أشعب ، فقال له : تدري لمّ ضربك الحجاج سبعمائة سوط ؟ قال : لماذا ؟ قال : لكثرة شكرك ، إن الله تعالى يقول : « لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » ، قال : وهذا في القرآن ؟ قال : نعم ، فقال الأعرابي :

يارب لا شكراً فلا تزدني أسأت في شكري فاعف عني
باعد ثواب الشاكرين مني

* * *

ونزل عبد الله بن جعفر إلى خيمة أعرابية ولها دجاجة ، وقد دجنت (١) عندها ، فذبحتها وجاءت بها إليه ، فقالت : يا أبا جعفر هذه دجاجة لي كنت أدجنها وأعلمها من قوتي ، وألمسها في آناء الليل ، فكأنما ألمس بنتي زلت عن كبدي ، فندرتُ لله أن

(١) دجن الحمام والغاة وغيرهما كنصر : ألقت البيوت .

أدفعها في أكرم بقعة تكون ، فلم أجد تلك البقعة المباركة إلا بطنك ، فأردت أن أدفنها فيه ، فضحك عبد الله بن جعفر ، وأمر لها بخمسة درهم .

* * *

وسُرع أعرابي وهو يقول في الطواف : « اللهم اغفرْ لأُمي » ، فقيل له : مالك لاتذكر أباك ؟ قال : أبي رجل يَحْتال لنفسه ، وأما أمي فبأسة ضعيفة .

* * *

« وقال أبو زيد : رأيت أعرابياً كأنَّ أنفه كوز ، من عظمه ، فرآنا نضحك منه ، فقال : ما يُضحِكُكم ؟ فوالله لقد كنت في قوم ، ما كنت فيهم إلا أفطس ! » .

* * *

« وجرى بأعرابي إلى السلطان ومعه كتاب قد كتب فيه قصته ، وهو يقول : « هاؤمُ أقرءوا كتابي » ، فقيل له يقال هذا يوم القيامة ، قال : « هذا والله شر من يوم القيامة ، إن يوم القيامة يؤتى بحسناتي وسيئاتي ، وأنتم جتم بسئاتي وتركتم حسناتي » .

* * *

« واشترى أعرابي غلاماً فقيل للبائع : هل فيه من عيب ؟ قال : لا ، إلا أنه يبول في الفراش ، قال ، هذا ليس بعيب ، إن وجد فراشاً فليُبَل فيه » .

* * *

ومرَّ أعرابي بقوم وهو ينشد ابناً له ، فقالوا له ، صِفْهُ ، قال : كأنه دُنِينير ، قالوا : لم نره ، ثم لم يلبث القوم أن أقبل الأعرابي ، وعلَى عنقه جُعل^(١) ، فقالوا ، هذا الذي قلت فيه دُنِينير ؟ قال ، القَرْنَبِي^(٢) في عين أمها حسناء .

* * *

(١) الجمل : الحرياء .

(٢) القرنبي : دويبة من خشاش الأرض فوق الحنفاء إذا مصها أحلقتبضت فصارت مثل النكرة .

وقيل لأعرابي ، ما يمنعك أن تغزو؟ قال ، والله إني لأبغض الموت على فراشي ، فكيف أن أمضى إليه رَكْضًا؟ .

* * *

« وخرج أعرابي إلى الحج مع أصحاب له ، فلما كان ببعض الطريق راجعاً يريد أهله ، لقيه ابن عمّه له ، فسأله عن أهله ومنزله ، فقال ، اعلم أنك لما خرجت ، وكانت لك ثلاثة أيام ، وقع في بيتك الحريق ، فرفع الأعرابي يديه إلى السماء ، وقال : ما أحسن هذا يارب ! تأمرنا بعمارة بيتك أنت ، وتخرّب بيوتنا ! » .

* * *

وخرجت أعرابية إلى الحج ، فلما كانت في بعض الطريق عطيت راحلتها ، فرفعت يديها إلى السماء ، وقالت ، « يارب أخرجنى من بيتي إلى بيتك ، فلا بيتي ولا بيتك ! » .

* * *

وعرّضت السجون بعد هلاك الحجاج ، فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً ، لم ينج على واحد منهم قتل ولا صلّب ، وفيهم أعرابي ، أخذ يبول في أصل مدينة واسط ، فكان فيمن أطلق ، فأنشأ يقول :

إذا ما خرجنا من مدينة واسطٍ خرينا وبلنا لا تخاف عقابا

* * *

ونظر أعرابي إلى قوم يلتمسون هلال شهر رمضان فقال : « والله لن آثرتموه لتمسكن منه بدناي^(١) عيش أغبر » .

* * *

ونظر أعرابي إلى رجل سمين فقال « أرى عليك قليفة من نسج أضراسك » .

* * *

وقال أعرابي : « اللهم إني أسألك مِيتَةً كَمِيتَةِ أَبِي خَارِجَةَ ، أكل بَدَجًا ^(١) ،
وشرب مِشْعَلًا ^(٢) ، ونام في الشمس ، فمات دَفَّانَ شِيعَانَ رِيَّانَ » .

* * *

وقيل لأبي المِخْشِ الأعرابي : أَيَسْرُكَ أَنْك خَلِيفَةٌ ، وَأَنْ أُمَّتَكَ حُرَّةٌ ،
قال : لا والله ما يسرني ، قيل له : ولم ؟ قال ، « لأنها كانت تذهب الأمة ،
وتضيع الأمة » .

* * *

وحضر أعرابي سُفْرَةَ سُلَيْمَانَ بن عبد الملك ، فجعل يمرّ إلى ما بين يديه ، فقال له
الحاجب مما يليك فَكُلْ يا أعرابي ، فقال : من أجذب انتجع ، فشقّ ذلك على سليمان
وقال للحاجب : إذا خرج عنا فلا يَعدُّ إلينا .

* * *

وشهد بعد هذا سُفْرَتَهُ أعرابي آخر ، فرّ إلى ما بين يديه أيضاً ، فقال له الحاجب ،
مما يليك فكل يا عرابي ، قال : من أخصب تحيّر ، فأعجب ذلك سليمان ، فقربه
وأكرمه وقضى حوائجه .

« وحضر أعرابي سفرة سليمان بن عبد الملك ، فلما أتى بالفألوذج ، جعل يُسرِع فيه ،
فقال سليمان : أتدرى ما تأكل يا أعرابي ، فقال : بلى يا أمير المؤمنين إني لأجد ريقاً
هنيئاً ، ومُزْدَرَدًا ^(٣) لَيْتًا ، وأظنه الصراط المستقيم الذي ذكره الله في كتابه ، فضحك
سليمان وقال : أزيدك منه يا أعرابي ؟ فإنهم يذكرون أنه يزيد في الدماغ ، قال :
كذبوك يا أمير المؤمنين ، لو كان كذلك لكان رأسك مثل رأس البغل ! » .

* * *

« وحضر سفرة سليمان أعرابي ، فنظر إلى شَعْرَةٍ في لُقْمَةِ الأعرابي ، فقال : أرى

(١) البنج : وله الضأن .

(٢) المشعل : شيء من جلود له أربع قوائم ينبل فيه ، وشرب مشعلا أي شرب مافيه .

(٣) ازدرده : ابعلمه .

شعرة في لعمتك يا أعرابي، قال، وإني لتراعيني مُرَاعاة من يُبَصِّر الشعرة في لعمتي !
وَاللَّهِ لَا وَاكُلْتِكَ أَبَدًا» ، فقال : استرها يا أعرابي ، فَإِنِهَا زَلَّةٌ ، وَلَا أَعُودُ لِمِثْلِهَا .

* * *

وقال الأصمعي : قلت لأعرابي : أَتَهْمَزُ^(١) إِسْرَائِيلَ ؟ قال : إني إِذْنُ لِرَجُلٍ سَوْءٍ ،
قلت له : أَفَتَجْرُ فِلَسْطِينَ ؟ قال : إني إِذَا لَقَوِيَّ .

* * *

وسمع أعرابي إماماً يقرأ : « وَلَا تُنْكِحُوا^(٢) الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا » - قرأها
بفتح التاء - فقال : وَلَا إِنْ آمَنُوا أَيْضًا لَمْ نَنْكِحْهُمْ ، فَقِيلَ لَهُ إِنَّهُ يَلْحَنُ وَلَيْسَ هَكَذَا
يُقْرَأُ ، فَقَالَ : « أَخْرَوْهُ قَبْضَهُ اللَّهُ ! لَا تَجْمَعُوهُ إِمَامًا ، فَإِنَّهُ يَحِلُّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ » .
(المعقذ الفرهد ٢ : ١٠٠ - ١٠٥)

* * *

وخطب أعرابي فلما أمجله بعضُ الأمر عن التصدير بالتحميد ، والاستفتاح بالتمجيد ،
قال : « أما بعد ، بغير ملالٍ لذكر الله ، ولا إيثارٍ غيره عليه ، فَإِنَا نقول كذا ، ونسأل
كذا » فراراً من أن تكون خطبته بترأء وشوْهَاء^(٣) .
(البيان والتبيين ٢١٢ : ٢١٥)

* * *

ودفعوا إلى أعرابية عِلْكَا^(٤) لَمْ تُضْفِهْ ، فلم تفعل ، فقيل لها في ذلك ، فقالت :
« مَا فِيهِ إِلَّا تَعَبُ الْأَضْرَاسِ ، وَخَيْبَةُ الْحَنْجَرَةِ » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

* * *

(١) من معاني المنز : الفنز . (٢) أي تزوجوا .
(٣) وكانوا يسمون الخطبة التي لم يبتدئ صاحبها بالتحميد ، ويستفتح كلامه بالتمجيد «البراء» ويسمون
التي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم «الشوْهَاء» .
(٤) للملك : البيان (بالضم) .

وقيل لأعرابي : عند مَنْ تحب أن يكون طعلمك ؟ قال : « عند أم صبي راضع ،
أو ابن سبيل شاسع ، أو كبير جائع ، أو ذى رحم قاطع » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٩)

• • •

وقال أعرابي :

« لولا ثلاث هُنَّ عيشُ الدهرِ الماء ، والنوم ، وأم عمرو ،
لما خَشِيتُ من مَضِيقِ القبرِ » .

(البيهق والتبيين ٢ : ١٠١)

• • •

وسمع أعرابي رجلاً يقرأ سورة براءة فقال : « ينبغي أن يكون هذا آخر القرآن » ،
قيل له : ولم ؟ قال : « رأيت عهداً تُنبذ » .
(البيان والتبيين ٢ : ١٦٩)

• • •

وسمع أعرابي رجلاً يقرأ : « وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وُدُسْرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا
جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرًا^(١) » ، قلها بفتح الكاف ، فقال الأعرابي : « لا يكون » ،
فقرأها عليه بضم الكاف وكسر الفاء ، فقال الأعرابي : « يكون » .
(البيان والتبيين ٢ : ١٧٤)

(١) ذات الألواح والُدسر : هم السفينة ، والُدسر ما تشد به الألواح من المسامير وغيرها جمع دسار
ككتاب ، بأعيننا : بهرأى منا أى محفوظة ، وقد جرى كُفر بالبناء لفظاً ، أى الكافرين : أفرقوا
حقابهم .

الباب الرابع

في

خطب النكاح

١ - خطبة قريش في الجاهلية

روى الجاحظ قال :

كانت خطبة قريش في الجاهلية - يعني خطبة النساء :

« باسمك اللهم ، ذُكِرَتْ^(١) فلانة ، وفلانٌ بها مشغوفٌ ، باسمك اللهم ، لك ما سألتَ ولنا ما أعطيتَ » .

٢ - خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في زواج السيدة فاطمة

« الحمد لله الحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المرهوب من عذابه ، المرغوب فيما عنده ، النافذ أمره في سمائه وأرضه ، الذي خالق الخلق بقدرته ، وميزهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه ، وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه . ثم إن الله تعالى جعل المصاهرة نسباً لا حقاً ، وأمرأاً مُقْتَرَضاً ، وَوَشَّجَ^(٢) به الأرحام ، وألزمه الأنام ، قال تبارك اسمه ، وتعالى ذكره :

(١) ذكر فلان فلانة ذكراً (بفتح فسكون) : خطبها أو تعرض لخطبتها .

(٢) وشجت العروق والأغصان كورعد : اشتبكت والتفت وتداخلت ، ورحم واشجة ووشيجة :

مشتبكة متصلة ، وقد وشجها الله توشيجاً ، وفي الأصل : « وشيج به الأرحام » وأراه محرفاً .

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا » ، فَأَمَرَ اللَّهُ يَجْرَى إِلَى قَضَائِهِ ، وَلِكُلِّ قَضَاءٍ قَدْرٌ ، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلٌ « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » .

ثم إن ربِّي أمرني أن أزوجه فاطمة من عليّ بن أبي طالب ، وقد زوجتها إياه على أربعمئة مثقال فضة ، إن رضيت بذلك عليّ .

٣ - خطبة الإمام عليّ - كرم الله وجهه

وخطب الإمام عليّ كرم الله وجهه حين تزوج بالسيدة فاطمة رضي الله عنها فقال : « الحمد لله الذي قرّب من حامديه ، ودنا من سائليه ، ووعد بالجنة من يتقيه ، وقطع بالنار عدد من يعصيه . أحمداء بجميع محامده وأياديه ، وأشكره شكر من يعلم أنه خالقه وباريه ، ومصوره ومُنشيه ، وممّيته ومُحمّيه ، ومقرّبه ومنجيه ، ومُثبّيه ومجازه ، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تبلغه وترضيه ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله صلاة تُزلفه وتُدنيه ، وتعزّه وتُعليه ، وتشرفه وتجتبيه .

أما بعد : فإن اجتماعنا مما قدره الله تعالى ورضيه ، والنكاح ما أمر الله به وأذن فيه ، وهذا محمد صلى الله عليه وسلم قد زوجني فاطمة ابنته على صدّاق أربعمئة درهم وثمانين درهماً ، ورضيت به فأسأله ، وكفى بالله شهيداً .

٤ - خطبة عتبة بن أبي سفيان

خطب عثمان بن عفّسة بن أبي سفيان إلى عتبة بن أبي سفيان ابنته ، فأقعه عليّ فخذ ، وكان حدثاً فقال :

« أقرب قريب ، خطب أحبّ حبيب ، لا أستطيع له ردّاً ، ولا أجد من إسعافه بدءاً ، قد زوجتكها وأنت أعزُّ عليّ منها ، وهي ألصقُ بقلبي منك ، فأكرّمها يعذبُ

عَلَى لِسَانِي ذِكْرُكَ، وَلَا تَهْنِئْهَا فَيَصْفُرَ عِنْدِي قَدْرُكَ، وَقَدْ قَرَّبْتُكَ مَع قُرْبِكَ، فَلَا تُبْعِدْ قَلْبِي مِنْ قَلْبِكَ» .

٥ - خطبة شبيب بن شيبه

وقال العتيبي: زَوْجُ شَيْبَةَ ابْنَةِ بِنْتِ سِوَارٍ^(١) الْقَاضِي، فَقَلْنَا: الْيَوْمَ يَعْْبُ عِبَابُهُ^(٢)، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَكَلَّمُ فَقَالَ:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، أَمَا بَعْدُ: فَإِنَّ الْمَعْرِفَةَ مِنَّا وَمِنْكُمْ، بِنَا وَبِكُمْ^(٣)، تَمْنَعُنَا مِنَ الْإِكْثَارِ، وَإِنْ فَلَانًا ذَكَرَ فَلَانَةٌ» .

٦ - خطبة الحسن البصري

«وكان الحسن البصري يقول في خطبة النكاح، بعد الحمد والثناء عليه:

«أما بعد، فإن الله جمع بهذا النكاح الأرحامَ المنقطعة، والأنسابَ المتفرقة، وجعل ذلك في سنة من دينه، ومنهاج واضح من أمره، وقد خُطِبَ إِلَيْكُمْ فَلان، وعليه من الله نعمةٌ، وهو يبذل من الصَّدَاقِ كذا، فاستخِيرُوا اللَّهَ، وَرُدُّوا خَيْرًا، يَرْحَمَكُمُ اللَّهُ» .

٧ - خطبة ابن الفقير

وقال العتيبي: حضرت ابن الفقير خطب على نفسه امرأةً من باهلة فقال:

«وما حسنٌ أن يمدح المرء نفسه ولكن أخلاقاً تدمُّ وتمدح
وإن فلانة ذُكِرَتْ لِي» .

(١) هو سوار بن عبد الله من قضاة البصرة وخطبائها - انظر البيان والتبيين ١ : ١٦١ - وقرأ في أمالي السيد المرتضى ٤ : ٢٢ حديثاً قريباً للجاحظ عنه في وقاره وضبطه من نفسه ولمسكه من حركته -
(٢) لأن والدي المروسين خطيبان . (٣) أي المعرفة منا بكم ؛ والمعرفة منكم بنا .

٨ - خطبة عمر بن عبد العزيز

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز :
« قد زوّجك أمير المؤمنين ابنته فاطمة » ، قال : « جزاك الله يا أمير المؤمنين خيراً ،
فقد أجزلت العطية ، وكفيت المسألة » .

٩ - خطبة أخرى له

وحدث محمد بن عبيد الله القرشي عن أبي المقدم قال :
كانت قريش تستحسن من الخاطب الإطالة ، ومن الخطوب إليه التقصير ^(١) ،
فشهدت محمد بن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان خطب إلى عمر بن عبد العزيز أخته أم عمر
بنت عبد العزيز ، فتكلم محمد بن عبد الوليد بكلام جاز الحفظ ، فقال عمر :
« الحمد لله ذى الكبرياء ، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء ، أما بعد : فإن الرغبة
منك دعتك إلينا ، والرغبة فيك أجابتك منا ، وقد أحسن بك ظناً من أودعك
كريمته ، واختارك ولم يختَر عليك ، وقد زوجتكها على كتاب الله : إمساكاً بمعروفٍ
أو تسريحٍ بإحسان » .

١٠ - خطبة بلال

وخطب بلال إلى قوم من خشم لنفسه ولأخيه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أنا بلال وهذا أخي ، كنا ضالّين فهدانا الله ، عبدين فأعتقنا الله ، فقيرين
فأغنانا الله ، فإن تزوجونا فالحمد لله ، وإن ترُدُّونا فالاستعانة بالله » .

(١) وكذلك روى الجاحظ في البيان والتبيين (١ : ٦٤) قال : « والسنة في خطبة النكاح أن يطيل
الخطاب ، ويقصر المحبب » والحصرى في زهر الآداب (٢ : ٣١) قال الأصبغى : « كانوا يستحبون من
الخطاب إل الرجل حرمة الإطالة ، لتدل على الرغبة ، ومن الخطوب إليه الإيجاز ليدل على الإجابة » .

١١ - خطبة خالد بن صفوان

وزوج خالد بن صفوان مولاة من أمته ، فقال له العبد : لو دعوت الناس وخطبت !
قال : أدعهم أنت ، فدعاهم العبد ، فلما اجتمعوا ، تكلم خالد بن صفوان ، فقال :
« أما بعد : فإن الله أعظم وأجل من أن يُذكر في نكاح هذين الكلبين ، وأنا
أشهدكم أي زوجت هذه الزانية من هذا ابن الزانية » .

١٢ - خطبة أعرابي

وخطب الفضل الرقاشي إلى قوم من بني تميم فخطب لنفسه ، فلما فرغ قام أعرابي
منهم فقال :
« تَوَسَّلْتَ بِمُجْرِمَةٍ ، وَأَوْلَيْتَ بِحَقٍّ ، وَاسْتَنْدَتَ إِلَى خَيْرٍ ، وَدَعَوْتَ إِلَى سُوءَةٍ ،
فَقَرَضْتُكَ مَقْبُولٌ ، وَمَا سَأَلْتَ مَبْذُولٌ ، وَحَاجَتُكَ مَقْضِيَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » .
قال الفضل : لو كان الأعرابي حمد الله في أوّل كلامه ، وصلى على النبي صلى الله
عليه وسلم لفصحني يومئذ .»

١٣ - خطبة المأمون

وقال يحيى بن أكرم : أراد المأمون أن يزوجه ابنته من علي بن موسى الرضا ،
فقال : يا يحيى تكلم ، فأجلسته أن أقول : « أنكحت » ، فقلت : يا أمير المؤمنين ،
أنت الحاكم الأكبر ، والإمام الأعظم ، وأنت أوّلَى بالكلام ، فقال :
« الحمد لله الذي تصاغرت الأمور بمشيئته ، ولا إله إلا هو إقراراً بربوبيته ،
وصلى الله على محمد عند ذكره ، أما بعد : فإن الله قد جعل النكاح ديناً ، ورضيه حكماً
وأنزله وحياً ، ليكون سبب المناسبة ، ألا وإني قد زوجت ابنة المأمون من علي بن موسى ،

وأمرتها أربعمائة درهم ، اقتداءً بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، واتمها إلى ما درج إليه السلف ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

وخطب رجل إلى قوم ، فأبى بمن يخطب له ، فاستفتح بحمد الله ، وأطال ، وصلى على النبي عليه الصلاة والسلام ، وأطال ، ثم ذكر البدءَ وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، واقتصَّ ذِكْرَ الْقُرُونِ ، حتى ضَجِرَ مَنْ حَضَرَ ، والتفت إلى الخاطب ، فقال : ما أَسْمُكَ أَعَزَّكَ اللَّهُ ؟ فقال : والله قد أُسِّيتُ أُسْمِي من طول خطبتك ، وهي طالقٌ إن تزوجتها بهذه الخطبة ، فضحك القوم ، وعقدوا في مجلس آخر .

(مفتاح الأفكار ص ٦٢ ، ومواسم الأدب ٢ : ١٢٠ ، ولعمدة القريه ٢ : ١٦٣)

وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٢١٥ ،

٢١٧ - ٢ : ٥٠ : ١٣٠ - ٣ : ٢٢١ ، وزهر الآداب ٢ : ٣٠ ، ٣١)

الباب الخامس

في

خطب من أرتج عليهم

ونوادر طريفة لبعض الخطباء

روى الجاحظ قال : صعدَ عثمان بن عفَّانَ رضَى اللهُ تعالى عنه المنبرَ ، فأرْتَجَ

عليه ، فقال :

« إن أبا بكر وعمر كانا يُعِدَّان لهذا المقام مقالا ، وأتم إلى إمام عادل أحوجُ منكم

إلى إمام خطيب » .

* * *

وروى ابن عبد ربه قال : أول خطبة خطبها عثمان بن عفَّانَ أرْتَجَ عليه ، فقال :

« أيها الناس : إن أوَّلَ كلِّ مرَّةٍ كَبَّ صعب ، وإن أعشَ نأتِكم الخطبُ على

وجهها ، وسيجعل اللهُ بعد عُسْرٍ يُسْرًا إن شاء اللهُ » .

* * *

ولما قدِمَ يزيد بن أبي سُفيان الشام والياً عليها لأبي بكر ، خطب الناس فأرْتَجَ عليه ،

فعاد إلى الحمد لله ، ثم أرْتَجَ عليه ، فعاد إلى الحمد لله ، ثم أرْتَجَ عليه ، فقال :

« يا أهل الشام ، عسى اللهُ أن يجعل من بعد عُسْرٍ يُسْرًا ، ومن بعدِ عِيٍّ بيانًا ،

وأتم إلى إمامٍ فاعل^(١) ، أَحْوَجُ منكم إلى إمام قائل^(٢) » ، ثم نزل ، فبلغ ذلك عمرو بن العاص فاستحسنه .

* * *

وكان يزيد بن المهلب وليّ ثابت قُطَنَة^(٣) بعض قرى خراسان^(٤) ، فلما صعد المنبر يوم الجمعة ، قال : الحمد لله ، ثم أرتج عليه ، فنزل وهو يقول :

فَالَا أَكُنْ فِيكُمْ خَطِيبًا فَإِنِّي بَسْفِي إِذَا جَدَّ الْوَعْيَى تَخَطِيبُ
فقيل له : « لو قلتها فوق المنبر ، لكنت أخطب الناس » .

* * *

وخطب معاوية بن أبي سفيان لما وليّ ، فَحَصِرَ فقال :

« أيها الناس : إني كنت أعددتُ مقالا أقوم به فيكم ، فَحَجِبتُ عنه ، فإن الله يحُولُ بين المرءِ وقلبه ، كما قال في كتابه^(٥) ، وأتم إلى إمام عدل ، أَحْوَجُ منكم إلى إمام خطيب ، وإني أمرُكم بما أمر الله به ورسوله ، وأنها كم عما نهاكم الله عنه ورسوله ، وأستغفر الله لي ولكم » .

* * *

وَصَعِدَ خالد بن عبد الله القسريّ يوماً المنبر بالبصرة ليخطب فأرتج عليه ، فقال :

(١) في عيون الأخبار : « إمام عادل » . (٢) وفي أمالي السيد المرتضى أن هذا القول يروي لثمان بن عфан ، وفي روايتها : « إمام فعال » و « إمام قوال » بصيغة المبالغة ، وفي الأغاني أنه يروي لثابت قطنه ، وفيه : « أمير فعال » و « أمير قوال » .

(٣) هو ثابت بن كعب ، ولقب قطنه لأن سهماً أصابه في إحدى عينيه ، فذهب بها في بعض حروب الترك ، فكان يحمل عليها قطنه ، وهو شاعر فارس شجاع من شعراء الدولة الأموية ، وكان في صحابة يزيد بن المهلب ، وكان يوليه أعمالاً من أعمال الثغور ، فيحمد فيها مكانه لكفايته وشجاعته ، وقد مال إلى قول المرجئة ، وله قصيدة في الإرجاء ، انظر ترجمته في الأغاني ج ١٣ ص ٤٧ .

(٤) وفي رواية : أنه خطب على منبر سجستان ، وفي رواية الطبري : « فخطب الناس فحصر فقال : من يطع الله ورسوله فقد ضل » وأرتج عليه فلم ينطق بكلمة ، فلما نزل عن المنبر قال البيت المذكور .

(٥) الآية الكريمة : « وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ يُحْشَرُونَ » .

« أيها الناس : أما بعد ، فإن هذا الكلام يَجِيءُ أحياناً ، وَيَعزُبُ أحياناً ، فَيَسِيحُ عند جَبيته سَيِّئُهُ ^(١) ، وَيَعزِّزُ عند عَزُوْبِهِ طَلَبُهُ ، ولربما كُوِبَ فَأَبَى ^(٢) ، وَعَوَّلَجَ فَنَأَى ، فَالتَّائِي ^(٣) لِحِيهِ ، خَيْرٌ مِنَ التَّعَاطَى لِأَبِيهِ ، وَتَرَكَهُ عند تَنَكُّرِهِ ، أَفْضَلُ مِنَ طَلَبِهِ عند تَعَدُّرِهِ ، وَقَدْ يَخْتَلِجُ ^(٤) مِنَ الجُرَىءِ جَنَانُهُ ، وَيَنْقَطِعُ مِنَ الذَّرْبِ ^(٥) لِسَانُهُ ، فَلَا يُبْطِرُهُ ذَلِكَ وَلَا يَكْسِرُهُ ، وَسَاعُودٌ فَأَقُولُ إِنْ شَاءَ اللهُ » ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَهَارَى حَصِرًا أَبْلَغَ مِنْهُ .

* * *

وصعد أبو العنْبَسِ مِنْبَرًا مِنْ منابر الطائف ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
أما بعد ، فأرتج عليه ، فقال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ؟ قالوا : لا ، قال :
فما ينفعني ما أريد أن أقول لكم ، ثم نزل ؛ فلما كان في الجمعة الثانية ، وصعد المنبر
وقال : أما بعد ، أرتج عليه ، فقال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ؟ قالوا : نعم ،
قال : فما حاجتكم إلي أن أقول لكم ما علمتم ؟ ثم نزل ؛ فلما كانت الجمعة الثالثة ،
قال : أمّا بعد : فأرتج عليه ، قال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ؟ قالوا :
بعضنا يدرى ، وبعضنا لا يدرى ، قال : فليُخبرِ الذي يدرى منكم الذي لا يدرى ،
ثم نزل .

* * *

وولى اليمامة رجل من بنى هاشم يعرف بالِدَّندَانِ ، فلما صعد المنبر أرتج عليه ،
فقال :

(١) السيب : العطاء ، وفي رواية : « فيتسبب عند جيبته سببه » .

(٢) وفي رواية : « فعمسا » أى اشتد وصعب . (٣) تأتي له : ترفق ، وفي رواية :

« فالتائي » بالنون . (٤) يضطرب .

(٥) الحاد اللسان : وفي رواية : « ويرتج على البلبلج لسانه » ، وفي أخرى : « وقد يرتج على

اللسن لسانه ، ولا ينظره للقول إذا اتسع ، ولا يعيسر إذا امتنع ، ومن لم تمكن له الخطوة ، فخليق أن
تغن له النبوة » وفي أخرى : « وقد يتعاصى على للذرب لسانه ، ثم لا يكابر للقول إذا امتنع ، ولا يرد
إذا اتسع ، وأولى الناس من عذر على النبوة ، ولم يؤاخذ على الكبوة ، من عرف ميدانه ، اشتهر إحسانه
وساعود وأقول » .

« حَيَّاَ اللهُ هَذِهِ الْوَجُوهَ ، وَجَعَلَنِي فِدَاءَهَا ، إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ طَائِفِي بِاللَّيْلِ أَنْ لَا يَرَى أَحَدًا إِلَّا أَنَا نِي بِهِ ، وَإِنْ كُنْتُ أَنَا هُوَ » ، ثُمَّ نَزَلَ .

* * *

وخطب عبد الله بن عامر^(١) بالبصرة في يوم أضْحَى ، فَأُتِيَ عَلَيْهِ ، فَكَثَّ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ :

« وَاللَّهِ لَا أَجْمَعُ عَلَيْكُمْ عِيًّا وَكُؤُومًا ، مِنْ أَخْذِ شَاةٍ مِنَ السُّوقِ فَهِيَ لَهُ ، وَثَمْنُهَا عَلَيَّ » .

* * *

قال الجاحظ : ولما حَصَرَ عبد الله بن عامر على منبر البصرة ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ زِيَاد : « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّكَ إِنْ أَقَمْتَ عَامَّةَ مَنْ تَرَى ، أَصَابَهُ أَكْثَرُ مِمَّا أَصَابَكَ » .

* * *

وكان سعيد بن بَحْدَلِ السَّكَلَبِيِّ عَلَى قِنَاسِرِينَ^(٢) ، فَوُتِبَ عَلَيْهِ زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ ، فَأَخْرَجَهُ مِنْهَا ، وَبَاعَ لِابْنِ الزَّيْبِرِ^(٣) ، فَلَمَّا قَعَدَ زُفَرٌ عَلَى الْمَنْبَرِ قَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَقْعَدَنِي مَقْعَدَ الْغَادِرِ الْفَاجِرِ » ، وَحَصَرَ ، فَضَحِكَ النَّاسُ مِنْ قَوْلِهِ .

* * *

وصعد عَدِيُّ بْنُ أَرْطَاةَ^(٤) الْمَنْبَرِ ، فَلَمَّا رَأَى جَمَاعَةَ النَّاسِ حَصَرَ فَقَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُطْعِمُ هَؤُلَاءِ وَيُسْتَقِيمُهُمْ » .

* * *

وصعد رَوْحُ بْنُ حَاتِمِ الْمَنْبَرِ ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ شَفَّنُوا^(٥) أَبْصَارَهُمْ ، وَفَتَحُوا أَسْمَاعَهُمْ نَحْوَهُ ،

(١) انظر هامش الجزء الأول ص ٣٥٥ . (٢) كورة بالشام . (٣) انظر هامش الجزء

الثاني ص ١٤١ .

(٤) كان عامل يزيد بن عبد الملك على البصرة .

(٥) شفة كضربة وعلمه شفونا: نظر إليه بمؤخر عينيه، أو رفع طرفه ناظرا إليه كالمتعجب أو كالكاره

بَحَصِرَ قَتَالَ : « نَكَسُوا رءُوسَكُمْ ، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، فَإِنَّ الْمَنِيرَ مَرَّ كَبَّ صَعْبٌ ، وَإِذَا يَسَّرَ اللَّهُ فَتَنَحَّ قُفْلٌ تَيْسَّرَ » .

* * *

وكان عبد ربه اليشكريّ عاملاً لعيسى بن موسى^(١) على المدائن ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأرّج عليه ، فسكت ثم قال : « والله إني لأكون في بيتي فتجىء على لساني ألف كلمة ، فإذا قلتُ على أعودكم هذه جاء الشيطان فحأها من صدري ، ولقد كنتُ وما في الأيام يوم أحبُّ إلىَّ من يوم الجمعة ، فصرتُ وما في الأيام يوم أبغضُ إلىَّ من يوم الجمعة ، وما ذلك إلا لخطبتكم هذه » .

* * *

وأرّج على معن بن زائدة ، فضرب المنبر برجله ، ثم قال : « فتى حرُوب ، لا فتى منابر » .

* * *

وحدث عيسى بن عمر قال :

خطب أميرٌ مرةً فانقطع فجعل ، فبعث إلى قوم من القبائل عابوا ذلك ولّفهم^(٢) ، وفيهم يرَبُوعِيٌّ جَلْدٌ ، فقال : اخطبوا ، فقام واحد فمرَّ في الخطبة ، حتى إذا بلغ « أما بعدُ » قال : أما بعد ، أما بعد ، ولم يدبر ما يقول ، ثم قال : فإن امرأتي طالقٌ ثلاثاً لم أُرِدْ أَنْ أُجَمِّعَ^(٣) اليوم فمنعتني ، وخطب آخر ، فلما بلغ « أما بعد » بقي ونظر فإذا إنسان ينظر إليه ، فقال : لعنك الله ! ترى ما أنا فيه ، وتلمحني ببصرك أيضاً ! وقال أحدهم : رأيتُ القَرَّاقِرَ^(٤) من السفن تجري بيني وبين الناس ، وصعد اليربوعيّ فخطب فقال : « أما بعد » فوالله ما أدري ما أقول ، ولا فيم أقتموني ، أقول ماذا ؟ »

(١) هو عيسى بن موسى ابن أخى المنصور وكان أمير الكوفة . (٢) لفهم : جمعهم .

(٣) جمع الناس بالتشديد : أى شهدوا الجمعة ، كما يقال : عيدوا : أى شهدوا العيد .

(٤) القراقير : جمع قرقور كصفور : وهى السفينة أو الطويلة أو العظيمة .

فقال بعضهم : قل في الزيت ، فقال : « الزيت مبارك^(١) ، فكلوا منه وادّهنوا » .
قال : فهو قول الشُّطَّار^(٢) اليوم ، إذا قيل لم فعلت ذا ؟ فقل في شأن الزيت ،
وفي حال الزيت .

* * *

وروى الجاحظ أنه قيل لرجل من الوجوه : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما صعد
حصراً وقال : « الحمد لله الذي يرزق هؤلاء » وبقي ساكناً فأنزلوه . وصعد آخر ،
فلما استوى قائماً ، وقابل بوجهه وجوه الناس ، وقعت عينه على صلعة^(٣) رجل فقال :
« اللهم العن هذه الصلعة » .

* * *

وقيل لوزاع اليشكري : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما رأى جمع الناس قال :
« لولا أن امرأتى لعنبا الله حملتني على إتيان الجمعة اليوم ما جمعت ، وأنا أشهدكم
أنها منى طالق ثلاثاً » .

* * *

ودعى أيوب بن القريّة لكلام ، فاحتبس القول عليه ، فقال : « قد طال السمر ،
وسقط القمر ، واشتد المطر ، فماذا يُنتظر ؟ » فأجابه فتى من عبد القيس فقال :
« قد طال الأرق ، وسقط الشفق ، وكثر اللثق^(٤) ، فلينطق من نطق » .

* * *

() يشير إلى الآية الكريمة : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره
كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري
يوقد من شجرة مباركة ، زيتونه لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء
ولو لم تمسسه نار ، نور على نور » .

(٢) الشطار جمع شاطر : وهو من أعيان أهله خبثاً ، والمراد به هنا أهل الدعارة وأصحاب النوادر
والتنكيت والفسكاهات . (٣) الصلعة : موضع الصلع .

(٤) لثق يوماً كفرح : ركبت ربحه وكثر نداءه .

وجاء في أمالي السيد المرتضى :

روى أن بعض خلفاء بني العباس - وأظنه الرشيد - صعد المنبر ليخطب ، فسقطت على وجهه ذبابة ، فطردها ، فرجمت ، فخصر وأرتج عليه ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ ^(١) مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » ثم نزل ، فاستحسن ذلك منه .

• • •

وروى أن رجلا صعد المنبر أيام يزيد بن معاوية ، وكان والياً على قوم فقال لهم : « أيها الناس : إني إن لم أكن فارساً طيباً ^(٢) بهذا القرآن ، فإن معي من أشعار العرب ما أرجو أن يكون خلفاً منه ، وما أساء القائل أخو البراجم حيث قال :

وما عاجلاتُ الطير يُدنين للفتى رشاداً ، ولا من ربّينهم يخيب ^(٣)
وربّ أمورٍ لا تضيرك ضيرةً وللقلب من مخشّاتهن وجيب ^(٤)
ولا خيرَ فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب
وفي الشكّ تفریط وفي الحزم قوةً ويخطى الفتى في حدسه ويصيب ^(٥)

فقال رجل من كلب : إن هذا المنبر لم ينصب للشعر ، بل ليحمد الله تعالى ،

(١) وكانوا يطلون أصنامهم بالطيب والزعفران ويفلقون عليها الأبواب ، فيدخل الذباب من الكوى فيأكله . (٢) ماهراً حاذقاً .

(٣) كانت العرب تتمن بالطير الصانع ، وهو ماولاك ميامنه ، بأن يمر من ميسرك إلى ميامنك ، وتتشام بالبارح ، وهو ماولاك مياسره ، بأن يمر من ميامنك إلى ميسرك ، وذلك لأنه لا يمكنك رميه إلا بأن تتصرف له ، وربما كان أحدهم يبيع الطير ليطير ، فيعتمدها ، وعاجلات الطير هي أن يخرج الإنسان من منزله إذا أراد أن يزجر الطير ، فأمر به أول ما يبصر فهو عاجلات الطير ، وإن أبطأت عنه وانتظرها فقد رانت أي أبطأت ، والأولك عندهم محمود ، والطاق مذموم .

(٤) خشية خشية ومخشاة : خافه ، ووجب القلب وجيباً : خفق واضطرب . (٥) الحدس : الظن والتخمين ، والأبيات لضبان بن الحارث الجرجي (انظر زهر الآداب ٢ : ٨٨) .

وَيُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَلِلْقُرْآنِ ، فَقَالَ : أَمَا لَوْ أَنْشَدْتُمْ
شِعْرَ رَجُلٍ مِنْ كَلْبٍ لَسَرَّكُمْ ، فَكُتِبَ إِلَيَّ يَزِيدُ بِذَلِكَ فَعَزَلَهُ ، وَقَالَ : قَدْ كُنْتُ
أُرَاكَ جَاهِلًا أَحْمَقَ ، وَلَمْ أَحْسَبْ أَنْ الْحَقَّ يَبْلُغُ بِكَ إِلَى هَذَا الْمَبْلَغِ ، فَقَالَ لَهُ : أَحْمَقُ مِنِّي
مَنْ وَلاَنِي !

* * *

وخطب عتّاب بن ورقاء^(١) فحث على الجهاد فقال : هذا كما قال الله تعالى

في كتابه :

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جِرَّ الذُّيُولِ^(٢)

* * *

وخطب يوما فقال : هذا كما قال الله تبارك وتعالى : « إنما يتفاضل الناس بأعمالهم ،
وكل ما هو آتٍ قريبٌ » قالوا له : « إن هذا ليس من كتاب الله » قال : « ما ظننتُ
إلا أنه من كتاب الله » .

* * *

وخطب وكيع بن أبي سود^(٣) بخُرَّاسان فقال : « إن الله خلق السموات
والأرض في ستة أشهر » فقيل له : « إنها ستة أيام » فقال : « وأبيك لقد قُلتها
وإني لأستقلها ! » .

* * *

وصعد المنبر فقال : « إن ربيعة لم تزل غَضَابًا عَلَى اللَّهِ مَذْبُوحًا نَبِيَّهُ مِنْ مُضَرَ ،

(١) انظر الجزء الثاني ص ٤٣٣ و ٤٤٥ . (٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة ، وذلك أن مصعب بن الزبير
بعد أن قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي دعا امرأته - وهي بنت النعمان بن بشير - إلى البراءة من المختار ،
فأبت فقتلها ، فقال في ذلك ابن أبي ربيعة :

إن من أعظم الكبائر عندي قتل جهنم غادة مطبول
قتلت باطلا على غير ذنب إن قد درهما من قتيل
كتب القتل والقِتال علينا وعلى الغانيات جر للذيول

والمطبول كمصفور : المرأة القوية الجميلة الممتلئة الطويلة المتق . (٣) انظر الجزء الثاني ص ٣١٢

ألا وإن ربيعة قومٌ كُشِفَتْ^(١) ، فإذا رأيتموهم فاطعنوا الخيل في مناخرها ، فإن فرسا لم يُطعن في منخره إلا كان أشدَّ على فارسه من عدوه^(٢) .

* * *

وضربت بنو مازن ألتات بن يزيد الجاشعي ، فجاءت جماعة منهم ، فيهم غالب أبو الفرزدق فقال : « يا قوم كونوا كما قال الله : لا يعجز القوم إذا تعاونوا » .

* * *

وخطب عدى بن زياد الإيادي ، فقال : « أقول لكم كما قال العبد الصالح لقومه : « مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ^(٣) » ، قالوا له : « ليس هذا من قول عبد صالح ، إنما هو من قول فرعون » ، قال : من قاله فقد أحسن » .

* * *

وروى الطبري أن عبد الله بن الزبير كان ولَّى أخاه عبيدة على المدينة ، ثم نزعها عنها ، وكان سبب عزله إياه أنه خطب الناس ، فقال لهم : قد رأيتم ما صنَع^(٤) بقوم في ناقة قيمتها خمسمائة درهم ، فسمى مقوم الناقة ، وبلغ ذلك ابن الزبير فقال : إن هذا هو التكلف .

وروى الجاحظ وابن عبد ربه هذا الخبر فقالا : خطب والى اليمامة^(٥) ، فقال : « إن الله لا يُقَارُّ^(٦) عباده على المعاصي ، وقد أهلك الله أمة عظيمة في ناقة ما كانت تساوي مائتي درهم » ، فسمى مقوم ناقة الله .

* * *

(١) كشف جمع أكشف : وهو من يهزم في الحرب ، ومن لا ترس معه في الحرب ، ومن لا بيضة على رأسه . (٢) وروى الطبري أن عبد الله بن خازم قال ذلك القول لأصحابه بخراسان ، قال لهم : « إذا لقيتم الخيل فاطعنوها في مناخرها ، فإنه إن يطعن فرس في نخوته إلا أدبر أورى بصاحبه » . (الطبري ٤٦ : ٧) . (٣) الآية الكريمة : « قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى » .

(٤) يشير إلى عمود قوم صالح عليه السلام — انظر هامش الجزء الثاني ص ٣٥٢ .

(٥) لعلها المدينة . (٦) أى لا يقهرهم .

وخطب فَبَيْصَةَ ، وهو خليفة أبيه^(١) على خراسان ، وأتاه كتابه ، فقال :
« هذا كتاب الأمير ، وهو والله أهلٌ لأن أطيعه ، وهو أبى وأكبر منى . »

* * *

ودعى مُصَعب بن حَيَّان ليخطب في نكاح خُصير فقال : « لَتَمُنُوا موتاكم
شهادة أن لا إله إلا الله ، فقالت أم الجارية ، عَجَل الله موتك ، ألهذا دعوناك ؟ » .

* * *

وخطب أمير المؤمنين الموالى - وهكذا لَقَبَهُ - خطبة نكاح خُصير ، فقال :
« اللهم إنا نحمدك ونستعينك ولا نُشرك بك » .

* * *

وخطب قُتَيْبَةَ بن مُسَلِّم على منبر خُراسان ، فسقط القضيب من يده ، فتفأل له
عدوه بالشرِّ ، واغتمَّ صديقه ، فعرف ذلك قتيبة ، فأخذه وقال : « ليس الأمر على ما ظن
العدو ، وخاف الصديق^(٢) ، ولكنه كما قال الشاعر :

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرِ^(٣)

* * *

وتكلم صَعَصَعَةَ عند معاوية فَعَرِقَ ، فقال معاوية : بهرِّك^(٤) القول ! فقال
صعصعة : إن الجياد نَضَّاحَةٌ بالماء .

* * *

وشخص يزيد بن عمر بن هُبَيْرَةَ إلى هِشَام بن عبد الملك ، فتكلم فقال هشام :
هامات من خلف مثل هذا ! فقال الأبرش الكلبي : ليس هناك ، أما تراه يرشِّح
جبينه لضيق صدره ! قال يزيد : ما لذلك رَشَّحَ ، ولكن لجلوسك في هذا الموضع .

* * *

(١) هو المهلب بن أبي صفرة ، وكان والياً على خراسان - انظر الجزء الثاني ص ٢٨٥ .

(٢) وفي رواية : وكأساء للصديق ، وسر العدو . (٣) النوى : الغربة البعيدة .

(٤) أى غلبك .

وقال عبيد الله بن زياد : « نِعِمَ الشَّيْءُ الْإِمَارَةُ ، لَوْلَا قَعَقَعَةُ الْبَرِيدِ ، وَالتَّشْرِيفُ
لِلخُطْبِ » .

* * *

وقيل لعبد الملك بن مروان : عَجَلِ عَلَيْكَ الْمَشِيبُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ : كَيْفَ
لَا يَعْجَلُ عَلَيَّ ، وَأَنَا أَعْرَضُ عَقْلِي عَلَى النَّاسِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ؟ «
» أَوْ قَالَ : شَيْبِنِي صَعُودَ الْمَنَابِرِ وَالخَوْفَ مِنَ اللِّحْنِ » .

(العقد الفريد ٢ : ١٦٢ - ١٦٣ و ٣ : ٢٥٦ ، وعبود الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ و ٢٥٦ و
٢٥٩ ، و أمالي السيد المرتضى ٤ : ١٩ - ٢٢ ، والأغانى ١٣ : ٤٧ ، ١٧ : ١١١ ، وتاريخ الطبري
ج ٧ : ص ٩٠ ، ج ٨ : ١٨٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٧٤ ، ١٦٣ ، ١٨٦ - ٢ : ١٢٢ ، ١٢٦ ،
١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، والأمالى ١ : ١١١ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٧ ، وشرح العميون
ص ١٢٥ ، ٢٠٥ ، والصناعتين ص ٢١) .

بدء الخطب وختامها

قال ابن قُتَيْبَةَ في عيون الأخبار :

تبعث خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدت أوائل أكثرها :
« الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ونتوب إليه ،
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ،
ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » ، ووجدت
في بعضها : « أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحسبكم على طاعته » ، ووجدت
كل خطبة مفتاحها الحمد ، إلا خطبة العيد ، فإن مفتاحها التكبير .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٢١)

وروى ابن عبد ربه في العقد قال :

« وكان آخر كلام أبي بكر الذي إذا تكلم به عرف أنه قد فرغ من خطبته :
اللهم اجعل خير زماني آخره ، وخير عملي خواتمه ، وخير أيامي يوم ألقاك » .
وكان آخر كلام عمر الذي إذا تكلم به عرف أنه فرغ من خطبته : « اللهم
لا تدعني في غمرة ، ولا تأخذني على غرّة ، ولا تجعلني من الغافلين » .
وكان عبد الملك بن مروان يقول في آخر خطبته : « اللهم إن ذنوبي قد عظمت
وجلّت أن تُحصَى ، وهي صغيرة في جنب عفوك فاعف عني » .

(العقد الفريد ٢ : ١٢٢ ، ١٤٢)

تم بحمد الله

فهرس ذيل الجهره

الباب الأول

في خطب الأندلسيين والمغاربة

رقم الصفحة	الخطبة أو الوصية
١٦٢	خطبة عبد الرحمن الداخل يوم حربه مع يوسف الفهرى
١٦٣	عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده قنسرين
١٦٤	عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده يهنته بفتح سرقسطة
١٦٤	تأديب عبد الرحمن الأوسط لابنه المنذر
١٦٦	عبد الرحمن الأوسط وابنه المنذر أيضاً
١٦٧	يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط وأحد خدامه
١٦٨	وفاء الوزير بن غانم لصديقه الوزير هاشم بن عبد العزيز
١٦٩	خطبة منذر بن سعيد البلوطى فى الاحتفال بقدم رسل ملك الروم
١٧٣	خطبة أخرى له
١٧٣	أحد حساد الرمادى الشاعر والمنصور بن أبى عامر
١٧٧	ابن اللبانة الشاعر وعز الدولة بن المعتصم بن صمادح
١٧٨	دفاع ابن الفخار عن القاضى الوحيدى محضرة ابن ناشفين
١٧٩	موعظة ابن أبى رندقة الطرطوشى للأفضل بن أمير الجيوش
١٨٠	خطبة ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين
١٨٣	مقال لسان الدين ابن الخطيب فى الحضر على الجهاد
١٨٤	ماخاطب به لسان الدين تربة السلطان الكبير أبى الحسن المرينى
١٨٧	وصية لسان الدين لأولاده
٢٠١	خطبة وعظية له
٢٠٨	وصية موسى بن سعيد العنسى لابنه
٢١٧	خطبة ابن الزيات المنزوعة الألف
٢١٩	القاضى عياض التى ضمنها سور القرآن

رقم الصفحة	المخطبة أو الرصية
٢٢٢	خطبة سعيد بن أحمد المقرئ التي ضمنها سور القرآن
٢٢٤	الكفعمي التي ضمنها سور القرآن أيضاً

الباب الثاني

في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها

٢٢٦	خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة
٢٣٠	وصية أعمى من الأزد لشاب يقوده
٢٣١	» رجل لآخر وقد أراد سفراً
٢٣١	» » لابنه وقد أراد التزوج
٢٣٢	» بعض العلماء لابنه
٢٣٢	» لبعض الحكماء
٢٣٢	» أخرى
٢٣٣	» »
٢٣٣	عظة لبعض الحكماء
٢٣٤	» نصيحة »
٢٣٤	كلمات شتى لبعض الحكماء
٢٣٥	رجل من العرب والحجاج
٢٣٦	أحمد الوافدين على عمر بن عبد العزيز
٢٣٦	كاتب وأمير
٢٣٧	وصف الهلباجة
٢٣٨	بعض البلغاء يصف رجلاً
٢٣٩	خمسة جوار من العرب يصفن خيل آبائهن
٢٤١	رجل من العرب يصف مطراً

الباب الثالث

في نثر الأعراب

٢٤٤	قولهم في الوعظ والتوصية
٢٤٢	مقام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة
خطبة أعرابي بين يدي هشام بن عبد الملك	٢٦٠
مقام أعرابي بين يدي هشام	٢٦٠
أعرابي يستجدي عبيد الله بن زياد	٢٦١
أعرابية تستجدي عبد الله بن أبي بكر	٢٦٢
أعرابي يستجدي خالد بن عبد الله القسري	٢٦٣
» » معمر بن زائدة	٢٦٣
خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام	٢٦٤
» » » » الجامع بالبصرة	٢٦٥
صورة أخرى	٢٦٥
» »	٢٦٦
أعرابي يستجدي	٢٦٦
» »	٢٦٦
» »	٢٦٧
» »	٢٦٧
أعرابية تستجدي	٢٦٨
أعرابي يستجدي	٢٦٨
» »	٢٦٨
» »	٢٦٩
» »	٢٦٩
أعرابية تستجدي	٢٧٠
أعرابي يستجدي	٢٧٠
» »	٢٧١
» »	٢٧١
» »	٢٧١
» »	٢٧١
» »	٢٧١
» »	٢٧٢
» »	٢٧٢

- ٢٧٢ أعرابي يسأل رجلا حاجة له
٢٧٣ قولهم في بكاء الموتي
٢٧٣ أعرابية تبكي ابنها
٢٧٤ حديث امرأة سكنت البادية قريبا من قبور أهلها
١٧٥ حديث امرأة مات ابنها بين يديها
٢٧٦ قولهم في الشكوى
٢٧٦ أعرابي يشكو حائه
٢٧٧ كلمات شتى في الشكوى
٢٨٢ قولهم في العتاب والاعتذار
٢٨٣ قولهم في المدح
٢٩٢ قولهم في الذم
٢٩٩ قولهم في الغزل
٣٠٤ قولهم في الوصف
٣٠٤ أعرابي يصف مطرا
» » » ٣٠٥
» » » ٣٠٦
٣٠٧ ثلاثة غلطة من الأعراب يصفون مطرا
٣٠٩ أعرابي يصف مطرا
» » » ٣١٠
» » » ٣١١
» » » ٣١٢
» » » ٣١٢
» » » ٣١٣
٣١٤ أعرابية تصف مطرا
» » » ٣١٤
٣١٥ » » أرضا

رقم الصفحة	الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	الخطبة أو الوصية
٣٢٤	قولهم في الدعاء	٣١٦	رائد يصف أرضاً جدبة
٣٢٤	دعاء أعرابي	٣١٦	» » »
٣٢٦	» »	٣١٧	» » »
٣٢٦	» »	٣١٧	أعرابي يصف أرضه ووالده
٣٢٧	» »	٣١٨	» » بلدا
٣٢٨	» »	٣١٩	» » أشد للبرد
٣٢٨	» »	٣١٩	» » لبلا
٣٢٩	» »	٣١٩	» » ناقة
٣٢٩	» »	٣٢٠	» » خيلا
٣٢٩	» »	٣٢٠	» » »
٣٢٩	» »	٣٢٠	» » »
٣٣٠	» »	٣٢٠	» » فرساً
٣٣٠	» »	٣٢١	» » خاتماً
٣٣٠	» »	٣٢١	» » أطيب الطعام
٣٣٠	» »	٣٢١	» » السويق
٣٣٢	» »	٣٢٢	» » الجمال
٣٣٢	» »	٣٢٢	أبو الخش يصف ابنته
٣٣٢	» »	٣٢٢	أعرابي يصف بنيه
٣٣٣	أدعية شتى	٣٢٣	أعرابي يصف أخويه
٣٣٧	نوادير وملح لبعض الأعراب		

الباب الرابع

في خطب النكاح

٣٤٤	خطبة قريش في الجاهلية	٣٤٤	» النبي صلى الله عليه وسلم في زواج السيدة فاطمة
٣٤٥	» الإمام علي كرم الله وجهه	٣٤٥	» الإمام علي كرم الله وجهه
٣٤٥	» عتبة بن أبي سفیان	٣٤٥	» عتبة بن أبي سفیان

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة

خطبة شبيب بن شيبه	٣٤٦
الحسن البصرى	» ٣٤٦
ابن الفقير	» ٣٤٦
عمر بن عبد العزيز	» ٣٤٧
أخرى له	» ٣٤٧
بلال	» ٣٤٧
خالد بن صفوان	» ٣٤٨
أعرابي	» ٣٤٨
المأمون	» ٣٤٨

الباب الخامس

٣٥٠ في خطب من أرتج عليهم ونوادير طريفة لبعض الخطباء

٣٦١ بدء الخطب وختامها

تم الكتاب بحسن توفيقه وعونه تعالى

وسيتبعه إن شاء الله كتاب

جمهرة رسائل العرب

في عصور العربية الزاهرة